

طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسين الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

البرهان في ترتيب سور القرآن

للفقيه أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي

(627 - 708 هـ / 1230 - 1308 م)

دراسة وتحقيق
الأستاذ محمد شعباني

1410 هـ - 1990 م

طُبِعَ بِأَمْرِ مَنْ صَاحَبَ الْجَلِيلَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَسَنِ الثَّانِي نَصْرَهُ اللَّهُ

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

البرهاني

في ترتيب سور القرآن

للفقيه أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي

(627-708 هـ / 1230-1308 م)

دراسة وتحقيق
الأستاذ محمد شعباني

1410 هـ - 1990 م

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين، والسلام والصلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

تقديم

وبعد، فإنه لم ينل كتاب من الكتب عبر أجيال هذه الأمة الاسلامية من دقيق العناية وكبير الاهتمام، وبالغ التقديس والاحترام ما ناله القرآن الكريم حفظاً وقراءة، تعليماً ودراسة، تبيناً وتفسيراً.

وإذا كان جيل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين قد بادر بتلقي القرآن المبين فحفظوه لنا حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة، وآية آية، وسورة سورة، منذ بداية نزوله على خاتم الأنبياء والمرسلين، وإلى حين جمعه في المصحف في عهدي أبي بكر وعثمان، رضي الله عنهما، تحقيقاً لوعده الله تعالى : «إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون»، فإن ما تعاقب من أجيال هذه الأمة قد تابع مسيرتهم ونهجهم في حفظ كتاب الله وتعليمه، ومدارسته وتفسيره، مما أثمر لنا مكتبة قرآنية تنوعت علومها وفنونها، وتشعبت جوانبها وفروعها، وأصبحت تعز عن الحصر، وتجل عن الوصف، وبقي القرآن بفضل ذلك خالداً خلود الاسلام، يتحدى بإعجازه مختلف الأزمان والأعصار، ويظل مقروءاً على تعاقب الأجيال، تتوارد عليه جيلاً بعد جيل، ويبقى أبداً ثري المورد، سخي العطاء، كلما حسب جيل أنه بلغ منه الغاية امتد أمامه الافق بعيداً عالياً، يفوق طاقة الدارسين والمفسرين.

وقد تبلورت في هذا المجال دراسات وأبحاث، وألفت كتب ومجلدات، ودارت حول إعجازه مذاكرات ومناقشات، ومحاورات ومساجلات، وحسبك من ذلك، الكتب الشهيرة عبر تلك الأجيال، مثل كتاب نظم القرآن للسجستاني، وإعجاز القرآن لأبي عبد الله الواسطي، وبيان إعجاز القرآن للخطابي، وإعجاز القرآن للباقلاني، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، ونهاية الإيجاز في دراية

الإعجاز للإمام فخر الدين الرازي، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، والإتقان في علوم القرآن، ومعتك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي، وإعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعي، وغيرها من المؤلفات القيمة في هذا المجال.

ويأتي كتاب : «البرهان في ترتيب سور القرآن» لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي، من علماء القرن السابع الهجري في صدارة تلك المؤلفات ومقدمتها، بل يعتبر أول كتاب فريد في بابهِ، كشف فيه مؤلفه عن نوع من إعجاز القرآن، القائم على ترابط أجزائه وتلاحم آياته وتناسق سورهِ.

وبالنظر إلى نزوله منجماً ومفرقاً حسب الوقائع والأحداث، والدواعي والأسباب المتجددة على نيف وعشرين سنة، وإلى ترتيبه في القراءة والمصحف لا على حسب النزول، ولا على حسب المعهود في تأليف الكتب، وإنما على حساب نظام غير مألوف، وأسلوب ونهج جديد غير معروف، بالنظر إلى ذلك كله، وإلى أحوال صاحب هذه الرسالة الإسلامية عليه الصلاة والسلام، من كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب، يتبين لكل عاقل منصف أن القرآن الكريم بخصائصه المتميزة يستحيل صدوره من أي بشر مهما بلغ من العلم والعبقريّة والنبوغ، فضلاً عن أن يصدر عمن لا يقرأ ولا يكتب، وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه الحكيم : «قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن ياتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً».

وهذا الكتاب في دراسته وتحقيقه أعده الأستاذ محمد الشعباني وقدمه رسالة جامعية نال بها دبلوم الدراسات الإسلامية العليا من دار الحديث الحسنية، تلك المؤسسة الخالدة التي أسسها أمير المؤمنين جلاله الحسن الثاني على تقوى من الله ورضوان لتكون منهلاً للعلوم الإسلامية، ومركزاً لإشعاعها الديني والحضاري داخل المغرب وخارجه، فأخذت تعطي باستمرار نتائجها الحسنة وتوثق ثمارها الطيبة في تخرج العلماء، وإسهامهم بالبحوث والدراسات القيمة في النهضة العلمية والحضارية التي يشهدها العهد الحسني الزاهر الميمون. والكتاب من خلال الإشارة

الى موضوعه ومحتواه، تبدو أهميته العلمية ومكانته بين مكتبة الدراسات القرآنية والمؤلفات فيها.

وإن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية التي دأبت على العناية بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وفي إطار رسالتها الدينية والحضارية التي تضطلع بها في مجال إحياء التراث الإسلامي ودعم الثقافة الإسلامية وطبع مؤلفاتها المخطوطة القيمة، وغيرها من الدراسات الإسلامية الجادة، تواصل سعيها في هذا المضمار، وتتابع مسيرتها بخطى حثيثة وعزيمة ثابتة، تهدف الى خدمة العلم والدين، ونفع الاسلام والمسلمين.

وتتوجه إلى الله العلي القدير أن يجعل طبع هذا الكتاب في صحيفة مولانا أمير المؤمنين، وحسنة من حسناته الخالدة، وأن يبارك في عمره وحياته، ويبقيه ذخراً وملاذاً للبلاد والعباد، ويقر عينه بولي عهده المحبوب سمو الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه المجيد سمو الأمير مولاي رشيد، وأن يحفظه في كافة أفراد أسرته الملكية الشريفة، إنه سميع مجيب.

وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية
الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى من كانا سبباً في وجودي : أبي وأمي،
وإلى من عمل وساهم في تربيتي وتعليمي :
معلمي وأساتذتي وشيوخه

أقدم باكورة عملي

مقدمة

الحمد لله الذي جعل القرآن آية باهرة، وحجة ظاهرة، تتحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، والصلاة والسلام على سيدنا محمد مبلغ الرسالة الأمين، والمبعوث رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً.

وبعد :

فإن القرآن الكريم كان ولا يزال عبر تاريخ هذه الأمة كتابها الخالد ودستورها الفريد، منه تستمد أخلاقها وتشريعها، وفيه تجد طمأنينتها وملاذها، وبفضله ازدهرت علومها ومعارفها، فتكونت علوم اللغة العربية بكافة فروعها، وقامت على أساسه علوم القرآن بكل فنونها، ونما في أحضانه علم الأصول والفقه وغيرها.

إن عظمة القرآن وخلوده، تتجلى أساساً في بيانه المعجز وإعجازه البين، وإن جمعه بين البيان والإعجاز لأعظم حجة على خلوده واستعصائه على الجاحدين والمنكرين، ذلك أن الله عز وجل اقتضت حكمته أن يكون هذا الكتاب المنزل على سيدنا محمد حجة على قومه وعلى سائر الأقسام من بعده إلى يوم الدين، ولذلك فإن ما اشتمل عليه من الإعجاز، ليقوم حجة قاطعة، ومعجزة ساطعة على بني الانسان، وكلما تقدم الانسان في العلم المادي وتعمق في البحث العلمي، الا وانكشف له من وجوده اعجازه ما يخرس الممترين، ومن ساطع براهينه ما يثمر الطمأنينة ويرد اليقين.

ولئن قامت على أساس إعجاز القرآن دراسات من السابقين واللاحقين، فإن مما تداركه ابن الزبير الغرناطي المتوفى سنة 708 هـ على سابقه، هو دراسة العلاقة بين سور القرآن الكريم التي تتفاوت طولاً وقصراً، في كتابه : «البرهان في ترتيب سور القرآن»، علماً بأن بعض قصيرها نزل قبل طويلها، وأن بعض ما نزل منها

أولاً وضع في الترتيب آخرًا، مما جعل ابن الزبير ومن أتى بعده وحذا حذوه يتساءل عن كيفية ترتيب القرآن الكريم هل كان بتوقيف من الشارع تحقيقاً لقوله تعالى : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» أم أنه كان عملاً من أعمال الصحابة ليس إلا ؟

وإذا كانت المكتبة القرآنية تعز على الحصر، فإننا لم نجد كتاباً يجلي هذه القضية الهامة قبل ابن الزبير إلا في نثرات هنا وهناك ضمن تفاسير القرآن والدراسات القرآنية، حيث نجده وقد فتح هذا الباب بفن مستقل، وتأليف قائم بذاته يجلي فيه العلاقة بين سور القرآن الكريم جميعها، ولجه من بعده آخرون كثيرون، بل قل ما تجد من درس التفسير وعانى في تفسير القرآن الكريم بعد هذا الإمام إلا واقتبس منه أو حاول أن يسلك مسلكه...

ولا تخفى أهمية هذه الدراسة التي تأتي بنوع جديد من الإعجاز القرآني وتبين مدى ما في ترتيب سور القرآن من ترابط وتناسب، ذلك أن القرآن الكريم الذي يراه الغر المبتدئ مقسماً إلى سور، يظن لأول وهلة أنه لا رابط بينها ولا انسجام، وهذا ما ينفيه هذا الإمام العظيم في كتابه هذا، وسيؤكد القارئ للقرآن الكريم من خلال هذا البحث أنه مترابط السور، محكم الآيات، وكلما تعمق القارئ أو الدارس في تأمله ودراسته، ازدادت هذه الحقيقة رسوخاً عنده حتى يصل في النهاية إلى ما وصل إليه الكثير ممن انقطعوا للقرآن ودراسته، من أن القرآن كله كالكلمة الواحدة التي لا تدل على كمال المعنى إلا بتأليف حروفها.

وإذا كان تحقيق هذا المخطوط، يعد عملاً تبرز من خلاله قيمة علمائنا الأعلام، ونفائس مخطوطاتهم التي ما تزال في طي الجاهل، فإن تراث هذه الأمة العظيمة، ما يزال في معظمه مغموراً في بطون المخطوطات التي تزخر بعطاء علمائنا الافذاذ، وإنتاجاتهم القيمة، وأعمالهم الجليلة.

وإنه ليسعدني أن أساهم بجهدني المتواضع في القيام بدراسة وتحقيق كتاب «البرهان» استشعاراً مني بضرورة إحياء روح هذه الأمة لمعاودة نهضتها، واستئناف

دورها الحضاري المتمثل في الشهادة على الانسانية، وإنقاذ البشرية من شقوتها الجاهلية.

هذا، ولقد وجدت نفسي بعد اختياري لهذا الموضوع أمام محورين اثنين يشكلان أساس هذه الدراسة ومدخلها الرئيسي.

الموضوع الأول يتعلق بدراسة جمع القرآن وترتيبه، والتناسب المراعي في ذلك، والموضوع الثاني يتعلق بدراسة شخصية ابن الزبير والوضع السياسي والعلمي في عصره.

فبالنسبة للموضوع الأول : قمت بدراسة سلطت فيها الضوء على مراحل جمع القرآن وتدوينه في عهد نزوله وحرص الصحابة على جمعه وحفظه، ودواعي هذا الجمع في عهد الخليفين أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما، وإجماع الصحابة بعد ذلك على الجمع العثماني وإقرار عثمان على عمله بإنفاذ نسخ من المصحف للإمام إلى مختلف الأقطار الإسلامية وتحريق ما عداه من المصاحف الفردية.

ثم انتقلت بعد ذلك إلى موضوع ترتيب الآيات مبرزاً النصوص الوفيرة الدالة على توقيفية ترتيبها، وأعقبها بالحديث عن ترتيب السور، فأوردت آراء العلماء في ذلك، حيث رجحت ما ذهب إليه جملة من العلماء من أن ترتيب السور توقيفي كترتيب الآيات سواء بسواء، مستعرضاً الحجج والبراهين المعتمدة في ذلك.

ثم تعرضت إلى ترتيب القرآن حسب نزوله، وبينت مدى ما في ترتيب القرآن كما هو في المصحف من إعجاز، وكان الأولى أن يرتب إما بحسب تجانس الموضوعات، وإما بحسب ترتيب نزوله الأول فالأول، إلا أن كل ذلك لم يقع، ووقع الإجماع ممن شاهدوا نزول الوحي على الترتيب المعهود، مما يدل على وجود أحكامه بهذا الوضع في وقت سابق لنزول القرآن على قلب سيدنا محمد ﷺ.

ثم فندت دعوى القائلين بإعادة ترتيب القرآن على حسب نزوله، وما يمكن أن تنيره هذه الدعوى من شكوك حول سلامة النص القرآني إذا ما سلمنا بفتح

باب إعادة ترتيب القرآن، دون أن أغفل موقف بعض المستشرقين من اختلاف بعض المصاحف الفردية التي كانت لدى الصحابة، واستثمار ذلك لخدمة أغراضهم بالتشكيك في المصدر الرباني للقرآن الكريم، وتنزيله منزلة الكتب البشرية التي تخضع للتبديل والتغيير والزيادة والنقصان، مجانبين في ذلك — غالباً — الموضوعية في البحث والدقة في النقل، يدفع الكثيرون منهم ركام من الخلفيات الفكرية للصراع الحضاري بين المسيحية والإسلام.

أما بالنسبة للموضوع الثاني وهو ما يتعلق بشخصية ابن الزبير وعصره، فقد قمت بدراسة عنه، تناولت مختلف الجوانب التي اكتنفت حياته وعصره، فبدأت بترجمته مستقرأً كل من ترجم له حيث استخرجت من تلك التراجم — التي تكررت في كثير من الأحيان، واختلفت في أحيان أخرى — اسمه ونسبه، ومولده ونشأته، ومكانته العلمية، مبرزاً مساهماته وعطاءاته العلمية في مختلف العلوم والفنون التي كانت سائدة في عصره، كعلوم القرآن والتفسير وعلوم الحديث والرواية، وعلم العربية والنحو وعلم الأصول والفقه... الخ.

ثم بعد ذلك تتبعت في كتب التاريخ والتراجم شيوخ ابن الزبير الذين تتلمذ عليهم في مختلف الفنون فأحصيت منهم أربعة وتسعين شيخاً ممن تلقى عنهم قراءة أو مكاتبة، مما يعكس حبه في طلب العلم وولوعه بالرحلة الى العلماء.

كما تتبعت أيضاً تلامذته الذين كانوا يقصدونه من مختلف الأمصار للرواية وطلب العلم، فأحصيت عدداً منهم، كان من بينهم القضاة، والكتاب، واللغويون، والمفسرون وغيرهم.

ثم تعرضت إثر ذلك الى مؤلفاته المتنوعة والتي برزت من خلالها شخصيته العلمية التي تفاعلت مع بيئته والظروف المحيطة به أخذاً وعطاء.

ثم انتقلت للحديث عن عصره فسلطت الأضواء على نهاية عصر الموحدين، وسقوط المدن والقواعد الكبرى في يد النصاري، وظهور زعامة ابن هود، ثم ابن الأحمر الذي حاول لئم الشمل وصد هجمات الصليبيين على الثغور

والحصون المتبقية في يد المسلمين الذين عصفت بهم رياح التفرقة، ومزقتهم مطامع الزعامة.

في ذلك الوضع المتأزم سياسياً واجتماعياً، قمت برصد الحياة العلمية، في عصر ابن الزبير، حيث اشتهرت عدد من البيوتات والأسر في الأندلس بتعلم العلم ونشره وتوريثه، ومنها أسرة ابن الزبير، وأسرة بني منظور القيسي المالقي، وأسرة عبد الرحمن اللخمي، وغيرها من الأسر التي كانت نجوماً في سماء العلم والمعرفة.

ثم تتبعت مراكز الإشعاع العلمي في هذا العصر والمبثوثة في مختلف حواضر الأندلس التي كان يتحلق فيها طلاب العلم حول الشيوخ في مساجدها الكبرى، مثل جيان والجزيرة الخضراء، ومرسية وزندة، ووادي آشي، وغرناطة، وقرطبة، ومالقة، وغيرها من المراكز التي كانت — ويا حسرتاه — محط رحال كثير من طلاب العلم الذين كانوا يقدون عليها من مختلف مدن الأندلس بل وحتى من المغرب والمشرق.

كل هذا ساهم وبشكل رئيسي في استمرار جذوة العلم مشتعلة، وساهم في حفظ ما تبقى للأندلس من روح ووجود رغم ما كانت تُفجأ به من أعاصير الحقد الصليبي، والتناحر الطائفي اللذان كانا يعصفان باستقرارها وتماسك أطرافها.

كما تتبعت في هذا السياق أيضاً حركة التأليف في هذا العصر التي تأثرت إلى حد ما بالوضع السياسي وانحسار الوجود الإسلامي، وذلك حتى ترسم الصورة واضحة لمختلف العوامل التي عاصرها ابن الزبير وأثرت فيه، فجاءت شخصيته انعكاساً لما تميز به عصره من علوم لغوية وشرعية، وليس الإنسان — كما يقال — إلا ابن بيئته وعصره.

وبعد أن فرغت من دراسة الموضوعين المذكورين، أُلقيت أضواء على المخطوط، فقمت بتحقيق عنوان الكتاب ونسبته إلى صاحبه، وعرفت بنسخ المخطوطة التي اعتمدتها في التحقيق مبرزاً قيمة كل نسخة على حدة، ثم أوضحت منهج التحقيق الذي سرت عليه في تقديم النص على الوجه المطلوب، دون أن

أغفل بيان الإشارات والرموز التي اعتمدتها في التحقيق، ثم خلصت أخيراً إلى تحقيق نص الكتاب.

وقد كان لعدد من أساتذتي فضل كبير علي في تشجيعي ومساعدتي من أجل إنجاز هذا العمل اذكر من بينهم أستاذي الجليل الدكتور عبد السلام الهراس، وأستاذي العلامة محمد المنوني ومدير دار الحديث الحسنية الدكتور محمد فاروق النبهان وغيرهم ممن مدوا لي يد المساعدة دون جزاء أو شكور محتسبين عملهم لوجه الله تعالى.

فإلى هؤلاء وإلى كل الاخوة والأصدقاء الذين ساعدوني وإلى إدارة دار الحديث الحسنية، وقيمي الخزانة الملكية والخزانة العامة بالرباط، أتقدم بخالص الثناء والتقدير. سائلاً الله تعالى الصدق في القول والاخلاص في العمل.

«ربنا لا تواخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا، واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين».

محمد شعباني

الرباط في يوم الجمعة

26 رجب 1410 هـ / 22 فبراير 1990

تصميم البحث

القسم الأول

المبحث الأول : جمع القرآن وتدوينه

المبحث الثاني : ترتيب سور القرآن

المبحث الثالث : التناسب وجه من وجوه الإعجاز

* * *

القسم الثاني

عصر ابن الزبير وترجمته ومؤلفاته

المبحث الأول : عصر ابن الزبير

— الحالة السياسية

الحياة العلمية

المبحث الثاني : ترجمة ابن الزبير ومؤلفاته

المبحث الثالث : كتاب «البرهان في ترتيب سور القرآن»

القسم الأول

المبحث الأول : جمع القرآن وتدوينه

المبحث الثاني : ترتيب سور القرآن

المبحث الثالث : التناسب وجه من وجوه الإعجاز

المبحث الأول
جمع القرآن و تدوينه

جمع القرآن وتدوينه

إن القرآن الكريم الذي يتداوله المسلمون اليوم بين دفتي المصحف⁽¹⁾ ويتكون من 114 سورة، تبتدىء بسورة الفاتحة وتنتهي بسورة الناس، وتتفاوت سوره في الطول والقصر، وتتدرج سوره في ترتيبها بوجه عام حسب طولها، تتقدمها السور الطويلة ثم المتوسطة ثم القصيرة.

إن هذا القرآن لم يكن على هذا الترتيب في حياة الرسول ﷺ، فقد قبض عليه السلام ولم يكن القرآن جمع في شيء كما قال الخطابي : «إنما لم يجمع ﷺ القرآن في المصحف، لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته». (2).

لقد كان نزول القرآن مفزاً منجماً على مدى حوالي عشرين سنة⁽³⁾ بحسب الأسباب⁽⁴⁾، المقتضية لذلك، ومع ذلك فقد أمكن جمع هذا المصحف وتصنيفه في سلسلة ذهبية مترابطة الحلقات متآخية الفقرات، منسجمة العبارات متناسقة المعاني والإشارات، لا تنبو كلمة عن كلمة، ولا تنفر آية من آية، بل جاء كله — رغم تباعد الزمن — في غاية الفصاحة والبلاغة وروعة الاحكام والانسجام، ودقة التناسب والاتحام.

لقد كان الرسول ﷺ يتلو كل جزء ينزل عليه ويعلمه للسامعين ليصل عن طريقهم إلى من لم يسمعه من فم الرسول مباشرة، وكان الناس جميعاً ينتظرون

(1) قال السيوطي : «أخرج ابن أبي أشنة في كتاب المصاحف عن ابن بريدة قال : أول من جمع القرآن في مصحف سالم مولى أبي حذيفة أقسم لا يرتدي برداء حتى يجمعه فجمعه ثم ائتمروا ما يسمونه ؟ فقال بعضهم سموه السفر، قال : ذلك اسم تسمية اليهود فكرهوه، فقال رأيت مثله في الحبشة يسمى المصحف فاجتمع رأيهم على أن يسموه المصحف. الاتفاق : 1—166.

(2) الاتفاق : 1 / 124.

(3) أخرج النسائي عن ابن عباس قال : «نزل القرآن في رمضان ليلة القدر، فكان في السماء الدنيا، فكان إذا أراد الله أن يحدث شيئاً نزل فكان بين أوله وآخره عشرون سنة». انظر فضائل القرآن للنسائي تحقيق د. فاروق حمادة ص : 59 ط، 1 دار الثقافة.

(4) سبب النزول هو الحادث الذي نزلت الآيات القرآنية متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أو موضحة لأمره.

الوحي بشغف، ويتمنون أن يتلقوه فور نزوله، كما أن أعداء الرسول أنفسهم الذين لم يكونوا يهملون شأن القرآن، كانوا يحرصون على سماعه إما للبحث في نقط ضعف فيه تعينهم على مغالبتة أو مهاجمته، وإما لإشباع حاجتهم الملحة في التدوق الأدبي.(5)

أما بالنسبة للصحابة، فقد كان اهتمامهم بالقرآن يفوق كل شيء، فهو بالنسبة إليهم غذاء الروح وقاعدة السلوك ومادة العبادة، وأداة الدعوة إلى الإسلام وقانونهم الجوهري ودستورهم في كل شؤون الحياة، ولذلك لم يقتصروا على اعتبار النص المنزل قرآناً يتلى ويقرأ، بل تجاوزوا ذلك إلى حفظه في الصدور، وكتابته بالمداد. ولهذا كان الرسول ﷺ كلما جاءه الوحي وتلاه على الحاضرين أملاه من فوره على كتبة الوحي ليدونوه على أي شيء كان في متناول أيديهم، وكانوا على ما اعتاده العرب يكتبونه في اللخاف، والعسب، والاكتاف، والرقاع، والاقتاب وقطع الأديم(6).

كتاب الوحي :

لقد كان لرسول الله ﷺ كتاب يكتبون له، فمنهم من يكتب بشكل عام ومنهم من كان يكتب له بشكل خاص، ويذكر العلماء الثقة أن عدد كتاب الوحي بلغ تسعة وعشرين كاتباً(7)، أشهرهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وعبد الله بن سعيد بن أبي سرح، وهؤلاء من كتبة الوحي المكّي، وقد زاد عليهم من انضم إليهم من الأنصار وهم : أبي بن كعب وهو أول من كتب له عليه الصلاة

(5) مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليل مقارن لعبد الله دراز ص : 34.

(6) اللخاف جمع لحفة — بضم اللام وسكون الخاء — هي الحجارة الرقاق، وقال الخطابي : صفائح الحجارة.

والعسب : جمع عسيب وهو جريد النخل، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون في الطرف العريض. والاكتاف جمع كتف وهو العظم الذي للبعير أو الشاة كانوا إذا جف كتبوا عليه. والرقاع : جمع رقعة، وقد تكون من جلد أو ورق أو كاغد. والاقتاب : جمع قتب وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليتركب عليه، وقطع الأديم وهو الجلد المدبوغ. انظر الاتقان : 1 / 168، ط، 1، 1967 المشهد الحسيني بمصر. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، والجمع الصوتي الأول للقرآن أو المصحف المنزل للدكتور لييب السعيد ص : 32 — 33. ط، 2، 1978، دار المعارف، بيروت.

(7) مدخل إلى القرآن الكريم لعبد الله دراز ص : 3. ط، دار القلم، ودار القرآن الكريم، الكويت.

والسلام بالمدينة، وزيد بن ثابت وهو أكثرهم كتابة للوحي المدني ثم انضم اليهم :
الزبير بن العوام، وخالد وابان ابنا سعيد بن العاص بن أمية، وعبد الله بن رواحة،
وعمر بن العاص، وخالد بن الوليد، والأرقم بن الأرقم⁽⁸⁾.

وقد كان رسول الله ﷺ وهو يتلو ما تنزل عليه من الوحي على أصحابه
حريصاً على أن يكون تلقيهم للوحي كما أنزل بالفاظه وترتيبه كما تؤكد ذلك
الروايات المتعددة، ففي الحديث الذي رواه الطبراني بسند رجاله ثقة أن زيد بن
ثابت رضي الله عنه قال : كنت أكتب الوحي عند رسول الله ﷺ وهو يملي،
فإذا فرغت قال : اقرأ، فأقرأه، فإذا كان فيه سقط أقامه ثم أخرج به إلى الناس⁽⁹⁾.

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن
عباس أن رسول الله ﷺ كانت تنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل
عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : «ضعوا هؤلاء الآيات في السورة
التي يذكر فيها كذا وكذا» الحديث⁽¹⁰⁾.

حفظ الصحابة للقرآن :

كان ﷺ يستحفظ أصحابه القرآن كما جاء في البخاري ومسلم عن
عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال، سمعت النبي ﷺ يقول : «خذوا القرآن
من أربعة : من عبد الله بن مسعود، وسالم بن معقل مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن
جبل، وأبي بن كعب». وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتبادرون إلى النبي
ﷺ وإلى من سماهم من الحفظة يأخذون منهم القرآن ويحفظونه كل على قدر
طاقته، ويتسابقون إلى مدارسته وتفهمه، ويتفاضلون فيما بينهم على مقدار ما
يحفظون منه، وكانوا يهجون لذة النوم وراحة الهجود إثارةً للذة القيام في الليل،
والتلاوة له في الأسحار، والصلاة به والناس نيام حتى لقد كان الذي يمر ببيوت

(8) انظر فتح الباري 9 / 18. ط، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

(9) انظر تاريخ توثيق نص القرآن الكريم لخالد عبد الرحمن العك ص : 47. دار القلم، دمشق.

(10) الاتقان 1 / 172 وتاريخ توثيق نص القرآن الكريم ص : 48 وانظر الحديث بتمامه في فضائل القرآن للنسائي
ص : 70، 71.

الصحابة في غسق الدجى يسمع فيها دويّاً كدوي النحل بالقرآن، وكان الرسول ﷺ يذكي فيهم روح هذه العناية بالتنزيل، ويبلغهم ما أنزل إليه من ربه، ويبعث إلى من كان بعيد الدار منهم من يعلمهم ويقرئهم، كما بعث مصعب بن عمير وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة قبل هجرته يعلمانهم الإسلام ويقرئانهم القرآن، وأرسل معاذ بن جبل إلى مكة بعد هجرته للتحفيظ والاقراء⁽¹¹⁾. وقد استطاع استجماع القرآن كله — حفظاً — غير هؤلاء الأربعة : أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو زيد عم أنس بن مالك، وأبو الدرداء، وأبو أيوب الأنصاري، وعبادة ابن الصامت، وطلحة، وحذيفة، وأبو هريرة، وسعد بن عبيد، ومن النساء الصحابيات : عائشة، وحفصة، وأم سلمة أزواج النبي ﷺ، وأم ورقة بنت عبد الله بن الحارث. وغيرهم كثير، فقد ثبت في الصحيح ان يوم بئر معونة قتل فيه من الأنصار سبعون كانوا يسمون القراء⁽¹²⁾.

تدوين الصحابة للقرآن الكريم :

وإذا كانت كتابة الوحي في عهده ﷺ لم تأخذ طابعها الرسمي، فإن هناك واقعة أكيدة وهي أن المؤمنين لم يتوانوا منذ البداية — بل وخلال صنوف الاضطهاد التي تعرضوا لها — في تسجيل الآيات القرآنية التي وصلتهم في مخطوطات شخصية لاستعمالهم الخاص، وقصة إسلام عمر رضي الله عنه بعد دخوله على أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد وعندهما خباب بن الارث ومعه صحيفة فيها سورة «طه» لأوضح دليل على ذلك⁽¹³⁾.

ومن الجلي أن هذه المخطوطات على هيئتها الأولى لم تكن تمثل مجموعة متجانسة ومنظمة ومرقمة، وكما أن الرسول ﷺ لم يكن عنده شيء مكتوب، فلم

(11) انظر : مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني : 1/241 (ط : دار الفكر).

(12) تاريخ توثيق نص القرآن الكريم ص : 49.

(13) قصة اسلامه مشهورة انظر سيرة ابن هشام 1/365 — 368 بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. ط دار الفكر.

يكن كذلك عند الأفراد في هذه الحقة نسخة واحدة كاملة من القرآن، وإنما كانت المخطوطات متفرقة ومبعثرة بين المؤمنين، ولم تأخذ شكلها النهائي في صدورهم إلا قرب نهاية حياته ﷺ، ولم تكن مجموعات الآيات المنزلة — منذ وقت مبكر — لتبقى منعزلة بعضها عن بعض، ولا أن تتوالى في ترتيب زمني بعضها تلو الأخرى حسب نزول الوحي. فقد كانت مجموعات كثيرة منها تتزايد بمعزل عن مجموعات أخرى وتكون تدريجياً وحدات مستقلة بعد أن تنضم إليها آيات أخرى نزلت بعدها. وإن بعضها كانت تضاف هنا والأخرى تتداخل مع غيرها هناك بحسب أمر الرسول الصريح الذي كان يتلقاه بدوره من الروح القدس (14).

وحتى تتاح الفرصة لسور القرآن الكريم كي يتم بناؤها تدريجياً، كان ينبغي الانتظار إلى أن يكتمل الوحي كله لإخراج القرآن في شكل وحدة كاملة، فقد أخرج الحاكم في مستدركه بسند على شرط الشيخين عن زيد بن ثابت قال : «كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع» (15). قال البيهقي يشبه أن يكون المراد به تأليف ما نزل من الآيات المتفرقة في سورها وجمعها فيها بإشارة النبي ﷺ (16).

ورغم غياب تتابع نزول الآيات المكتوبة في هذه المرحلة، فإن ذلك لم يحل بين المؤمنين وبين المعرفة الشفوية لموضع كل آية جديدة من كل سورة على وجه التحديد، وفي كل مرحلة من مراحل نزول الوحي، وكذلك كان الأمر بالنسبة للصلاة والتعاليم والوعظ والقراءات، وهكذا نرى أنه كان في حياة الرسول مئات من الصحابة يطلق عليهم حفظة القرآن قد تخصصوا في تلاوة القرآن وفي حفظه عن ظهر قلب — كما أسلفت الإشارة إلى ذلك — وفي معرفة كل سورة في هيئتها المؤقتة (17) أو النهائية.

(14) مدخل إلى القرآن الكريم ص 35.

(15) المستدرک : 611/2. ط، دار المعرفة بيروت.

(16) الاتقان 164/1.

(17) مدخل إلى القرآن الكريم ص 35.

وقد كان كل ما يكتب من القرآن على عهد النبي ﷺ يحفظ في بيته، والشيعه يروون في هذا أن رسول الله ﷺ قال لعلي كرم الله وجهه : «يا علي؛ إن القرآن خلف فراشي في الصحف والحرير والقراطيس فخذوه واجمعوه ولا تضيعوه» (18).

ولئن قيل : «إن الثابت هو أن النبي ﷺ لحق بالرفيق الأعلى والقرآن غير مجموع في موضع واحد ولا مرتب السور، فقد علمنا بأن ذلك كان من حيث الكتابة فقط لا من حيث الحفظ في الصدور، فقد كان ﷺ يقوم بعرض ما تنزل عليه من القرآن على جبريل في شهر رمضان من كل عام، وإنه في العام الأخير عارضه بالقرآن مرتين (19). روى البخاري في صحيحه والنسائي في فضائله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «كان يعرض على النبي ﷺ القرآن كل عام مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه» (20).

وهكذا تنتهي المرحلة الأولى والقرآن الكريم مدون في الصحف المتفرقة، ومحفوظ في صدور المئات من الصحابة الذين تلقوه من رسول الله مباشرة أو من الصحابة الحفاظ الذين شهد لهم رسول الله بالحفظ، وأمر بأخذ القرآن منهم، وهؤلاء بدورهم أخذوه من رسول الله ﷺ على وفق ما كان يتلقاه من جبريل ويؤكد له بعرضه عليه كل سنة، وفي هذا المنهج من التحقيق والتثبت والتوثيق ما يطمئن قلوب المؤمنين، ويدحض حجج المتشككين والمعاندين.

جمع القرآن في عهد الخليفين أبي بكر وعثمان أولا : جمع القرآن في عهد أبي بكر :

لم يمض عام واحد بعد أن قبض رسول الله ﷺ إلا وبدت الحاجة ملحة لجمع وثائق القرآن المبعثرة في مجموعة مدونة سهلة الاستعمال، حيث تتتابع آيات

(18) الجمع الصوري الأول للقرآن ص 33.

(19) الاتقان 1 / 164.

(20) انظر فتح الباري 1 / 42 وفضائل القرآن للنسائي ص 61.

كل سورة كما هو ثابت من قبل في حافظة عدد كبير من المؤمنين، وكان الدافع الرئيسي والمباشر لهذا الجمع في عهد إبي بكر الصديق، ارتداد بعض العرب عن الإسلام وظهور مسيلمة في عدد من أتباعه مدعياً النبوة، فتصدى أبو بكر لقتالهم جميعاً في غزوة اليمامة⁽²¹⁾، وقتل من الصحابة يومئذ عدد كبير⁽²²⁾، فأثار ذلك الخوف على القرآن.

روى البخاري في صحيحه قصة هذا الجمع فقال⁽²³⁾ :

«... عن زيد بن ثابت قال : أرسل إلي أبو بكر — مقتل أهل اليمامة — فإذا عمر بن الخطاب عنده.

— قال أبو بكر رضي الله عنه :

إن عمر أتاني فقال : إن القتل استحر يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى أن يستمر القتل في المواطن⁽²⁴⁾، فيذهب كثير من القرآن⁽²⁵⁾، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن.

— قلت لعمر :

كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟

(21) ذكر الحافظ ابن كثير في كتابه فضائل القرآن ط 4، 1979 دار الاندلس ص : 15 قصة هذا القتال وفيه ان مسيلمة الكذاب التف معه من المرتدين قريب من مائة ألف، فجهز أبو بكر لقتاله خالد بن الوليد في قريب من ثلاثة عشر ألفاً، فالتقوا معهم فانكشف الجيش الاسلامي لكثرة من فيه من الاعراب، فنادى القراء من كبار الصحابة : يا خالد خلصنا، يقولون : ميزنا من هؤلاء الاعراب فتميزوا منهم وانفردوا، فكانوا قريباً من ثلاثة آلاف، ثم صدقوا الحملة وقتلوا قتلاً شديداً وجعلوا يتنادون : يا أصحاب سورة البقرة. فلم يزل ذلك دأبهم حتى فتح الله عليهم، وولى جيش الكفر فاراً، واتبعهم السيوف المسلمة في اقفيتهم قتلاً وأسراً، وقتل الله مسيلمة وفرق شمل اصحابه، ثم رجعوا إلى الاسلام، وقد قتل من القراء يومئذ قريب من خمسمائة رضي الله عنهم، مما دفع عمر رضي الله عنه ليشير على ابي بكر الصديق بان يجمع القرآن.

(22) روى الطبري في تاريخ الامم والملوك : 3/ 252 في حوادث السنة الحادية عشرة من الهجرة انه استشهد في هذه الغزوة من الصحابة 450 وقيل 700 وقيل أكثر، وجملة القتلى من المسلمين 960 أو يزيدون. ط، ذخائر العرب، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم.

(23) انظر فتح الباري لابن حجر 9/ 8 — 13.

(24) اي الاماكن التي يقع فيها القتال.

(25) اي بذهاب حفاظه فينقصون عن عدد التواتر مما يجعله ظنيا لا يؤمن الغلط فيه.

— فقال عمر : هذا والله خير.

فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك رأي عمر.

— قال زيد : وقال أبو بكر.

— إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ : فتتبع القرآن واجمعه.

— قال زيد : فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل علي مما أمروني به من جمع القرآن.

— قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ.

— فقال : هو والله خير.

فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فتتبع القرآن أجمعه من العصب والخاف، وصدور الرجال، حتى وجدت آخر التوبة «لقد جاءكم...» (26) مع أبي خزيمة الانصاري الذي جعل النبي ﷺ شهادته بشهادة رجلين، لم أجدها مع غيره فألحقها في سورتها» (27).

ومن خلال هذا الحوار الذي دار بين عمر وأبي بكر رضي الله عنهما حول جمع القرآن تجلت المصلحة لأبي بكر واقتنع بصواب الفكرة وشرح الله لها صدره، وعلم أن ذلك الجمع الذي يشير به عمر ما هو إلا وسيلة من أعظم الوسائل النافعة الى حفظ كتاب الله عز وجل والمحافظة عليه من التحريف والضياع، وإنه ليس من محدثات الأمور، وضلالات البدع، بل هو مستمد من القواعد التي

(26) سورة التوبة / 129 — 130.

(27) ليس معنى ذلك اثبات الآية بخبر الواحد، لأن زيدا كان قد سمع الآيتين وحفظهما عن ظهر قلب وعلم موضعهما في سورة التوبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان ذلك زيادة في التوثيق لأنه لو لم يكن يعرفهما فكيف افتقدتهما ؟ ويقول ابن حجر — معترضاً بعدة روايات موثقة — ان أبا خزيمة لم ينفرد بها، بل كان معه عمر، وزيد بن ثابت وعثمان وإبي بن كعب. انظر فتح الباري 9 / 12، 13.

وضعها الرسول ﷺ بتشريع كتابة القرآن، واتخاذ كتاب للوحي وجمع ما كتبه عنده حتى مات صلوات الله وسلامه عليه.

قال الإمام أبو عبد الله الحارث المحاسبي في كتاب فهم السنن : «كتابة القرآن ليست بمحدثه) فإنه ﷺ كان يأمر بكتابته، ولكنه كان مفرقاً في الرقاع والأكتاف والعصب، وإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعاً، وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله ﷺ فيها القرآن منتشراً، فجمعها جامع وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء»⁽²⁸⁾.

تنفيذ أبي بكر للفكرة :

لما كان الصحابة قد شاهدوا الوحي والتنزيل، ومنهم من حفظ القرآن عن ظهر قلب، ومنهم من كان يكتب الوحي ويدونه، وكان تزوير ما ليس منه مأموناً، وإنما كان الخوف من ذهاب شيء من صحفه⁽²⁹⁾. فقد اهتم أبو بكر بتحقيق هذه الرغبة، فانتدب لتحقيقها رجلاً من خيرة رجال الصحابة هو زيد بن ثابت رضي الله عنه، لأنه اجتمع فيه من المواهب ذات الأثر في القرآن ما لم يجتمع في غيره من الرجال، إذ كان من حفاظ القرآن ومن كتبه الوحي لرسول الله ﷺ، وشهد العرضة الأخيرة للقرآن في ختام حياته ﷺ، وكان فوق ذلك معروفاً بخصوبة عقله وشدة ورعه، وعظم أمانته، وكمال خلقه، واستقامة دينه، إلا أن زيدا رضي الله عنه تردد في بداية الأمر، لكن سرعان ما اقتنع بصواب ما ندب إليه⁽³⁰⁾.

وقد اتبع في هذا الجمع منهج دقيق حريص متحرج أعان على وقاية القرآن من كل ما لحق النصوص الأخرى من مظنة الوضع والانتحال وعوامل النسيان والضياع، وقد حدد الدكتور لبيب السعيد هذا المنهج في العناصر التالية :

(28) الاتقان 1/168.

(29) نفس المرجع.

(30) مناهل العرفان 1/250.

1 — كان كل من تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن يأتي به، ومعلوم أن ذلك كان بكل الأحرف السبعة التي نزل بها.

2 — وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب⁽³¹⁾

3 — وكان لا يكتب إلا :

أ — من عين ما كتب بين يدي النبي ﷺ لا من مجرد الحفظ، مع المبالغة في الاستظهار والوقوف عند هذا.

ب — وما ثبت أنه عرض على النبي ﷺ عام وفاته دون ما كان مأذوناً فيه ما قبلها.

ج — وما ثبت أنه من الوجوه التي نزل بها القرآن.

4 — وكانت كتابة الآيات والصور على الترتيب والضبط اللذين تلقاهما المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

5 — وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيذان⁽³²⁾، أي أنه لم يكن يكتفي بمجرد وجود الشيء مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه سماعاً.

6 — وبأمر أبي بكر كان عمر وزيد يقعدان على باب المسجد — وهو وقتئذ مقر لجنة الجمع — ليكتبا ما يشهد عليه الشاهدان⁽³³⁾.

(31) الظاهر أن جمع القرآن على يد زيد بن ثابت كان في الصحف لا في الألواح والعسب، ففي مغازي ابن عقبة عن ابن شهاب قال لما أصيب المسلمون باليمامة فرع أبو بكر وخاف أن يذهب من القرآن طائفة فأقبل الناس بما كان معهم وعندهم حتى جمع في عهد أبي بكر في الورق فكان أبو بكر أول من جمع القرآن في الصحف. قال ابن حجر ووقع في رواية عمارة بن غزية أن زيد بن ثابت قال : فأمرني أبو بكر فكتبته في قطع الأديم والعسب، فلما هلك أبو بكر وكان عمر كتب ذلك في صحيفة واحدة فكانت عنده. ثم قال والأول اصح، إنما كان في الأديم والعسب أولاً قبل أن يجمع في عهد أبي بكر ثم جمع في الصحف في عهد أبي بكر كما دلت عليه الأخبار الصحيحة المترادفة. الاتقان 169/1.

(32) قال ابن حجر : وكأن المراد بالشاهدين الحفظ والكتاب أو المراد انهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التي نزل بها القرآن. فتح الباري 12/9.

(33) الجمع الصوتي الأول للقرآن ص 37، 38.

وكان في هذا المنهج ضمان لحياطة كتاب الله بما يليق به من تثبت بالغ وحذر دقيق وتحريات شاملة، وقد التزمت اللجنة بهذه القواعد التزاماً كاملاً حتى أن عمر نفسه رضي الله عنه أتى بآية الرجم فلم يكتبها لأنه كان وحده (34).

وعلى هذا المنهج تم جمع القرآن بإشراف أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة وإجماع الأمة عليه دون نكير، وكان ذلك منقبة خالدة لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل لأبي بكر في الإشراف ولعمر في الاقتراح ولزيد في التنفيذ وللصحابة في المعاونة والإقرار.

وبعد جمع القرآن بكل هذه الاحتياطات، سلمه زيد إلى أبي بكر الذي احتفظ به طوال خلافته وعهد به قبل موته إلى عمر المرشح للخلافة من بعده، ثم قام عمر بتسليمه إلى ابنته حفصة أم المؤمنين في آخر لحظة من حياته لأن الخليفة الثالث لم يكن قد بويع في ذلك الوقت.

ثانياً : جمع القرآن

في عهد الخليفة عثمان بن عفان

1 - دواعي هذا الجمع :

لما امتدت الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفة عثمان بن عفان واتسعت رقعة الاسلام وتفرق المسلمون في الأقطار والأمصار بعيداً عن منزل الوحي يلقنون الناس القرآن على النحو الذي تلقوه من النبي ﷺ وقعت بينهم اختلافات يسيرة في حروف الأداء ووجوه القراءة، وفتحت باب الشقاق والنزاع في قراءة القرآن، فكان أهل كل إقليم من أقاليم الاسلام يقرأون بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة، فأهل الشام يأخذون بقراءة أبي بن كعب، وأهل الكوفة يقرأون بقراءة عبد الله بن مسعود، وهناك من يقرأ بقراءة أبي موسى الأشعري.

(34) الاتقان 1/168

وفي سنة 25 من الهجرة، أي في السنة الثانية أو الثالثة من خلافة عثمان، وبعد أن قبض رسول الله ﷺ بخمس عشرة سنة — فتحت أرمينية، وكان عثمان أمر أهل الشام وأهل العراق أن يجتمعوا على ذلك، وكان حذيفة من جملة من غزا معهم، وكان هو على أهل المدائن وهي من جملة أعمال العراق (35)، فرأى حذيفة اختلاف أهل الشام والعراق وتنازعهم في القراءة حتى كادت تكون بينهم فتنة، ففرع لذلك، فقدم على عثمان فقال : يا أمير المؤمنين أدرك الناس، قال : وما ذاك ؟ قال غزوت أرمينية فإذا أهل الشام يقرأون بقراءة أبي بن كعب فيأتون بما لم يسمع أهل العراق وإذا أهل العراق يقرأون بقراءة عبد الله بن مسعود فيأتون بما لم يسمع أهل الشام فيكفر بعضهم بعضاً (36).

وكان هذا الاختلاف قد وقع مثله في المدينة فوصل إلى عثمان أيضاً « حتى اقتتل الغلمان والمعلمون، فقال عثمان رضي الله عنه : لَدَيَّ تُكْذِبُونَ بِهِ وتلحنون فيه، فمن نأى عني كان أشد تكذيباً وأكثر لحناً، يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً (37).

يضاف إلى هذا أن الأحرف السبعة (38) التي نزل بها القرآن لم تكن معروفة لأهل تلك الأمصار، ولم يكن من السهل عليهم أن يعرفوها كلها، حتى يتحاكموا إليها فيما يختلفون، إنما كان كل صحابي في إقليم يقرئهم بما يعرف فقط من الحروف التي نزل عليها القرآن، ولم يكن بين أيديهم مصحف جامع يرجعون إليه فيما شجر بينهم من هذا الشقاق والخلاف. فكانت هذه جملة من الدواعي

(35) فتح الباري 14/9.

(36) فتح الباري 15/9. وفي رواية أخرى — في نفس المرجع — ان يزيد بن معاوية النخعي قال : إني لفي المسجد زمن الوليد بن عقبة في حلقة فيها حذيفة فسمع رجلاً يقول قراءة عبد الله بن مسعود، وسمع آخر يقول قراءة أبي موسى الأشعري فغضب ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال هكذا كان من قبلكم اختلفوا، والله لأرकिन إلى أمير المؤمنين.

(37) الانتقان 170/1 وفتح الباري 15/9، 16. ومن هنا جاءت تسمية المصحف العثماني بالامام. لاعتماده دون سواه، ومعلوم ان المصاحف التي كانت سائدة في عهد عثمان حُرقت بعد جمع القرآن في المصحف العثماني.

(38) نزول القرآن على سبعة أحرف ورد في عدة نصوص رواها البخاري ومسلم في صحيحيهما ورواها غيرهما مما جعل الامام أبا عبيد بن سلام يقول بتواتر حديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها كاف شاف». انظر هذه الاحاديث والكلام عنها في : مناهل العرفان في علوم القرآن 139/1 وما بعدها.

والأسباب التي دعت سيدنا عثمان رضي الله عنه إلى تدارك الخرق قبل أن يتسع على الراقع، فجمع أعلام الصحابة وذوي الرأي منهم، وأجال الرأي بينه وبينهم في علاج هذه الفتنة ووضع حدا لهذا الاختلاف، فقال لهم : «أرى أن نجتمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف، فقال الصحابة : فنعم ما رأيت» (39).

2 - تشكيل لجنة الجمع :

أرسل عثمان رضي الله عنه إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر أن أرسلني إلينا (40) بالمصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف (41).

وفي رواية مصعب بن سعد بن أبي وقاص أن عثمان قال : من أكتب الناس ؟

قالوا : كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت.

قال : فأبي الناس أعرب ؟ وفي رواية أفصح ؟

قالوا : سعيد بن العاص.

قال عثمان : فليملل سعيد وليكتب (42) زيد.

وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل (43) بلسانهم.

ولما احتاجوا إلى من يساعد في الإملاء أو الكتابة بحسب الحاجة إلى عدد المصاحف التي ترسل إلى الآفاق أضافوا إلى زيد جماعة منهم مالك بن أبي عامر

(39) فتح الباري : 16/9.

(40) أي تلك التي جمعت في عهد أبي بكر الصديق.

(41) (42) فتح الباري 16/9.

(43) نفس المرجع ص : 17.

جد مالك بن أنس، وكثير بن أفلح، وأبي بن كعب وأنس بن مالك، وعبد الله بن عباس(44). وقد جاء من طريق محمد بن سيرين أن عثمان جمع اثني عشر رجلاً من قريش والأنصار لجمع القرآن(45).

وتفيد بعض الروايات أن هذه اللجنة ضمت أيضاً عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص، وإبان بن سعيد. وربما كان القصد من كل هذه الجماعة المساعدة المشتهر أعضاؤها بالضبط والمعرفة أن ينضم العدد إلى العدالة، وإلا فقد كان زيد قادراً بذاته على هذه المهمة(46).

وقد أثار تشكيل هذه اللجنة الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وشق عليه صرفه عن كتابة المصحف وإسنادها إلى زيد بن ثابت حتى قال : «يامعشر المسلمين، أعزل عن نسخ كتابة المصاحف ويتولاها رجل. والله أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر، يريد زيد بن ثابت(47).

وإذا كان ابن مسعود يرى في نفسه الأهلية والكفاءة للقيام بهذا العمل لعدة اعتبارات منها :

1 — أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ أيام شدة المسلمين وضعفهم(48).

2 — أعطي حظاً عظيماً في تجويد القرآن وتحقيقه وترتيبه، حتى لقد كان النبي ﷺ يقول : «من أحب أن يقرأ القرآن غصاً كما أنزل فليقرأه قراءة ابن أم عبد»(49) يعني عبد الله بن مسعود.

(44) نفس المرجع ص : 16 ، 17 .

(45) نفس المرجع ص : 16 .

(46) انظر الجمع الصوقي الأول للقرآن ص 48 ، 49 نقلا عن الكواكب الدرية للحداد خلف الحسيني ص 21 ، 22 .

(47) فتح الباري 17/9 .

(48) انظر قصة جهره بالقرآن في سيرة ابن هشام 336/1 .

(49) مسند الامام أحمد باب فضل القراءة على قراءة عبد الله بن مسعود .

3 — ان النبي ﷺ أمر بتعلم القرآن من أربعة، أولهم عبد الله بن مسعود. فقد روى البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت النبي ﷺ يقول : استقرئوا القرآن من أربعة : عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل⁽⁵⁰⁾.

4 — كان ابن مسعود يقول : «أخذت من في رسول الله ﷺ سبعين سورة وإن زيد بن ثابت لصبي من الصبيان⁽⁵¹⁾». وكان يقول : «والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه»⁽⁵²⁾.

إلا أن عثمان رضي الله عنه قد يكون اختار زيد بن ثابت لعدة أسباب وجيهة :

1 — لقد جمع القرآن بالمدينة وعبد الله بن مسعود بالكوفة وقتئذ، ولم يؤخر ما عزم عليه من ذلك إلى أن يرسل إليه ويحضر⁽⁵³⁾.

2 — إن عثمان رضي الله عنه إنما أراد نسخ الصحف التي كانت جمعت في عهد أبي بكر وأن يجعلها مصحفاً واحداً، وكان الذي نسخ ذلك في عهد أبي بكر هو زيد بن ثابت لكونه كان كاتب الوحي فكانت له في ذلك أولية ليست لغيره⁽⁵⁴⁾.

(50) أخرجه البخاري في : فتح الباري 80/7 — 95.

(51) فتح الباري 17/9 وفي رواية بضع وسبعون سورة. نفس المرجع 43/9.

(52) فتح الباري 46/9.

(53) فتح الباري 17/9.

(54) نفس المرجع.

3 — ان زيد بن ثابت قرأ القرآن على رسول الله ﷺ في العام الذي توفاه الله فيه مرتين، وسميت هذه القراءة بقراءة زيد بن ثابت لأنه كتبها لرسول الله ﷺ وقرأها عليه، وشهد العرضة الأخيرة، وكان يقرئ الناس بها حتى مات (55).

4 — وكان زيد بن ثابت — مثل ابن مسعود — من الستة الصحابة أصحاب الفتوى وهم : عمر، وعلي، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وأبو موسى الأشعري، وزيد بن ثابت (56).

5 — إن قول أبي بكر لزيد يوم طلب منه الجمع الاول للقرآن : «إنك رجل شاب عاقل، لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي» تفيد أن لزيد — كما يقول ابن حجر — أربع صفات مقتضية خصوصيته بذلك :

* كونه شاباً فيكون أنشط لما يطلب منه.

* وكونه عاقلاً فيكون أوعى له.

* وكونه لا يتهم فتركن النفس إليه.

* وكونه كان يكتب الوحي فيكون أكثر ممارسة.

(55) تاريخ توثيق نص القرآن الكريم ص 78 نقلاً عن المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز لأبي شامة ص 69.

(56) الإصابة لابن حجر 23/3. نسخة مصورة عن الطبعة الأولى 1328 هـ.

ثم يقول ابن حجر : وهذه الصفات التي اجتمعت له قد توجد في غيره ولكن مفرقة (57).

3 — منهج الجمع العثماني :

لقد كان عمل اللجنة التي تولت جمع القرآن بأمر سيدنا عثمان رضي الله عنه ينحصر في الأمور التالية :

1 — إحضار الصحف التي توجد في بيت أم المؤمنين حفصة بنت عمر، واعتماد عمل اللجنة الأولى التي تولت الجمع على عهد أبي بكر وكان مستندها — كما سبقت الإشارة إلى ذلك — على الأصل المكتوب بين يدي النبي ﷺ وبأمره (58).

2 — أن يتعهد هذه اللجنة خليفة المسلمين بنفسه (59).

3 — أن يأتي كل من عنده شيء من القرآن سمعه من رسول الله ﷺ (60).

4 — كانوا إذا اختلفوا وتدارؤوا في آية، قالوا هذه أقرأها رسول الله ﷺ فلانا فيرسل اليه وهو على رأس ثلاث من المدينة فيقال له : كيف أقرأك رسول

(57) فتح الباري 10/9، 11.

(58) الانتقان 170/1 والجمع الصوتي الأول للقرآن ص 58.

(59) الانتقان 170/1.

(60) المصاحف لابن أبي داود : 24/1. ط، المطبعة الرحمانية سنة 1355 هـ.

الله ﷺ آية كذا وكذا ؟ فيقول : كذا وكذا، فيكتبونها وقد تركوا لذلك مكاناً (61).

5 — الاختصار على لغة قريش عند الاختلاف، لأنه نزل بلغتهم، وإن كان قد وسع قراءته بلغة غيرهم رفعا للخرج والمشقة في ابتداء الأمر، فقد رأى عثمان أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت فاقصر على لغة واحدة (62).

6 — جمع القرآن على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي ﷺ وإلغاء ما ليس كذلك، والأخذ بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير، ولا تأويل أثبت مع تنزيل، ولا منسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعد (63).

7 — عدم كتابة ما لم يكن في العرصة الأخيرة، وما نسخت تلاوته، وما لم يثبت من القراءات، وما كانت روايته آحاداً، وما لم تعلم قرآنيته، أو ما ليس بقرآن كالذي كان يكتبه بعض الصحابة في مصاحفهم الخاصة شرحاً لمعنى أو بياناً لناسخ أو منسوخ أو غير ذلك (64).

8 — عند كتابة لفظ تواتر النطق به على أكثر من وجه، تبقي اللجنة هذا اللفظ خالياً من أية علامة تقصر النطق به على وجه واحد لتكون دلالة اللفظ الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوين شبيهة بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المنقولين المفهومين (65). ومن أمثلة ذلك قوله تعالى :

(61) الانتقان 170/1.

(62) الانتقان 171/1.

(63) نفس المرجع.

(64) نفس المرجع 170، 171 والبرهان للزركشي : 235/1، 236. ط 1957/1 تحقيق أبو الفضل إبراهيم

(65) النشر في القراءات العشر لابن الجزري : 33/1، المكتبة التجارية الكبرى تصحيح محمد علي الضباع

ومعلوم أن الكتابة وقتئذ كانت خالية من النقط والشكل.

* «فتبينوا» التي قرئت أيضاً «فتثبتوا» (66).

* «ننشرها» التي قرئت أيضاً «ننشرها» (67).

* «أف» (68) التي قرئت بثلاث قراءات.

وأما الكلمات التي لا تدل على أكثر من قراءة عند خلوها من النقط والشكل مع أنها واردة بقراءة أخرى أيضاً فإنهم كانوا يرسمونها في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة، وفي بعض آخر برسم آخر يدل على القراءة الثانية كقراءة «وصى» بالتضعيف، و«أوصى» بالهمز، وهما قراءتان في قوله تعالى : «ووصى بها إبراهيم بنيه» (69).

وكقراءة «جنت تجري تحتها الأنهر» (70) ترسم بأحد المصاحف بزيادة «من» قبل تحتها.

وكقراءة «فإن الله هو الغني الحميد» (71) تثبت في أحد المصاحف بحذف «هو» (72).

9 — التزام اللجنة ما كان النبي ﷺ قد اتبعه في العرضة الأخيرة — في السنة التي توفي فيها — في شأن ترتيب آيات كل سورة، واعتبار هذا الترتيب توقيفياً من الله بالإجماع (73). والتزامها كذلك في ترتيب السور ما كان في عهد النبي ﷺ وما روعي في جمع أبي بكر أيضاً (74).

(66) سورة الحجرات : 6.

(67) سورة البقرة : 259.

(68) سورة الاسراء : 23.

(69) سورة البقرة : 132.

(70) سورة التوبة : 100.

(71) سورة الحديد : 24.

(72) انظر مناهل العرفان 258/1 والجمع الصوتي الأول للقرآن : 62.

(73) الاتفاق 172/1.

(74) الجمع الصوتي الأول للقرآن ص : 62.

4 — تحريق عثمان للمصاحف المخالفة :

بعد أن تم جمع القرآن على المنهج المبين أعلاه، عمل عثمان رضي الله عنه على إرسال نسخ منها إلى الأقطار⁽⁷⁵⁾، وأمر أن يحرق كل ما عداها مما يخالفها، سواء كانت صحفاً أم مصاحف، وإذا كان إعدام هذه المخطوطات الفردية يبدو فيه شيء من القسوة في الوقت الذي لم يوجد بالفعل أي تحريف على الإطلاق، فإنه يدل مع ذلك على أن عثمان كان بعيد النظر، وعميقاً في إدراك حقيقة الأمور.

ويرجع فضل تمتع المسلمين اليوم — كما يقول الدكتور دراز — بوحدة كتابهم واستقراره، إلى هذا العمل المجيد من جانب عثمان، ومهما أضيف إلى المصحف العثماني من علامات خارجية (ابتكرها أبو الأسود الدؤلي وأتباعه، ونصر ابن عاصم، ويحيى بن يعمر، وحسن البصري، وخليل بن أحمد)، فإن النص باق كما هو على الدوام يتحدى فعل الزمن، ووجود بعض الحروف الزائدة أو الكلمات المدغمة أو الكتابات القديمة التي اقتضت على كتابة المصاحف وحدها في جميع نسخ القرآن اليوم المطبوع منها والمخطوط، يعد شهادة بليغة على الأمانة التي انتقل بها البناء القرآني من جيل إلى جيل حتى وصل إلينا بهذا الكمال المنقطع النظير⁽⁷⁶⁾، وتكفيها شهادة سيدنا علي كرم الله وجهه على جليل هذا العمل الذي قام به سيدنا عثمان رداً على من شكك أو شك في عمله بحجة أن ذلك لم يعمل رسول الله ﷺ فقال : لا تقولوا في عثمان إلا خيراً فوالله ما فعل الذي فعل إلا عن ملأ منا⁽⁷⁷⁾.

شبهة تعارض المصحف العثماني مع مصاحف بعض الصحابة

من الأمور التي يثيرها بعض المعنيين بالدراسات القرآنية — جهلاً أو كيداً — ما يقال من أن المصحف العثماني الذي أجمع عليه المسلمون يخالف خطأً أو

(75) اختلف في عدد المصاحف التي أرسل بها عثمان إلى الأقطار الإسلامية فقيل : أنها خمسة وقيل سبعة أرسل بها إلى : مكة، والشام، واليمن، والبحرين، والبصرة، والكوفة، وحبس بالمدينة واحداً (انظر الاتفاق 1/172).

(76) مدخل إلى القرآن الكريم ص : 50، 51.

(77) الاتفاق 1/170.

زيادة أو نقصاً أو ترتيباً مصاحف عدد من صحابة النبي ﷺ، الذين عاصروه وشهدوا الوحي :

وقد تعددت المصاحف التي قيل انهم كتبوها، فهناك مصاحف منسوبة إلى عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس، وأبي موسى الأشعري، وأنس بن مالك، وعمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسالم مولى أبي حذيفة، وعبيد بن عمير، وأمّهات المؤمنين : عائشة، وحفصة، وأم سلمة(78)

ومع أن هذه المصاحف على فرض وجودها ومخالفتها للمصحف العثماني فردية وخاصة، ومع أن من أصحابها من قيل انه اشترك في الجمع العثماني مثل أبي بن كعب، ومنهم أيضاً من كان أحد المجمعين على فعل عثمان مثل علي بن أبي طالب، فقد روي الكثير عن اختلاف هذه المصاحف عن مصحف عثمان،(79) وكأنما وجد بعض المستشرقين في ذلك ميداناً مناسباً يشفي رغبة في صدورهم في زلزلة العقيدة الاسلامية، وفتح أبواب الشكوك والزيغ حول نص القرآن المتواتر، وفصم العروة الوثقى والرابطة المحكمة بين المسلمين، مما جعلهم يلحون في طلب روايات الاختلاف ويوسعون البحث فيها، وينقلونها في غير تحرز، ولا يمتحنون أسانيدھا، ولا يلتفتون الى آراء علماء المسلمين فيها(80).

ومهما يكن من أمر، فإن المصاحف المقول بمخالفتها لمصحف عثمان — على فرض أنها بقيت بعد الجمع العثماني — لم تظفر بما ظفر به هذا الأخير من إجماع الصحابة وثقتهم وأخذهم بما تضمنه من الأوجه والقراءات، وقد تنبه المسلمون منذ قديم إلى أن هذه المصاحف كانت فردية كتبها أصحابها لأنفسهم،

(78) انظر الجمع الصوتي ص : 319، 320.

(79) قام عدد من العلماء بالتأليف في موضوع «اختلاف المصاحف وذلك لبيان القراءات التي لا يحتملها رسم واحد، كما سبقت الإشارة إلى ذلك في الجمع العثماني : من بينهم : أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني، ت 248 هـ، وابن أبي داود السجستاني ت 316 هـ، وابن الأنباري ت : 328، وابن أشتة الاصبهاني ت : 360 هـ، انظر تاريخ القرآن لآبراهيم الاياري ص : 99، 100 . ط، دار الشروق.

(80) انظر الجمع الصوتي الأول للقرآن ص : 323.

وإنها ربما تضمنت ما كانت روايته آحاداً وما نسخت تلاوته وما لم يكن في العرضة الأخيرة، وإنه اختلطت فيها أحياناً الألفاظ القرآنية بالشرح وبيان التأويل : مما دفع بعثمان رضي الله عنه بعد أن جمع المصحف الى أن يأمر بحرقها على ملأ من الصحابة وموافقتهم ولم ينكر عليه ذلك أحد .

وقد تتبع الدكتور لبيب سعيد أشهر التحريفات المدعاة على مصحف عثمان مفنداً تلك الدعاوى بما يشفي الغليل مع عرض آراء علماء السلف من الفقهاء والمفسرين، والمعنيين بعلوم القرآن عامة⁽⁸¹⁾، مما يدل على أن المسلمين في جميع عصورهم، قد أولوا القرآن أصدق عناية، وضبطوه أشد ضبط، وحفظوه أتم حفظ⁽⁸²⁾. وصدق الله العظيم إذ يقول : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»⁽⁸³⁾.

(81) انظر المصدر السابق ص 325 وما بعدها، وأيضاً مناهل العرفان 236/1 وما بعدها.

(82) انظر البرهان في علوم القرآن للزركشي 240/1.

(83) الحجر : 9.

المبحث الثاني
ترتيب القرآن الكريم

ترتيب الآيات

تتضافر النصوص النبوية على أن ترتيب الآيات في السور توقيفي، فقد كان الرسول ﷺ يأمر صحابته من كتبة الوحي أن يضعوا الآية أو مجموعة من الآيات في موضعها المعين من السورة، وذلك بناء على توجيه من ملك الوحي جبريل، الذي كان يتلقى عنه النبي ﷺ كلمات ربه وتوجيهه. ولم يكن للصحابة الكرام أي شأن في ترتيب آيات القرآن في السور، والحجة في ذلك النصوص المترادفة وإجماع الأمة على ذلك.

فمن النصوص الواردة في ذلك:

— ما أخرجه الإمام النسائي في «فضائل القرآن» عن يوسف بن ماهك قال : إني لعند عائشة أم المؤمنين إذ جاءها عراقي فقال: أي ام المؤمنين أرني مصحفك قالت: لم؟ قال: أريد أن أولف عليه القرآن، فإنا نقرؤه غير مؤلف، قالت: ويحك، وما يضرك أيته قرأت قبل، إنما نزل أول ما نزل سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس للإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع شرب الخمر، ولو نزل أول شيء لا تنزوا لقالوا: لا ندع الزنا، وإنه أنزلت «والساعة أدهى وأمر» بمكة وإني لجارية ألعب على محمد، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده: قال: فأخرجت إليه المصحف، فأملت عليه آي السور (84).

— وما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال: قلت لعثمان ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينها، ولم تكتبها بينهما سطر «بسم الله الرحمن الرحيم» ووضعتوها في السبع الطول؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ تنزل عليه

(84) أنظر فتح الباري 38/9، وفصائل القرآن للنسائي. ص 56. وفصائل القرآن لابن كثير: 39، 40 (دار الاندلس). وفي هذا الحديث دليل على توقيفية الآيات في سورها ووجوب قراءتها على ترتيبها التوقيفي الذي جاء عن الشارع.

السور ذوات العدد فكان اذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا... الحديث. (85).

— وما أخرجه أحمد بإسناد حسن عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ اذ شخص يبصره ثم صوبه، ثم قال: «أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة: «ان الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى» (86) الى آخرها.

— وما أخرجه البخاري عن ابن الزبير قال: قلت لعثمان «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً» (87) قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها؟ قال: يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه. (88)

— وما أخرجه مسلم عن عمر قال: ما سألت النبي ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلاله، حتى طعن بأصبعه في صدرى وقال: «تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء». (89)

— وما أخرجه مسلم أيضاً عن أبي الدرداء مرفوعاً «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال» وفي لفظ عنده: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف»: (90)

ومن النصوص الدالة على ذلك اجمالاً ما ثبت من قراءته ﷺ لسور عديدة كسورة البقرة وآل عمران والنساء. (91) وأنه قرأ سورة الاعراف في صلاة

(85) انظر الالتقان 1 / 172 وفضائل القرآن للنسائي ص: 70، 71.

(86) سورة النحل: 90.

(87) سورة البقرة: 234.

(88) البخاري 9 / 259 (فتح الباري).

(89) مسلم 3 / 126 حديث 1617. ضبط محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت وآية الصيف هي الآية 176 من سورة النساء.

(90) صحيح مسلم حديث رقم 555 من المجلد 1.

(91) سنن أبي داود 1 / 216. ضبط وتعليق محيي الدين عبد الحميد، نشر دار إحياء السنة النبوية.

المغرب⁽⁹²⁾ و«سورة قد أفلح» في صلاة الصبح، وسورة الروم في الصبح أيضاً، و«الم تنزيل» و هل «أتى» في صبح الجمعة،⁽⁹³⁾ و «ق» في الخطبة، وغير ذلك من السور⁽⁹⁴⁾ التي كان يقرأها ﷺ في الصلاة وفي غيرها من المناسبات، وممخض من الصحابة مما يدل على «ان ترتيب آيها توقيفي، وما كان الصحابة ليرتبوا ترتيباً سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ على خلافه، فبلغ ذلك مبلغ التواتر». ⁽⁹⁵⁾ قال ابن الحصار: وضع الآيات مواضعها انما كان بالوحي... وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف ؟. ⁽⁹⁶⁾. وأما الاجماع فقد حكاه الزركشي وابن الزبير.

وقال الزركشي : «فأما الآيات في كل سورة ووضع البسملة اوائلها فترتيبها توقيفي بلا شك ولا خلاف فيه». ⁽⁹⁷⁾.

وقال ابن الزبير : «ان ترتيب الايات في سورها وقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين» ⁽⁹⁸⁾.

واما اقوال العلماء الدالة على توقيفية الآيات في سورها فقد أورد السيوطي طائفة منها⁽⁹⁹⁾ نذكر من بينها ما يلي :

قال مكّي وغيره : ترتيب الايات في السور بأمر من النبي ﷺ، ولما لم يأمر بذلك في أول براءة تركت بلا بسملة.

(92) سنن أبي داود 129/1.

(93) سنن أبي داود 169/1.

(94) انظر الاتقان 174/1 وسنن أبي داود 180/1.

(95) انظر الاتقان 174/1.

(96) نفس المرجع 176/1.

(97) انظر البرهان 256/1.

(98) انظر البرهان في ترتيب سور القرآن الجزء الثاني من هذا الكتاب ص : 182.

(99) انظر الاتقان 175/1 — 176.

— وقال القاضي ابو بكر في الانتصار: «ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم فقد كان جبريل يقول : ضعوا آية كذا في موضع كذا»

وقال أيضا : «الذي نذهب اليه ان جميع القرآن الذي أنزله الله وأمر باثبات رسمه ولم ينسخه ولا رفع تلاوته بعد نزوله هو هذا الذي بين الدفتين الذي حواه مصحف عثمان وأنه لم ينقص منه شيء ولا زيد فيه، وأن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمته الله تعالى، ورتبه عليه رسوله من آي السور، لم يقدم من ذلك مؤخر ولا آخر منه مُقَدَّم، وان الامة ضبطت عن النبي صلى الله عليه وسلم ترتيب آي كل سورة ومواضعها وعرفت مواقعها كما ضبطت عنه نفس القراءات وذات التلاوة».

— وقال البغوي في شرح السنة : «الصحابة رضي الله عنهم جمعوا بين الدفتين القرآن الذي أنزله الله على رسوله... ووضعوا له ترتيبا لم يأخذه من رسول الله ﷺ، (100) وكان رسول الله ﷺ يلقي أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا، بتوقيف جبريل اياه على ذلك، واعلامه عند نزول كل آية، أن هذه الآية تكتب عقب آية كذا في سورة كذا فثبت أن سعي الصحابة كان في جمعه في موضع واحد لا في ترتيبه فان القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب، أنزله الله جملة الى السماء الدنيا ثم كان ينزله مفرقا عند الحاجة وترتيب النزول غير ترتيب التلاوة».

ترتيب السور

إذا كان الامر بالنسبة لترتيب الآيات في المصحف موضوع اتفاق بين العلماء في كونه من الشارع وتوقيف منه ﷺ، فان الامر يختلف في مسألة ترتيب السور، حيث تعددت آراء العلماء في ذلك واختلفت اقوالهم وتتبعها واستقرائها يمكننا ان نحصرها فيما يلي :

(100) يقصد بذلك ترتيب الصحابة لمصاحفهم الخاصة التي خالفت في ترتيبها المصحف العثماني.

1 - ترتيب السور اجتهادي :

استند أصحاب هذا الرأي الى اختلاف الصحابة في ترتيب مصاحفهم، فمنهم من كتب السور في المصحف على تاريخ النزول وقدم المكي على المدني، ومنهم من جعل أوله سورة «اقرأ» وهو أول مصحف علي- وأما مصحف ابن مسعود فأوله «مالك يوم الدين» ثم البقرة، ثم النساء على ترتيب مختلف، وفي مصحف أبي كان أوله «الحمد» ثم النساء ثم آل عمران، ثم الانعام، ثم الاعراف، ثم المائدة، على اختلاف شديد. (101)

وقد صادف هذا المذهب هوى في نفس بروكلمان فذهب في حديثه عن جمع عثمان الى «ان زيدا رتب السور حسب طولها، وابتدأ باطولها، بعد الفاتحة التي وضعها على راس السور كلها، وعلى هذا المنوال جمع القرآن أيضا ابي بن كعب، والمقداد بن عمرو وعبد الله بن مسعود، وأبو موسى الاشعري». (102)

وقد ذهبت طائفة من العلماء الى أن ترتيب سور القرآن او بعضها انما كان باجتهاد من الصحابة، وان النبي ﷺ فوض ذلك الى أمته من بعده. فقد حكى السيوطي والزرکشي بان القائلين بهذا الرأي هم جمهور العلماء منهم : مالك، والقاضي ابو بكر في احد قوليه فيما اعتمده واستقر عليه رأيه. (103)

واخرج ابن اشته في المصاحف من طريق اسماعيل بن عياش عن حبان بن يحيى عن أبي محمد القرشي : امرهم عثمان ان يتابعوا الطوال فجعلت سورة الانفال وسورة التوبة في السبع ولم يفصل بينهما بيسم الله الرحمن الرحيم. (104).

(101) البرهان 260، 259/1 وانظر أيضا الفهرست لابن النديم ص : 39 - 42. ط، المطبعة الرحمانية بمصر.

(102) تاريخ الأدب العربي ترجمة عبد الحلیم النجار 140/1.

(103) البرهان 257/1 والاتقان 176/1.

(104) الاتقان 176/1.

وقد مال ابن عطية الى أن كثيرا من السور كان قد علم ترتيبها في حياته ﷺ كالسبع الطوال، والحواميم والمفصل، وإن ما سوى ذلك يمكن أن يكون قد فوض فيه الأمر الى الأمة بعده. (105)

إلا أن ابن الزبير الغرناطي يذهب أبعد من ابن عطية فيما يمكن أن يكون قد فوض فيه الأمر الى الأمة فيقول : «الاثار تشهد بصحة ما ذهب اليه في أكثر مما نص عليه ابن عطية ويبقى منها قليل يمكن أن يجري فيه الخلاف» (106).

2 - ترتيب السور توقيفي إلا الأنفال وبراءة:

وهو ما ذهب اليه البيهقي ووافقه عليه الإمام السيوطي، فقد قال البيهقي في المدخل «كان القرآن على عهد النبي ﷺ مرتبا سورة وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة لحديث عثمان السابق» (107).

وقال السيوطي: «والذي ينشرح له الصدر ما ذهب اليه البيهقي، وهو أن جميع السور توقيفي إلا براءة والأنفال ولا ينبغي أن يستدل بقراءته ﷺ سورا ولأه على أن ترتيبها كذلك، وحينئذ فلا يرد حديث قراءته النساء قبل آل عمران (108) لأن ترتيب السور في القراءة ليس بواجب، فلعله فعل ذلك لبيان الجواز» (109).

وقد رد الشيخ محمد عبده على مذهب السيوطي والبيهقي قبله بقوله: «انه لا يعقل ان يرتب النبي ﷺ جميع السور إلا الأنفال وبراءة، وقد صرح أنه ﷺ

(105) البرهان في ترتيب سور القرآن ج 2 من هذا الكتاب ص : 185.

(106) البرهان في ترتيب سور القرآن ص : 7، 8.

(107) الانتقان 1/ 177. والحديث أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم عن ابن عباس قال : قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر : «بسم الله الرحمن الرحيم» ووضعتموها في السبع الطوال، فقال عثمان.... كانت الأنفال من أوائل ما نزل في المدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب سطر «بسم الله الرحمن الرحيم».

(108) الحديث رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة بن اليمان قال : «صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فافتتح سورة البقرة فقلت يركع عند المائة، ثم مضى فقلت : يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران...» الحديث.

(109) الانتقان 1 / 179.

كان يتلو القرآن كله في رمضان على جبريل عليه السلام واحدة من كل عام، فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه بالقرآن مرتين، فأين كان يضع هاتين السورتين في قراءته؟ التحقيق ان وضعهما في موضعهما توقيفي وان فات عثمان أو نسيه، ولولا ذلك لعارضه الجمهور او ناقشوه فيه عند كتابة القرآن كما روي عن ابن عباس بعد سنين من جمعه ونشره في الأقطار». (110)

كما رد الحديث الذي استند عليه كل من البيهقي والسيوطي بان في سنده يزيد الفارسي الذي سئل عنه يحيى بن معين فلم يعرفه ثم قال: «فمثل هذا الرجل لا يصح أن تكون روايته التي انفرد بها مما يؤخذ به في ترتيب القرآن المتواتر». (111)

3 - الخلاف في ترتيب السور لفظي:

وهو ماقرره كل من أبي جعفر ابن الزبير في مناسباته، والزرکشي في برهانه. قال ابن الزبير: «ان الأمر في ذلك كيفما قدر، فلا بد من رعي التناسب، والتفات التواصل والتجاذب، فان كان بتوقيف منه ﷺ، فلا مجال للخصم بعد ذلك التحديد الجليل والرسم، وان كان مما فوض فيه الأمر إلى الأمة بعده، فقد اعمل الكل من الصحابة في ذلك جهده، وهم الأعلیاء بعلمه، والمسلم لهم في وعيه وفهمه، والعارفون باسباب نزول الآيات، ومواقع الكلمات، وانما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعون من رسول الله ﷺ، وهذا قول مالك رضي الله عنه في حكاية بعضهم عنه، ومالك أحد القائلين بان ترتيب السور اجتهاد من المسلمين كما تقدم عنه، فكيفما دار الأمر فمنه ﷺ عرف ترتيب السور، وعلى ما سمعوه منه بنوا جليل ذلك النظر، فاذا انما الخلاف هل ذلك بتوقيف قولي او بمجرد استناد فعلي بحيث يبقى لهم فيه مجال للنظر؟ فهذا موضع الخلاف». (112).

(110) انظر تفسير المنار للشيخ محمد عبده 539/9 — 540 (ط، 1773/4 هـ مكتبة القاهرة).

(111) نفس المرجع 540/9.

(112) انظر البرهان في ترتيب سور القرآن ص: 183 من الجزء 2 من هذا الكتاب.

وقال الزركشي : «والخلاف يرجع إلى اللفظ، لأن القائل بالثاني — أي بالاجتهاد — يقول: انه رُمز اليهم بذلك لعلمهم بأسباب نزوله ومواقع كلماته، ولهذا قال الإمام مالك: انما أَلْقُوا القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي ﷺ مع قوله بان ترتيب السور اجتهاد منهم، فال خلاف إلى أنه: هل ذلك بتوقيف قولي ام بمجرد استناد فعلي؟(113).

4 — ترتيب السور توقيفي:

ذهب جمع من العلماء إلى أن ترتيب السور كما هو في المصحف انما كان من الشارع وبتوقيف منه لا فرق في ذلك بين ترتيب الآيات والسور، لانه لم ينقل عن الصحابة — زمن الجمع العثماني — اي اعتراض على ترتيب السور، مما يدل على أن الأمر لا دخل للاجتهاد فيه.

ويعتضد أصحاب هذا الرأي بعدة نصوص وحجج من بينها:

— ما أخرجه أحمد أبو داود عن أوس بن حذيفة الثقفي، وكان في وفد ثقيف الذين وفدوا على رسول الله ﷺ، وفيه : سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن؟ قالوا : ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده(114).

— ومنها ما رواه ابن ابي شيبة في مصنفه عن سعيد بن خالد : صلى رسول ﷺ بالسبع الطوال في ركعة(115).

— ومنها ما أخرجه البخاري في صحيحه عن واثلة بن الأسقع ان رسول الله ﷺ قال: «اعطيت مكان التوراة السبع الطوال، واعطيت مكان الزبور المئين، واعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل»(116).

(113) البرهان 257/1.

(114) سنن أبي داود. حديث رقم 1393.

(115) مصنف ابن أبي شيبة 368/1. (تحقيق عبد الخالق الافغاني، ط، 2 سنة 1979 الهند).

(116) قال أبو جعفر النحاس هذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبي صلى الله عليه وسلم وأنه مؤلف من ذلك الوقت، وانما جمع في المصحف على شيء واحد، لأنه قد جاء هذا الحديث بلفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم على تأليف القرآن، وفيه أيضا دليل على أن سورة الانفال سورة على حدة وليس من براءة (البرهان في علوم القرآن 258/1).

— ومنها ما أخرجه البخاري في صحيحه ايضاً عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «في بني اسرائيل، والكهف، وطه، والأنبياء، انهن من العتاق الأول وهن من تلادي». (117) فذكرها نسقاً كما استقر ترتيبها في المصحف.

واستناداً إلى هذه النصوص فقد ذهب جلة من العلماء إلى أن تأليف القرآن وترتيب آياته وسوره إنما كان بالوحي.

قال أبو جعفر النحاس: «المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله ﷺ». (118) واستدل على ذلك بحديث واثلة المذكور.

وقال أبو بكر الأنباري: «أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ثم فرق في بضع وعشرين، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث والآية جواباً لمستخبر ويوقف جبريل النبي ﷺ على موضع السورة والآية، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي ﷺ، فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن». (119)

وقال الطيبي: «أنزل القرآن أولاً جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ثم نزل مفرقاً على حسب المصالح، ثم أثبت في المصاحف على التأليف والنظم المثبت في اللوح المحفوظ». (120)

وقال ابن الحصار: «ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحي، كان رسول الله ﷺ يقول: «ضعوا آية كذا في موضع كذا» وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله ﷺ، ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف». (121)

(117) فضائل القرآن لابن كثير (ط دار الاندلس) ص: 42. وقوله: «من العتاق الأول أي من قديم ما نزل، وقوله «من تلادي أي من قديم ما قيت وحفظت.

(118) البرهان 258/1.

(119) البرهان 260/1.

(120) الاتقان 177/1.

(121) الاتقان 176/1.

وقال السيوطي : «ومما يدل على أنه توقيفي كون الحواميم رتبت وراء وكذا الطواسين ولم ترتب المسبحات وراء، بل فصل بين سورها، وفصل بين طسم الشعراء، وطسم القصص بطس مع أنها أقصر منها، ولو كان الترتيب اجتهادياً لذكرت المسبحات وراء وأخرت طس عن القصص» (122).

ويرد صاحب المباني على من يرى أن ترتيب السور والآيات اجتهادي فيقول : «فأي عقل كان يوجب تأخير «سورة إقرأ» إلى أخريات الكتاب وهي من أوله نزولاً، وتقديم قوله تعالى «واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله» (123) إلى أول الكتاب وهي من آخره نزولاً ؟ وكيف كان يوجب تأخير السور المكية وهي من أوائلها نزولاً، وتقديم السور المدنية وهي من أواخرها نزولاً ؟ فعلمت بهذا أن هذا أمر لا يهتدى إليه بعقل دون أن يكون له توقيف من سمع» (124).

الرأي المختار :

إذا كانت مسألة ترتيب سور القرآن قد اختلفت فيها الآراء، فذهب بعضهم إلى أنه اجتهادي من الصحابة مستندين في ذلك إلى اختلاف ترتيب مصاحف بعض الصحابة، وإلى حديث ابن عباس المذكور أعلاه، وذهب آخرون إلى أن دائرة الخلاف ضيقة وأن ما يمكن أن يجري فيه الخلاف سور معدودة، بل هناك من حصره في الأنفال وبراءة، بينما ذهب فريق ثالث إلى أن الخلاف لفظي، وأن الترتيب الذي هو في المصحف كان من فعل الصحابة كما تعلموه من رسول الله ﷺ .

فإن الذي نختاره في المسألة هو أن جميع سور القرآن كان ترتيبها توقيفياً للأسباب التالية :

(122) الاتقان 1/179.

(123) البقرة 280.

(124) مقدمتان في علوم القرآن ص : 61. نشر آرثر جيفري.

1 — النصوص الوفيرة التي يشد بعضها بعضاً، والتي تثبت أن الأكثر والأغلب من سور القرآن كان معلوم الترتيب، وهذا لا يعني أن باقي السور لم تكن معلومة الترتيب.

2 — ان جبريل كان يعرض القرآن على النبي ﷺ في العام مرة، وفي العام الذي توفاه الله مرتين⁽¹²⁵⁾ فكيف كان يعرض عليه ويعارضه بالقرآن ؟ هل على ترتيب نزوله ! ام على الترتيب الذي هو عليه في المصحف ؟ ولو كان عرض القرآن على ترتيب النزول، أو على ترتيب آخر، فهل كان زيد بن ثابت يخالف ذلك الترتيب وهو — بيقين — شهد العرضة الأخيرة وكان يقرئ بها الناس حتى مات، مما شرفه أن يُختار مشرفاً على لجنة الجمع العثماني ؟ إنه مما لاشك فيه ان عرض القرآن على النبي ﷺ كان على حسب ما رتب عليه بعد في المصحف العثماني وأقرته لجنة الجمع بدون خلاف.

3 — أجمعت الأمة منذ الصدر الأول — والحمد لله — على هذا الترتيب وارتضته جيلاً بعد جيل، فأصبح التزامه أمراً لا محيد عنه إلى قيام الساعة.

4 — ان القرآن كما هو معجز بسبب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو معجز أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته، وأن ما يقوم بين جمل القرآن وآيه وسوره من التناسب البارع والارتباط المحكم والاتلاف البديع ينتهي إلى حد الإعجاز لأكبر دليل على أنه نزل من اللوح المحفوظ كذلك.

ترتيب القرآن حسب النزول

من الثابت المشهور أن القرآن الكريم نزل إلى سماء الدنيا جملة واحدة ثم نزل بعد ذلك منجماً في عشرين سنة أو ثلاث وعشرين سنة حسب الخلاف في مدة إقامته بمكة بعد البعثة.⁽¹²⁶⁾

(125) قال ابن كثير والمراد من معارضته له بالقرآن كل سنة مقابلته على ما أوحاه إليه عن الله تعالى ليبقى ما بقي، ويذهب ما نسخ وتوكيدا واستثباتاً، وحفظاً لهذا عرضه عليه السلام في السنة الأخيرة من عمره على جبريل مرتين، وعارضه به جبريل كذلك، ولهذا فهم عليه السلام اقتراب أجله (فضائل القرآن لابن كثير ص : 44).

(126) الاتفاق 116/1.

أخرج أبو عبيد والنسائي والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة، وقرأ : «لا ياتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً» وقرأ : «وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً» (126م)

ولقد اهتم العلماء بضوابط القرآن المكي والمدني، وتتبعوا مواقع نزوله وترتيب ما نزل بمكة والمدينة، وما نزل بمكة وحكمه مدني وعكسه، وما نزل بمكة في أهل المدينة وعكسه، وما يشبه نزول المكي في المدني، وعكسه، وما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، وما نزل ليلاً، وما نزل نهاراً، وما نزل مشيعاً، (127) وما نزل مفرداً، ثم الآيات المدنيات في السور المكية، والآيات المكية في السور المدنية، ثم ما حمل من مكة إلى المدينة وعكسه، وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة، ثم ما نزل مجملاً، وما نزل مفسراً، وما نزل مزموراً، ثم ما اختلفوا فيه فقال بعضهم مدني وبعضهم مكِّي. (128)

وقد أورد كل من الزركشي، والسيوطي سور القرآن المكي والمدني حسب ترتيب نزولها وكان أول ما أنزل من القرآن : اقرأ، ثم ن، ثم يا أيها المزمل، ثم يا أيها المدثر، ثم تبت يدا أبي لهب، ثم إذا الشمس كورت، ثم سبح، ثم والليل، ثم والفجر، ثم والضحى، ثم ألم نشرح، ثم والعصر، ثم والعاديات، ثم إنا أعطيناك، ثم الهاكم التكاثر، ثم أرايت الذي يكذب، ثم قل يا أيها الكافرون، ثم سورة الفيل، ثم الفلق، ثم الناس، ثم قل هو الله أحد، ثم والنجم إذا هوى، ثم عبس، ثم انا أنزلناه، ثم والشمس وضحاها، ثم والسماء ذات البروج، ثم والتين، ثم لايلاف قريش، ثم القارعة، ثم لا أقسم بيوم القيامة، ثم الهمزة، ثم المرسلات، ثم ق، ثم لا أقسم، ثم الطارق، ثم اقتربت الساعة، ثم ص والقرآن، ثم الأعراف، ثم الجن، ثم يس، ثم

(126م) قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه، انظر المستدرك على الصحيحين 368/2 (ط، دار المعرفة بيروت).

(127) ورد في الحديث ان سورة الانعام شيعها سبعون ألف ملك ما بين السماوات والأرض لهم زجل بالتسبيح البرهان 199/1.

(128) البرهان 192/1 والانتقان 22/1.

الفرقان، ثم الملائكة، ثم مريم، ثم طه، ثم الواقعة، ثم الشعراء، ثم النمل، ثم القصص، ثم بني اسرائيل، ثم يونس، ثم هود، ثم يوسف، ثم الحجر، ثم الأنعام، ثم الصافات، ثم لقمان، ثم سبأ، ثم الزمر، ثم حم المؤمن، ثم حم السجدة، ثم جمعسق، ثم حم الزخرف، ثم الدخان، ثم الجاثية، ثم الأحقاف، ثم الذاريات، ثم الغاشية، ثم الكهف، ثم النحل، ثم انا ارسلنا نوحا، ثم ابراهيم، ثم الأنبياء، ثم المؤمنين، ثم تنزيل السجدة، ثم الطور، ثم تبارك الملك، ثم الحاقة، ثم سأل، ثم عم، ثم النازعات، ثم اذا السماء انفطرت، ثم اذا السماء انشقت، ثم الروم، ثم العنكبوت، ثم ويل للمطففين.

فهذا ما أنزل الله بمكة، ثم أنزل بالمدينة : البقرة، ثم الأنفال، ثم آل عمران، ثم الأحزاب، ثم الممتحنة، ثم النساء، ثم اذا زلزلت، ثم الحديد، ثم القتال، ثم الرعد، ثم الرحمن، ثم الإنسان، ثم الطلاق، ثم لم يكن، ثم الحشر، ثم اذا جاء نصر الله، ثم النور، ثم الحج، ثم المنافقون، ثم المجادلة، ثم الحجرات، ثم التحريم، ثم الجمعة، ثم التغابن، ثم الصف، ثم الفتح، ثم المائدة، ثم براءة. (129)

قال الزركشي : «وأما ما اختلفوا فيه ففاتحة الكتاب، قال ابن عباس والضحاك ومقاتل وعطاء : انها مكية، وقال مجاهد : مدنية، واختلفوا في «ويل للمطففين» فقال ابن عباس مدنية، وقال عطاء هي آخر ما نزل بمكة، فجميع ما نزل بمكة خمس وثمانون سورة، وجميع ما نزل بالمدينة تسع وعشرون سورة على اختلاف الروايات». (130)

ويرجع سبب الاختلاف في المكي والمدني، إلى أن المرجع في ذلك إلى حفظ الصحابة والتابعين، لأنه لم يرد عن النبي ﷺ في ذلك قول، لأنه لم يؤمر به ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول ﷺ. (131)

(129) البرهان 193/1، 194، والاتقان 26/1، 27 والفهرست لابن النديم ص : 37 — 39.

(130) الزركشي : 194/1.

(131) الاتقان 23/1.

الإعجاز في ترتيب القرآن :

والذي يهمننا من ذلك هو اختلاف ترتيب المصحف العثماني عن اختلاف بعض مصاحف الصحابة الخاصة التي كانت مرتبة — على العموم — حسب ترتيب السور نزولاً⁽¹³²⁾ ويمكننا أن نتساءل عن الأساس الذي رتب عليه المصحف العثماني مع قولنا بتوقيفية ترتيب السور ؟ ألم يكن من الطبيعي والبديهي أن يرتب القرآن كما نزل بالتتابع الأول فالأول ؟.

يقول الدكتور عبد الله دراز : « كان ينبغي أن يتبع إما الترتيب التاريخي للنزول، وإما الترتيب المنطقي البسيط المبني على تجانس الموضوعات، إلا أن السور القرآنية تتنوع موضوعاتها ولا تخضع لأي من الفرضين أو الترتيبين السابقين مما يدعونا إلى ترجيح وجود تصميم معقد يكون قد وضع في وقت سابق لنزول القرآن على قلب الرسول، ولكن سرعان ما نميل إلى الانصراف عن هذا الافتراض بسرعة لاننا نرى مدى الحرارة والاستحالة التي ينطوي عليها القاءه أو اظهاره على مدى عشرين عاماً، وبما يتناسب مع عديد من الملابس والظروف التي تستدعي هذا الحديث، والتي لا يمكن توقعها أو التنبؤ بها، غير أن السنة تؤكد لنا هذا الافتراض الغريب وتؤيده». (133)

فالواقع أنه فور نزول الوحي على الرسول ﷺ كان كل جزء منه صغيراً أو كبيراً يوضع في السور التي لم تكن قد اكتملت بعد، وفي مكان محدد من السورة، وفي موضع رقمي من آياتها، وفي ترتيب لم يكن دائماً هو الترتيب التاريخي، وبمجرد وضع الآية أو الآيات في موضع ما، بقيت فيه إلى الأبد دون أن يطرأ عليها تحويل أو تصحيح، وهذا يدل على أنه كان هناك تصميم لكل سورة، فضلاً عن تصميم أو خطة عامة للقرآن في جملة بمقتضى كل منهما كان كل وحي

(132) انظر ترتيب السور من هذا البحث ص : 48 وما بعدها.

(133) مدخل إلى القرآن الكريم ص : 120.

جديد يوضع في مكانه توأ بين آيات هذه السورة أو تلك من السور المفتوحة. (134)

وطريقة تأليف القرآن الكريم بهذا الشكل لا مثيل لها على الإطلاق، فلا يوجد كتاب من الكتب الدينية أو الأدبية أو غير ذلك ألف بهذا الشكل وفي مثل هذه الظروف، يقول الدكتور دراز: «وكأن القرآن كان قطعاً متفرقة ومرقمة من بناء قديم كان يراد إعادة بنائه في مكان آخر على نفس هيئته السابقة، وإلا فكيف يمكن تفسير هذا الترتيب الفوري والمنهجي في آن واحد فيما يتعلق بكثير من السور، إذا لم تكن الصحائف الخالية والصحائف التامة تمثل وحدة كاملة في نظر المؤلف؟» (135).

ويضيف متسائلاً: «أي ضمان تاريخي يستطيع ان يتحصل عليه الإنسان عند وضع مثل هذه الخطة إزاء الأحداث المستقبلية ومتطلباتها التشريعية والحلول المنشودة لها، فضلاً عن الشكل اللغوي الذي يجب أن تقدم به هذه الحلول وتوافقها الأسلوب مع هذه السورة بدلاً من تلك؟ وكيف يمكن مجرد تجميع وتقريب هذه القطع المبعثرة بعضها من بعض بدون تعديل أو لحام أو وصلات — رغم تنوعها الطبيعي وتفرقها التاريخي — أن يجعل منها وحدة عضوية متجانسة يتوافر فيها ما نرجوه من التماسك والجمال؟ الا يصدر مثل هذا المشروع، وقد بلغ هذا المبلغ من الطموح الا عن حلم خيالي او عن قوة فوق قدرة البشر، تتوفر فيها القدرة على إقامة مثل هذا التنسيق المنشود؟ وإلا فمن هو المخلوق الذي يستطيع أن يوجه الأحداث بما يتوافق تماماً مع هذا التصميم المرسوم، او كيف يمكن أن نخرج من مجموعة مصادفات بمثل هذا البناء الأدبي الرفيع وهو القرآن؟» (136)

(134) مدخل إلى القرآن الكريم ص : 120 .

(135) نفس المصدر ص : 21 .

(136) نفس المصدر ص : 120 .

أليس ذلك وحده آية بينة على أن هذا النظم القرآني ليس من وضع بشر، وإنما هو من صنع العليم الخبير ؟ بلى «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» (137).

إعادة ترتيب النص القرآني:

إذا كان النص القرآني قد رتب وفق نمط فريد، وعلى مدى عشرين سنة، فقد دل ذلك على وجود تصميم معقد يكون قد وضع في وقت سابق لنزول القرآن على قلب الرسول ﷺ ، لا دخل لأحد فيه، مما جعل المسلمين يدركون — منذ الصدر الأول أن ترتيب القرآن هو فوق الطاقة، فقد قال محمد بن سيرين لعكرمة أيام الجمع الأول للقرآن: ألفوه — أي القرآن — كما أنزل الأول فالأول، فأجاب عكرمة: لو اجتمعت الإنس والجن على أن يؤلفوه ذلك التأليف ما استطاعوا: (138).

وإذا كان عمل الصحابة في تدوين القرآن الكريم في مصاحف خاصة بهم، قد ألغي بتدوين المصحف العثماني، وبالترتيب الذي أجمع عليه الصحابة، واعتمدته الأمة دون أي اعتراض، فإن هناك دعوات تنبعث من حين لآخر لإعادة ترتيب القرآن الكريم، إما عن سوء نية وخبث طوية، وإما بدافع معرفة تتابع أحداث الدعوة الإسلامية في عهد المبعث أولاً بأول وحادثة بحادثة، بل إن أفراداً — قدماء ومحدثين رتبوا القرآن ترتيباً خاصاً كما اشرت الى ذلك من قبل.

وكيفما كان الحال فإن هذه الدعوة تنطوي على أمر خطير وهو فتح باب للاشتباه في سلامة النص القرآني، وزعزعة الثقة امام الاجيال المقبلة التي قد يقول قائل منها: انه في عصر ما غير ترتيب سور القرآن فلعله وقعت تغييرات أخرى لم نطلع عليها.

(137) النساء : 81.

(138) الاتقان 1/166.

موقف بعض المستشرقين من ترتيب القرآن :

لقد جهد كثير من المستشرقين وتحمسوا لدراسة النص القرآني باعتباره مصدر التحدي للعالم الغربي، وأساس الاختلاف بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية، ولذلك كان تركيزهم على القرآن قويا، وقد وجدوا في اختلاف ترتيب المصاحف الخاصة بالصحابة والتابعين وغيرهم مجالا للتشكيك في سلامة النص القرآني، ومن بين هؤلاء المستشرقين في العصر الحديث : «نولدكه» صاحب كتاب «المصاحف» الذي أخذ ترتيبه عن كتاب أبي القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي من رجال القرن الخامس، و«بلاشير» الفرنسي صاحب كتاب القرآن : نزوله تدوينه، ترجمته، تأثيره.

يقول بلاشير في سياق تقويمه لعمل المستشرقين في هذا المضمار : «اهتم بعض المؤرخين من علماء الاسلاميات امثال : «هوير، ونولدكي»، بالاهتداء الى التعاقب التاريخي في هذا المصحف للمنزلات التي نقلها محمد(139)... لكن نولدكي، ونخبة من علماء الاسلاميات الالمان قد نجحوا في تحديد طريقة أخرى للبحث بفضل معالجتهم الجديدة للمسألة بكاملها في «تاريخ القرآن» الذي ظهر من سنة 1919 الى 1938، لقد تنازل هؤلاء العلماء عن مطمحهم للاهتداء الى تسلسل للنصوص القرآنية لا لیس فيه، فنجحوا في اعادة جمع هذه النصوص وفقا لمراحل متعاقبة حددوها بحسب الاسلوب من جهة، وبحسب الموضوعات السياسية والدينية الموسعة في القرآن من جهة أخرى، وقد أبقى الجمع الجديد للنصوص على التقسيم العام الذي كرسه المؤلفون الاسلاميون العرب الى آيات مكية وآيات مدنية»(140)

وكعادة المستشرقين — غالبا — فان بلاشير ينظر الى القرآن وكأنه كتاب من الكتب البشرية خالف بتنظيمه الغير المعهود الترتيب التاريخي للنصوص التي

(139) الجمع الصوتي الأول للقرآن ص : 358، 359.

(140) لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم ينقل الوحي، وانما كان يأمر كاتبه بوضع كل جزء أو قطعة نزلت من القرآن في مكانها المرسوم لها في السورة بتوجيه من امين الوحي جبريل.

نزلت على محمد ﷺ واحداث بذلك خلا لا دواء له، وكان ذلك من النقص أو الغلط الذي أوقعه سيدنا عثمان رضي الله عنه في القرآن وهو يجاري في تأليفه له عادات الساميين، وفقهاء اللغة العراقيين في تقديم القصائد الشعرية الطويلة في مقدمة دواوينهم.

يقول بلاشير: «إن المائة والأربعة عشرة سورة التي يتألف منها هذا النص ترد اجمالاً وفقاً لتدرج هبوطي في الطول، هذا الترتيب يبدو مطابقاً لبعض العادات الخاصة بالساميين، هكذا أيضاً — في القرنين الثامن والتاسع — كان فقهاء اللغة العراقيون يضعون القصائد في مقدمة دواوينهم التي تضم آثار الشعر العربي القديم، هذا التنظيم في مصحف عثمان كانت نتيجته أحداث خلل لا دواء له في الترتيب التاريخي للنصوص التي نزلت على محمد، فإن السور الطويلة موافقة للدعوة في المدينة بين سنة 622 — 632م، أما السور القصيرة والمتوسطة، وهي نصوص من الفترة المكية على العموم، فإنها ترد في نهاية المصحف فقط... فيمكننا القول بأننا نقرأ القرآن بتاريخ معكوس». (142)

ومثل بلاشير فان المبشر الانجليزي «ارثر جفري» مؤلف كتاب المصاحف. (143) قد وقع تحت تأثير التاريخ الكنسي المسيحي الذي ألف دراسته الى درجة أنه يكاد يكون قد نقله بأحداثه الكاملة أثناء بحثه في المجال الاسلامي،

(141) القرآن : نزوله تدوينه ترجمته تأثيره لبلاشير، ترجمة رضا سعادة ص : 26. (ط، 1/1974م دار الكتاب اللبناني — بيروت).

(142) القرآن نزوله تدوينه ص : 37، 38.

(143) جمع فيه الاختلافات المنسوبة إلى المصحف الفردي لكل من : ابن مسعود، وأبي بن كعب، وعلي بن أبي طالب، وابن عباس، وإبي موسى الأشعري، وحفصة، وأنس بن مالك، وعمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، وابن الزبير، وعائشة، وسالم مولى أبي حذيفة، وأم سلمة، وعبيد بن عمير، كما جمع الاختلافات المنسوبة إلى مصاحف التابعين للصحابه وهم الاسود بن يزيد، وعلقمة، وحطان، وسعيد بن جبير، وطلحة وعكرمة، وعطاء بن رباح، والربيع بن الخيثم، والاعمش، وجعفر الصادق، وصالح بن كيسان، والحارث بن سويد. كما جمع الاختلافات المنسوبة إلى المصاحف المجهولة الاتباع (انظر : الجمع الصوتي الأول للقرآن ص : 322، 323).

فهو يحاول أن يثبت ان النص القرآني قد مر بأطوار تشبه من جوانب كثيرة ما مر به الانجيل (144).

وإذا كان المستشرقون — عموما وبدافع من الخلفيات الفكرية للصراع الحضاري بين المسيحية والاسلام — كانوا ينساقون الى مجانبة الموضوعية في دراساتهم للاسلام وكتابه العزيز فان كتابا ومفكرين من أبناء جلدتنا اما بدافع التأثير بالدراسات الاستشراقية، واما بدافع الاجتهاد في البحث والدراسة قد أخطأوا في الاتجاه الى القول باعادة ترتيب سور القرآن حسب نزولها من سورة العلق ثم المزل ثم المدثر ثم الفاتحة حتى يختم بسورة النصر، بدعوى «ان ترتيب القرآن — في وضعه الحالي — يبلبل الافكار، ويضيع الفائدة المطلوبة من نزول القرآن، لأنه يخالف منهج التدريج التشريعي الذي روعي في النزول ويفسد نظام التسلسل الطبيعي للفكرة، لان القارئ اذا انتقل من سورة مكية الى سورة مدنية، اصطدم صدمة عنيفة وانتقل — بدون تمهيد — الى جو غريب عن الجو الذي كان فيه... الخ» (145).

رفض تفسير القرآن حسب ترتيب نزوله

اذا كان بعض العلماء — قدماء ومحدثين — قد سوغوا لأنفسهم تفسير وحدات او سور قرآنية مستقلة عن مجموع آيات وسور القرآن (146) خدمة

(144) مدخل إلى القرآن الكريم ص : 45.

(145) صاحب هذه الدعوى هو «يوسف راشد» الذي تقدم برسالة «تحت عنوان : «رتبوا القرآن كما انزله الله» وقد كتب المرحوم الدكتور عبد الله دراز تقريراً عن هذه الرسالة رفعه إلى ادارة الازهر، نص التقرير نشر في مجلة : كنوز القرآن. عدد اكتوبر ونوفمبر 1951 (الجمع الصوتي الأول القرآن ص : 359، وهامش رقم 1) ولا يخفى ما في هذا القول من جرأة وتناول على ترتيب القرآن ونظمه.

(146) من القدماء : هشام الكلبي، روى ابن النديم في فهرسته (ص 51) أن له كتاب تفسير الايات التي نزلت في أقوام بأعيانهم، ومنهم شيخ الاسلام ابن تيمية الذي كتب تفسيراً لسورة الاخلاص وكتب تفسيراً لسور : الأعلى، والشمس، والليل، والعلق، والتين، والبينة، والكافرون. ومن المحدثين عدد كبير منهم : الامام الشيخ محمد عبده الذي نشر له تفسير سورة العصر، وتفسير جزء عم.

لكتاب رهم، وتبسيطا لقضايا دينهم بطريقة تكون اكثر نفعاً، واقرب منا لا ودون أن تثير أي اعتراض أو نقد، فإن أحد العلماء المحدثين في الشام، وهو الدكتور محمد عزة دروزة رحمه الله (147) قد توسع في المسألة كثيراً، متخذاً مما ذكرنا مستنداً، فقام بانجاز تفسير للقرآن الكريم، مرتباً سورة على ترتيبها في النزول، معززا رأيه بان التفسير ليس مصحفاً للتلاوة من جهة وهو عمل فني او علمي من جهة ثانية، ولأن تفسير كل سورة يصح أن يكون عملاً مستقلاً بذاته لا صلة له بترتيب المصحف وليس من شأنه ان يمس قدسية ترتيبه من جهة ثالثة، (148)

وقد اعتضد هذا العالم فيما ذهب اليه الى فتويين :

— احدهما صدرت عن مفتي سورية الشيخ أبو اليسر عابدين جاء فيها :
ليس التفسير بقرآن يتلى حتى يراعى فيه ترتيب الايات والسور، فقد يعن للمفسر أن يفسر آية ثم يترك ما بجانبها لظهور معناها، وقد يفسر سورة ثم يترك ما بعدها اعتماداً على فهم التالي، ولا مانع من تأليف تفسير على الشكل المذكور، والله أعلم».

— والثانية صدرت عن الشيخ عبد الفتاح أبي غدة جاء فيها : «ان شبهة المنع لهذه الطريقة آتية من جهة أنها طريقة تخالف ما عليه المصحف الشريف، ودفع هذه الشبهة ان المنع يثبت فيما لو كان هذا الصنيع مسلوفاً من أجل ان

== والامام الشيخ المراغي الذي نشر له تفسير ميسر لاي خاصة من القرآن الكريم، والذكورة بنت الشاطيء نشر لها التفسير البياني للقرآن الكريم في جزئين يتناول (ج 1) سور : الضحى، والزلزلة، والنازعات، والعاديات، والبلد، والتكافر — ويتناول (ج 2) سور : العلق، والقلم، والعصر، والليل، والفجر، والهمزة، والماعون، والشهد حسن البناء نشر له تفسير الفاتحة، والداعية المرحوم أبو الأعلى المودودي نشر له تفسير سورة النور. الا أن هذه التفسيرات رغم قيمتها العلمية فانها لا تنهض — من وجهة نظرنا — دليلاً على جواز تفسير القرآن وفق ترتيب يخالف لترتيب المصحف العثماني لاختلاف القصد بين هؤلاء وأولئك.

(147) وهو عالم جليل، اصله من فلسطين قاوم الاستعمار وتعرض للسجن بسبب الثورة الفلسطينية من سنة 1937 — مارس 1945 وفي السجن كتب مسودة تفسيره : «التفسير : الحديث» حسب ترتيب النزول، وله عدة مؤلفات قيمة منها : عصر النبي ﷺ، وسيرة الرسول ﷺ من القرآن، والدستور القرآني في شؤون الحياة، والقرآن المجيد، جعله بمثابة مقدمة مستقلة لتفسيره، والمبشرون والقرآن... أنظر مقدمة تفسيره ص : 5، 6، ط 1 دار إحياء الكتب العربية 1962م لباني الحلبي.

(148) انظر مقدمة تفسيره ص : 9

يكون هذا الترتيب مصحفاً للتلاوة... ويستأنس لسواغية هذه الطريقة بما سلكه
اجلة من علماء الامة المشهود لهم بالامامة والقُدوة من المتقدمين في تأليفهم، ولم
يَعْلَم أن أحدا انكر عليهم ما صنعوا⁽¹⁴⁹⁾

وقد اعتمد في تفسيره على الترتيب الذي جاء في مصحف الخطاط
قَدْرُوغَلِي، لأنه ذكر فيه أنه طبع تحت إشراف لجنة خاصة من ذوي العلم والوقوف،
حيث يتبادر الى الذهن ان يكون قد اشير الى ترتيب النزول فيه (السورة كذا نزلت
بعد السورة كذا) بعد اطلاع اللجنة على مختلف الروايات والترجيح بينها.⁽¹⁵⁰⁾

ولا يخفى ما يمكن ان تواجه ترتيب القرآن وفق النزول من صعوبات، وقد
اعترف المؤلف بذلك حين اضطر الى مخالفة الترتيب الذي اختاره حيث قال :
«ولقد رأينا مع ذلك ان نخالف هذا المصحف⁽¹⁵¹⁾ بعض الشيء. فسور العلق،
والقلم، والمزمل، والمدثر، التي وردت فيه كالسور الاولى والثانية والثالثة والرابعة
بالتوالي ليست كذلك الا بالنسبة لمطالعها فقط على أحسن تقدير، حيث إن ما
يأتي بعد هذه المطالع لا يمكن ان يكون نزل الا بعد نزول سور وفصول
غيرها»⁽¹⁵²⁾

كما لم يفت المؤلف أن يشير الى أن ترتيب سور القرآن على حسب النزول
فيه شيء من التجوز فنص على أنه ليس في الامكان تعيين ترتيب صحيح لنزول
السور القرآنية جميعها، كما أنه ليس هناك ترتيب يثبت بكامله على النقد او يستند
الى أسانيد قوية ووثيقة، وزيادة على هذا فان في القول بترتيب السور حسب نزولها
شيئاً من التجوز».⁽¹⁵³⁾

(149) انظر نص الفتاوى في مقدمة تفسيره ص : 9 — 11.

(150) المصدر السابق ص 12، 13، وانظر جدول ترتيب نزول السور على حسب ما ورد في مطالع سور هذا المصحف
ص : 14—15.

(151) يقصد مصحف الخطاط قدر وغلي الذي اختاره لأن ترتيبه اكثر ضبطاً لطبعه تحت اشراف لجنة من ذوي العلم
والوقوف (مقدمة تفسيره ص : 12)

(152) مقدمة التفسير الحديث ص : 16

(153) نفس المصدر.

وقد سلك هذا المسلك في تفسير القرآن ايضا الدكتور أسعد أحمد علي، فأصدر تفسيراً⁽¹⁵⁴⁾ جاء اكتشافاً لمنهج في اليسر التربوي قوامه ستة مستويات في كل منها تفسير تسع عشرة سورة⁽¹⁵⁵⁾، وقد تتبع فيه «تفاصيل السيرة النبوية، وتدرج نزول آيات القرآن على النبي بدءاً بالآيات الأولى من سورة العلق، وانتهاء بسورة النصر، مروراً بما بينهما من السور وفق تاريخ نزولها»⁽¹⁵⁶⁾

وإذا كان مستند هؤلاء القائلين بترتيب سور القرآن حسب نزولها متقارباً ومتشابهاً يضع في الاعتبار التدرج التشريعي الذي روعي في النزول لئلا تتبلبل الأفكار وتضيع الفائدة المطلوبة من نزول القرآن⁽¹⁵⁷⁾. أو اظهار حكمة التنزيل ومبادئ القرآن ومتنولاته عامة بأسلوب وترتيب حديثين متجاوبين مع الرغبة الشديدة الملموسة عند كثير من شبابنا الذين يتدمرون من الأسلوب التقليدي ويعرضون عنه⁽¹⁵⁸⁾. ووضع منهج لليسر التربوي⁽¹⁵⁹⁾. وهي كلها اعتبارات متداخلة وتبريرات ضعيفة لتغيير الترتيب المجمع عليه والمنقول إلينا بالتواتر جيلاً بعد جيل، ونحن مع أبي بكر الأنباري في أن «اتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي ﷺ، وإن من قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن»⁽¹⁶⁰⁾

ولذلك فإننا لا نملك إلا التمسك بالقول بتوقيفة، ترتيب السور، وإن دعوى إعادة ترتيب القرآن مردودة — في نظرنا — للأسباب التالية :

أ — أن ترتيب السور توقيفي على ما يقرره جمهور العلماء، ولم يخالف سني ولا شيعي في التزام هذا الوضع الذي كان عليه المصحف من أول يوم.

(154) عنوانه : تفسير القرآن المرتب منهج اليسر التربوي، طبع بدار السؤال للطباعة والنشر بدمشق سنة 1979 ط (1).

(155) تفسير القرآن المرتب ص : 10.

(156) نفس المصدر ص : 29.

(157) وهو ما قال به «يوسف راشد» الأنف الذكر.

(158) مقدمة التفسير الحديث ص : 5.

(159) وهو مستند د : أسعد أحمد علي.

(160) البرهان 1 / 260

ب — وان احترام قدسية الوضع المأثور يقضي بالمحافظة على النسق القائم الآن في الآيات والسور جميعا، وان فكرة ترتيب المصحف — على حسب النزول — كانت تقضي بتغيير الوضع في السور والآيات جميعا بل هي — في الآيات — كانت اشد اقتضاء ومع ذلك فقد خولفت.

ج — وان تغيير الترتيب يفتح مجال الشبهة امام العصور المقبلة فيقول قائل منهم : إنه لم يبق لنا ثقة بأن هذا الكتاب بقي في كل العصور بعيدا عن كل تعديل، لانه في عصر ما غيرت اوضاع السور فيه، فلعله قد اصابته — قبل ذلك — تعديلات أخرى لم تصل إلينا انبأؤها.

د — وان هذه الدعوة خارقة لاجماع المسلمين، ويحرف بها الكلم عن مواضعه التي وضعها الله فيها، ولن يكون من ورائها الا افساد النسق وتشويه جماله. (161)

هـ — ان فتح اعادة ترتيب السور حسب نزولها — قد يؤدي الى فتح باب آخر أشد خطرا على كتاب الله العزيز، فيغري بعض المتطفلين على القرآن فيطالبون باعادة ترتيب الآيات حسب نزولها، وفي ذلك من التحريف والتشويه لنظم القرآن، وافساد لحسن ترتيبه ورصف آياته وكلماته، مالا يقول به الا جاهل ببيان القرآن واعجازه، او ماكر يريد ان يأتي على بنيان الاسلام من اركانه.

(161) رد الدكتور عبد الله دراز على رسالة «يوسف راشد» المذكورة والتي طالب فيها بترتيب القرآن حسب النزول بهذه الحجج ورفعها ضمن تقريره الى ادارة الازهر (الجمع الصوتي الاول للقرآن هامش 1، 2 من ص : 359).

المبحث الثالث

التناسب وجه من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم

التناسب وجه من وجوه الاعجاز

تعريف التناسب :

المناسبة في اللغة المشاكلة والمقاربة، ومرجعها في الآيات ونحوها الى معنى رابط بينهما عام أو خاص عقلي أو حسي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع علاقات التلازم الذهني كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول والنظيرين والضدين، ونحو ذلك. (1)

ومناسبة الآيات والسور، وارتباط بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني، مرتبطة المباني وجه من وجوه اعجاز القرآن الكريم «فكما أنه معجز بحسب فصاحة الفاظه وشرف معانيه، فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته» (2).

علم المناسبات وأهميته :

علم مناسبات القرآن هو «علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة، لأدائه الى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال، وتتوقف الاجازة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها، فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير كنسبة علم البيان من النحو» (3)

قال السيوطي : «علم المناسبة علم شريف قل اعتناء المفسرين به لدقته، ومن أكثر منه الإمام فخر الدين، قال في تفسيره : أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط» (4) وأول من سبق إلى هذا العلم الشيخ أبو بكر النيسابوري،

(1) معترك الاقران في اعجاز القرآن للإمام السيوطي 1/ 57. تحقيق محمد علي البجاوي، ط، دار الفكر العربي.

(2) نفس المرجع 1/ 56.

(3) نظم الدرر في تناسب الآي والسور لبرهان الدين البقاعي (مخطوط) رقم 181 في الخزانة العامة بالرباط : 1/ 3.

(4) معترك الاقران 1/ 55.

وكان كثير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئت عليه الآية : «لم جعلت هذه الآية جنب هذه ؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة في جنب هذه السورة؟ وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة»⁽⁵⁾.

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : «المناسبة علم حسن لكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصاب عن مثله حسن الحديث فضلاً عن أحسنه، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض»⁽⁶⁾.

وقد وهّم الشيخ ولي الدين الملوي من قال لا يُطلب للآية الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المتفرقة فقال : «وفصل الخطاب إنها — أي الآية — على حسب الوقائع تنزيلاً وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً، فالمصحف على وفق اللوح المحفوظ مرتبة سوره وآياته بالتوقيف، كما أنزل جملة إلى بيت العزة»⁽⁷⁾.

أنواع التناسب :

لقد تنبه المفسرون والباحثون في البلاغة وإعجاز القرآن إلى ألوان ودرجات من التناسب تبلغ الذروة في تصوير القرآن وإعجازه ذكر منها سيد قطب ما يلي :

1 — التنسيق أو التناسب في تأليف العبارات بتخير الألفاظ، ثم نظمها في نسق خاص يبلغ في الفصاحة أرقى درجاتها، وقد أكثروا من القول في هذا اللون وبلغوا غاية مداه.

2 — الإيقاع الموسيقي الناشئ من تخير الألفاظ ونظمها في نسق خاص، ومع أن هذه الظاهرة واضحة جد الوضوح في القرآن، وعميقة كل العمق في بنائه

(5) هو محمد بن عبدوس بن أحمد بن الجنيد أبو بكر المقرئ المفسر الواعظ النيسابوري. إمام فاضل عالم بمعاني القرآن توفي سنة 338 هـ (طبقات المفسرين للداودي: 2/ 191). تحقيق علي محمد عمر ط، 1 مطبعة الاستقلال الكبرى نشر مكتبة وهبة.

(6) معترك الاقران 1/ 55.

(7) المصدر السابق 1/ 55، 56.

الفني، فإن خديثهم عنها لم يتجاوز ذلك الإيقاع الظاهري، ولم يرتق إلى إدراك التعدد في الأساليب الموسيقية، وتناسق ذلك كله مع الجو الذي تطلق فيه هذه الموسيقى، ووظيفتها التي تؤديها في كل سياق.

3 — تلك التنبيهات البلاغية التي تنبه لها الكثيرون من التعقيبات المتفقة مع السياق، كأن تجيء الفاصلة «وهو على كل شيء قدير» بعد كلام يثبت القدرة، والفاصلة «ان الله عليم بذات الصدور»⁽⁸⁾ بعد كلام في وادي العلم المستور، وكأن يعبر بالإسم الموصول لتكون جملة الصلة بياناً لعلّة الجزاء مثل : «إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط»⁽⁹⁾، وكأن يعبر بلفظ «الرب» في مواضع التربية والتعليم مثل «اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم»⁽¹⁰⁾، بينما يعبر بلفظ «الله» في مواضع التألّيه والتعظيم مثل : «ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام»⁽¹¹⁾.

4 — ذلك التسلسل المعنوي بين الأغراض في سياق الآيات، والتناسب في الانتقال من غرض إلى غرض وبعضهم يتمحل لهذا التناسق — يقول سيد قطب — تمحلاً لا ضرورة له حتى ليصل إلى حد من التكلف ليس القرآن في حاجة إلى شيء منه.

5 — التناسق النفسي بين الخطوات المتدرجة في بعض النصوص، والخطوات النفسية التي تصاحبها كقول الزمخشري عند تفسيره لسورة الفاتحة : «إن العبد إذا افتتح حمد مولاه الحقيق بالحمد عن قلب حاضر ونفس ذاكرة لما هو فيه بقوله : «الحمد لله» الدال على اختصاصه بالحمد، وإنه حقيق به، وجد من

(8) لقمان : 23.

(9) الاعراف : 39.

(10) العلق : 1

(11) لقمان : 33.

نفسه لا محالة محركاً للإقبال عليه، فإذا انتقل على نحو الافتتاح إلى قوله : «رب العالمين» الدال على أنه مالك للعالمين، لا يخرج منهم شيء عن ملكوته وربوبيته قوى ذلك المحرك، ثم إذا انتقل إلى قوله : «الرحمن الرحيم» الدال على أنه منعم بأنواع النعم جلائلها ودقائقها، تضاعفت قوة ذلك المحرك، ثم إذا انتقل إلى خاتمة هذه الصفات العظام وهي قوله : «مالك يوم الدين» الدال على أنه مالك للأمر كله يوم الجزاء، تناهت قوته، وأوجب الإقبال عليه، وخطابه بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة في المهمات : «إياك نعبد وإياك نستعين». (12)

ثم عقب رحمه الله — على هذه الأنواع من التناسب بقوله : «ومع أن الخصائص التي طرقوها حقيقية وقيّمة، فإنها لا تزال أولى مظاهر التناسق التي يلمحها الباحث في القرآن، ووراءها آفاق أخرى لم يتعرضوا لها أصلاً» (13).

ثم قال «ولما كان التصوير في القرآن مسألة لم يعرضوا لها قط بوصفها أساساً للتعبير القرآني جملة فقد بقي التناسق الفني في هذا «التصوير» بعيداً عن آفاق بحثهم بطبيعة الحال». (14)

6) — التصوير الفني : ويمكن اعتبار «التصوير الفني في القرآن» نوعاً سادساً من أنواع التناسق، وهي مسألة لم يسبق إليها — سيد قطب رحمه الله، وبقي التناسق الفني في هذا «التصوير» بعيداً عن آفاق بحثهم كما يقول هو نفسه (15)

والتصوير الفني عند سيد قطب «هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو — أي القرآن — يعبر بالصورة المحسنة المتخيّلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة

(12) التصوير الفني في القرآن ص : 74، 75، 27. للشهيد السيد قطب ط، 1971/7 دار إحياء التراث العربي بيروت.

(13) نفس المصدر ص : 75.

(14) نفس المصدر ص : 76.

(15) نفس المصدر.

البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية».

فأما الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار، فقد استوت لها كل عناصر التخيل، فما يكاد يبدأ العرض حتى يُحِيل المستمعين نظارة، وحتى ينقلهم نقلا إلى مسرح الحوادث الأول، الذي وقعت فيه أو ستقع، حيث تتوالى المناظر وتتجدد الحركات، وينسى المستمع أن هذا الكلام يتلى ومثل يضرب، ويتخيل أنه منظر يعرض وحادث يقع، فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو، وهذه سمات الإنفعال بشتى الوجدانيات المنبعثة من الموقف، المتساوقة مع الحوادث، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة، فتنم عن الأحاسيس المضمرة.(16)

التناسب في نظم القرآن :

وإذا كان التناسب في القرآن هو منبع السحر فيه، فإن بعض الباحثين في مزايا القرآن قد تلمسوا جوانب أخرى لتأثير القرآن واعجازه كتشريعه العادل، واخباره عن المغيبات التي تحققت بعد سنوات، ومطابقته للحقائق العلمية في خلق الكون والانسان.

وإذا كان البحث في هذه المجالات إنما يثبت المزية للقرآن مكتملا، فما القول في السور القلائل التي لا تشريع فيها ولا غيب ولا علوم، ولا تجمع — بطبيعة الحال — كل المزايا المتفرقة في القرآن ؟ ان هذه السور القلائل — ومنذ نزولها — قد سحر العرب بها مما يدل على أنها كانت تحتوي على العنصر الذي يأخذ بألباب المستمعين ويستحوذ على المومنين والكافرين، حتى قال قائلهم فيه «إن هذا الأ سحر يوثر»(17).

(16) التصوير الفني في القرآن : 34.

(17) المدثر : 24.

وقصة تولي الوليد بن المغيرة⁽¹⁸⁾ الواردة في سورة «المدثر» وهي من أوائل السور نزولا ترينا أي سحر كان في هذه السور حتى اضطرب له الوليد بن المغيرة ذلك الاضطراب مع أنا لا نجد فيها تشريعا محكما، ولا علوما كونية ولا إخبارا بالغيب يقع بعد سنين كالذي ورد في سورة الروم وهي السورة الرابعة والثمانون نزولا.

لابد إذن — يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله — أن السحر الذي عناه المغيرة كان كامنا في مظهر آخر غير التشريع والغيبات والعلوم الكونية، لابد أنه كامن في صميم النسق القرآني⁽¹⁹⁾ ذاته

ويقول الرافعي : «لما ورد عليهم أسلوب القرآن رأوا ألفاظه بأعيانها متساوقة فيما ألفوه من طرق الخطاب وألوان المنطق، ليس في ذلك إعنات ولا معاياة، غير أنهم ورد عليهم من طرق نظمه ووجوه تركيبه ونسق حروفه في كلماتها وكلماته في جملها ونسق هذه الجمل في جملة...»⁽²⁰⁾

وإذا كان منبع السحر والاعجاز في القرآن الكريم هو في نظمه، وإن جهات النظم ثلاث : في الحروف، والكلمات، والجمل، كان لابد لنا من أفراد كل جهة بالكلام لبنين من خلال تناسب حروفه في كلماته، وكلماته في جملة، وجملة في سورة ما يطلعنا على النقص في كلام البلغاء، وانحطاطه عن مرتبة القرآن، وظهوره على سائر الكلام.

1 — تناسب الحروف في الكلمات :

لما كان الأصل في نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها من الدلالة المعنوية، استحال أن يقع في تركيبه ما يسوغ الحكم في كلمة زائدة أو

(18) انظر في سيرة ابن هشام 1/ 283 وما بعدها قصة القرار الذي اتخذته المغيرة مع قريش في حق سيدنا محمد ﷺ وهو أنه ساحر للحيولة دون سماع الوفود القادمة للموسم للقرآن الكريم. ط، دار الفكر، ضبط وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد.

(19) التصوير الفني في القرآن ص : 19.

(20) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي ط، 9 سنة 1973 دار الكتاب العربي ص : 189.

حرف مضطرب أو ما يجري مجرى الحشو والاعتراض. يقول الدكتور عبد الله دراز : «دع القارئ المجود يقرأ القرآن ويرتله حق ترتيله نازلاً بنفسه على هوى القرآن، وليس نازلاً بالقرآن على هوى نفسه، ثم انتبذ منه مكاناً قصياً لا تسمع فيه جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية، وقد جردت تجريداً وارسلت ساذجة في الهواء، فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر لو جرد هذا التجريد، وجود هذا التجويد، ستجد اتساقاً وائتلافاً يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر، على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر.... فإذا ما اقتربت بأذنك قليلاً قليلاً فطرقت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها». (21)

ويقول الرافعي : «فلو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة، فهيء بعضها لبعض، ويساند بعضها بعضاً، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف مساوقة لها في النظم الموسيقي، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل — أيها كان — فلا تعذب ولا تساغ وربما كانت أوكس النصيبين في حظ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنًا عجيباً، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقاً في اللسان واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه». (22).

من ذلك لفظة «النذر» فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً فضلاً عن جُسْأة (23) هذا الحرف ونَبْؤُهُ في اللسان، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام. فكل ذلك مما يكشف عنه ويفصح عن موضع الثقل فيه، ولكنه جاء في القرآن

(21) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن د. عبد الله دراز ص : 101 — 103 باختصار. ط، 2 سنة 1970 دار القلم الكويت.

(22) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ص : 227.

(23) الجسأة : الخشونة (اللسان لابن منظور : جسأ).

على العكس وانتفى من طبيعته في قوله تعالى : «ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر» (24)، فتأمل هذا التركيب وأنعم ثم أنعم على تأمله وتذوق مواقع الحروف وأجر حركاتها في حس السمع، وتأمل مواضع القلقلة (25) في دال «لقد» وفي الطاء من «بطشتنا»، وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو «تماروا» مع الفصل بالمد، كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان ليكون ثقل الضمة عليه مستخفاً بعد، ولكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الاحماض في الأطعمة، ثم ردد نظرك في الراء من «تماروا» فانها ما جاءت الا مساندة لراء «النذر» حتى اذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها، فلا تجف عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه، ثم أعجب لهذه الغنة (26) التي سبقت الطاء في نون انذرهم وفي ميمها، وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في «النذر» (27).

وإذا كان نظم القرآن قد اشتمل على ما مر من التناسب والجمال، الم يكن أجدر بمعارضيه أن يغيرهم بمحاكاته، وان يخضعوا أسلوبه لألستهم وأقلامهم يباعث الجبله كما يصنع الكتاب والخطباء في اقتداء بعضهم ببعض ؟

ان الذي منعهم من ذلك ولا شك — ما فيه من منعة طبيعية في غريب بنيته، ورصف حروفه وكلماته وجمله وآياته فلا جرم — يقول الدكتور دراز — انهم «لم يجدوا له مثالا يحاذونه به، ولا سبيلا يسلكونه إلى تذليل منهجه، وآية ذلك ان أحدا لو حاول ان يُدخل عليه شيئاً من كلام الناس من السابقين منهم أو اللاحقين، من الحكماء أو البلغاء أو النبیین والمرسلين، لأفسد بذلك مزاجه في

(24) القمر : 36.

(25) حروف القلقلة خمسة وقد رمزوا اليها ب : «قطب جد» وسميت بذلك لظهور صوت يشبه النبرة عند الوقف عليهن وإرادة اتمام النطق بهن، فذلك الصوت في الوقف عليهن ابين منه في الوصل بهن. (انظر الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة لمكي بن أبي طالب : ص : 100. تحقيق د. أحمد حسن فرحات ط، دار المعارف للطباعة دمشق 1973م.

(26) الغنة صوت يخرج من الأنف لا عمل للسان فيه، ومقدارها حركتين، وتكون الغنة على الميم المشددة مثل : «أما» و «عم» وعلى النون المشددة نحو : ان «الجنة» و «الناس». انظر الرعاية لتجويد القراءة ولفظ التلاوة ص : 214 وما بعدها، وحق التلاوة لحسني شيخ عثمان ص : 69. ط، 2 سنة 1977 مؤسسة الرسالة المكتبة السلفية.

(27) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ص : 227، 228.

فم كل قارىء، ولجعل نظامه يضطرب في أذن كل سامع، وإذا لنادى الداخل على نفسه بأنه واغل دخيل، ولنفاه القرآن عن نفسه كما ينفي الكير خبث الحديد «وانه لكتب عزيز لا ياتيه البطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» (30). حميد» (28).

وإذا كان نظم القرآن قد أعىى العرب وهم أهل الفصاحة والبيان فقد وجد من المفسرين والنحاة من قال في بعض الكلمات القرآنية : انها مقحمة، وفي بعض حروفه انها زائدة زيادة معنوية (29)، «الا ان الحكم بهذا الضرب من الزيادة أو شبهها انما هو ضرب من الجهل — مستورا أو مكشوفاً — بدقة الميزان الذي وضع عليه أسلوب القرآن» (30).

ولنأخذ على سبيل المثال : قوله تعالى : «فبا رحمة من الله لنت لهم» (31) وقوله : «فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا» (32) فان النحاة يقولون ان «ما» في الآية الأولى و«أن» في الثانية زائدتان في الاعراب. فيظن من لا بصر له انهما كذلك في النظم وقيس عليه، مع ان في هذه الزيادة لونا من التصوير لو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته، فان المراد بالآية الأولى تصوير لين النبي ﷺ لقومه وان ذلك رحمة من الله فجاء هذا المد في : «ما» وصفا لفظيا يؤكد معنى اللين ويفخمه، وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية لا يتبدأ هذا المعنى بأحسن منهما في بلاغة السياق، ثم كان الفصل بين الباء الجارة ومجرورها — وهو لفظ رحمة — مما يلفت النفس إلى تدبر المعنى وينبه الفكر على قيمة الرحمة فيه وذلك كله طبيعي في بلاغة الآية كما ترى.

(28) فصلت : 41.

(29) النبأ العظيم : ص : 105—106. للدكتور محمد عبد الله دراز ط، 2 1970 دار القلم الكويت.

(30) نفس المصدر ص : 130—131. تقول الدكتورة بنت الشاطيء في كتابها «الاعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق» ص : 168 حاول اللغويون والبلاغيون في تأويلها — أى الحروف — ان يعدلوا بها على وجه التقدير عن الوجه الذي جاء به، لكي تلبي مقتضيات الصنعة الاعرابية وتخضع لقواعد المنطق البلاغي المدرسي، فبقيت هذه الحروف تتحدى كل محاولة بتغيير أو تقدير لحذف أو زيادة. «انظر لمزيد من التوسع الكتاب المذكور من ص : 168—191 ط، دار المعارف بمصر 1971 م.

(31) آل عمران : 159.

(32) يوسف : 96.

والمراد بالثانية : تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقصيص يوسف وبين مجيئه لبعده ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام، وإن ذلك كأنه كان منتظرا بقلق واضطراب، تؤكدهما وتصف الطرب لمقدمه واستقراره غنة هذه النون في الكلمة الفاصلة وهي «أن» في قوله : «أن جاء»⁽³³⁾.

وعلى هذا يقول الرافعي — : «يجرى كل ما ظن انه في القرآن مزيد، فان اعتبار الزيادة فيه واقرارها بمعناها، إنما هو نقص يجلب القرآن عنه، وليس يقول بذلك الا رجل يعتسف الكلام ويقضي فيه بغير علمه أو بعلم غيره... فما في القرآن حرف واحد إلا ومعه رأي يسنح في البلاغة من جهة نظمه، أو دلالة أو وجه اختياره، بحيث يستحيل البتة أن يكون فيه موضع قلق، أو حرف نافر، أو جهة غير محكمة، أو شيء مما تنفذ في نقده الصنعة الانسانية من أي أبواب الكلام ان وسعها منه باب»⁽³⁴⁾.

2 — تناسب الكلمات في الجمل :

الجملة هي مظهر الكلام، وهي الصورة النفسية للتأليف الطبيعي، اذ يحيل بها الانسان هذه المادة المخلوقة في الطبيعة إلى معان تصورها في نفسه أو تصفها، ترى النفس هذه المادة المصورة وتحسها، على حين قد لا يراها المتكلم الذي أهدفها لكلامه غرضاً، ولكنه بالكلام كأنه يراها، ولذا كانت المعاني في كلماتها التي تؤدي إليها كأنها في الاعتبار بقية الشعاع النظري الذي اتصل بالمادة الموصوفة أو بقية حس آخر من الحواس التي هي في الحقيقة جملة آلات الانسان في صنع اللغة.⁽³⁵⁾

فإذا ركب الكلام على أصل من التركيب لا يتأدى بالمعاني إلى أبعد من مظاهر الحس، فهذا هو الكلام الطبيعي الذي لا يزيد من فضيلة المتكلم أكثر مما

(33) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ص : 231.

(34) المصدر السابق ص : 232.

(35) المصدر السابق ص : 236.

تزيد الحواس نفسها في هذا المتكلم من فضيلة الانسانية، فإذا ارتفع الكلام إلى أن يصير في تقلبيه ومداورته كان طرق ما بين الحواس في أنواع ادراكها وبين النفس، فلا يخطيء التأثير ولا ينافر جهة من جهاته، ولا يعدو أن يبلغ من الفؤاد مبلغه الذي قسم له، فهذا هو الكلام الذي يبين البليغ ويفرده من قومه ويجعله مهوى قلوبهم، فإذا بعد الكلام وأمعن حتى يكون بدقائق تركيبه وطرق تصويره كأنما يفيض النفس على الحواس إفاضة، ويترك هذا الانسان من الاحساس به كأنه قلب كله، ثم يبلغ من ذلك إلى أن يكون روح لغة كاملة وبيان أمة برمتها، لا يحيله الزمن عن موضعه، ولا يقلبه عن جهته، وإلى أن يجعل البلغاء على تفاوتهم فيما بينهم وكأنهم معه طبقة واحدة، وفي طوق واحد من العجز، فذلك هو الكلام المعجز، بل هو معجزة الطبيعة الكلامية التي لم يعرف أن بلغاء أمة من الأمم قد أقروا وأجمعوا عليها إجماعاً يتوارثونه علماً ونظراً على تعاقب الأجيال إلا ما كان من ذلك في القرآن، وما لا يزال الاجماع منعقد عليه ما بقي في الأرض لفظ من العرب(36).

فألفاظ القرآن الكريم «كيفما أدرتها وكيفما تأملتها وأين اعترضتها من مصادرها أو مواردها، ومن أية جهة وافقتها، فانك لا تصيب لها في نفسك ما دون اللذة الحاضرة، والحلاوة البادية، والانسجام العذب، وتراها تتسائر إلى غاية واحدة، وتسبح في معرض واحد، ولا يمنعها لاختلاف حروفها تباين معانيها، وتعدد مواقعها من أن تكون جوهرًا واحدًا في الطبع والصقل، وفي الماء والرونق، كأنما تتلاحم بروح حية ما هو الا أن تتصل بها حتى تمتزج بروحك وتخالط احساسك فلن تكون معها الا على حالة واحدة»(37).

ان طريقة نظم القرآن تجرى على استواء واحد في تركيب الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها، وفي التمكن للمعنى بحس الكلمة وصفتها، ثم الافتنان فيه بوضعها من الكلام، وباستقصاء أجزاء البيان وترتيب طبقاته على حسب مواقع

(36) المصدر السابق ص : 236، 237.

(37) المصدر السابق ص : 240، 241.

الكلمات، لا يتفاوت ذلك ولا يختل، فلا جرم ان كان في نظمه وتركيبه نمطا واحدا في القوة والابداع لا تقع منه على لفظ واحد يخل بطريقته، ما دامت تنعطف على جوانب هذا الكلام الالهي، وما دام في موضعه من النظم والسياق، فإذا أنت حرفت ألفاظه من موضعها أو أخرجتها من أماكنها وأزلتها عن روابطها حصلت معك ألفاظ كغيرها بما يدور في الألسنة ويجرى في الاستعمال، ورأيتها — وهي في الحالين لغة واحدة — كأنما خرجت من لغة إلى لغة لبعد ما كانت فيه مما صارت إليه. (38)

ولتجلية الأمر في ذلك وتوضيحه نسوق الأمثلة التالية :

1 — قوله تعالى : «ليس كمثله شيء» (39)

ذهب أكثر أهل العلم الى القول بزيادة الكاف في قوله : «كمثله» بل على وجوب زيادتها في هذه الجملة فرارا من المحال العقلي الذي يفضي اليه بقاؤها على معناه الأصلي من التشبيه، اذ رأوا أنها حينئذ تكون نافية الشبيه عن مثل الله، فتكون تسليما بثبوت المثل له سبحانه، أو على الأقل محتملة لثبوته وانتفائه، وقليل منهم من ذهب الى أنه لا بأس ببقائها على أصلها، اذ رأى أنها لا تؤدي الى ذلك المحال لا نصا ولا احتمالا لان نفي مثل المثل يتبعه في العقل نفي المثل أيضا. (40)

«وقصارى هذا التوجيه — لو تأملته — يقول الدكتور دراز — أنه مصحح لا مرجح، أي أنه ينفي الضرر عن هذا الحرف، ولكنه لا يثبت فائدته ولا يبين مسيس الحاجة اليه، ألسنت ترى أن مؤدى الكلام معه كمؤداه بدونه سواء».

ثم يقول «ولو رجعت الى نفسك قليلا لرأيت هذا الحرف في موقعه محتفظا بقوة دلالاته قائما بقسط جليل من المعنى المقصود في جملة، وأنه لو سقط منها لسقطت معه دعامة المعنى أو لتهدم ركن من أركانه... لأنه لو قيل : «ليس مثله شيء» لكان ذلك نفيا للمثل المكافئ، وهو المثل التام المماثلة فحسب، اذ أن

(38) المصدر السابق ص : 242، 245 بتصرف.

(39) الشورى : 11.

(40) النبأ العظيم : ص : 132.

هذا المعنى هو الذي ينساق اليه الفهم من لفظ «المثل» عند اطلاقه، واذا دب الى النفس ديبب الوسوس والاهام : أن لعل هنالك رتبة لا تضارع رتبة الألوهية، ولكنها تليها، وان عسى أن تكون هذه المنزلة للملائكة والأنبياء، أو للكواكب وقوى الطبيعة، أو للجن والكهان والأوثان، فيكون لهم بالاله الحق شبه ما في قدرته أو علمه، وشرك ما في خلقه أو أمره... فكان وضع هذا الحرف في الكلام إقصاء العالم كله عن المماثلة وعما يشبه المماثلة وما يدنو منها، كأنه قيل : «ليس هناك شيء يشبه أن يكون مثلاً لله، فضلاً عن أن يكون مثلاً له على الحقيقة». (41)

2 — قوله تعالى : «يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فإننا خلقنكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى، ثم نخرجكم طفلاً، ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج» (42)

وقوله تعالى : «ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ان كنتم اياه تعبدون، فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون، ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت» (43).

فقد عبر القرآن عن الأرض قبل نزول المطر، وقبل تفتحها بالنبات مرة بأنها هامدة، ومرة بأنها خاشعة وقد يفهم البعض أن هذا مجرد تنوع في التعبير.

الا أننا «عند التأمل السريع في هذين السياقين — يقول سيد قطب رحمه الله — يتبين وجه التناسق في «هامدة» و «خاشعة»، ان الجو في السياق الأول جو بعث واحياء واخراج، فمما يتسق معه تصوير الأرض بأنها «هامدة»، ثم تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج، وأن الجو في السياق الثاني هو جو عبادة وخشوع

(41) النبا العظيم : ص : 133.

(42) الحج : 5.

(43) فصلت : ص : 35—38.

وسجود يتسق معه تصوير بأنها خاشعة فاذا انزل عليها الماء اهتزت وربت» (44).
فلو أنك حاولت وضع كلمة «هامدة» بدل «خاشعة» أو العكس،
فإنك تكون كمن يريد زرع عضو في جسم هو يرفضه، ولو أنك حاولت
استبدال الكلمتين بغيرهما فانك — ولاشك — عاجز عن إيجاد ما يقوم مقامهما
ويؤدي معناهما، ولو كان المقصود هو مجرد اداء المعنى الذهني لما كانت هناك
ضرورة لهذا التنوع، ولكن التعبير القرآني لا يرمي الى مجرد المعنى الذهني، انما يريد
الصورة كذلك، والصورة تقتضي هذا التنوع ليتم التناسق مع الاجزاء الاخرى في
اللوحه أو المشهد المعروض» (45).

3 — قوله تعالى : «أنتم أشد خلقاً أم السماء بنوها رفع سمكها فسويها
وأغطش ليلها وأخرج ضحيها» (46) أفلا تبصر وأنت تقرأ كلمة «أغطش» متنبها الى
طبيعة حروفها ووقعها في اذنك، انها تقدم لك المعنى في تلافيف حروفها قبل ان
تقدمها لك في معناها المحفوظ ؟.

«ومن طبيعة الانسان — يقول د. : محمد سعيد رمضان البوطي — انه لا
يستطيع أن يطوع الفاظ اللغة لكل ما يتصوره من دقائق المعاني والابخلة، فهو
كثيرا ما يضطر ان ينزل عن بساط خياله المحلق لحاقا بكلمة هي دون خياله
الحالم، ولكنه لا يجد من حوله سواها، فيضطر ان يهبط الى مستواها، وبذلك
يفسد سير فكره وتصورات» (47).

4 — قوله تعالى : «فلما سمعت بمكرهن ارسلت الهن واعتدت لهن
متكأ» (48).

وانظر حينما يصف القرآن الكريم دعوة امرأة العزيز للنسوة اللاتي تحدثن
منتقادات عن مرادتها لفتاها يوسف عن نفسه، الى جلسة لطيفة راقية في بيتها

(44) التصوير الفني في القرآن ص : 98—99.

(45) نفس المصدر : ص : 100.

(46) النازعات 27، 29. وسمك كل شيء قامته وارتفاعه، وأغطش ليلها : أي أظلمه. (في ظلال القرآن 8 / 446).

(47) من روائع القرآن تأملات علمية وادبية في كتاب الله عز وجل د. محمد سعيد رمضان البوطي ط، 5 سنة

1977، مكتبة الفارابي ص 177، وقارن بظلال القرآن 8 / 446.

(48) يوسف : 31.

لتطلعهن على يوسف وجماله حتى يعذرنا فيما اقدمت عليه... لقد قدمت لهن في ذلك المجلس طعاما ولاشك، ولقد أوضح القرآن هذا، ولكنه لم يعبر عن ذلك في الطعام، فهذه الكلمة انما تتصور شهوة الجوع وتنتقل بالفكر الى «المطبخ» بكل ما فيه من الوان الطعام ورائحته واسبابه، وهي سورة لا تتفق مع ما تريد الآية ان تضعه امام خيالك من مظهر المجلس الانيق الذي يضم نسوة بينهن امرأة العزيز يطلع عليهن فيه على حين غرة يوسف.

فانظر الى الكلمة التي عبر بها البيان القرآني عن الطعام في هذه الحال «متكأ» كلمة تصور لك ذلك النوع من الطعام الذي انما يقدم الى المجلس تفكها وتبسطا وتجيلا للمجلس وتوفيرا لاسباب المتعة فيه، ولذلك فالشأن فيه ان يكون الاقبال عليه في حالة من الراحة والانتكاء. فأى تعبير هذا الذي تمتد به الدقة في تصوير المعنى الى هذا الحد غير تعبير القرآن.

وبعد ما وضح من الأمثلة المذكورة ما تمتاز به الكلمة القرآنية من جمال توقيعها في السمع، وجميل اتساقها مع المعنى لا يسعنا إلا أن نقول بقول ابن عطية من أنك «لو نزلت من القرآن لفظة ثم أدير لسان العرب لفظة أحسن منها لم توجد» (49).

3 — تناسب نظم الآيات في السور :

لقد اقتضت مشيئة الله عز وجل أن ينزل القرآن الكريم منجما بحسب الحاجة : خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل (50)، وقد صرح نزول العشر آيات في قصة الإفك جملة، وصرح نزول «غير اولى الضرر» (51) وحدها، وهي بعض آية، وكذا قوله «وان خفتم عيلة» (52) الى آخر الآية نزلت بعد نزول أول الآية (53).

(49) وانظر أمثلة أخرى عن تناسب الكلمات في النظم القرآني في كتاب : «روائع القرآن للبوطي» من ص : 178 الى 186.

(50) النبأ العظيم : ص : 112.

(51) النساء : 94

(52) التوبة : 28

(53) الانشقاق : 1 / 124

وعلى هذا المنوال ظل القرآن ينزل نجوما ليقراه النبي ﷺ على مكث ويتلقاه الصحابة شيئا بعد شيء يتدرج مع الأحداث والوقائع والمناسبات الفردية والاجتماعية التي تعاقبت في حياة الرسول خلال ثلاثة وعشرين سنة.

ولعل هذا الانفصال الزماني في نزول الآيات، واختلاف دواعيها وتناولها لكثير من الأغراض من وصف الى قصص الى تشريع الى جدل الى ضروب شتى، لعل ذلك كان يستتبع لانفصال الحديث عنها عن ضرب من الاستقلال والاستئناف أن لا يدع بينها منزعا للتواصل والترابط، ويكون سببا في تفكيك وحدة الكلام وتقطيع أوصاله اذا أريد نظم طائفة من تلك الآيات في سلك واحد تحت اسم سورة واحدة.

وسبب آخر كان أجدر أن يزيد نظم السور تفكيكا ووحدتها تمزيقا وآياتها تنافرا وتناكرا هو الطريقة التي اتبعت في ضم نجوم القرآن بعضها الى بعض، فقد كان رسول الله ﷺ «لا يترصد بترتيب نجومه حتى كملت نزولا، بل لم يترث بتأليف سورة واحدة منه حتى تمت فصولا، بل كان كلما ألقى آية أو آيات أمر بوضعها من فوره في مكان مرتب من سورة معينة، على حين أن هذه الآيات والسور لم تتخذ في ورودها التنزيلي سبيلها الذي اتبعته في وضعها الترتيبي، فكم من سورة نزلت جميعا أو اشتاتا في الفترات بين النجوم من سورة أخرى، وكم من آية في السورة الواحدة تقدمت فيها نزولا وتأخرت ترتيبا وكم من آية على عكس ذلك» (54).

أخرج ابن اشته في كتاب المصاحف من طريق ابن وهب عن سليمان بن بلال قال : سمعت ربيعة يسأل : لم قدمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة، وانما أنزلتا بالمدينة ؟ فقال : قدمتا والفرقان على علم ممن افه به ومن كان معه فيه واجتماعهم على علمهم بذلك، فهذا مما ينتهي اليه ولا يسأل عنه» (55).

(54) النبأ العظيم : ص : 149، 150.

(55) الالتقان : 1 / 179.

فلو أنك أقبلت على آية سورة في التنزيل — ولتكن تلك التي تتناول مختلف الأغراض وما أكثرها في القرآن — وتنقلت بفكرتك معها مرحلة مرحلة، ملاحظاً، مطلعها ومقطعها، وتقابل أوضاعها وتعادلهما، وتلاقي أركانها وتعانقها وازدواج مقدماتها بنتائجها، فإنك كما يقول الدكتور دراز : «لن تجد البتة في نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت في نجم واحد أم في نجوم شتى، ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة حتى يحدثك التاريخ أنها كلها أو جلها قد نزلت نجوماً، أو لتقولن ان كانت بعد تنزيلها قد جمعت عن تفريق فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع، كمثل بنيان كان قائماً على قواعده، فلما أريد نقله بصورته الى غير مكانه قدرت ابعاده ورقمت لبناته ثم فرق أنقاضاً، فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوصاً يشد بعضه بعضاً كهيئته أول مرة» (56)

امثلة عن وحدة السورة وارتباطها :

إذا أردنا إقامة شاهد من العيان على صحة ما ذكر من وحدة السورة وارتباطها فلنأخذ مثلاً سورة البقرة التي جمعت بضعاً وثمانين ومائتي آية، وحوت — فيما وصل إلينا — نيفا وثمانين نجماً، وكانت الفترات بين نجومها تسع سنين عدداً. (57)

يقول الدكتور عبد الله دراز : «اعلم ان هذه السورة — البقرة — على طولها تتألف من مقدمة وأربعة مقاصد وخاتمة على هذا الترتيب» :

المقدمة في عشرين آية (1 — 20) وهي في التعريف بشأن هذا القرآن وبيان أن ما فيه من الهداية قد بلغ حداً من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم،

(56) النبأ العظيم ص : 154، 155.

(57) لقد عمد الدكتور عبد الله دراز الى دراسة سورة البقرة دراسة تحليلية لاجزائها ومقاطعها واغراضها أبرز فيها ما يثير الدهشة والعجب من بديع ائتلافها وتأليفها ولطيف الانتقال بين معانيها واغراضها وحسن المقابلة بين أوائلها وأواخرها، وقد أجاد رحمه الله وأفاد، وسوف نقتبس أعضاء من تحليله للسورة المذكورة التي استغرقت دراسته لها

وانما يعرض عنه من لا قلب له، أو من كان في قلبه مرض، المقصد الأول في خمس (آيات 1—5) وهو في دعوة الناس كافة الى اعتناق الاسلام.

المقصد الثاني في ثلاث وعشرين ومائة آية (40—162) وهو في دعوة اهل الكتاب دعوة خاصة الى ترك باطلهم والدخول في هذا الدين الحق.

المقصد الثالث في ست ومائة آية (178—283) وهي في عرض شرائع هذا الدين تفصيلا.

المقصد الرابع في آية واحدة (284) وهي في ذكر الوازع والنازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع ويعصم من مخالفتها.

الخاتمة في آيتين اثنتين (285—286) وهي في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد وبيان ما يرجى لهم في آجلهم وعاجلهم⁽⁵⁸⁾

وبعد عرضه لاسرار ترتيب هذه السورة وتناسق أجزائها وائتلاف اطرافها، وجمال أسلوبها علق عليها قائلا : «تلك هي سورة البقرة. أرأيت وحدتها في كثرتها، أعرفت اتجاه خطوطها في لوحها ؟ أرأيت كيف التحمت لبناتها من غير ملاط يمسكها، وارتفعت سماؤها بغير عمد تسندها ؟ أرأيت كيف انتظم من رأسها وصدرها واحشائها واطرافها، لا أقول احسن دمية، بل اجمل صورة حية. كل ذرة في خلقتها، وكل خلية في عضوها، وكل عضو في جهازه، وكل جهاز في جسمه، ينادي بأنه قد أخذ مكانه المقصود وفقا لخط جامع مرسوم، رسمه مربي النفوس ومزكياها، ومنور العقول وهادياها، ومرشد الارواح وحاديها، فتالله لو أن هذه السورة رتب بعد تمام نزولها لكان جمع اشتاتها على هذه السورة معجزة فكيف وكل نجم منها كسائر النجوم في سائر السور كان يوضع في رتبته من فور نزوله وكان يحفظ لغيره مكانه انتظاراً لحلوله، وهكذا كان ما لم ينزل منها معروف الرتبة محدد الموقع قبل أن ينزل⁽⁵⁹⁾. ثم كيف وقد اختصت من بين السور المنجمة بأنها حددت مواقع نجومها لا قبل نزولها بعام أو بعض عام بل بتسعة أعوام؟⁽⁶⁰⁾.

(68 صفحة) أي من ص 163 الى 211 من كتابه القيم النبأ العظيم فلتراجع هناك لمن أراد التفصيل.

(58) النبأ العظيم ص : 158.

(59) نفس المصدر ص : 163.

(60) نفس المصدر 210 — 211.

ومثال آخر على تأكيدها ذهبنا اليه مما يجلي الامر اجلى بيان، ويقطع الشك بأسطع برهان، هو سورة «ق».

تبدأ هذه السورة بمقدمة وثلاث مقاصد وخاتمة.

— المقدمة في آية واحدة وفيها القسم ب«ق» والقرآن المجيد.

— المقصد الأول في ثلاث آيات (2—4) وهي في تعجب الكافرين من

بعثة منذر منهم.

— المقصد الثاني في عشر آيات (5—15) وهي في تصورات الكافرين

وتكذيبهم للحق لما جاءهم والرد عليهم بلفت نظرهم الى الكون من حولهم ليتعرفوا فيه على قدرة الله في إحياء الأرض بعد موتها بالمطر، وذلك مثل بعث الاجساد بعد موتها ثم يذكر تكذيب الاقوام السابقين، وان تكذيب هؤلاء مثل تكذيب اولائك وكما أنه خلقهم فانه لا يعجزه بعثهم مرة ثانية.

المقصد الثالث في ثلاث وعشرين آية (15—38) وهي استطراد في قضية

البعث التي عالجها المقصد الثاني بلمسات جديدة ولكنها رهيبة مخيفة، تذكر بخلق الإنسان، وعلم الله بما توسوس به النفوس ورقابة الملائكة على الإنسان، وتذكيره بالموت وبالمصير الفظيع المعد للكافرين وبالمصير المشرق المعد للمؤمن التقي وفي ذلك ما يكفي لمن له قلب فأصغى وتدبر، ثم بخلق الله للسموات والأرض وما فيهما دون لغوب وهو أهون عليه من البعث والنشور.

— الخاتمة : في سبع آيات (39—45) وهي في الحث على الصبر على ما

يقولون من انكار للبعث، وجحود بقدرة الله على الإحياء والإعادة في جو جديد من التسبيح والتحميد والسجود، وانتظار وتوقع للامر الهائل الجلل المتوقع في كل لحظة من لحظات الليل والنهار يوم تشقق عنهم الأرض سراعاً، ويكون حشر الله لهم يسيراً، وفيه أخيراً تثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم تجاه جدلهم الذي لا سلطان له عليهم، وانما مهمته أن يذكرهم.⁽⁶¹⁾

(61) انظر أمثلة أخرى في تناسق الآيات في سورها في الجزء (2) من كتاب الرسول للشيخ سعيد حوى (فصل المعجزات) ص : 15—30. ط، 3 سنة 1973.

وبعد وضوح التناسق والترتيب، والوحدة والتكامل في المثالين السابقين — وسور القرآن كلها لا تشذ عن ذلك — فاننا مع الدكتور عبد الله دراز في قوله : بأنه اذا « كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب ترتيبه معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات ومعجزات، لعمرى إنه في ترتيب آيه على هذا الوجه هو معجزة المعجزات ». (62).

التناسب بين كتب التفسير، والتأليف المستقل

اهمية المناسبة في التفسير :

اذا كان القرآن الكريم نزل منجما تبعا لما تفرق من الأسباب والوقائع، فان هذه الأسباب والوقائع لا يمكن فصلها عن النص الذي كانت سببا في نزوله لانها تعين على فهمه، وتفيد في استلهاهم أرجح التأويل وأصح التفسير، ولذلك لا نعجب اذا حرّم العلماء المحققون الإقدام على تفسير كتاب الله لمن كان جاهلا بأسباب النزول، حتى قال الواحدي « لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها ». (63).

إلا أن ترتيب القرآن في المصحف على غير سبب النزول لم يكن ليتعارض مع تلمس سبب نزول الآيات، بل كانوا يجمعون بين السبب التاريخي والسياق الأدبي، فما أغفلوا حقائق التاريخ في اشتراط الزمان لمعرفة سبب النزول، ولا أغفلوا التناسق الفني حين اقصوا فكرة الزمان لمراعاة السياق.

وعليه فقد قال الزركشي (64) : «إن الزمان انما يشترط في سبب النزول ولا يشترط في المناسبة لان المقصود منها وضع آية في موضع يناسبها، والآيات كانت

(62) النبأ العظيم : 211.

(63) الانتقان 1—82.

(64) البرهان للزركشي 1—26.

تنزل على أسبابها ويأمر النبي ﷺ بوضعها في المواضع التي علم من الله تعالى أنها مواضعها».

فما أكثر الآيات التي وضعت في السطور على حسب الحكمة ترتيباً، وحفظت في الصدور على حسب الوقائع تنزيلاً.

ألا ترى قوله تعالى : «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً» (65)، قد نزل في كعب بن الأشرف كان قدم إلى مكة وشاهد قتلى بدر وحرص الكفار على الأخذ بثأرهم وغزو النبي ﷺ فسأله : من أهدى سبيلاً ؟ المؤمنون أم هم ! فقال أنتم قالها كذباً منه وضلالة. (66) فهذه الآية نزلت في حقه وحق من شاركه في تلك المقالة، وهم أهل كتاب يجدون عندهم في كتابهم بعث النبي ﷺ وصفته، وقد أخذت عليه الموثيق ألا يكتموا ذلك وأن ينصروه، وكان ذلك أمانة لازمة فلم يؤدوها وخانوا فيها، فذلك مناسب لقوله تعالى : «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها» التي نزلت في شأن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري حاجب الكعبة لما أخذ منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة ثم رده عليه (67).

وما دامت هذه الآية نزلت في الفتح وتلك نزلت في قصة كعب بن الأشرف عقب بدر وبينهما ست سنين فإن الرابط بين هذين المقطعين يكاد يكون منهما موضوعاً واحداً محكم البناء متلاحم الأجزاء آخذاً بعضه بأعناق بعض.

قال ابن العربي : «وجه النظم أنه أخبر عن كتمان أهل الكتاب صفة محمد ﷺ ، وقولهم : أن المشركين أهدى سبيلاً، فكان ذلك خيانة منهم، فانجَزَ الكلام إلى ذكر جميع الأمانات. (68)

(65) النساء 51 —

(66) انظر أسباب النزول للواحدي ص : 114. ط، عالم الكتب بيروت، وبهامشه الناسخ والمنسوخ لهبة الله ابن سلامة.

(67) نفس المرجع ص 116.

(68) البرهان 1—26.

ولذلك، فقد اهتم كثير من المفسرين بالمناسبة اهتمامهم، بسبب النزول بل، لم يبالغ المفسرون — كما يقول د. صبحي الصالح — «حين قدموا أحياناً ذكر المناسبة بين الآيات على معرفة سبب نزولها كلما رأوا هذه المناسبة هي المصححة لنظم الكلام، ولعلهم بلغوا ذروة التحقيق العلمي حين أوجبوا البداءة بذكر سبب النزول حين يكون وجه المناسبة متوقفاً على معرفة الأسباب» (69)

وقد توسع بعض المفسرين في التماس أوجه التناسب لا فيما بين الآيات بعضها ببعض ولكن أيضاً بين السور فيما بينهما استناداً إلى توقيفية الترتيب القرآني آيات وسورا وهو ما عولنا عليه وانتصرنا له (70)

وسنحاول بإذن الله — بما يتناسب وهذا البحث — بسط القول في وجوه التناسب عند المفسرين والباحثين في تناسب السور والآيات، أو في تناسب السور، لا على سبيل التفصيل والاستقصاء — فذلك له شأن آخر قد ييسر الله العودة إليه والتفرغ له — ولكن على سبيل الإيجاز والتمثيل.

أولاً — تناسب الآيات عند المفسرين :

لم يحفل المفسرون بإبراز أوجه التناسب بين وحدات وآيات السور، إلا قليلاً، وذلك راجع إلى دقتها وخفائها، علماً بأن «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط» (71).

مما دفع الإمام الرازي إلى القول : «إني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير متنبهين لهذه الأسرار وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل : والنجم تستصغر الأبصار صورته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر» (72)

(69) مباحث في علوم القرآن ص : 150—151. (ط، 10 سنة 1977 دار العلم للملايين، بيروت.

(70) ارجع إلى ما فصلناه في ص : 71 وما بعدها.

(71) وهو قول الامام فخر الدين الرازي. (معتك الاقران 1 / 55).

(72) معتك الاقران 1 / 56.

ولعل أول من سبق إلى هذا العلم الشيخ ابو بكر النيسابوري، «وكان يقول على الكرسي اذا قرئت عليه الآية لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه ؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة ؟ وكان يزري على علماء بغداد بعدم علمهم بالمناسبة» (73)

واذا كان الإمام الفخر الرازي قد امتاز من المفسرين الأقدمين بإكثاره من التماس المناسبات في تفسيره، فإن سيد قطب من المحدثين قد أبدع في إبراز ألوان من التناسق الفني في التصوير القرآني ولعل في الأمثلة التالية التي استقيتها من تفسيري الرجلين العظيمين ومن تفسير المنار لمحمد عبده ما يجعلنا نستشف بعض تلك اللطائف الدقيقة المودعة في ترتيب القرآن وتناسقه.

1 — امثلة من تفسير الفخر الرازي :

أ — قال عند تفسيره لسورة الفاتحة : «إن سورة الفاتحة فيها عشرة أشياء : منها خمسة من صفات الربوبية وهي : الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والمالك، وخمسة أشياء من صفات العبد وهي : العبودية والاستعانة، وطلب الهداية وطلب الاستقامة، وطلب النعمة... فانطبقت تلك الأسماء الخمسة على هذه الأحوال الخمسة، فكأنه قيل : إياك نعبد لأنك أنت الله، وإياك نستعين لأنك أنت الرب، إهدنا الصراط المستقيم لأنك أنت الرحمن، وارزقنا الاستقامة لأنك أنت الرحيم، وأفض علينا سجال نعمك وكرمك لأنك مالك يوم الدين». (74)

ثم إن «أول السورة مشتمل على الحمد والثناء عليه والمدح له، وآخرها مشتمل على الذم للمعرضين عن الإيمان والإقرار بطاعته، وذلك يدل ان مطلع الخيرات وعنوان السعادات هو الإقبال على الله تعالى، ومطلع الآفات ورأس المخافات هو الإعراض عن الله تعالى والبعد عن طاعته والاجتناب عن خدمته». (75)

(73) معترك الاقران 1 / 55.

(74) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي 1 / 285. ط، المطبعة البهية المصرية الازهر سنة 1934.

(75) نفس المرجع 1 / 262.

ب — وقال رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى : «يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون»⁽⁷⁶⁾ : اعلم أن في هذه الآيات مسائل :

المسألة الأولى : إن الله تعالى لما قدم احكام الفرق الثلاثة اعني المومنين والكفار والمنافقين : اقبل عليهم بالخطاب وهو من باب الالتفات المذكور في قوله تعالى : اياك نعبدك واياك نستعين... وثانيها : كأنه سبحانه وتعالى يقول : جعلت الرسول واسطة بيني وبينك اولاً، ثم الآن ازيد في اكرامك وتقريبك فأخاطبك من غير واسطة ليحصل لك مع التنبيه على الأدلة شرف المخاطبة والمكاملة، وثالثها : مشعر بأن العبد إذا كان مشغولاً بالعبودية فإنه يكون أبداً في الترقى بدليل انه في هذه الآية إنتقل من الغيبة الى الحضور، ورابعها : إن الآيات المتقدمة كانت في حكاية احوالهم، واما هذه الآيات فإنها أمر وتكليف، ففيه كلفة ومشقة فلا بد من راحة تقابل هذه الكلفة، وتلك الراحة هي أن يرفع ملك الملوك الواسطة من البين ويخاطبهم بذاته، كما ان العبد اذا الرّم تكليفا شاقا، فلو شاقه المولى وقال : اريد منك أن تفعل كذا فإنه يصير ذلك الشاق لذيذا لأجل ذلك الخطاب»⁽⁷⁷⁾.

ج — وقال عند تفسيره لقوله تعالى : «هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم»⁽⁷⁸⁾ : اعلم أن هذا هو النعمة الثانية التي عمت المكلفين بأسرهم وما أحسن ما راعى الله سبحانه وتعالى هذا الترتيب فإن الانتفاع بالأرض والسماء إنما يكون بعد حصول الحياة، فلهذا ذكر الله امر الحياة اولاً : «كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فأحياكم ثم يميّتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون»⁽⁷⁹⁾ : ثم اتبعه بذكر السماء والأرض⁽⁸⁰⁾.

(76) البقرة 22

(77) التفسير الكبير 82/2

(78) البقرة 28

(79) البقرة 27

(80) التفسير الكبير 153/2.

2 — أمثلة من تفسير الشيخ محمد عبده :

أ — قال عند تفسيره لقوله تعالى : «والهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم» (81) : نطقت الآيات السابقة بأن الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى ملعونون لا ترجى لهم رحمة الله تعالى إلا أن يتوبوا، فإن هم ماتوا على كتمانهم وما يستلزمه كفرهم من الأعمال كانوا خالدين في اللعنة لا يخفف عنهم من عذابها شيء... فناسب بعد هذا أن يبين الله تعالى أن شارع الدين ومحق الحق هو واحد لا يعبد غيره ولا تكتم هدايته ولا يجعل كلام البشر معيارا على كلامه وهو مفيض الرحمة والإحسان... ثم قال الشيخ محمد عبده بعد كلامه عن توحيد الله وأنواع الشرك : أرأيت هذا الاتصال المحكم بين الآية وما قبلها، أن بعض المفسرين قد قطع عراه وفصمها وجعل الآية جواباً لقوم قالوا للنبي ﷺ أنسب لنا ربك، قاله الجلال... وسبب النزول إنما يحتاج إليه في آيات الأحكام لأن معرفة الوقائع والحوادث التي نزل فيها الحكم تعين على فهمه وفقه حكمته وسره، ومثلها ما فيه إشارة إلى بعض الوقائع كغزوة بدر والنصر فيها، ومصيبة المؤمنين في أحد، وأما الآيات المقررة للتوحيد، وهو المقصود الأول من الدين فلا حاجة إلى التماس أسباب لنزولها بل هي لا تتوقف على انتظار السؤال، وإنما كان يبين عند كل مناسبة، وما عساه يكون قد قارن نزولها من حادثة أو سؤال مثل هذا الذي ذكر آنفاً، فهو إن صح رواية لا يزيدنا بيانا في فهم الآية ولا يصح أن يجعل سببا لنزولها لاسيما بعد الذي علم من اتصالها بما قبلها كما يليق ببلاغة القرآن. ومثل هذا السبب يجعل القرآن مبددا متفرقا لا ترتبط أجزاؤه ولا تتصل أنحاءه. (82)

ب — وقال عند تفسيره لقوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله أن كنتم إياه تعبدون، إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه إن الله غفور رحيم» (83) ظهر بهذا التقرير أن الآية متصلة بما قبلها ومتممة له، وقال بعض

(81) البقرة 163

(82) تفسير القرآن الحكيم (النار) 54/1 — 56

(83) البقرة 171 — 172.

المفسرين — وله وجه فيما قال — : إن ما تقدم من أول السورة الى ما قبل هذه الآية كله في القرآن والرسالة واحوال المنكرين للداعي، وما جاء فيها من الاحكام فإنما جاء بطريق العرض والاستطراد، وهذه الآية ابتداء قسم جديد من الكلام وهو سرد الاحكام، فإنه يذكر بعدها احكام محرمات الطعام واحكام الصوم والحج والقصاص والوصية والنكاح والطلاق والرجعة والعدة والإيلاء والرضاع وغير ذلك، وينتهي هذا القسم بما قبل قوله تعالى : «الم تر الى الذين خرجوا من ديارهم(*)... الآية» ولا غرو فإن بين كل قسم وآخر في القرآن من التناسب مثل ما بين كل آية وأخرى في القسم الواحد «كتاب احكمت آيته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» (84).

ج — وقال عند تفسيره لقوله تعالى «واتموا الحج والعمرة لله» (85)... اتصال هذه الآيات بما قبلها جلي جدا لا سيما لمن قرأ ما تقدم من التفسير، فإن آيات القتال السابقة نزلت في بيان أحكام الأشهر الحرم والإحرام والمسجد الحرام، فكان الغرض الأول من السياق بيان أحكام الحج بعد بيان احكام الصيام، لان شهوره بعد شهره الذى هو رمضان» (86).

3 — أمثلة من تفسير سيد قطب :

أ — قال عند تفسيره لسورة الفجر : «هذه السورة في عمومها حلقة من حلقات هذا الجزء في الهتاف بالقلب البشرى إلى الايمان والتقوى واليقظة والتدبر.. ولكنها تتضمن ألوانا شتى من الجولات والايقاعات والظلال، ألوانا متنوعة تؤلف من تفرقها وتناسقها لحنا واحدا متعدد النغمات موحد الايقاع. في بعض مشاهدتها جمال هادى رقيق، ندى السمات والايقاعات، كهذا المطلع الندي بمشاهده الكونية الرقيقة، وبظل العبادة والصلاة في ثنايا تلك المشاهد..» «والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسري» (87).

(*) البقرة 243

(84) هود 1 وانظر تفسير المنار 1 / 97

(85) البقرة 196.

(86) تفسير المنار 1/217.

(87) الفجر 1 — 4

وفي بعض مشاهدتها شد وقصف، سواء مناظرها أو موسيقاها كهذا المشهد العنيف المخيف : «كلا إذا دكت الأرض دكا دكا، وجاء ربك والملك صفا صفا وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول ياليتني قدمت لحياتي فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد». (88)

وفي بعض مشاهدتها نداوة ورقة ورضى يفيض وطمانينة. تتناسق فيها المناظر والانغام كهذا الختام : «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي». (89)

وفيها إشارات سريعة لمصارع الغابرين المتجبرين، وإيقاعها بين بين، بين إيقاع القصص الرخي وإيقاع المصارع القوي : «الم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذي الاوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب ان ربك لبالمرصاد» (90)

وفيها بيان لتصورات الانسان وقيمه غير اليمانية، وهي ذات لون خاص في السورة تعبيرا وإيقاعا : «فاما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن. واما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن..» (91)

ثم الرد على هذه التصورات ببيان حقيقة حالهم التي تنبع منها هذه التصورات وهي تشمل لونين من ألوان العبارة والتنغيم : «كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون على طعام المسكين وتاكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما». (92)

(88) الفجر 23 — 29.

(89) الفجر 30 — 32.

(90) الفجر 6 — 14.

(91) الفجر 15 — 18.

(92) الفجر 19 — 22.

ويلاحظ أن هذا اللون الأخير هو قنطرة بين تقرير حالهم وما ينتظرهم في مآلهم، فقد جاء بعده : «كلا اذا دكت الارض دكا دكا... الخ»⁽⁹³⁾ فهو وسط في شدة التنعيم بين التقرير الأول والتهديد الأخير.

ومن هذا الاستعراض السريع تبدو الألوان المتعددة في مشاهد السورة وإيقاعاتها في تعبيرها وفي تنعيمها. كما يبدو نظام تعدد الفواصل وتغير حروف القوافي بحسب تنوع المعاني والمشاهد فالسورة من هذا الجانب نموذج واف لهذا الافق من التناسق الجمالي في التعبير القرآني، فوق ما فيها من جمال ملحوظ مأنوس»⁽⁹⁴⁾.

ب — وقال عند تفسيره لسورة الليل : «في اطار من مشاهد الكون وطبيعة الانسان تقرر السورة حقيقة العمل والجزاء. ولما كانت هذه الحقيقة متنوعة المظاهر : «ان سعيكم لشتى. فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى. وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى»⁽⁹⁵⁾ وكانت العاقبة كذلك في الآخرة مختلفة وفق العمل والوجهة : «فانذرتكم نارا تلظى لا يصلاها الا الاشقى الذي كذب وتولى وسيجنبها الا اتقى الذي يوتي ماله يتركى»⁽⁹⁶⁾.

لما كانت مظاهر هذه الحقيقة ذات لونين وذات اتجاهين، كذلك كان الاطار المختار لها في مطلع السورة ذات لونين في الكون وفي النفس سواء : «والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى» «وما خلق الذكر والانثى»⁽⁹⁷⁾ وهذا من بدائع التناسق في التعبير القرآني⁽⁹⁸⁾.

(93) الفجر 23 — 32.

(94) في ظلال القرآن 568/8 — 569.

(95) الليل 4 — 10.

(96) الليل 14 — 18.

(97) الليل 1 — 3.

(98) في ظلال القرآن 594/8 — 595.

ج — وقال عند تفسيره لسورة المسد : «وفي الاداء التعبيري للسورة تناسق دقيق ملحوظ مع موضوعها وجوها، نقتطف في بيانه سطوراً من كتاب : «مشاهد القيامة في القرآن» نمهد بها لوقع هذه السورة في نفس أم جميل التي ذعرت لها وجن جنونها :

أبو لهب، «سيصلى ناراً ذات لهب. وامرأته حمالة الحطب»، ستصلاها وفي عنقها «حبل من مسد».

ه — «تناسق في اللفظ وتناسق في الصورة، فجهم هنا نار ذات لهب، يصلاها أبو لهب وامرأته تحمل الحطب وتلقيه في طريق محمد لايدائه (بمعناه الحقيقي أو المجازي) : والحطب مما يوقد به اللهب. وهي تحزم الحطب بحبل. فعذابها في النار ذات لهب ان تغل بحبل من مسد، ليتم الجزاء من جنس العمل، وتم الصورة بمحتوياتها الساذجة : الحطب والحبل، والنار واللهب، يصلى به ابو لهب وامرأته حمالة الحطب.

وتناسق من لون آخر. في جرس الكلمات، مع الصوت الذي يحدثه شد أحمال الحطب وجذب العنق بحبل من مسد، اقرأ : «تبت يدا أبي لهب وتب» (99) تجد فيها عنف الحزم والشد الشبيه بحزم الحطب وشده، والشبيه كذلك بغل العنق وجذبه، والشبيه بجو الخنق والتهديد الشائع في السورة.

«وهكذا يلتقي تناسق الجرس الموسيقي، مع حركة العمل الصوتية، بتناسق الصور في جزئياتها المتناسبة بتناسق الجناس اللفظي ومراعاة النظير في التعبير، ويتسق مع جو السورة وسبب النزول، ويتم هذا كله في خمس فقرات قصار، وفي سورة من أقصر سور القرآن» (100).

(99) المسد : 1.

(100) في ظلال القرآن 699/8 — 700

ثانيا : تناسب الآيات والسور :

لقد سبق القول بان اول من سبق الى علم المناسبة هو الإمام الشيخ ابو بكر النيسابوري وأنه كان يقول على الكرسي اذا قرأت عليه الآية : لم جعلت هذه الآية الى جنب هذه، وما الحكمة في جعل هذه السورة الى جنب تلك.

ومن تعرض لمناسبة الآيات والسور من الأقدمين العالم الجليل أبو حيان⁽¹⁰¹⁾ صاحب تفسير : «البحر المحيط» تلميذ ابن الزبير.

ثم اتى من بعده الشيخ برهان الدين البقاعي⁽¹⁰²⁾ فألف كتابه : «نظم الدرر في تناسب الآي والسور»⁽¹⁰³⁾ وجعل المناسبة أساس تفسيره، وعليها يدور جل كلامه.

كما ألف الإمام السيوطي الذي عاصر البقاعي في تعلقات القرآن كتاب أسرار التنزيل «اشتمل على بضع عشرة نوعا من انواع الإعجاز منها.

- بيان مناسبات ترتيب سوره وحكمة وضع كل سورة منها
- بيان أن كل سورة شارحة لما أجمل في السورة التي قبلها.
- مناسبة مطلع السورة للمقصد الذي سيقى له
- مناسبة أوائل السور لأواخرها
- مناسبات ترتيب آياته واعتلاق بعضها ببعض وارتباطها وتلاحمها وتناسقها.

(101) هو محمد بن يوسف بن علي بن حيان الامام ابن حيان الاندلسي الغرناطي ت 745هـ، لغوي نحوي مفسر ومقرئ ومحدث وأديب (طبقات المفسرين 2/286).

(102) هو ابراهيم بن عمر برهان الدين البقاعي منسوب إلى البقاع من بلاد سورية، مفسر مؤرخ أديب توفي سنة 885هـ وكان رحمه الله من أجل تلامذة الحافظ بن حجر (البدر الطالع : 1 / 19)، ط، 1 سنة 1948 مطبعة السعادة

(103) وهو تفسير كامل للقرآن الكريم توجد مخطوطة منه في الخزانة الملكية تحت رقم : 2596 وتقع في ثماني مجلدات، وتوجد نسخة أخرى بالخزانة العامة — قسم المخطوطات بالرباط تحت رقم : 181، ويقوم بتحقيقه في الهند السيد محمد عمران الاعظمي، (انظر مجلة الأمة عدد 32/شعبان 1403) وقد بلغني أن أجزاء منه قد طبعت بالمشرق.

— بيان فواصل الآي ومناسبتها للآي التي ختمت بها.
— مناسبة اسماء السور لها.

إلى غير ذلك من وجوه التناسب والبلاغة في القرآن الكريم، (104) وهو كتاب على غاية من الأهمية في بابهِ كما ترى من محتوياته، ولعلنا نجد فيه — لو وقع بين أيدينا (105) من اسرار التناسب وحكمة الترتيب ما لا نجده في غيره من كتب التفسير والمناسبات.

اما من تعرض لمناسبات الآيات والسور من المحدثين فأهمهم الشيخ محمد عبده في تفسيره المنار وسيد قطب رحمه الله الذي سار على منوال جديد، ومنهج فريد في ابراز ألوان التناسق في القرآن الكريم (106)

وفي الأمثلة السابقة التي ضربتها من تفاسير : الإمام الرازي، والشيخ محمد عبده والشهيد سيد قطب ما يكفي، ولمن أراد المزيد فليرجع إلى هذه التفاسير ففيها ما يغني :

ثالثا : تناسب السور :

إذا كان بعض المفسرين قد تعرض لمناسبات الآيات كالفخر الرازي والزمخشري وبعضهم الآخر قد تعرض لمناسبة الآيات والسور كابن حيان الغرناطي، وبرهان الدين البقاعي والإمام السيوطي، والشيخ الإمام محمد عبده، والشيخ مصطفى المراغي، فإن صنفا ثالثا من المفسرين والباحثين في علوم القرآن واعجازه

(104) انظر تناسق الدرر في تناسب السور (أسرار ترتيب القرآن) تحقيق عبد القادر أحمد ط، سنة 1978 دار الاعتصام ص : 65، 66.

(105) قام السيد أحمد الشرقاوي اقبال بجمع وتصنيف آثار الإمام السيوطي في كتاب سماه، «مكتبة حلال السيوطي» احصى له 725 كتابا في مختلف الفنون، ولم يشر إلى هذا الكتاب الذي ذكره السيوطي في كتابه معترك الاقران 55/1 وتناسق الدرر المذكور اعلاه. (ط، دار المغرب للتأليف والنشر 1977).

(106) لا يحفل سيد قطب رحمه الله في تفسيره «في ظلال القرآن» بتجلية أوجه التناسب بين السورة والسورة بقدر ما يحفل بابرار الوحدة الموضوعية للسورة وأوجه التناسق بين مواضعها من جهة، وبين التصوير الفني كأفضل اداة للتعبير القرآني من جهة ثانية، وذلك واضح من الأمثلة التي أوردناها سابقا من تفسيره في تناسب الآيات. انظر ص : 61 — 63.

قد تعرض لمناسبة السور واعتلاق بعضها ببعض خاصة، بدءاً من سورة الفاتحة وانتهاء بسورة الناس.

وقد اتفقت كلمتهم على أن أول من صنف تصنيفاً مستقلاً في تناسب السور هو أبو جعفر بن الزبير الغرناطي والذي يقول : «اقتصرت بحكم الاضطرار في هذا الاختصار على وجوه ترتيب السور، وإن لم أر في هذا الضرب الخاص شيئاً لمن تقدم وغبر...» (107)

ثم تلاه الإمام السيوطي الذي ألف كتابه. «تناسق الدرر في تناسب السور» لخصه من كتابه : «اسرار التنزيل» ليكون — كما وصفه — عجالة لمريده وبغية لمستفيده، كما نص على أنه : «من نتاج فكره، وولاد نظره، لقلة من تكلم في ذلك». (108)

وقد ألف في هذا الموضوع من علماء العصر الشيخ عبد الله بن الصديق أمد الله في عمره كتاباً لطيفاً يعتبر ثالث تصنيف في ذلك سماه : «جواهر البيان في تناسب سور القرآن» وفي ذلك يقول :

«وأول من أفرد هذا النوع بالتأليف — فيما أعلم — العلامة أبو جعفر بن الزبير الأندلسي شيخ العلامة أبي حيان الف كتاباً سماه : «البرهان في مناسبة سور القرآن» ثم كتب الحافظ السيوطي كتابه «تناسق الدرر في تناسب السور»، وكتابي هذا ثالث كتاب في هذا العلم الشريف». (109).

(107) البرهان في ترتيب سور القرآن ص : 181.

(108) تناسق الدرر في تناسب السور ص : 67.

(109) جواهر البيان في تناسب سور القرآن ص : 16. للشيخ عبد الله بن الصديق (ط، محمد عاطف وسيد طه بمصر، بدون تاريخ)

القسم الثاني

عصر ابن الزبير وترجمته ومؤلفاته

المبحث الاول

: عصر ابن الزبير

- الحالة السياسية في عصره
- الحياة العلمية في عصره

المبحث الثاني

: ترجمة ابن الزبير

- اسمه ونسبه
- مولده ونشأته
- وفاته
- مكانته العلمية
- تلاميذه
- شيوخه
- مؤلفاته

المبحث الثالث

: البرهان في ترتيب سور القرآن

- نسبته الى صاحبه
- منهج التحقيق
- الاشارات والرموز

المبحث الاول

عصر ابن الزبير

— الحالة السياسية في عصره

— الحياة العلمية في عصره

عصر ابن الزير

— الحالة السياسية في عصره :

وافق ميلاد ابن الزير سنة 627 هـ بداية انهيار الحكم الموحي الذي لحقه الضعف والهزال، وعاصر سقوط عدد كبير من حواضر الأندلس وثغورها وانحسار الوجود الاسلامي في مملكة بني الأحمر بغرناطة على يد النصاري الصليبيين، مع ما رافق ذلك من قتل وتشريد ارواء لغيل الحقد الصليبي واشباعا لغريزة الانتقام والتنكيل بأهلها، كما شاهد انبعاث روح الطوائف القديمة سواء من احفاد ملوك الطوائف القدامى او من المتطلعين الجدد.

أ — نهاية الموحدين :

لقد كانت بداية الضعف الموحدي في الاندلس قبل هذا التاريخ⁽¹⁾ الا ان الانهيار بدأ فعلا قريبا من هذا التاريخ، فبعد موت المستنصر الموحدي الشاب فجأة سنة 620 هـ وتولى ابي محمد (المخلوع) عبد الواحد بن الخليفة ابي يعقوب يوسف عم بن الخليفة المستنصر الخلافة بعده والذي تم خلعه سريعا بعد بضعة اشهر اي سنة 621 هـ حيث تمت مبايعة أبي محمد عبد الله الملقب بالعدل ابن الخليفة ابي يوسف يعقوب المنصور، تلته بيعة اخيه أبي العلاء (العلی) الملقب بالمأمون سنة 629 هـ ثم بيعة ابنه ابي محمد الملقب بالرشيد سنة 640 هـ ثم انتهى امر الموحدين بالمغرب نفسه على يد المرينيين⁽²⁾ سنة 668 هـ وهذا التتابع في عزل وتولى الخلفاء وفي مدة وجيزة لم يكن يسمح لأيهم بتقوية نفوذه وسلطانه في المغرب بله في الاندلس المتزامن مع ضعف السيطرة الموحدية فيها من جهة، وتحين

(1) ظهر المرينيون في المغرب الأقصى برعامة عبد الحق بن محيو المتوفى سنة 614 هـ واستقل بنو زيان من بني عبد الواد بالمغرب الأوسط وأعلنوا استقلالهم نهائيا سنة 633 هـ واستقل أبو حفص بالمغرب الأدنى (تونس) برعامة عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص حوالي سنة 623 هـ.

(2) الاطاحة في أخبار غرناطة، (141/1) تحقيق محمد عبد الله عنان (ط، 2 الشركة المصرية للطباعة والنشر 73) والمعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي، تحقيق محمد سعيد العريان (ط، القاهرة 1960 ص : 413).

النصارى الفرصة لابتلاع الاندلس من جهة ثانية، كان كل ذلك، المؤشر الذي دفع باحداث الاندلس سريعا نحو انهاء الوجود الموحدى في الاندلس سواء كان ذلك على يد ابناء الاندلس الثائرين على سلطان الموحدين كابن هود وابن الاحمر او على يد النصارى الذين وجدوا الفرصة مواتية لتفكيك نظم عقد ثغور الاندلس ونظمتها من جديد لتزين جيد مملكاتهم المتحدة ضد الاسلام.

ب — سقوط المدن والقواعد الكبرى في يد النصارى :

ضعف نفوذ الموحدين وتضاءل سلطانهم فطمح العدو لهضم الاندلس مستغلا الفرصة السانحة فوجد صفوفه ونشط الرهبان والقساوسة لحصد بذور الحقد التي كرسوا جهودهم من أجل شحن القلوب بها ازمانا متطاولة فوجه ملوك النصارى ضرباتهم المتوالية السريعة الى كبرى حواضر الاندلس وقواعدها المهمة وقلاعها الحصينة فسقطت تباعا رغم المقاومة المستميتة التي ابدتها سكان كل من تلك المدن، ومنها :

1 — الجزائر الشرقية حيث سقطت كبراهها ميورقة بيد جيوش متحدة من مملكة أرغون وملكها «الطاغية جاميش بن بطرة بن جايمش» ومن فرنسا وإيطاليا يوم الاثنين 14 صفر سنة 627 هـ (1/ 1/ 1230م)⁽³⁾ فكان الحادث التي هز الاركان بالاندلس وكانت نكبة كبرى على السكان المسلمين.

2 — قرطبة حاضرة الاندلس الكبرى وعاصمة الغرب الاسلامي سقطت بيد ملك قشتالة فرناندو بن الفونس التاسع⁽⁴⁾ يوم الاحد 23 شوال سنة 633 هـ فكانت المصيبة التي قرحت القلوب.

3 — بلنسية احدى المدن المجاهدة وكبرى قواعد شرقي الاندلس وثغر من ثغوره العظيمة حيث اكتست عملية اسقاطها الطابع الصليبي المتطرف وذلك

(3) التكملة 155/1 والذيل والتكملة 12/5 ونفع الطيب 469/4 والاحاطة 383/1 وعصر المرابطين والموحدين 402/2 — 406.

(4) هكذا ورد اسمه في المراجع الأوروبية أما في المراجع العربية فاسمه في الاحاطة 383/1 هراندة بن الهنشة وورد في غيرها هراندة بن الفنش. انظر التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة لعبد الرحمن الحجي ص : 472 ط 1 سنة 1976 دار القلم الكويت).

بإصدار البابا جريجوري التاسع مرسومه بإسباغ الصلابة الصليبية على حروب إسقاط بلنسية التي بدأت سنة 631هـ/1233م. وسقطت في صفر 636هـ/1238م بعد حصار شديد وطويل ذهبت فيه الاقوات والمؤون. تجاوز السنة والنصف بيد جيوش النصارى المتحالفة وبعد معارك كثيرة وضارية منها معركة انيشة⁽⁵⁾ التي هزم فيها البلنسيون امام ملك أرغون جايمش⁽⁶⁾ ومحاولة أمير بلنسية⁽⁷⁾ واهلها استرداد انيشة بعد ذلك. فلم يفلح، وقهرت بلنسية السلابة بقيادة الملك الارغوني وكثير من الجند الوافدين منهم حشود المتطوعة الفرنسيين بقيادة مطران مدينة أربونة وآخرون من جنوه⁽⁸⁾ وبعد سقوط بلنسية تساقطت المدن التي تجاورها واحدة بعد الأخرى.

4 — فشقر أواخر سنة 639هـ. ودانية في ذي الحجة سنة 641 هـ وجيان في 643هـ. وشاطبة في صفر 644هـ⁽⁹⁾

5 — ثم سقطت اشبيلية في يد النصارى بمساعدة ابن الأحمر في يد القشتاليين سنة 646هـ⁽¹⁰⁾.

6 — وسقطت مرسية سنة 664 هـ. استسلمت صلحا لجايمش ملك أرغون فدخلها بجيشه وخرج منها أهلها بالأمان فغدروهم في الطريق وقتلوا جميع الرجال وسبوا النساء والأطفال...»⁽¹¹⁾

وكان يستتبع سقوط كل مدينة أو حصن أو قلعة اخلاؤها من أهلها المسلمين إما قتلا أو إجلاء أو سبياً أو بها مجتمعة.

-
- (5) انيشة حصن يقع شمال مدينة بلنسية على بعد سبعة أميال، وقعت معركة «انيشة» يوم الخميس الموافق عشرين من ذي الحجة عام 634هـ انظر المصدرين السابقين.
- (6) أميرها يومئذ هو أبو جميل زيان بن أبي الحملات مدافع بن أبي الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش الجذامي استنجد بحواضر الأندلس، وبني حفص التونسيين، إلا أن النجيدات لم تصل في الوقت المناسب وفشلت نجدة الحفصيين في الوصول إلى المدينة المحاصرة المنكوبة (التاريخ الاسلامي من الفتح إلى سقوط غرناطة ص : 477 وما بعدها).
- (8) العبر لابن خلدون 601/6. (ط، بيروت 1958، 1959)
- (9) نفع الطيب لابي العباس أحمد المقرئ، تحقيق إحسان عباس (ط، بيروت 1968).
- (10) نهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان (ط، القاهرة 1966).
- (11) البيان المغرب (طبعة تطوان) 438/3.

ج - الزعامات الأندلسية وانبعث روح الطوائف :

وتمثل ذلك في ابن هود وابن الأحمر :

1 - ابن هود :

هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي أحد أحفاد أسرة بني هود أصحاب سرقسطة أيام ملوك الطوائف لقب نفسه بأمر المسلمين سيف الدولة والمتوكل على الله⁽¹²⁾ كان يسكن مرسية ومن أجنادها ومنها بدأ حركته حوالي سنة 625 هـ ودخلت معها قرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة وألمرية في طاعته لتعطش النفوس إلى القيادة الحكيمة، إلا أن ابن هود لم يكن بذلك إذ كان فيه من الخفة والاستعجال ما ادخله في معارك عديدة دون إعداد كامل، نازل فيها فرناندو الثالث ملك قشتالة ووالده الفونس التاسع فخسرها وإن كان صد بعض الهجمات النصرانية أو أوقف بعضها على أرض الأندلس وإن لم يصمد في ذلك طويلاً إذ سرعان ما تساقطت المدن الأندلسية في يد الصليبية الحاكمة وتوالت عليه الهزائم، ثم انتهى أمره سريعاً بموته سنة 635 هـ. وإن كان من جهة أخرى عجل بنهاية الوجود الموحيدي في الأندلس بظهوره والتفاف الناس حوله أول أمره⁽¹³⁾.

2 - ابن الأحمر :

وهو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر الملقب بالشيخ والغالب بالله وهو يرجع بنسبه إلى الصحابي الجليل سعد بن عباد الأنصاري من مواليد أرجونة من حصون شرق قرطبة سنة 591 هـ، ظهر ابن الأحمر بعد قليل من ظهور ابن هود وكأنه كان ينتظر النموذج الذي سيحذو حذوه في نقض بقية الوجود الموحيدي بالأندلس وكان جندياً وافر العزم والجرأة دعا لِمُ الشمل فاستقام له الأمر في عدة مدن ثم كانت بيعته في رمضان سنة

(12) العبر 364/4 ونفح الطيب 215/1 والاحاطة 130/25 والمغرب في أخبار المغرب 320/1.

(13) البيان المغرب (تطوان) 335 ونفح الطيب 446/1.

635هـ، وانفرد بالزعامة بعد موت ابن هود- في نفس الشهر- المنافس اللدود له، فانضم له ما كان تحت يد الهالك وأصبحت غرناطة عاصمة له. حاول في مبدأ الأمر صد هجمات الصليبيين تارة، ومحالفتهم تارة أخرى على إخلاء بعض الثغور أو مساعدتهم على احتلال مناطق أخرى⁽¹⁴⁾ إلى أن قويت شوكة المرينيين في المغرب الذين هبوا لنجدته أكثر من مرة وإن كان تصرفه شاذاً في بعض الأحيان، حيث كان يتحالف مع النصارى كدخوله في طاعة فرناندو سنة 643هـ، مقابل تضحيات جسام تحمل بها، منها جزية سنوية ذات بال وإعانة النصارى في حروبهم ضد الممالك الإسلامية الأخرى⁽¹⁵⁾ والتنازل عن بعض القلاع أو الحصون كعربون ولاء⁽¹⁶⁾ ومقابل هذا السخاء من بني الأحمر يسمح له بحضور مجلس قشتالة النيابي كأمر تابع للعرش ويهادنه النصارى لمدة عشرين سنة ويقرونه على ما بقي في يده من القواعد والحصون⁽¹⁷⁾ إلا أن النصارى سرعان ما نقضوا اتفاقهم معه رغم التزام ابن الأحمر بكل ما ورد فيه عندما وجدوا الفرصة سانحة بخلافه مع أصهاره بني إشبيلية وتدهور علاقته بهم فهاجم ملك قشتالة على الجزيرة الخضراء وعاث فيها فساداً فاضطر ابن الأحمر إلى الاستعانة بالمرينيين الذين هبوا لنجدته إلا أن منيته كانت أسرع إليه منهم فلم يشهد النصر الكبير الذي حققه المرينيون على النصارى مع بداية خلفه محمد الفقيه تباعاً من سنة 673هـ إلى سنة 674هـ حيث وقعت الواقعة الكبرى حول استجة⁽¹⁸⁾ التي قتل فيها «دون نينوي ديلارا» صهر ملك قشتالة وقائد النصارى ثم افتك المرينيون في نفس السنة «شروش» من يد النصارى ثم عاد ملك المغرب بعد خمسة أشهر قضائها في الجهاد والنصر على النصارى إلا أن محمد الفقيه ساءت نيته في المرينيين وارتاب في علاقتهم مع بني إشبيلية اصحاب مالقة أصهار بني الأحمر وخاصة بعد تنازل ابن محمد ابن إشبيلية عنها بعد موت أبيه لجند المرينيين حتى يتخذوها قاعدة لحماية الأندلس

(14) الاحاطة 99/2 — 100 — ونفع الطيب 216/1 ونهاية الأندلس 38 — 40.

(15) كاشيلية التي سقطت في يد ملك قشتالة بمساعدته سنة : 646 هـ (نهاية الأندلس ص 33).

(16) تنازل له عن الحصون والقلاع التالية : حصن «بيع» وقلعة «جابر» و«ارجونة» و«جيان» و«بركونة». والحجاز»، وارض «الفرنطرة».

(17) انظر مقدمة ملاك التاويل لابن الزبير، تحقيق سعيد الفلاح (ط، دار الغرب الاسلامي 1983 ج).

(18) وهي مدينة تقع جنوب غرب قرطبة انظر اخبار هذه المعركة وقادتها في الاحاطة 565/1 ونهاية الأندلس : 100.

فرد محمد الفقيه بالتحالف مع ملك قشتالة والاستيلاء على مالقة بعد ذلك، ونزلت جيوش النصارى بالجزيرة لمنع المنصور المريني من العبور كما راسل يغمراسن بتلمسان يسأله التحالف والعون إلا أن المرينيين أسرعوا إلى الأندلس فحالفهم النصر على النصارى الذين غدروا بمحمد الفقيه حيث هجموا مع بني اشقيلولة على غرناطة عاصمة ملكه إلا أنه استطاع صدهم عنها ولم يجد في غير المرينيين وفاء فعاد إلى مصالحتهم والركون اليهم وتنازل بنفسه عن مالقة للمرينيين ليتخذوها قاعدة للدفاع عن الأندلس. (19)

وبعد موت سلطان المرينيين أبو يوسف يعقوب المريني في طريق العودة إلى المغرب، تولى ولده أبو يعقوب، إلا أن النصارى عاذوا إلى الإغارة على ثغور الأندلس سنة 690 هـ بقيادة ملك قشتالة سانشو، فرد عليه المرينيون كيده، فالتجأ إلى الحيلة والخدعة، فأغرى ابن الأحمر وأوغر صدره على المرينيين، وتحالف معه لصدهم فاستجاب له ابن الأحمر واحتل وایاه مدينة طريف طريق العبور من يد المرينيين ثم ظهر غدر النصارى ومكرهم إذ رفضوا تسليم طريف لابن الأحمر بعد ذلك فتبين له حقيقة تحالفهم معه وعاد إلى طلب نجدة المرينيين وعادوا هم إلى نجدته (20) إلا أن خلفه محمد المخلوع (21) سرعان ما اتجه فجأة إلى النصارى وحالفهم ضد المرينيين بل تجاوز ذلك إلى إثارة الفتن والقتل والقتل في وجوههم بالتحريض على الخروج عليهم، ليس فقط في الأندلس ولكن أيضا في المغرب واضطرب الحال في المغرب بموت أبي يعقوب المنصور واختلاف ولديه من بعده على الخلافة. وتوالى الأحداث بعد ذلك على المغرب والأندلس سراعاً نحو التآزم بسبب ذلك وإن استقام الحال قليلا لابي ثابت المريني قبل موته، وثار على محمد المخلوع أخوه أبو الجيوش نصر بن محمد ومن رفضوا معه تناقضات أخيه وطفغيان وزيره ابن الحكيم وكان ذلك يوم عيد الفطر من سنة 708 هـ حيث قتل الوزير واعتقل الأمير وأجبر على التنازل لأخيه ثم أرغم نصر نفسه عن التنازل عن الحكم

(19) التاريخ الاسلامي من الفتح إلى سقوط غرناطة 538 وما بعدها.

(20) المرجع السابق.

(21) تولى بعد موت أبيه سنة 701 هـ وخلع سنة 708 هـ المصدر السابق : 541.

سنة 713 هـ ليتولى الحكم أبو الوليد إسماعيل ابن أخ محمد الأول المؤسس لهذه الدولة الذي أعاد نوعاً ما الاستقرار في غرناطة مع حياة الجهاد والمرابطة⁽²²⁾.

الحياة العلمية في عصر ابن الزبير

رغم الوضع السياسي المتأزم في الأندلس في عصر ابن الزبير، فقد خلفت العصور السابقة التي تميزت بنوع من الاستقرار المؤدي الى ازدهار الثقافة واشراق المعرفة خلفت استمراراً في العطاء وتقدماً نسبياً نحو مزيد من النماء الثقافي والتأليف العلمي.

ولا شك أن ذلك راجع لعوامل منها :

(1) أن المسجد كان مركزاً للإشعاع الفكري والحضاري في المجتمعات المسلمة.

(2) أن المجتمع الأندلسي بلغ الذروة في الحضارة مما كان يجعل الاتجاه نحو التعليم اتجاهاً مطلوباً ومنسجماً مع هذا الوسط المتحضر الذي توارثت أجياله المركز والاتجاه العلمي وخاصة في الأسر ذات الماضي العريق في المشيخة في الأندلس ومنها بيت ابن الزبير.

(3) المنافسة الحاصلة بسبب تعدد المراكز العلمية التي اشتهرت بها الأندلس وكذلك بسبب تعدد البيوت العلمية ونفس الامر بالنسبة لحكام الأندلس الذين توارثوا المنافسة بينهم في احاطة أنفسهم بالعلماء وتشجيعهم لتلك المراكز.

(4) ما اشتهر به الأندلسيون من حب الرحلة لطلب العلم، كما كانت تشد اليهم الرحال لنفس الغاية أو لغيرها من الغايات.

ومن ثم يمكن أن نجمل عناصر ازدهار الحياة العلمية في عصر ابن الزبير في النقاط التالية :

(22) المصدر السابق.

أولا - البيوت العلمية :

من البيوت العلمية نذكر على سبيل المثال أفرادا ينتسبون لتلك البيوت ممن كان لهم مركز مرموق وهم أمثلة فقط لما نريد التدليل عليه من توارث الأجيال وتواصل العطاء بين أفرادها العلماء، في الاندلس المسلمة :

(1) فمن بيت ابن منظور القيسي المالقي اشتهر عالمان هما :

— أبو عمر عثمان بن منظور القيسي المالقي الذي قال عن عراقه أصله ومكانته العلمية أبو الحسن النباهي : «... أحد بيوت النباهة بالاندلس كان صدرا في علماء بلده ممتعا من أهل النظر والتحقيق ثاقب الذهن أصيل البحث مضطلعا بالمشكلات، مشاركا في الفقه والعربية الى أصول وقراءات وطب ومنطق» (23).

— وأبو بكر بن عبيد الله بن منظور القيسي المالقي، وقال عنه النباهي أيضا : «أصله من اشبيلية من البيت الاثيل المشهور ويكفي في التعريف بقدم أصالته الكتاب المسمى «بالروض المنظور في أوصاف بني منظور»» (24).

(2) ومن بيت عبد الرحمان اللخمي اشتهر عدد منهم :

— أبو القاسم محمد بن محمد بن عبد الرحمن اللخمي المتوفى في وقعة الطاعون سنة 750 هـ. قال عنه ابن الخطيب «فرع الدوحة والاصالة والخصوصية والعلم والدين والمكانة والجلالة مجلى بيته ومجدد مآثره برا ومجاملة وخيرية» (25).

— وأبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن اللخمي وهو أيضا توفي سنة 750 هـ وقال عنه ابن الخطيب أيضا : كان صدر ابناء أصحاب النعم وبقية أعلام البيوت ترف نشأة وعز تربية وكرم نفس وطيب مجالسة، يقرض الشعر

(23) المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا (تاريخ قضاة الاندلس) لابي الحسن النباهي نشر المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ص : 147.

(24) المرقبة العليا 154.

(25) الاحاطة : 266/2.

ويقوم على الكتاب العزيز حفظا وتجويدا واتقاناً، ويسرد نتف التاريخ وعيون الاخبار الى حسن الخلق وكال الأبهة» (26).

(3) واشتهر أفراد من بيوتات أخرى منهم :

— أبو بكر محمد بن أحمد بن علي بن حسن بن علي بن الزيات الكلاعي ولد الشيخ الخطيب ابن جعفر الزيات من أهل «بلش» بقية أبناء المشايخ ظرفاً وأدباً ومروءة وحشمة... ورواية عالية ومشاركة في فنون. (27)

— وأبو عبد الله محمد بن أحمد الاستجى الحميري المتوفى سنة 639 هـ من أهل مالقة وأصله من استجه، كان من جملة حملة العلم، وكان من أهل الجلالة ومن بيت علم ودين، أقرأ ببلده وقعد بالجامع الكبير منه يتكلم على صحيح البخاري وانتقل آخر عمره الى غرناطة (28) وقال عنه ابن الزبير : كان من أبرع أهل زمانه في الادب» (29).

— وأبو جعفر احمد بن عبد الوالي الرعيني المتوفى سنة 750 هـ. قرأ على ابن الزبير وهو من بيت تصاون وعفاف ودين، كانوا في غرناطة في الأشعار وتجويد القرآن بحمله وعكوفهم عليه نظراء بني عزيمة باشبيلية وبني البادش بغرناطة. (30)

ثانياً — المراكز العلمية :

تعددت المراكز العلمية في الاندلس عصر ابن الزبير بتعدد حواضر الاندلس التي كان يتحلق فيها طلاب العلم حول الشيوخ بمساجدها الكبرى. وبتقليص رقعة الاندلس في عصر ابن الزبير ازداد التركيز على الحواضر الاندلسية التي لم تكن قد وقعت في يد العدو (النصارى).

(26) الاحاطة 2/272.

(27) نفس المصدر 138/2 — 139.

(28) نفس المصدر 316/2.

(29) نفس المصدر 316/2.

(30) نفس المصدر 193/1.

ومن هذه وتلك نذكر المراكز التالية :

(1) جيان : قبل سقوطها والتجاء أهلها الى الحواضر الاخرى وخاصة غرناطة. وهي بلد ابن الزبير وبها ولد ورحل عنها لما تغلب عليها العدو سنة 643هـ. وممن كان يؤخذ عنهم العلم فيها — المقرئ الاديب أبو عبد الله محمد بن احمد بن يربوع وممن اخذ عنه عبد الحق يوسف بن تونارت الصنهاجي الجياني المتوفى سنة 640هـ (31)

(2) الجزيرة الخضراء : من علمائها الخطيب أبو العباس بن خميس وأخذ عنه من العلماء أبو بكر محمد بن عبيد الله بن منظور القيسي المالقي (32)

(3) مرسية : ومن شيوخها الاعلام الاستاذ أبو بكر محمد بن محمد المعروف بالقريشي ومن أخذ عنه محمد بن عبد الله بن خطاب الغافقي المرسي (33).

(4) رندة : ومن شيوخها الشيخ النحوي أبو الحسن علي بن يوسف العبدري وابن القاسم ابن الايسر الخطيب وممن أخذ عنهم وعن والد أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم اللخمي الرندي النشأة الاشبيلي الأصل المكنى بذي الوزارتين المقتول سنة 708هـ (34)

(5) وادي آش : ومن علمائها أبو يحيى محمد بن رضوان بن محمد النصري المتوفى سنة 757هـ (35)

(6) بلنسية : ومن شيوخها الكبار ابن خيرة وأخذ عنه جماعة منهم أبو علي بن الناظر بن أبي الاحوص القريشي الفهري الغرناطي المتوفى سنة 699هـ (36).

(31) صلة الصلة لابن الزبير ص 12 القسم الاخير من الكتاب تصحيح وتعليق أ. بروفنسال المطبعة الاقتصادية الرباط 1930.

(32) الاحاطة : 171/2 — كذلك 228/2.

(33) الاحاطة 427/2.

(34) الاحاطة 444/2—451.

(35) الاحاطة : 142/2.

(36) الاحاطة 464/1.

(7) — أريولة : ومن شيوخها أبو الحسن بن بقي وممن أخذ عنه ابن أبي الاحوص السابق.(37)

(8) — ألمرية : ومن علمائها أبو اسحاق البلقيني وممن أخذوا عنه أبو بكر محمد بن مفضل بن مهيب اللخمي وهو الذي تزوج ابنته وانتقل بها إلى سبتة إلى وفاته سنة 645 هـ.(38) ومن علمائها أيضا أبو عبد الله الميوري وممن أخذ عنه أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن لب الأمي المعروف بابن الصائغ وهو من أهلها(39) توفي سنة 720 هـ.

(9) — اشيلية : ومن علمائها الحسن بن زرقون والاستاذان أبو الحسن بن جابر الدباج وأبو علي الشلبوبين.(40)

(10) — قرطبة : ومن علمائها الخطيب أبو جعفر أحمد بن يحيى بن ابراهيم الحميري وممن أخذ عنه أبو عبد الله محمد بن أحمد الاستجني الحميري وهو من أهل مالقة.(41)

(11) — مالقة : وكانت حاضره بني اشقيلولة أصهار بني الأحمر بغرناطة وكانت بينهما ما كان من المنافسة واستقطاب العلماء. وقد استقر بها ابن الزبير نفسه فترة عند الطلب وأخرى قضائها في التدريس إلى أن كانت فتنة الفزاري فخرج بنفسه منها لا يلوي على شيء وانتهبت داره بها. وقد اشتهر فيها اعلام كثيرون نذكر منهم :

— أبو عبد الله محمد بن أحمد الاستجني وهو من أهلها(42) كان حيا سنة 641 هـ ومن غير أهلها المقيمين بها : أبو علي ابن الناظر ابن الاحوص القريشي الفهري

(37) الاحاطة : 464/1.

(38) المصدر السابق : 145/2.

(39) المصدر السابق : 2 — 434.

(40) صلة الصلة : 12.

(41) الاحاطة : 326/2 — 327.

(42) الاحاطة : 326/2 — 327.

الغرناطي استقر بمالقة يقرىء ويحدث، وولي خطبتها بقصبتها سبعة وعشرين سنة (43) — ومحمد بن علي الجزولي المعروف بابن الحاج أحد اعلام المغرب دخل الاندلس وأقام بمالقة زمانا. (44)

— وأبو البركات محمد بن خلف السلمي المعروف بابن الحاج البلفيقي المتوفى سنة 773 تلميذ ابن الزبير. قعد بمجلس الاقراء بمالقة للكلام على صحيح مسلم ثم رحل إلى فاس ثم آب إلى الأندلس واستقر بالمرية للاقراء (45).

— وأبو إسحاق ابراهيم بن أبي بكر الانصاري المعروف بالتلمساني المتوفى سنة 690 هـ بسبته كان فقيها أديبا شاعرا محسنا انتقل به أبوه إلى الأندلس وهو طفل فاستوطن غرناطة ثم رحل إلى مالقة فسكن بها مدة وبها قرأ معظم قراءته (46).

(12) — غرناطة : وهي عاصمة بني هود ثم بني الاحمر بعد سنة 635 هـ وكانت ملتقى العلماء النازحين من المراكز الأخرى بعد سقوطها أو طلبا للعيش في كنف حكامها. واشتهر من علمائها في هذه الفترة عدد جم نذكر منهم صاحبنا ابن الزبير وابن أبي الاحوص القرشي المذكور سابقا والخطيب أبي الحسن القيجاطي (47) وابراهيم بن أبي العاصي تلميذ ابن الزبير (48) وأبو يحيى محمد بن رضوان النيري (49) وغيرهم.

ثالثا — الرحلات العلمية :

عرفت الاندلس منذ الفتح الاسلامي وإلى سقوط مملكة غرناطة الرحلة من المشرق والمغرب إليها، ومنها إليهما، وقد توزعت الراحلين إليها والمرتحلين منها نوازع ودوافع مختلفة الا أن الغالب عليها من طرف الاندلسيين كان الحج وطلب العلم

(43) المرقبة العليا : 127 والاحاطة : 664/1.

(44) المرقبة العليا : 135.

(45) الاحاطة : 145/2.

(46) الاحاطة : 328/1.

(47) الاحاطة : 434/2.

(48) المصدر السابق : 374/1 — 375.

(49) المصدر السابق : 142/2.

ولقاء الشيوخ والرواية العالية في الاسناد، وفي نهاية أمر المسلمين بالاندلس الفرار من ظلم وعذاب النصاري المتسلطين الغالبيين على الاندلس.

في عصر ابن الزبير كان الغالب على الرحلات العلمية الاتجاه نحو حواضر أقطار المغرب وخاصة : فاس ومراكش وسلا وسبتة، وتونس، وتلمسان وبجاية. أو الاتجاه نحو الحجاز مرورا ببعض الحواضر السابقة الذكر وبمصر وربما بعد أو قبل موسم الحج يعرج الحاج أو الطالب على بعض مراكز العلم في سوريا أو العراق وغيرهما وفي مقدمة الراحلين من الاندلس إلى حواضر المغرب نجد أستاذنا ابن الزبير الذي كانت له رحلة إلى سبتة⁽⁵⁰⁾ وأخرى إلى سلا⁽⁵¹⁾. وقد صرح هو نفسه بذلك، كما كان له تجول بين حواضر الاندلس الأخرى طلبا للعلم والرواية⁽⁵²⁾.

واشتهر أيضا بالرحلة إلى نفس المراكز السابقة أبو جعفر أحمد بن عبد النور بن راشد المتوفى سنة 702 هـ. من أهل مالقة كان قيما على العربية إذ كانت جل بضاعته. رحل من بلده مالقة إلى سبتة، ثم انتقل إلى الاندلس وأقرأ بواد آش مدة وتردد بين ألمرية، وبرجة... ناب عن الكثير من القضاة ودخل غرناطة...⁽⁵³⁾

وأبو البركات محمد بن خلف السلمي المعروف بابن الحاج البلفيقي المتوفى سنة 773 هـ اجتهد في طلب العلم صغيرا وكبيرا، عبر البحر إلى بجاية فادرك بها المدرس المشهور أبا علي منصور المشدالي وحضر مجالسه العلمية، وأخذ عن غيره من أهلها، ثم أتى مراكش، وآثر السكنى بسبتة على طريقة جده ابراهيم، ثم عاد إلى الاندلس فأقام منها بمالقة واختص بخطيبها الشيخ الولي : أبي عبد الله الطنجالي وروى عنه وعن غيره، وقيد الكثير بخطه، ورام في ابتداء طلبه التشبه بالقاضي أبي

(50) قال ابن عبد الملك المراكشي عن ابن الزبير «متسع الرواية عنى بها كثيرا ورحل بسببها إلى سبتة وإلى كثير من بلاد الاندلس» الذيل والتكملة ص 1 ق 1 ص 44.

(51) قال ابن الزبير في صلة الصلة في ترجمة علي بن عبد الله بن قطرال الانصاري «وكنيت بمدينة سلا أيام كونه بفاس» ص : 139

(52) انظر الذيل والتكملة ص 1 ق 1 ص 44.

(53) الاحاطة : 197/1.

بكر بن العربي في لقاء العلماء ومصاحبة الادباء والأخذ في المعارف كلها، والتكلم في أنواعها، ومن أخذ عنهم الاستاذ ابن الزبير. (54)

— أبو بكر محمد بن أحمد بن شبرين المتوفى سنة 747 الذي كانت له رحلة إلى تونس لقي فيها قاضي الجماعة الشيخ الامام أبا اسحاق ابراهيم بن عبد الرفيع وغيره فاتسع بذلك نطاق روايته. (55)

— ومحمد بن يحيى بن بكر الاشعري المالقي المتوفى سنة 241 هـ رحل إلى مدينة سبتة وأخذ بها عن عميد الشرفاء ابن علي بن أبي التقي طاهر بن ربيع، وأبي فارس عبد العزيز الهواري.

كما أخذ عن أبي إسحاق التلمساني، وأبي عبد الله بن الخضار، والمقرئ ابن القاسم بن عبد الرحيم والاستاذ أبي بكر بن عبيدة، واجازه من المشرق الامام شرف الدين عبد المومن الدمياطي، والراوية المحدث أبو المعالي أحمد بن اسحاق القوصي إلى جماعة من المصريين والشاميين وغيرهم، وعاد إلى بلده مالقة وقد صار سباق الحلبات معرفة بالاصول والفروع والعربية والتفسير والقراءات (56) ورحل إلى المشرق عدد جم من طلاب العلم بالاندلس نذكر منهم :

— أبا أحمد جعفر بن سيد بونة المتوفى سنة 624 هـ الصوفي الشهير الذي أدى فريضة الحج ولقى جلة من الفضلاء، اشهرهم في باب الزهد ورفيع المقامات الشيخ الصالح أبو مدين شعيب بن الحسين مقيم بجابة. (57)

— وأبا عبد الله محمد عبد الله بن لب الامي المعروف بابن الصائغ من أهل ألمرية المتوفى سنة 720 هـ سار إلى غرناطة وقرأ بها العربية وغيرها ثم رحل إلى المشرق فلم يتجاوز القاهرة وأخذ في اقراء العربية بها وعرف بها إلى أن صار يدعى

(54) المرقبة العليا : 164 والاحاطة : 144/2 — 154.

(55) المرقبة العليا 153 والاحاطة 240/2.

(56) المرقبة العليا ص : 141.

(57) المرقبة العليا ص : 137.

بابن عبد الله النحوي، وكان بمدرستها الصالحية نبيه المكانة معدودا في أهل العلم والديانة. (58)

— وأبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم اللخمي الملقب بذي الوزارتين رندي النشأة اشبيلي الأصل رحل إلى الحجاز على سنة 683 هـ فحج وزار وتجول في بلاد المشرق منتجعا عوالي الرواية في مظانها، ومنقرا عنها عند مسني شيوخها. وقيد الاسانيد الغربية، وأقام بمكة شرفها الله من شهر رمضان إلى انقضاء الموسم فأخذ بها عن جماعة وانصرف إلى المدينة المشرفة ثم قفل مع الراكب الشامي إلى دمشق ثم كر إلى المغرب لا يمر بمجلس علم أو تعلم إلا روي أو روى واحتل رندة عام 685 هـ ومات مقتولا سنة 708 وهو أحد تلاميذ ابن الزبير. (59)

— وأبا جعفر أحمد بن محمد مفرج المعروف بالعشاب وابن الرومية كان اماما في الحديث وعلم النبات، رحل إلى المشرق فاستوعب المشهور من افريقيا ومصره وشامه وعراقه وحجازه، وعان الكثير مما ليس بالمغرب. (60)

— وابراهيم بن محمد الانصاري الساحلي المعروف بالطويحن من غرناطة كان حيا سنة 739 هـ. كان نسيج وحده في الادب نظما ونثرا لا يشق له فيهما غبار رحل بعد أن اشتهر فضله فشرق وحج وجال في الشام والعراق واليمن ومصر ثم دخل بلاد السودان حيث استقر بها. (61)

ومن قصد الاندلس للأخذ عن علمائها نذكر :

— أبا عبد الله محمد بن عمر المليكشي التونسي، كان فاضلا أديبا شاعرا صوفيا جميل العشرة كتب عن الأمراء بافريقية ونال حظوة ثم شرق وحج ولقي جلة ووصل الاندلس عام 718 هـ فلقي بغرناطة حفاوة وانسحبت بها عليه جراية. وقد

(58) الاحاطة : 434/2.

(59) المصدر السابق : 446/2.

(60) الاحاطة : 208/1.

(61) المصدر السابق : 329/1.

اسمع بها وارتسم في جملة الكتاب بها ولقي من كان بها من الاعلام، ثم انصرف عن
غرناطة فاتصل بسبته فأكرم رئيسها قدومه ثم اتصل ببلده⁽⁶²⁾ وبها توفي سنة 740
هـ.

— وأبا القاسم محمد بن أحمد الحسيني الشريف الغرناطي الذي ارتحل عن
بلده سبته وقد تملأ من العلوم وبرع في طريقتي المنثور والمنظوم فطلع على الاندلس
طلوع الصباح بعد السرى وخلص فيها خلوص الخيال مع سنة الكرى فانظم في
الحين في سلك كتابها.⁽⁶³⁾
وغير هؤلاء وأولئك كثير.

رابعا — حركة التأليف في هذا العصر :

من مظاهر النشاط العلمي في هذا العصر رغم انحصار رقعة الاندلس
المسلمة ظهور عدد من المؤلفات التي تعبر عن نوع الثقافة السائدة في ذلك
العصر والمعبرة عن اهتمامات الناس وقضاياهم ومحط اهتمام الفئة المثقفة في المجتمع.
ومن بين تلك المؤلفات التي ظهرت إلى جانب مؤلفات ابن الزبير التي
كانت تدور محتوياتها حول الذب عن الاسلام في مواجهة الانحرافات والتيارات
الجارفة لعقائد الناس : كملاك التأويل، والبرهان في ترتيب سور القرآن، وايضاح
السبيل من حديث سؤال جبريل، وسبيل الرشاد في فضل الجهاد، وردع الجاهل
عن اعتساف الجاهل الخ..... إلى جانب ذلك برزت إلى الوجود المؤلفات
التالية :

«التكميل والاتمام لكتاب التعريف والاعلام» «والمختصر في السلوك عن
ذهاب البصر». ⁽⁶⁴⁾

(62) المصدر السابق : 563/2 و 570 و 571.

(63) المرقبة العليا : 171.

(64) المرقبة العليا : ص 123.

«ومطلع الانوار ونزهة الابصار» فيما احتوت عليه مالقة من الرؤساء والاعلام الأخيار وتقيد من المناقب والآثار، «والمشرع الروي»⁽⁶⁵⁾ وكلها لابن عبد الله بن عسكر المتوفى سنة 636 هـ.

وظهر أيضا «تنظيم الدر في علماء الدهر لابي عامر يحيى بن ربيع بن قاضي الجماعة»⁽⁶⁶⁾ المتوفى سنة 639 هـ.

وكتاب «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي الرسول صلى الله عليه وسلم ومغازي الثلاثة الخلفاء» في أربع مجلدات «والمسلسلات من الأحاديث والآثار والانشاءات» وكتاب نكتة الامثال ونفثة السحر الحلال» وكلها لأبي الربيع سليمان الكلاعي⁽⁶⁷⁾ المتوفى سنة 634 هـ.

وكتاب «ظهور الاعجاز بين الصدور والاعجاز» في شرح شعر المتنبي، وكتاب «شمس البيان في لمس البنان» وكتاب «الزهرة الفائحة في الزهرة اللائحة» و«نفح الكمات في شرح المقامات» و«اقتراح المتعلمين في اصطلاح المتكلمين» و«التصور والتصديق في التوطية لعلم التحقيق» و«رقم الحل في نظم الجمل» و«مفتاح الاحسان في اصلاح اللسان» وكلها لأبي عبد الله محمد بن أحمد الاستجى الحميري المالقي⁽⁶⁸⁾ كان حيا سنة 645 هـ.

كما ألفت الكتب التالية : «رجال المعلم بزوائد البخاري على مسلم» و«اختصار غريب حديث مالك للدارقطني»، و«نظم الدراري فيما تفرد به مسلم عن البخاري» و«توهين الطرق في حديث الأربعين» و«حكم الدعاء في ادبار الصلوات» و«كيفية الآذان يوم الجمعة» و«اختصار الكامل في الضعفاء والمتروكين لابن عدي»، و«الحافل في تذييل الكامل» و«اخبار محمد بن

(65) الاحاطة : 174/2 . والمرقة العليا ص : 123 .

(66) المرقة العليا : ص : 129 .

(67) المرقة العليا : ص : 119 .

(68) الاحاطة : 325/2 و 326 .

اسحاق» و«شرح حشائش دياسقوريدوس وأدوية جالينوس والتنبيه على أوهام ترجمتها» و«التنبيه على أوهام الغافقي»، و«الرحلة النباتية» و«المستدركة» وكلها لأبي جعفر أحمد بن محمد بن مفرج الأموي المعروف بالعشاب وابن الرومية⁽⁶⁹⁾ المتوفى سنة 637 هـ.

وكتاب «الحلية في ذكر البسملة والتصلية» و«رصف المباني في حروف المعاني» و«كتاب في شرح الكوامل لأبي موسى الجزولي نحو الموطأ في الجرم»، وكتاب «شرح مغرب أبي عبد الله بن هشام الفهري المعروف بابن (الشواش)» ولم يتم، وغيرها وكلها لأبي جعفر أحمد بن عبد النور بن راشد المالقي المتوفى سنة 702 هـ⁽⁷⁰⁾.

وألّف أبو جعفر أحمد بن الحسن الزيات الكلاعي من أهل بلش مالقة المتوفى سنة 728 هـ تصانيف كثيرة منها : «نظم السلوك في شيم الملوك» و«المجتبى النظر والمقتنى الخطير» و«العبارة الوجيزة عن الإشارة» و«اللطائف الروحانية والعوارف الربانية» و«وأس مبنى العلم وأس معنى الحلم» في علم الكلام و«لذات السمع من القراءات السبع» نظماً و«قاعدة البيان وضابطة اللسان» في العربية، و«النفحة الوسمية والمنحة الجسمية» وتشتمل على أربع قواعد اعتقادية وأصولية وفروعية وتحقيقية»، و«تلخيص الدلالة في تخلص الرسالة» وغيرها⁽⁷¹⁾.

وألّف أبو بكر محمد بن عبيد الله بن منظور القيسي المتوفى سنة 750 هـ «نفحات النسوك وعيون التبرك المسبوك في اشعار الخلفاء والملوك» وكتاب «السحب الواكفة والظلال الوارفة في الرد على ما تضمنه المضمون به من اعتقادات الفلاسفة» وكتاب «البرهان والدليل في خواص سور التنزيل»،⁽⁷¹⁾ و«الصيب اهتان الواكف بعناية الاحسان» والمشتمل على أدعية مستخرجة من الأحاديث الصحيحة النبوية وسور القرآن وكتاب يشتمل على «أربعين حديثاً في الرقائق

(69) المصدر السابق : 211/1 . (*) الاحاطة 198/1 .

(70) المصدر السابق : 289/1 — 290 .

(71) المرقبة العليا : ص : 155 .

موصولة الاسانيد» وكتاب «تحفة الأبرار في مسألة النبوة والرسالة وما اشتملت عليه من الأسرار» وكتاب «الفعل المبرور والسعي المشكور فيما وصل اليه أو تحصل لديه من نوازل القاضي ابن عمر بن منظور»⁽⁷²⁾.

وَأَلَفَ أَبُو الْبَرَكَاتِ ابْنُ الْحَاجِّ الْبَلْفِيْقِي مَفْخَرَةَ تَلَامِيْذِ ابْنِ الزَّيْرِ الْمَتَوْفَى سَنَةَ 773 هـ: «المؤتمن في أنباء من لقيه من أبناء الزمن» و«الافصاح عمن عرف بالاندلس بالصلاح» وكتاب «خطر فبطر ونظر فخطر على تنبيهات وثائق ابن فتوح»، و«سلوة الخاطر فيما أشكل من نسبة الرتيب الى الذاكر». و«حركة الدخولية في المسألة المالقية» و«خطرة المجلس في كلمة وقعت في شعر استنصر به أهل الاندلس» و«تاريخ ألمرية» غير تام. و«المرجع بالدرك على من أنكر وقوع الشرك» و«مشبهات اصطلاح العلوم» و«ما كثر وروده في مجلس القضاء» و«الغلسيات» و«الفصول والأبواب فيمن أخذ عني من الشيوخ والأتباع والأصحاب»⁽⁷³⁾ وغيرها كثير.

وَأَلَفَ أَبُو يَحْيَى مُحَمَّدُ بْنُ رِضْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ أَرْقَمِ الْوَادِي أَشْيَ كِتَابًا سَمَاهُ «الاحتفال في استيفاء ما للخيل من الأحوال»⁽⁷⁴⁾.

وَأَلَفَ أَبُو الْقَاسِمِ مُحَمَّدُ الْحُسَيْنِيُّ الشَّرِيفُ الْغَرْنَاطِيُّ جَمْلَةَ تَصَانِيفٍ مِنْهَا : «رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة»، ومنها «رياضة الآن في شرح الخرجي»⁽⁷⁵⁾ وغيرها كثير، وفيما ذكرنا أمثلة لما لم نذكر.

(72) الاحاطة 171/2 - 172 .

(73) المرقبة العليا : 165 . والاحاطة 148/2 - 149 .

(74) الاحاطة 141/2 .

(75) المرقبة العليا : 167 .

المبحث الثاني

ترجمة ابن الزبير

- اسمه ونسبه
- مولده ونشأته ووفاته
- شيوخه
- مكانته العلمية
- تلاميذه
- مؤلفاته

ترجمة ابن الزير⁽¹⁾

1 — اسمه ونسبه :

هو أحمد بن ابراهيم بن الزير بن محمد بن ابراهيم⁽²⁾ (بن الزير)⁽³⁾ (بن الحسن بن الحسين)⁽⁴⁾ بن الزير بن عاصم بن مسلم بن كعب⁽⁶⁾ بن مالك بن علقمة بن خباب⁽⁷⁾ بن مسلم بن عدي بن مرة بن عوف بن ثقيف⁽⁸⁾.

يكنى أبا جعفر، وابن الزير نسبة الى أحد أجداده الثلاثة الذين سمو بهذا الاسم وهم الجد الأول والرابع والسابع.

-
- (1) اعتمدت في ترجمته على الذيل والتكملة 39/1 — 45 تذكرة الحفاظ 1484/4، الوافي بالوفيات 222/6 — 223، الاحاطة 188/1 — 193 الديباج المذهب 188/1، غاية النهاية في طبقات القراء 32/1، الدرر الكامنة 84/1 — 86 بغية الوعاة 291/1 طبقات المفسرين 26/1، فهرس الفهارس 340/1 — 341 لعبد الحي الكتاني (ط)، المطبعة الجديدة بالطالعة فاس سنة 1946). كما استعنت في ترجمته على المصادر التالية : طبقات الحفاظ ص 513، نفح الطيب 98/6، شذرات الذهب 16/6، درة الحجال 11/1، البدر الطالع 33/1، كشف الظنون 241/1، هدية العارفين 103/1 شجرة النور الزكية ص 212 طبقات المالكية ص 372 (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم 3928 د)، بروكلمان 376/2 — 377، معجم المؤلفين 138/1، الاعلام 29/1 الموسوعة المغربية للاعلام البشرية 110/1 للاستاذ عبد العزيز بن عبد الله (ط)، وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية المغرب 1975).
 - (2) تتفق اغلب التراجم الى هذا الحد.
 - (3) سقط من : الاحاطة، الدرر الكامنة، غاية النهاية.
 - (4) كذا ورد في : غاية النهاية، بغية الوعاة، طبقات المفسرين، الاحاطة، الذيل والتكملة، وفي معجم المؤلفين : هو احمد بن ابراهيم بن الزير بن الحسن بن الحسين وهو خلاف ما اتفقت عليه معظم كتب التراجم.
 - (5) كذا ورد في الذيل والتكملة والاحاطة، وغاية النهاية.
 - (6) في الذيل والتكملة : كذا نقلت نسبه من خطه.
 - (7) في الاحاطة : حباب.
 - (8) في الذيل والتكملة، والاحاطة وردت هذه الترجمة بتامها دون خلاف بين المصدرين باستثناء سقوط «ابن الزير» الجد الرابع للمؤلف من الاحاطة، ويلاحظ أن أغلب من ترجم له من بعدهما قد اعتمد عليهما.

وهو من أبناء العرب الداخلين الى الاندلس،⁽⁹⁾ ولذلك عرف بالثقفي نسبة الى بني ثقيف⁽¹⁰⁾ والعاصمي⁽¹¹⁾ نسبة الى جده الثامن، والجياياني⁽¹²⁾ نسبة الى مسقط رأسه جيان، والغرناطي⁽¹³⁾ نسبة الى غرناطة التي استقر بها، وفيها عاش وترعرع حتى صار علما من أعلامها، والاندلسي⁽¹⁴⁾ نسبة الى موطنه الاندلس. واشتهر بالاستاذ⁽¹⁵⁾، وكثيرا ما نجد في تراجم تلامذته أنهم قرأوا على الاستاذ، أو أستاذ الجماعة، أو شيخ الجماعة، أو الاستاذ الكبير،⁽¹⁶⁾ فهو كما وصفه عبد الحي الكتاني أستاذ القراء.⁽¹⁷⁾

مولده ونشأته

ولد ابن الزبير ببلدة جيان⁽¹⁸⁾ دون خلاف في ذلك وكان مولده في ذي

-
- (9) الاعلام لخير الدين الزركلي 29/1 (ط، 2 دار العلم للملايين بيروت).
- (10) نسبة الى بني ثقيف، وهو بطن من هوازن من العدنانية، واشتهروا باسم أبيهم فيقال لهم ثقيف واسمه قسي بن منبه ابن بكر بن هوازن، ومنها عبد الله بن أبي اوفي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي 1959/16 تحقيق ابراهيم الاياري 199، 442، الاحاطة 135/1.
- (11) وردت في: الذيل والتكملة، طبقات الحفاظ، تذكرة الحفاظ، هدية العارفين، درة الحجال، فهرس الفهارس وغيرها.
- (12) وردت في : طبقات المفسرين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط، 1 القاهرة 1964.
- (13) وردت في : طبقات الحفاظ، تذكرة الحفاظ، درة الحجال، شجرة النور الزكية، وغيرها.
- (14) وردت في : درة الحجال، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني ط، دار الجبل.
- (15) كلمة أعجمية الأصل، ومعناها الماهر بالشيء أو العظيم، وهي على ما يراه أبو منصور الجواليقي تطلق على المعلم الذي يربي الصبيان، فكأنه أصبح مثالا لهم في حسن الادب، كما انها كانت تطلق على المحبوب (الخصي)، ثم أصبحت تطلق على كل ماهر في فنه العلمي مبرز فيه. المصباح المنير 18/1، تاج المعروس 564/2 للزبيدي ط، 1 المطبعة الخيرية بجمالية مصر 1306هـ.
- (16) الاحاطة : 28/3، 77، 230، 412 وغيرها من الصفحات.
- (17) فهرس الفهارس والاثبات 340/1 لعبد الحي الكتاني ط، المطبعة الجديدة بالطالعة فاس 1946.
- (18) جيان بالفتح والتشديد وآخره نون مدينة لها كورة واسعة بالاندلس تتصل بكورة البيرة مائلة عن البيرة إلى ناحية الجوف في شرقي قرطبة، بينها وبين قرطبة 17 فرسخا وهي كورة كبيرة تجمع قرى كثيرة وبلدانا. (انظر معجم البلدان لياقوت الحموي : 195/2 ط، دار صادر بيروت 1957).
- كانت اسبانيا مقسمة في عهد الفتح الاسلامي إلى خمس ولايات، وكانت جيان تقع في الولاية الأولى (اقليم الاندلس) وأشهر مدنها بالإضافة إلى جيان، قرطبة، اشبيلية، مالقة، واستجة، وكانت جيان من القواعد الاندلسية الهامة أيام الدولة الاسلامية وهي اليوم قاعدة الولاية الاسبانية المسماة باسمها، انظر الاحاطة 188/1 الهامش رقم 5 ودولة الاسلام في الاندلس لمحمد عبد الله عنان ص : 69 ط، القاهرة 1969.

القعدة⁽¹⁹⁾ سنة سبع وعشرين وستمئة،⁽²⁰⁾ وقيل ثمان وعشرين وستمئة للهجرة⁽²¹⁾ (627 أو 628 هـ) الموافق ثلاثين ومائتين وألف للميلاد⁽²²⁾ (1230م).

ولئن كان ابن الزبير قد ولد بجيان وامضى بها طفولته فانه سرعان ما غادرها صحبة أبيه سنة 643 هـ عند ما تغلب عليها العدو وهو لم يتجاوز بعد الخامسة أو السادسة عشرة من عمره، وهو ينحدر من أسرة ذات حسب أصيل وجاه ومال أعانته على تكوين شخصيته العلمية.

يقول ابن الخطيب عن ابن الزبير : «أصله من مدينة جيان منزل قنسرين من العرب الداخلين الى الاندلس، ونسبه بها كبير وحسبه أصيل، وثروته معروفة، خرج به أبوه عند تغلب العدو عليها عام 643 هـ. ولأبيه إذ ذاك ثراء وجدة أعانته على طلب العلم وإرفاد من احوجته اللازمة في ذلك الزمان من جالية العلماء⁽²³⁾.

وان المصادر التي بين ايدينا لا تسعفنا بتاريخ محدد لانتقال ابن الزبير الى غرناطة، هل كان في نفس السنة التي خرج فيها صحبة أبيه سنة 643 هـ ام كان بعد ذلك.

الا اننا نرجح نزوله بها واستقراره فيها بعد خروجه من جيان مباشرة لعدم توفرنا على ما يرد ذلك.

ففي مدينة غرناطة عاش ابن الزبير وترعرع، وفيها اشتهر وبرز، تلك المدينة التي خلبت لب لسان الدين بن الخطيب ففضلها على اهم بلاد الشرق قائلا :

(19) الدرر الكامنة 84/1 وفي الاحاطة 192/1 في أواخر عام 627 هـ، وكذا في غاية النهاية لابن الاثير الجزري 32/1 نشر ج. بروجستراس ط، دار الكتاب، بيروت 1980.

(20) الاحاطة 192/1 والوافي بالوفيات 222/6، غاية النهاية 32/1، طبقات الحفاظ للسيوطي ص 513، تحقيق علي محمد عمر ط، 1973/1 بغية الوعاة 291/1، البدر الطالع للشوكاني ص 33، 1/سنة 1948، مطبعة السعادة، درة الحجال لابن القاضي 11/1، تحقيق محمد الاحمدي أبو النور 1970، الديباج المذهب لابن فرحون 188/1، تحقيق محمد الاحمدي أبو النور ط، مكتبة دار التراث القاهرة. طبقات المفسرين 26/1، شجرة النور الزكية لابن مخلوف ص 212، ط، مصورة عن ط، 1 بالمطبعة السلفية بمصر 1349 هـ طبقات المالكية مخطوط مجهول المؤلف رقم 3929 د، ص 372، الاعلام 29/1.

(21) الذيل والتكملة 35/1، الدرر الكامنة 84/1، تذكرة الحفاظ للذهبي 1484/4، نسخة مصورة بيروت، فهرس الفهارس 340/1، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة 138/1. ط، دار احياء التراث العربي بيروت.

(22) الاعلام 29/1، معجم المؤلفين 138/1.

(23) الاحاطة 188/1 — 189.

غرناطة ما لها نظير ما مصر ما الشام ما العراق
ما هي الا العروس تجلى وتلك من جملة الصداق⁽²⁴⁾
وقال ايضا في وصفها وقد حفت بالبساتين العريضة والادواح الملتفة :
بلد يحف به الرياض كأنه وجه جميل والرياض عذاره
وكأنما واديه معصم غادة ومن الجسور المحكمات سواره⁽²⁵⁾

وفاته :

توفي ابن الزبير بغرناطة عن احدى وثمانين سنة⁽²⁶⁾ على حال جميل، يوم
الثلاثاء ثامن ربيع الاول⁽²⁷⁾ سنة ثمان وسبعمائة للهجرة (708هـ) الموافق لثمان
وثلاثمائة والف للميلاد (1308).⁽²⁸⁾

شيوخ ابن الزبير :

ولد ونشأ ابن الزبير في أسرة ميسورة أصيلة في العلم والمشیخة مما أتاح له
وسطا مناسباً ليس فقط لطلب العلم وملاقة الشيوخ بل لما يستلزمه ذلك من
تفرغ وجدة، لذا نجده يحرص حرصاً خاصاً على ملاقة الشيوخ وملازمتهم ويعتني
بالرواية ويحفل بالسماع من شيوخها منتقلاً الى أماكنهم راحلاً من أجلها⁽²⁹⁾ كما

(24) نفع الطيب 142/1.

(25) الاحاطة 115/1.

(26) في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي 16/6 عن ثمانين سنة. نسخة مصورة عن ط، 1 المكتب التجاري
بيروت (دون تاريخ).

(27) البدر الطالع ص 33.

(28) في الديباج المذهب 188/1 توفي عام ثمان وسبعمائة ، وفي معجم المؤلفين 38/1 توفي سنة 708 هـ أو
707 هـ.

(29) ذكر ابن الزبير نفسه رحلته إلى حواضر الاندلس وإلى حواضر المغرب ومنها سلا إذ أشار إلى ذلك بقوله عند
حديثه عن علي بن عبد الله بن قطرال الانصاري أحد شيوخ عصره : وكنت بسلا أيام كونه بفاس وكنت
أتحدث بلقائه والأخذ عنه (صلة الصلة : 139). وقال عند حديثه عن شيخه أبي الحسن الشاري انه دخل
سبتة (صلة الصلة 151) كما أشار الى انتقاله اليه عند إقامته بمالقة في نفس المصدر ص : 153 وقال عنه ابن
عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة متسع الرواية عني بها كثيرا ورحل بسببها الى سبتة وإلى كثير من بلاد
الاندلس، س 1 ق 1 ص 43، 44.

كان يحرص على نيل الاجازات من اصحابها فيعمد إلى مكاتبة العلماء مستجلباً لها لنفسه ولأبنائه من بعده⁽³⁰⁾ ومن ثم ندرك وتزول الغرابة من كثرة شيوخه الذين بلغوا حوالي الأربعمائة⁽³¹⁾. قد وقع التعرف على جملة منهم اذكرهم فيها يلي مرتبين على حروف المعجم :

- 1 — ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن عبيدس النفري⁽³²⁾
- 2 — ابراهيم بن محمد الكاد ابو اسحاق الحافظ⁽³³⁾ اخذ عنه ابن الزبير كثيراً.
- 3 — أحمد بن ابي محمد القرطبي ابو بكر⁽³⁴⁾ حمّيه، سمع منه وشاركه في بعض شيوخه.
- 4 — أحمد بن الحسن المرادي أبو المجد الحضري⁽³⁵⁾ اخذ منه الحديث.
- 5 — أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن عميرة المخزومي ابو المطرف اخذ عنه الحديث⁽³⁶⁾
- 6 — أحمد بن محمد بن السراح ابو الحسن⁽³⁷⁾ اخذ عنه الحديث كما روى عنه الموطأ⁽³⁸⁾
- 7 — أحمد بن محمد بن العاصي ابو بكر⁽³⁹⁾ تلا عنه بالسبع⁽⁴⁰⁾.

-
- (30) الاحاطة 156/3.
- (31) شجرة النور الزكية 212 والديباج المذهب 188/1.
- (32) الذيل والتكملة س 1 ق 1 و 40/1 والاحاطة 330/1.
- (33) ذكره في صلة الصلة 220 والذيل والتكملة س 1 ق 40/1. وتذكرة الحفاظ 1484/4 والوافي بالوفيات 222/6 والدرر الكامنة 84/1 والبدر الطالع 33 ترجمة 20 وفيه الكمال.
- (34) الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص 40.
- (35) الذيل والتكملة س : 1. ق 40/1 و 94 والديباج 188/1.
- (36) الاحاطة 175/1 والذيل والتكملة سفر 1 قسم 41/1.
- (37) ذكره ابن الزبير في صلة الصلة 14 و 18 والمراكشي في الذيل والتكملة س 1 ق 41/1 وذكره ابن الخطيب 91/1 وذكر اخذه عنه ايضا في الوافي بالوفيات 22/6 ترجمة 2690 والديباج المذهب 188/1 والدرر الكامنة 84/1 وثبت البلوي 277.
- (38) ثبت البلوي ابي جعفر أحمد الوادي آشي ص 277، تحقيق د. عبد الله العمراني ذ، دار الغرب الاسلامي.
- (39) في صلة الصلة 124.
- (40) في الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص : 39.

- 8 — أحمد بن المضرس⁽⁴¹⁾ اخذ عنه القراءة.
- 9 — أحمد بن يوسف بن فرتون ابو العباس المؤرخ المتوفى سنة 660 هـ من أهل مدينة فاس نزل سبتة لقي ابن الزبير اول مرة سنة 649 هـ قال عنه ابن الزبير مشيداً به : «كان ذاكراً للرجال والتاريخ ولكثير من متون الأحاديث وقسطاً صالحاً من الجرح والتعديل وطبقات الناس توفي سنة 660 هـ عن سن عالية تناهز الثمانين». ⁽⁴²⁾
- 10 — إسحاق بن عامر الطوسي أبو إبراهيم ذكره ابن الزبير نفسه⁽⁴³⁾ وهو من مشاهير شيوخه⁽⁴⁴⁾ وروى عنه الموطأ⁽⁴⁵⁾
- 11 — إسماعيل بن يحيى الأزدي أبو الوليد العطار ذكره ابن الزبير⁽⁴⁶⁾ كثيراً أخذ عنه القراءات وغير ذلك⁽⁴⁷⁾.

من عرف بابن او ابو من شيوخه :

- 12 — ابن احمد بن الشيخ الفهري، وقد تدبجا وشاركه في طائفة من شيوخه⁽⁴⁸⁾
- 13 — ابن علي الدهان⁽⁴⁹⁾
- 14 — ابن محمد بن بالغ⁽⁵⁰⁾

(41) غاية النهاية 32/1 ترجمة 132.

(42) مقدمة صلة الصلة (ط ي) والذيل والتكملة سفر 1 قسم 1 ص : 39 والدياج 188/1 والدرر الكامنة 84/1. وطبقات المفسرين 26/1.

(43) في صلة الصلة ص 54 و129.

(44) في الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص : 40 وتذكرة الحفاظ 1484/4 والوافي بالوفيات والدرر الكامنة 84/1 والبدر الطالع 33 و20.

(45) وردت في ثبت البلوى : 277.

(46) في صلة الصلة عدة مرات منها 20 و220 وغيرها.

(47) تذكرة الحفاظ 1484/4 والدرر الكامنة 84/1 وغاية النهاية في طبقات القراء 32/1 والبدر الطالع 33.

(48) الذيل والتكملة س 1، ق 1، ص : 40.

(49) المصدر السابق.

(50) المصدر السابق.

15 — أبو إسحاق بن محمد بن عبيد الله الأوسي⁽⁵¹⁾ اخذ عنه الحديث

وسمع منه⁽⁵²⁾

16 — أبو بكر بن رشيق تلا بالسبع وأخذ عنه ابن الزبير⁽⁵³⁾

17 — أبو جعفر ابن عثمان الوراد ذكره ابن عبد الملك المراكشي⁽⁵⁴⁾

18 — أبو جعفر ابن محمد بن خلف بن خديجة⁽⁵⁵⁾

19 — أبو الحجاج بن محمد المريي ذكره ابن عبد الملك المراكشي⁽⁵⁶⁾

20 — أبو الحسن بن أحمد الغزال⁽⁵⁷⁾

21 — أبو زكرياء بن عبد الملك المولي⁽⁵⁸⁾

22 — أبو زيد الشريشي العشاب⁽⁵⁹⁾

23 — أبو عبد الله بن أحمد السماني أكثر عنه ذكره ابن عبد الملك

المراكشي⁽⁶⁰⁾

24 — أبو عبد الله ابن أحمد بن زكريا الآشي⁽⁶¹⁾

25 — أبو عبد الله ابن الحسن بن الزبير قريه وسمع منه⁽⁶²⁾

26 — أبو عبد الله ابن عبد الرحمن بن جدير البلسي⁽⁶³⁾

27 — الحاج أبو عبد الله ابن عبد الكريم الجرشي⁽⁶⁴⁾

(51) صلة الصلة 219.

(52) الذيل والتكملة س 1، ق 1 ص : 39.

(53) صلة الصلة 57.

(54) الذيل والتكملة س 1، ق 1 ص : 40.

(55) المصدر السابق.

(56) المصدر السابق.

(57) المصدر السابق.

(58) المصدر السابق.

(59) المصدر السابق.

(60) المصدر السابق.

(61) المصدر السابق ص : 39

(62) المصدر السابق.

(63) صلة الصلة 88 و 57 و 112 و 215 و 216 وتذكرة الحفاظ 1484/4.

(64) صلة الصلة 120 والذيل والتكملة س 1، ق 1، ص : 39.

28 — ابو عبد الله ابن يحيى بن محمد العبدري الفاسي سمع منه ابن

الزبير⁽⁶⁵⁾

29 — ابو عبيد الله الصدفي⁽⁶⁶⁾

30 — ابو القاسم ابن محمد بن رحمون⁽⁶⁷⁾

31 — ابو محمد بن محمد بن ايوب الجياني وهو قريبه⁽⁶⁸⁾

32 — ابو يحيى بن عبد الرحيم⁽⁶⁹⁾

33 — ابو يعقوب المحساني الحافظ⁽⁷⁰⁾

34 — الحسين بن عبد العزيز بن أبي الأحوص القرشي الفهري، كان متفنا

في جملة معارف حافظا للحديث والتفسير وآخر مقرئ القرآن والعربية بغرناطة ثم انتقل الى مالقة⁽⁷¹⁾ روى عنه الجهم الغفير، منهم ابن الزبير⁽⁷²⁾.

35 — سعد⁽⁷³⁾ بن محمد الحفار ابو عثمان⁽⁷⁴⁾ اخذ عنه الحديث

والقراءة⁽⁷⁵⁾.

ولم تتفق له منه اجازة، وذلك لموت الحفار وابن الزبير غائب عن غرناطة

رغم قراءته الكثيرة عليه⁽⁷⁶⁾.

(65) الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص : 39.

(66) صلة الصلة 123.

(67) صلة الصلة 123 والذيل والتكملة س 1، ق 1، ص : 40.

(68) الذيل والتكملة س 1 ق 1، ص 40.

(69) صلة الصلة 8 و 112.

(70) الذيل والتكملة س 1، ق 1، ص : 40 والوافي بالوفيات 222/6.

(71) الاحاطة 664/1.

(72) درة الحجال 11/1 وكذا المرقبة العليا : 127.

(73) وفي تذكرة الحفاظ «سعيد» 1484/4.

(74) في صلة الصلة ص 122 «أبو عثمان» حيث قال عنه بعد حديثه عن أبي الحسن علي ابن أحمد المحاربي الحاج

«وحدث عنه من شيوخنا أبو عثمان سعد ابن محمد الحفار وهو آخر من سمعه على الحاج المذكور.» وفي شجرة

النور الزكية أبو الحسن الحفار 212 ترجمة 741.

(75) الذيل والتكملة س 1 ق 1، ص : 40 وتذكرة الحفاظ 1484/4 والوافي بالوفيات 222/6.

(76) الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص : 40.

36 — عبد الرحمان بن عبد المنعم بن الفرس ابو يحيى الوزير ذكره ابن الزبير⁽⁷⁷⁾ وقال : «هو اول من قصدته في طلب الحديث»⁽⁷⁸⁾.

37 — عبد العظيم بن عبد الله بن يوسف البلوي ابو محمد ويعرف بابن الشيخ. قال ابن الزبير : «كان رحمه الله ورضي عنه يقرئ الفقه وأصول الفقه، ويعتمد في الأكثر قراءة مستصفى ابي حامد وجواهر ابن شاش، وكان له بهذين الكتابين اعتناء كبير، وفيهما تصرف لتحويله عليهما ودؤوبه على تدريسهما، وكان مسدد النظر جليلا في دينه صحبته رحمه الله لمدة ثلاثة اعوام، واخذت عنه مسائل من مستصفى ابي حامد مما كان له فيه اختيار او مفهوم ما، وقرأت عليه اشياء خلال تلك المدة من الاصول وغيرها. ت 666هـ»⁽⁷⁹⁾.

38 — عبد الله بن احمد بن محمد بن عطية القيسي⁽⁸⁰⁾.

39 — عبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن حوط الله الحارثي الازدي ابو عمر⁽⁸¹⁾.

40 — عبد الله بن يحيى بن ربيع ابو القاسم⁽⁸²⁾ روى عنه ابن الزبير الموطأ⁽⁸³⁾.

(77) صلة الصلاة : 20.

(78) الذيل والتكملة عن برنامج ابن الزبير س 1 ق 1 ص 40. وانظر : الوافي بالوفيات 222/6، والديباج 188/1، وبغية الوعاة 291/1.

(79) ترجم له ابن الزبير في صلة الصلاة : 35، وذكره المراكشي في الذيل والتكملة في جملة شيوخه س 1 ق 1 ص 40.

(80) ذكره ابن الزبير في صلة الصلاة في ص : 6، 8، 20، 51، 112. وذكر البلوي في «الثبت» ص : 277 ان ابن الزبير روى عنه الموطأ. كما ذكر في شجرة النور الزكية ص : 212 في اشياخه.

(81) صلة الصلاة ص : 11، 20، 57، 110. والذيل والتكملة س 1 ق 1 ص : 41. والديباج 188/1، وشجرة النور الزكية : 212

(82) الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص : 40.

(83) ثبت البلوي الوادي آشي : 276.

41 — عبد المنعم بن سالم بن سماك العاملي ولد سنة 613 وتوفي سنة 703 هـ. حدث عنه ابن الزبير كما استجازه لنفسه ولأولاده فأجازه وسمع عنه أولاد ابن الزبير: ابراهيم والزبير⁽⁸⁴⁾

42 — عثمان بن محمد بن الحاج ابو عمرو⁽⁸⁵⁾

43 — علي بن عبد الله الغافقي المعروف بأبي الحسن الشاري وهو من اهل سبتة.

قال عنه ابن الزبير : «دخل الاندلس سنة 641 هـ فنزل «المرية» وأقرأ بها القرآن وكتب الي منها اجازة ما رواه⁽⁸⁶⁾» ورحلت اليه فسمعت منه وقرأت كثيرا وتلوت عليه الكتاب العزيز واقبلت اليه من حضرة غرناطة مرارا الى ان ادركته وفاته سنة 649 هـ. ثم قال عنه ايضا : وكان يجلس لنا بمالقة نهاره كله الا القليل، وكنا نتلو عليه الكتاب العزيز ليلا لاستغراق نهاره فيما ذكره⁽⁸⁷⁾» وسبب قدوم ابي الحسن الى الاندلس كان لتغريب امير سبتة له والى هذا اشار ابن الزبير بقوله : وقرأت اذ ذاك عليه وكان يروم من مالقة الرجوع الى بلده ويحوم عليه فلم يقض له ذلك، وأقام بها يؤخذ عنه العلم الى ان أته منيته⁽⁸⁸⁾» واخذ عنه الحديث وتلا عليه بالسبع⁽⁸⁹⁾. وروى عنه أيضاً الموطأ⁽⁹⁰⁾ والبخاري⁽⁹¹⁾ وأجازه إجازة عامة، وفاز برواية النسائي عنه والتي لم يكن بين أبي الحسن وصاحبها غير ستة انفس.

44 — علي بن محمد بن علي بن يوسف الكتامي المعروف بابن الصنائع⁽⁹²⁾ قال عنه ابن الزبير بلغ الغاية في الفن النحوي... واما فن العربية وعلم

(84) ذكر ذلك ابن الزبير في صلة الصلة ص : 23.

(85) الذيل والتكملة. س 1، ق 1 ص : 40.

(86) صلة الصلة ص : 151.

(87) نفس المصدر ص : 153.

(88) نفس المصدر ص : 31، 116، 120، 123.

(89) الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص : 39، والاحاطة 4/189، والوافي بالوفيات 6/222 والدرر الكامنة 1/84،

وغاية النهاية في طبقات القراء 1/132.

(90) ثبت البلوي الوادي آشي ص : 276.

(91) المصدر السابق ص : 272.

(92) الاحاطة 1/121 — 122.

الكلام فلم يكن في وقته من يقاربه في هذين العلمين، وأما فهمه وتصرفه في كتاب سيبويه فلا أراه سبقه في ذلك أحد... ثم قال عن أخذه عنه : لازمته وأخذت عنه كتاب سيبويه في عدة سنين وأكثر كتاب الايضاح، وجمل الزجاجي الى غير ذلك، وجمع التلقيحات للسهروردي وطائفة كبيرة من ارشاد أبي المعالي، ومن كتاب الاربعين، لابن الخطيب وغير ذلك⁽⁹³⁾

45 — عيسى بن سليمان الرعيني أبو محمد قال عنه ابن الزبير، ممن أخذنا عنه وكان ضابطا لما رواه مقيدا متقنا عارفا بالرجال والاسانيد نقادا، ثم قال : الف كتابا في الصحابة وألف معجم أشياخه وجلب كتباً كثيرة مما لم يكن وصل المغرب ولا دخل الأندلس وكان قدومه آخر سنة 631 هـ توفي سنة 632 هـ⁽⁹⁴⁾ ويعرف بالرندي اذ أصله من رندة وسكن مالقة رحل الى المشرق واقام مدة تزيد عن العشرين عاما ثم انتقل الى الاندلس.

46 — محمد بن عبيد الله أبو عبد الله الأزدي القاضي⁽⁹⁵⁾ روى عنه الموطأ وحديث الماهر بالقراءة⁽⁹⁶⁾.

47 — محمد بن عياض بن موسى أبو عبد الله اليحصبي قال عنه ابن الزبير، اجاز لي مرتين اثنتين. وقال حدثني ابو عبد الله مشافهة⁽⁹⁷⁾

48 — محمد بن عيسى بن هلال أبو عبد الله. وهو من مالقة ذكره ابن الزبير نفسه⁽⁹⁸⁾

49 — محمد بن محمد بن لب الكناني، قال عنه ابن الزبير وكانت فيه لوته واخشيشان وكان له ارب في التطواف وخصوصا بارض النصارى يتكلم مع

(93) الاحاطة 121/1، 122

(94) صلة الصلة 51 وما بعدها.

(95) ذكره ابن الزبير نفسه في صلة الصلة 31 و120 و20 وفي الذيل والتكملة س 1 ق 40/1 وفي الوافي بالوفيات 222/6.

(96) ثبت البلوي الوادي آشي 276.

(97) فهرس الفهارس والاثبات 108/1.

(98) صلة الصلة 220 والذيل والتكملة س 1 ق 1 ص : 41.

الاساقفة في الدين فيظهر عليهم وكانت أموره غريبة من امتزاج اليقظة بالغفلة
وخلط السذاجة بالدعابة وقال عنه ايضا :

وعرض لي في مائدة يرجع بعضها الى الطريقة البيانية والمآخذ الأدبية والمآخذ
الدينية وصحت ضرورة الى الاخذ معه فيها وفي آيات من الكتاب العزيز
فاستدعيته الى منزلي وكان فيه تخلق وحسن ملاقة مع خفته الطبيعية وتشتت
منازعه فاجاب واخذت معه في كل ذلك فألفيته صائما عن ذلك جملة (99).

50 — محمد بن مسمغور ابو عبد الله (100) قال ابن الزبير عنه، هو اول
من قصده بغرناطة من أهلها وفتح عليه كتاب متعلم. (101)

51 — محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان (صاحب البحر
المحيط) اخذ عن الاستاذ ابن الزبير استدركه الحافظ بن حجر في ذيله على طبقات
الحفاظ (102)

52 — محمد بن يوسف الطنجالي اخذ عنه وشاركه في بعض شيوخه (103)

53 — مالك بن عبد الرحمن بن سعد بن سالم بن الفرج (104) قال عنه ابن
الزبير : شاعر مطبوع متقدم سريع البديهة رشيق الاغراض تحرف مدة بضاعة
التوثيق ببلده وولى القضاء مرات بجهات غرناطة وغيرها. وكان حسن الكتابة اذا
كتب والشعر أغلب عليه، ثم قال تكرر قدومه علينا بغرناطة وآخر انفصالاته عنها
اخر سنة اربع وسبعين وستمائة (105)

54 — محمد بن ابراهيم بن مستقور الغرناطي الطائي ابو عبد الله (106) وهو
من أشهر من أخذ عنهم. وأول من قصده بغرناطة وفتح عليه كتاب متعلم.

(99) الاحاطة 80/3 — 81.

(100) الذيل والتكملة س1 ق2 / 39

(101) المصدر السابق

(102) صلة الصلة 132 والاحاطة 2 / 228—229

(103) الذيل والتكملة س1 ق1 / 39 ودرة الحجال 1 / 11.

(104) الاحاطة 3 / 304

(105) الاحاطة 3 / 363

(106) الاحاطة 1 / 189.

55 — محمد بن ابراهيم بن موسى بن علي ابو القاسم الجياني⁽¹⁰⁷⁾ أخذ عنه الحديث كما روى عنه الموطأ⁽¹⁰⁸⁾.

56 — محمد بن احمد بن ابي القاسم السماني الشريشي المقرئ المسن ذكره ابن الزبير نفسه فقال حدثني من شيوخه ابو عبد الله محمد⁽¹⁰⁹⁾.

57 — محمد بن احمد بن خليل ابو الخطاب السكوني الكاتب من اشهر اساتذة ابن الزبير قال عنه: وكان شيخنا القاضي العالم الجليل ابو الخطاب بن خليل⁽¹¹⁰⁾.

58 — محمد بن سعيد الطراز ابو عبد الله⁽¹¹¹⁾

59 — محمد بن عبد الرحمن بن جوير⁽¹¹²⁾ سمع منه التيسير عن أبي حمزة عن أبيه عن الداني بالاجازة وهذا سند في غاية الحسن والعلو⁽¹¹³⁾.

60 — محمد بن عبد الوهاب ابو سعد⁽¹¹⁴⁾ سمع منه الحديث.

61 — يحيى بن عبد الملك بن يحيى بن ابي الغصن اللخمي ابو زكرياء من أهل مولة وسكن مرسية، رحل الى المشرق وحج ولقي في رحلته جملة واخذ عنهم وأجازوه مثل ابي محمد يونس بن ابي البركات الهاشمي، وابي الفتوح نصر بن أبي الفرج بن علي الحصري امام الحنابلة، وابي بكر بن حزم الله القفصي، وابي الحسن علي بن محمد بن الحصار الخزرجي⁽¹¹⁶⁾ قال ابن الزبير مشيدا بشيخه هذا. «كان لهذا الشيخ اعتناء بالحديث ولقاء اهله وكان من اهل السنة والفضل» وقال

(107) الاحاطة 3/ 91 وثبت البلوي الوادي آشي 277

(108) المصدر الاخير السابق والذيل والتكملة س1 ق1 ص : 40

(109) صلة الصلة. 169.

(110) الذيل والتكملة س1 ق1 / 40 الاحاطة 3/ 472 وايضا 3/ 91 والوافي بالوفيات 6/ 22 والديباج 1/ 188

والدر الكامنة 1/ 84 وبغية الدعاة 1/ 291 وطبقات الداودي 1/ 26 والبدر الطالع 33 وشجرة النور 212.

(111) صلة الصلة 227

(112) صلة الصلة. 207 وشجرة النور الزكية 212 ترجمة 741.

(113) صلة الصلة 58 وغاية النهاية 1/ 32 ترجمة 132 والذيل والتكملة س1 ق1 ص : 39

(114) المصدر الاول السابق. صلة الصلة 58

(115) المصدر السابق ص : 40

(116) صلة الصلة 198—200 وتذكرة الحفاظ 4/ 1484 ترجمة : 1169 والوافي بالوفيات 6/ 222 ترجمة 2690.

عن لقائه به وأخذه عنه : «لقيته بمرسية أعادها الله — وقرأت عليه غير شيء وأجاز واستحسن اعتناءه..» توفي سنة 659هـ. وكان مولده 575 هـ (117)

62 — يحيى بن أحمد بن عبد الرحمن بن ظافر بن إبراهيم بن أحمد المرادي أبو بكر يعرف بابن المرباط من أهل أريولة وأعيانها (118) قال عنه ابن الزبير... «كان الشيخ رحمه الله من جلة من أخذنا عنه عدالة وفضلا وتمسكا بالسنة عقدا وفعلا كاتباً جليلاً أديباً بارعاً ومتورعاً سرياً، ولي بعد خروجه من بلده قضاء وادي آش ثم قضاء مالقة فاحسن السيرة وتظاهر من العدل ما يلائم علمه ودينه وأعز الخطة والصنف العلمي فكان ممن ختم به قضاة العدل بالاندلس فلم يُربها بعده مثله رضي الله عنه، ثم قال عن أخذه عنه، روى عنه جلة من أصحابنا وكتب لي بالإجازة ثم لقيته وشافهني بها ورأيت منه رجلاً عظيماً من أفضل من لقيت، توفي عفاً الله عنه في محرم سنة 658 بمالقة ومولده سنة 582. (119).

63 — يوسف بن أبي ربحانة المالقي (120).

إجازة ابن الزبير من أقطار مختلفة

عرف ابن الزبير بحرصه الشديد على لقاء الشيوخ واستجازتهم، ولهذا كان يكتب العلماء، فيروي عنهم بالمكاتبة، ويستجيزهم لنفسه ولأبنائه (121) سواء بالاندلس أو غيرها من الأقطار. نذكر فيما يلي طائفة ممن كتبهم وأجازوه :

— من بجاية كتب إليه :

64 — أبو بكر بن محمد بن محرز (122).

(117) صلة الصلة : ص 200.

(118) صلة الصلة 197—198. وهكذا ورد نسبه فيها، وفي ص : 129 أبو بكر بن المرباط أما في الوافي بالوفيات 6/ 222 فهو أبو زكريا وكذلك في الذيل والتكملة ص 1 ق 1 : ص : 40.

(119) صلة الصلة : 198.

(120) صلة الصلة : 58، ودرة الحجال : 1/ 11.

(121) الإحاطة. 1/ 156.

(122) الذيل والتكملة ص 1 ق 1 : ص : 41 وذكره ابن الزبير في صلة الصلة في ص : 169، 215.

65 — أحمد بن محمد بن سراج بن عباس أبو الحسن⁽¹²³⁾.

66 — أبو المطرف بن عميرة⁽¹²⁴⁾.

67 — محمد بن أحمد بن سيد الناس أبو بكر⁽¹²⁵⁾.

68 — يحيى بن عباس بن أحمد بن أيوب بن محمد بن خليفة القيسي أبو

زكرياء⁽¹²⁶⁾. قال عنه ابن الزبير : « كتب إلي من بجاية مرتين بإجازة عامة ما رواه.

وتاريخ كتبه الثاني تاسع شهر ربيع الأول سنة 649 هـ⁽¹²⁷⁾ وأصله من قسطنطينية

رحل إلى الأندلس سنة 608 ثم عاد إلى بلده⁽¹²⁸⁾.

— ومن سبته :

69 — أبو بكر بن محمد بن مشليون⁽¹²⁹⁾.

70 — أبو العباس بن محمد البطيط⁽¹³⁰⁾.

— ومن قوص :

71 — أبو الحسن علي بن زيد بن مطيع القشيري المالكي بن دقيق

العيد⁽¹³¹⁾

ومن مالقة :

72 — أبو عبد الله بن عيسى بن هلال.

من كتبوا إليه وأجازوه من مصر :

73 — أحمد بن حامد بن أحمد بن محمد الارتاجي قال عنه ابن الزبير أراه

ابن أخي الراوية مجود الخط⁽¹³²⁾.

(123) الذيل والتكملة س 1 ق 1 : 41

(124) المصدر السابق.

(125) المصدر السابق.

(126) صلة الصلة 202 حيث ترجم له.

(127) المصدر السابق.

(128) المصدر السابق.

(129) الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص 41 وفي صلة الصلة (غشليون)

(130) المصدر السابق.

(131) المصدر السابق.

(132) الذيل والتكملة س 1، ق 1، ص : 41

- 74 — أحمد بن محمد بن مزين القرطبي أبو العباس ضياء الدين⁽¹³³⁾.
- 75 — اسماعيل بن عبد القوي بن أبي العز بن داود بن غرون الأنصاري⁽¹³⁴⁾.
- 76 — الحسين بن علي بن أبي الفرج بن عبد الرحمن بن علي الجوزي (أبو علي)⁽¹³⁵⁾.
- 77 — عبد الرحمن بن أبي محمد مكّي بن سلمة البخاري الشافعي⁽¹³⁶⁾.
- 78 — عبد الغني بن سليمان بن بنين بن خلف أبو القاسم الشافعي⁽¹³⁷⁾.
- 79 — عبد المجيد بن علي الأنصاري بن الزبير أبو محمد⁽¹³⁸⁾.
- 80 — عبد الهادي بن عبد الكريم بن علي بن عيسى بن تميم القيسي المضري⁽¹³⁹⁾.
- 81 — عثمان بن عبد الرحمن بن عتيق بن حسين بن رشيق الربيعي⁽¹⁴⁰⁾.
- 82 — عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم السلمي أبو محمد⁽¹⁴¹⁾.
- 83 — عيسى بن سليمان بن رمضان بن أبي الكرم الشافعي⁽¹⁴²⁾.
- 84 — محمد بن البغدادي⁽¹⁴³⁾.
- 85 — محمد بن عبد الدايم أبو المكارم⁽¹⁴⁴⁾.

-
- (133) المصدر السابق
- (134) المصدر السابق
- (135) المصدر السابق
- (136) المصدر السابق ص : 42
- (137) المصدر السابق
- (138) المصدر السابق
- (139) المصدر السابق
- (140) المصدر السابق
- (141) المصدر السابق
- (142) المصدر السابق
- (143) المصدر السابق
- (144) المصدر السابق

86 — نجيب الدين بن عبد اللطيف بن عبد المنعم بن هبة الله الحراني
أبو محمد (145).

وكتب إليه من مكة :

87 — ابراهيم رضى الدين بن عمر بن مضر بن فارس الواسطي أبو
اسحاق (146).

88 — اسحاق بن أبي بكر بن محمد بن ابراهيم الطبري (147).

89 — جمال الدين بن أبي بكر بن محمد بن ابراهيم أبو يعقوب أخ
السابق الذكر (148).

90 — عبد الصمد و ابراهيم ومحمد ثلاثة أسماء وغلبت عليه كنية وهي أبو
اليمن بن عساكر (149) وتتمة نسبه : ابن أبي الحسن عبد الوهاب بن عساكر

91 — محمد أبو عبد الله امام المالكية بالحرم الشريف ضياء الدين ابن
إمام المالكية بن علي بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن الحسن
القسطلاني (150).

92 — محمد جمال الدين أبو عبد الله بن يوسف بن مسدي
الغرناطي (151).

ومن غيرها من بلاد المشرق كتب إليه :

93 — أبو بكر بن علي بن مكارم بن فتيان الانصاري الدمشقي
الشافعي (152).

(145) المصدر السابق.

(146) الذيل والتكملة س1، ق1، ص : 42

(147) المصدر السابق.

(148) المصدر السابق.

(149) المصدر السابق بغية الوعاة 1/ 291 وطبقات المفسرين 1/ 29

(150) الذيل والتكملة س1 ق1 ص : 42

(151) المصدر السابق

(152) المصدر السابق

94 — وكال الدين علي بن شجاع بن سالم القرشي العباسي أبو الحسن الضرير⁽¹⁵³⁾ وكتب عنه باذنه : عبد القوي بن عطايا بن عبد القوي بن عطايا القرشي، وعيسى بن مظفر بن عبد الله العباسي، ومحمد بن ابراهيم بن عبد الواحد المقدسي مدرس الحنابلة، ومحمود الدمشقي، وغيرهم يزيدون عن المائة، قال عنهم بن الزبير : «وقد استوفيت ذكرهم في جزء مشيختي»⁽¹⁵⁴⁾.

قال ابن عبد الملك المراكشي : «كذا قال — أي ابن الزبير — ولم أقف عليه، وإنما استخرجت هؤلاء المذكورين هنا من برنامج رواياته التي بعث بها إلى محملا لي ولبنّي اياه»⁽¹⁵⁵⁾.

ومن لم يجزه من شيوخه :

— أبو الحسن الحفار، وأبو جعفر بن خلف (ابن خديجة)، قال ابن الزبير : «أما الحفار فلم تتفق اجازته مع كثرة قراءتي عليه لموته، وأنا غائب عن غرناطة. وأما الأستاذ أبو جعفر فلازمته ولم تتفق منه اجازة.

— أبو زيد العشاب، وأبو عبد الله العبدري الصوفي. لم يجيزاه أيضا رغم انه روى الاربعين للسلفي عن الأول، وتعقب الثاني في أصول الفقه والعربية، وذلك راجع إلى ان العشاب لم يجزه، وان العبدري لم يكن يقول بالاجازة⁽¹⁵⁶⁾.

مكانته العلمية

كان الأستاذ ابن الزبير من صدور العلماء المقرئين، حافظا، مؤرخا، وكان خاتمة المحدثين، وإليه انتهت الرئاسة بالأندلس في العربية والتفسير والأصول، وتجويد القرآن ورواية الحديث⁽¹⁵⁷⁾.

(153) المصدر السابق وغاية النهاية 1/ 32 وثبت البلوي الوادي آشي ص : 414.

(154) الذيل والتكملة س1 ق1 ص : 42 ونهاية النهاية 1/ 32 وثبت البلوي ص : 414.

(155) نفس الذيل والتكملة.

(156) نفس الذيل والتكملة.

(157) الاحاطة 1/ 189. فهرس الفهارس 1/ 340، الاعلام 1/ 29.

بل هناك من يعده آخر من بلغ مرتبة الاجتهاد في الأندلس، يقول الشيخ عبد الرحمن بن ادريس المنجرة في فهرسته : «أحمد بن إبراهيم بن الزبير شيخ أبي حيان وابن جزى هو آخر من بلغ مرتبة المجتهدين بالأندلس». (158)

ويوضح لنا ابن الخطيب مكانته العلمية فيقول : «كان خاتمة المحدثين، وصدور العلماء والمقرئين، نسيج وحده في حسن التعلم والصبر على التسميع والملازمة للتدريس، لم تختل له مع تخطي الثمانين، ولا لحقته سامة» (159). وهو الذي انتهت إليه الرئاسة بالأندلس في صناعة العربية والتجويد ورواية الحديث إلى المشاركة في الفقه، والقيام على التفسير والخوض في الأصول» (160).

لقد كان ابن الزبير طرازاً فريداً في تعليم العربية وتدريس الفقه والمثابرة على افادة العلم ونشره. يقول ابن عبد الملك المراكشي شاهد عصره : «وهو الآن متصدر لأقراء كتاب الله تعالى، واسماع الحديث، وتعليم العربية، وتدريس الفقه، عامراً بذلك عامة نهاره، عاكفاً عليه، مثابراً على افادة العلم ونشره، انفرد بذلك في بلده قاعدة جزيرة الاندلس وصارت الرحلة إليه». (161)

بل إنه بلغ من الشهرة والاشادة بذكره ما لم يبلغه سواه كما يقول لسان الدين ابن الخطيب (162) «فارتحل إلى بابيه العلماء لسعة معارفه» (163) «وتخرج به جماعة، وبه أبقي الله ما بأيدي الطلبة من العربية وغيرها». (164).

إن انحدار ابن الزبير من أسرة ذات حسب أصيل، وثروة معروفة، قد أعانته على طلب العلم (165)، والتفنى في علوم كثيرة واتقانها ثم التأليف فيها، والتفرغ

(158) تسمى فهرسته «الاسناد الشفيع يوم التناد» ص 16، أ، 17 ب مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم : 2285.

(159) الاحاطة 1/ 189 والديباج المذهب 1/ 188.

(160) الاحاطة 1/ 189.

(161) الذيل والتكملة 1/ 43.

(162) الاحاطة : 1/ 189.

(163) الوافي بالوفيات 1/ 291.

(164) بغية الوعاة 1/ 291.

(165) الاحاطة 1/ 188

لتدريسها، حتى نال بذلك مرتبة الأستاذية. فقد «روى عنه جماعة من أهل بلده وطائفة من الراحلين إليه من أقطار الأندلس وغيرها»⁽¹⁶⁶⁾، وتفقه عليه خلق.... وانفرد بالافادة ونشر العلم»⁽¹⁶⁷⁾.

لقد كان ابن الزبير — كما قال عنه تلميذه أبو حيان — «أفصح عالم رأيته، واشفقه على خلق الله تعالى»⁽¹⁶⁸⁾ كما «كان معظماً عند الخاصة والعامة حسن التعليم ناصحاً»⁽¹⁶⁹⁾.

واذا تتبعنا المصادر التي بين أيدينا عن مكانة ابن الزبير العلمية فاننا نجدها قد أجمعت على سعة معارفه، «حتى بلغ من الشهرة والاشادة بذكره ما لم يبلغه سواه»⁽¹⁷⁰⁾ فقد انتهت إليه الرئاسة في بعض العلوم، والمشاركة في بعضها الآخر، فهو كما وصفه عمر رضا كحالة : «محدث، ناقد، نحوي، أصولي، أديب، مقرئ، مفسر، مؤرخ»⁽¹⁷¹⁾.

وسنبين فيما يلي جوانب من مكانته العلمية باستعراضنا للعلوم والفنون التي برز أو شارك فيها :

— علوم القرآن والتفسير :

لقد كان ابن الزبير من أكبر الدارسين للقرآن وتفسيره وعلومه وبه خُتم علم القرآن بالأندلس وسائر المغرب في عصره .

قال تلميذه ابن جزري «ثم خُتم علم القرآن بالأندلس وسائر المغرب بشيخنا الاستاذ أبو جعفر بن الزبير، فقد قطع عمره في خدمة القرآن وآتاه الله بسطة في علمه، وقوة في فهمه، وله فيه تحقيق، ونظر دقيق»⁽¹⁷²⁾.

(166) الذيل والتكملة 1/ 43.

(167) البدر الطالع 1/ 33.

(168) الوافي بالوفيات 6/ 222.

(169) الدرر الكامنة 1/ 85.

(170) الاحاطة 1/ 189.

(171) معجم المؤلفين 1/ 138.

(172) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزري الكلبي 10/ 1 ط، 2/ 1973 «دار الكتاب العربي» بيروت.

وقال تلميذه الآخر أبو حيان : «فما كان في كتابي هذا من تفسير الزمخشري رحمه الله تعالى فأخبرني به أستاذنا العلامة أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزبير قراءة مني عليه فيه، واجازة أيام كنت أبحث معه في كتاب سيبويه». (173)

وقد نقل عنه كثيرا في تفسيره (البحر المحيط) مما يتعلق بمناسبات السور بعضها ببعض — كما سنبين فيما بعد — من ذلك ما ذكره عند تعرضه لمناسبة سورة الفاتحة للبقرة حيث قال : «وسمعت الأستاذ أبا جعفر ابراهيم بن الزبير شيخنا يقول : ذلك إشارة إلى الصراط كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم ذلك الصراط الذي سألتهم الهداية إليه هو هذا الكتاب» وهذا الذي ذكره الأستاذ تبين وجه ارتباط سورة البقرة بسورة الحمد» (174) وهذا القول أولى لأنه إشارة إلى شيء سبق ذكره لا إلى شيء لم يجر ذكره (175).

وابن الزبير أيضا «من أهل التجويد والاتقان عارف بالقراءات» (176) إليه «انتهت الرياسة في صناعة العربية وتجويد القرآن». (177)

ولا أدل على تبحره في علم التفسير واجادته وتفننه في مسائله وغوصه في لجج درره من كتابيه البرهان في ترتيب سور القرآن — موضوع بحثنا — و«ملاك التأويل» (178) الذي يعد من أجل الأعمال المقدمة لخدمة القرآن الكريم، حيث بسط فيه تفسير متشابه القرآن، «ووجه ما تكرر من آياته لفظا أو اختلف بتقديم أو تأخير وبعض زيادة في التعبير فعسر..» الذي تابع فيه الخطيب الاسكافي (180)

(173) البحر المحيط 1/ 8 ط1. سنة 1328 هـ مطبعة السعادة بمصر.

(174) سياتي بيان ذلك مفصلا في التناسي.

(175) البحر المحيط 1/ 36.

(176) الذيل والتكملة 1/ 43.

(177) الاحاطة 1/ 189 والدياج المذهب 1/ 188.

(178) قام بتحقيقه واخرجه الى النور الاستاذ سعيد الفلاح الذي نال به رسالة الدكتوراه الحلقة الثالثة بالكلية الزيتونية للشرعة وأصول الدين. طبعة دار الغرب الاسلامي سنة 1983.

(179) ملاك التأويل. 1/ 145—146.

(180) المصدر السابق 1/ 146.

في «درة التنزيل وغرة التأويل» فاستدرك عليه ما أغفله من الآيات المتشابهات⁽¹⁸¹⁾ برفع تلك الاشكالات وإبداء المعاني الخفيات القاطعة بدرب البطالات...⁽¹⁸²⁾ وقد استجرت تلك الآيات جملة وافرة من المقفلات من مثال تلك المشكلات، مما يجاري ويشبه ويلتبس على من قصر في النظر ويشتبه، مما لم يقع في كتاب «درة التنزيل» ولا تعرض له بذكر بنص التنزيل ولا تاويل فنبهنا إلى ذلك لينحاز من المجتمع على ذكره ويفصل»⁽¹⁸³⁾ وقد أحال ابن الزبير عدة مرات في كتابه «البرهان في ترتيب سور القرآن» على ملاك التأويل الذي كان ينعته بالتفسير. والواقع ان كتاب «ملاك التأويل» الذي تناول فيه متشابه القرآن بالتفسير والبيان وكتاب البرهان في ترتيب سور القرآن الذي بين فيه وجه التناسب في ترتيب سور القرآن ليؤكد لنا انه قد أوتي حظا وافرا في علمي التفسير والقراءات اللذين كان له فيهما تحقيق ونظر دقيق كما قال ابن جزري الكلبي⁽¹⁸⁴⁾.

2 — الحديث وعلومه :

حفظ الحديث وروايته من أجل العلوم وأشرفها ولا يستطيعه غير الحافظ المتقن الثقة الضابط العدل وقد اعتنى به الأندلسيون وعظموا حملته منذ عودة بقى ابن مخلد من رحلته من المشرق الذي به وبابن وضاح صارت الأندلس دار حديث، وبالأصيلي والباجي — اللذين تدارك الله بهما ديار الأندلس — تجددت الروايات واستحكم هذا الفن بأرضها وتأصل.

وبابن الزبير «شيخ المحدثين في عصره» ختم هذا الفن بالأندلس فقد «كان خاتمة المحدثين وصدور العلماء والمقرئين نسيج وحده في حسن التعليم والصبر على التسميع والملازمة للتدريس»⁽¹⁸⁵⁾.

(181) (4) المصدر السابق 147/1.

(182) المصدر السابق 147/ 1

(183) المصدر السابق 147/ 1

(184) التسهيل لعلوم التنزيل : 10/ 1.

(185) الديباج المذهب 1 (188) وطبقات المالكية ص 372 مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 3928 د.

قال عنه الحافظ ابن نصر : « كان حافظاً علامة أستاذ القراء وشيخ الاسناد عني بالحديث ونظر في الرجال ». (186)

فقد « تفرد ابن الزبير بالسنن الكبرى للنسائي عن ابي الحسن الشاري بينه وبين المؤلف ستة انفس » (187) وهو ثقة عمدة محدث الأندلس بل حافظ ومحدث الأندلس وسائر المغرب ». (188) كانت إليه الرحلة من اقطارهما للأخذ عنه. فعليه « تخرج علامة عصره في الحديث والقراءة أبو حيان (189) « وكان عمدة » أبي البركات ابن الحاج البليقي في الرواية والحديث وبقي يروي عنه بعد سماعه منه نحو السبعين سنة 771 هـ.

كما روى عنه الموطأ كل من : جلال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أمين الاقشيري، وشمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر الوادي آشي، وأبو عمر عز الدين عبد العزيز بن أبي عبد الله بن جماعة. (190)

وروى عنه حديث الماهر بالقرآن : كل من ابي عبد الله محمد بن يوسف اللوشي الراوية الخطيب « وهو آخر من روى عنه في الدنيا سماعاً ». (191)

وابي جعفر أحمد بن محمد الهاشمي الطنجالي (192) وابي القاسم سلمون بن علي بن سلمون الكناني الذي لازمه بغرناطة وانتفع به رواية ودراية. (193) وغير هؤلاء كثيرون جداً.

(186) طبقات الحفاظ : 513.

(187) شذرات الذهب 6/ 16، وفهرس الفهارس والانباء 1/ 340

(188) الدرر الكامنة 1/ 84 وفهرس الفهارس 1/ 341

(189) الدرر الكامنة 1/ 84.

(190) ثبت أبي جعفر احمد بن علي البلوي الوادي آشي ص 276 تحقيق د : عبد الله العمراني.

(191) غاية النهاية في طبقات القراء 1/ 32 وثبت البلوي ص 171.

(192) نفس المصدر السابق ص 171.

(193) الاحاطة 3/ 202

3 — علم العربية والنحو :

— يعتبر ابن الزبير علماً من أعلام عصره في العربية وعلومها وصدرًا من صدورها انتهت إليه الرياسة في صناعتها⁽¹⁹⁴⁾ مقصوداً للأخذ عنه فيها متصديراً لتلقيها وتدريسها، فهو أستاذ الجيل في النحو والعربية مدة طويلة بغرناطة ومالقة وبغيرهما قال عنه تلميذه أبو حيان : «خرج من مالقة ومن طلبته أربعة يقرأون كتاب سيبويه، وبه أبقى الله ما بأيدي الطلبة من العربية وغيرها». ⁽¹⁹⁵⁾

وقال أيضاً موضحاً جوانب من أخذه عنه في مجالي العربية والنحو : (...الوجه الثاني معرفة الأحكام التي لكلم العربية من جهة أفرادها ومن جهة تركيبها، ويؤخذ ذلك من علم النحو..... وقد أخذت هذا الفن عن أستاذنا الأوحد العلامة أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي في كتاب سيبويه وغيره. والوجه الثالث كون اللفظ والتركيب أحسن وأفصح، ويؤخذ ذلك من علم البيان والبديع..... وقد أخذت جملة من هذا الفن عن أستاذنا أبي جعفر بن الزبير رحمه الله»⁽¹⁹⁶⁾ وقال أيضاً : «كان يحمر العربية ويعلمني المنطق... يعني النطق... له اليد الطولى في علم الحديث والقراءة والعربية.... أحكم العربية وأقرأها مدة طويلة». ⁽¹⁹⁷⁾

ولتقدمه في علوم العربية والنحو فقد اكتض مجلسه بالطلبة وشد إليه الركاب ومن الذين قصدوه فيهما عبد الله بن عبد البر بن سليمان الرعيني الذي رحل إليه من بلده ارجدونة فلامزه وانتفع به آخذاً عنه الكتاب العزيز والعربية....»⁽¹⁹⁸⁾

(194) الدياج المذهب 1/ 188 — والاحاطة 1/ 189.

(195) بغية الوعاة 1/ 299 — وطبقات المفسرين 1/ 26.

(196) البحر المحيط 1/ 4.

(197) الوافي بالوفيات 6/ 222.

(198) الاحاطة 3/ 459.

ومن الآخذين عنه في العربية والنحو ابن جزى الكلبي (199) وغيره كثير (200). إليه انتهت الرياسة في صناعة العربية (201)، ولم يقتصر ابن الزبير على تدريس العربية والنحو ولكن كانت له فيهما مشاركة واضحة بالتأليف، وعليه كان اعتماد أبو حيان في تفسيره كما سبقت إليه الإشارة، كما أنه صنف تعليقا على كتاب سبويه (202).

4 — الفقه والأصول :

كان ابن الزبير عالماً متفنناً على طريقة القدماء في الموسوعية العلمية متقناً لعدة علوم مجيدا لأغلبها ومنها علمي الفقه والأصول اللذين كان يقوم بتدريسهما بمسجد غرناطة العامر وبمألقة وألمرية (203) وغيرها من مراكز العلم التي الجأته إليها أوضاع الأندلس المتقلبة. قال ابن الخطيب موضحاً مكانته العلمية ومشاركته القوية... «انتهت إليه الرياسة في الأندلس في صناعة العربية وتجويد القرآن ورواية الحديث إلى المشاركة في الفقه والقيام على التفسير والخوض في الأصليين» (204).

وقال أبو حيان : «وكان ورعاً عاقلاً له اليد الطولى في علم الحديث والقراءات والعربية ومشاركة في أصول الفقه صنف فيه وفي علم الكلام والفقه (205) وله كتب كثيرة وأمّهات» (206).

(199) الاحاطة 3 / 21.

(200) تذكرة الحفاظ 4 / 1484

(201) الاحاطة 1 / 189

(202) بغية الوعاة 1 / 291

(203) الاحاطة 3 / 37.

(204) الاحاطة 1 / 188 والديباج المذهب 1 / 188

(205) لعله يقصد شرحه لكتاب الإشارة في الأصول للباغي إذ لا نعرف له كتباً مصنفة في الفقه أو لعلها ضاعت ضمن ما ضاع من كتبه في المحنة التي تعرض لها على يد المتغلب بمألقة من الرؤساء التجييين بسبب مدعي النبوة المسمى بالفزاري الاحاطة 1 / 190-191

(206) الوافي بالوفيات 6 / 222.

تمثلت مشاركته هذه بشكل واضح في شرحه لكتاب الإشارة في الأصول⁽²⁰⁷⁾ لأبي الوليد الباجي المتوفى سنة 474 هـ، كما أنه كان يقوم بتدريسه لطلاب العلم ومنهم أبو حيان تلميذه النجيب الذي قال مشيراً إلى ذلك : «....وقد بحثت في هذا الفن في كتاب الإشارة للباجي علي... وعلى الأستاذ العلامة أبي جعفر في كتاب الإشارة وفي شرحها له، وذلك بالأندلس». (208)

ولمشاركته تلك ومعرفته ودرايته بالفقه وأصوله ولى ابن الزبير قضاء الأنكحة بغرناطة وكذلك ولى الخطبة والإمامة بها. (209)

5 — التاريخ والرواية :

ابن الزبير لم تقصر به معارفه على جوانب معينة ولا مشاركته فيما سبق ذكره عن الخوض في التاريخ والرواية كما لم يكتف فيها بالمشاركة والتدريس فقط بل تعدى به تمكنه منها إلى التأليف فيها فترك لنا مؤلفات جليلة مهمة تنبىء عن قدره وعلمه وحجم إجادته في هذا المجال، واشهر مصنفاته والتي وصلنا بعضها : كتاب «صلة الصلة» الذي وصل به كتاب ابن بشكوال «الذي وصل به تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي». (210)

وكتاب : «الاعلام بمن ختم به القطر الاندلسي من الأعلام» (211) وهو في علماء الاندلس واعيانها في عصره.

وله في شيوخه ورواياته «معجم شيوخه» كما له «برنامج رواياته». (212)

6 — الدفاع عن العقيدة ومواجهة أهل البدع :

ان ابن الزبير عالم عامل بما يعلم، فهو من حملة الامانة ما كانت ترده لومة لائم ولا سطوة حاكم جائر، ولا اعتساف جاهل أو غوغاء عامة، عن الدفاع عن

(207) شجرة النور الزكية : 212.

(208) البحر المحيط 1 / 4.

(209) الاحاطة 1 / 188

(210) الذيل والتكملة 1 / 44 والاحاطة 1 / 188.

(211) الذيل والتكملة 1 / 44 والاحاطة 1 / 188

(212) الذيل والتكملة 1 / 44—45.

الحق، لقد حمل لواء الاسلام يذود عن حياضه مجردا نفسه لحماية أصوله وسلامة عقيدة أهله، لم يدخر وسعا في رعاية سنة نبيه، قاصدا ردع الضلال والمنحرفين والمتقولين والمرجفين بالباطل. لم يشته عن ذلك الجور أو التشريد أو الاذاية، بل وقف مواقف الشرف ممتحنا بأعز ما يملك انسان، مبتلي في ماله وكتبه ونفسه مشردا⁽²¹³⁾، فموقفه من فتنة الفزاري المشعوذ الساحر⁽²¹⁴⁾ وتأليفه في الرد على الشوذية المسمى «بردع الجاهل عن اعتساف المجاهل في الرد على الشوذية وابداء غوائلها الخفية»⁽²¹⁵⁾ شاهدة على مشاركته وفعاليته كعالم كبير تميز بعطاءاته الكثيرة المتميزة في بيئة وأوضاع مضطربة يجد فيها المنحرفون والجاهلون والضلال المرتع الخصب لثرهاتهم وإرجافهم وإفسادهم، وكتابه «ملاك التأويل» الذي عمد فيه إلى تفسير متشابه القرآن هو في الحقيقة من هذا السياق وفي هذا الباب. وكذلك كتابه «سبيل الرشاد في فضل الجهاد».

تلاميذ ابن الزبير :

كان ابن الزبير علماً من أعلام الأندلس وخاتمة شيوخها في علوم القرآن والتجويد والقراءة والحديث والنحو والتاريخ والفقه وأصوله⁽²¹⁷⁾ وغير ذلك فجعله ذلك مقصد طالبي العلم ومحبي الرواية كما كان هو نفسه حريصاً على نشر العلم وإفادة الخلق مليئاً الحاجة المتعلمين صبوراً على ذلك حليماً صادقاً ناصحاً مثابراً معتكفاً على ذلك حتى انفرد بذلك في بلده قاعدة جزيرة الأندلس⁽²¹⁸⁾ وصارت الرحلة اليه⁽²¹⁹⁾ لذيوع صيته في الأقطار فكثرت المتعلقون حوله سواء في غرناطة أو في

(213) الاحاطة 1/ 191، 192.

(214) الذيل والتكملة 1/ 44-45 والاحاطة 1/ 190 وما بعدها.

(215) المرقبة العليا : 128. الاحاطة : 191، 192.

(216) الذيل والتكملة 1/ 44.

(217) انظر الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص : 39-45 والوافي بالوفيات 6/ 222 وغيرهما.

(218) قال عنه ابن عبد الملك المراكشي «وهو الآن متصدر لاقراء كتاب الله تعالى واسماع الحديث وتعليم العربية

وتدريس الفقه عامرا بذلك عامة نهاره عاكفا عليه مثابرا في افادة العلم ونشره انفرد بذلك...»، الذيل والتكملة

س 1 ق 1 ص : 45.

(219) الاحاطة 3/ 459.

مالقة او غيرها من حواضر الأندلس، والمغرب كما كاتبه العلماء واستجازه أهل الروايات(220) فكثرت الآخذون عنه، ومنهم :

1 — إبراهيم بن محمد بن علي بن العاصي التنوخي نشأ بغرناطة واشتهر وكتب في الحملة عن سلطانها، وترقى معارج الرتب، أقرأ فنونا من العلم بعد مهلك استاذ الجماعة أبي جعفر بن الزبير بإشارة منه، قرأ بغرناطة على ابن الزبير. وكان مقرئا للقرآن مبرزاً في تجويده مدرسا للعربية والفقه آخذا في الأدب متكلماً في التفسير(221)

2 — إبراهيم بن يحيى بن زكريا قرأ على أبيه ثم تحول إلى الأستاذ أبي جعفر استعمل في القضاء.(222)

3 — أحمد بن أحمد الأنصاري ابن الفقيه حمل عن ابن الزبير رواية شمائل النبي ﷺ لأبي عيسى الترمذي بعلو عن القاسم الخليلي، وقد راجعه أبو جعفر ابن الزبير في برنامج رواياته(223).

4 — أحمد بن الحسن بن علي بن الزيات الكلاعي تعلم العلم عن جملة منهم شيخ الجماعة الأستاذ ابن الزبير، استعمل في السفارة، فسد مسد مثله، وقرأ ببلده فانتفع به(224) توفي سنة 728هـ.

5 — أحمد بن عبد الولي بن أحمد أبو جعفر العيني قرأ على أبي الزبير وكان ممن تطوي عليه الخناصر معرفة بكتاب الله وتحقيقاً لحقه وإتقاناً لتجويده ومثابة على تعليمه ونصحاً في افادته توفي سنة 750 هـ(225).

(220) انظر الذيل والتكملة س1 ق1 ص : 44—45. والهامش الاول من ص 45 والمنقول عن صلة الصلة 18 بدار الكتب المصرية.

(221) الاحاطة 334/1 و 375.

(222) المرقبة العليا : 154

(223) الذيل والتكملة س1 ق1 ص : 297 و298.

(224) الاحاطة 2 / 138—139 و 1 / 289 وغاية النهاية 1 / 32.

(225) الاحاطة 1 / 193—194.

- 6 — أحمد بن عبد الولي العواد ذكره ابن الجزري (226)
- 7 — أحمد بن الطباع أبو جعفر ذكره ابن مخلوف (227)
- 8 — أحمد بن محمد بن أحمد بن قعنب أبو جعفر ولي القضاء في اماكن عديدة كلوشة وبسطة وبرجة وغير ذلك يحمل عن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير (228).
- 9 — أحمد بن محمد بن خديجة أبو جعفر اخذ عن ابن الزبير ذكره ابن فرحون (229)
- 10 — أحمد بن محمد الهاشمي الطنجالي أبو جعفر روى عن ابن الزبير (230)
- 11 — سلمون بن علي بن عبد الله بن سلمون الكناني القاضي اخذ عن جملة من الشيوخ اولهم أبو جعفر بن الزبير. (231)
- 12 — عز الدين عبد العزيز بن جماعة أبو عمر أجاز له ابن الزبير كما روى عنه الموطأ. (232)
- 13 — عبد الله بن أحمد بن سعيد بن زيد الغافقي قال ابن الخطيب : «أجازه من أهل المغرب شيخ الجماعة بالأندلس ابن الزبير». (233)
- 14 — عبد الله بن عبد البر بن سليمان الرعيني. قال ابن الخطيب : «قرأ على الأستاذ الجليل ابي جعفر ابن الزبير رحل اليه من وطنه ارجدونة عام 692 هـ ولازمه وانتفع به اخذ الكتاب العزيز والعربية وسمع عليه الكثير من الحديث. (234)

(226) غاية النهاية 1 / 32. وشجرة النور الزكية 212.

(227) شجرة النور الزكية 212.

(228) الاحاطة 1 / 168.

(229) الديباج 1 / 188.

(230) ثبت البلوي الوادي آشي : 171.

(231) الاحاطة 4 / 310 والمراقبة العليا : 167.

(232) تذكرة الحفاظ 532، وثبت البلوي 276.

(233) الاحاطة 3 / 412.

(234) المصدر السابق 3 / 459.

- 15 — عبد الله بن الجبر بن عثمان اليحصبي : قرأ على استاذ الجماعة ابن الزبير⁽²³⁵⁾ وشهد له ابن الزبير بانه «من اعيانها ذوي الشرف والجلالة اخذ عن اشياخ بلده غرناطة»⁽²³⁶⁾
- 16 — عبد الله بن سعيد بن أحمد بن علي السلماني قرأ على شيخ وأستاذ الجماعة أبي جعفر بن الزبير فأجازه.⁽²³⁷⁾
- 17 — عبد الله بن علي بن عبد الله بن سلمون الكناني قرأ على الأستاذ الكبير ابي جعفر بغرناطة ولأزمه وانتفع به دراية ورواية⁽²³⁸⁾
- 18 — عبد الله بن يحيى بن محمد بن زكريا الأنصاري قرأ على الأستاذ ابي جعفر بن الزبير وأجازه⁽²³⁹⁾.
- 19 — عبد الله بن يحيى الأنصاري من أهل غرناطة وأصله من مرسية من بيت جود وفضل ولي القضاء دون العشرين وتصرف فيه بقية عمره بالجهات الأندلسية، روى عن ابن الزبير.⁽²⁴⁰⁾
- 20 — عبد المهيم بن محمد بن عبد المهيم الحضرمي قرأ بغرناطة على الشيخ العلامة ابن الزبير وهو من الغرباء الذين قدموا الأندلس.⁽²⁴¹⁾
- 21 — عبد الواحد بن سليمان بن عبد الواحد بن سليمان كان من أهل المشاركة في الحديث والفقه واللغة والأدب حسن الكتابة.⁽²⁴²⁾
- 22 — عبد الواحد بن محمد بن علي بن ابي السداد الأموي المالقي الشهير بالباهلي قرأ على ابن الزبير وكان من مفاخره.⁽²⁴³⁾

(235) نفس المصدر السابق 3 / 335.

(236) نفس المصدر السابق 3 / 385.

(237) المصدر السابق 3 / 388.

(238) المصدر السابق 3 / 401 وشجرة النور الزكية 212.

(239) الاحاطة 3 / 414.

(240) المرقبة العليا : 152.

(241) الاحاطة 4 / 124.

(242) صلة الصلة 25—26.

(243) الاحاطة 3 / 553 وغاية النهاية 1 / 32.

- 23 — علي بن سليمان الأنصاري ذكره ابن الجزري (244)
- 24 — علي بن عتيق بن أحمد الهاشمي من أهل غرناطة قرأ على الأستاذ ابن الزبير ولازمه وتأدب به وتلا عليه بالسمع وسمع كثيراً من الحديث. (245)
- 25 — علي بن عمر بن إبراهيم بن عبد الله الكناني القيحاوي قرأ القرآن على ابن الزبير. (246)
- 26 — علي بن محمد الجياب أبو الحسن روى عن ابن الزبير صحيح البخاري (247).
- 27 — علي بن محمد بن عبد الحق بن الصباغ العقيلي من أهل غرناطة. قال ابن الخطيب «نقلت بخطه في بعض ما كتب به إلي، من الأشياخ الذين لقيتهم وأجازوا لي عامة الشيخ الفقيه الأستاذ العالم العلم خاتمة المسندين بالمغرب أبو جعفر أحمد بن الزبير التقفي، نشأت بين يديه وقرأت عليه كثيراً وسمعت وأجازني. (248)
- 28 — قاسم بن عبد الكريم بن جابر الأنصاري من أهل غرناطة قرأ على خاتمة المقرئين ابن الزبير. (249)
- 29 — محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن يوسف بن روبيل الأنصاري أكثر القراءة على شيخ الجماعة العلامة ابن الزبير» (250).
- 30 — محمد بن إبراهيم بن علي بن باق الأموي قرأ على الأستاذ (251) توفي سنة 752هـ.
- 31 — محمد بن إبراهيم بن محمد الدوسي قرأ على الأستاذ ابن الزبير (252).

(244) غاية النهاية 1 / 32.

(245) الاحاطة 4 / 198

(246) المصدر السابق 4 / 105

(247) ثبت البلوي 272.

(248) الاحاطة 4 / 127

(249) المصدر السابق 4 / 262

(250) المصدر السابق 3 / 161

(251) الاحاطة 2 / 161

(252) المصدر السابق 3 / 161

32 — محمد بن أحمد بن أمين الأقشيري أبو عبد الله جلال الدين روى عنه الموطأ (253).

33 — محمد بن أحمد الزيات الكلاعي قرأ بغرناطة على الأستاذ ابن الزبير شيخ الجماعة توفي سنة 728هـ (254).

34 — محمد بن أحمد بن جعفر بن عبد الحق بن حفاف السلمي قرأ على ابن الزبير وأجازه (255).

35 — محمد بن أحمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف الكلبي المشهور بابن جزى صاحب القوانين الفقهية. قرأ على ابن الزبير وأخذ عنه العربية والفقه والحديث والقرآن وبه تفقه بالمرية (256).

36 — محمد بن أحمد بن علي بن شبرين أبو بكر سمع بحضرة غرناطة على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، وكان من كبار أهل العلم فارتسم بالكتابة السلطانية وولى القضاء بعدة جهات، من أهل الدين والعقل والعدالة تاريخياً مقيداً طلعة اختيار أصحابه محققاً لما ينقله، كانت له رحلة إلى الأندلس اتسع بها نطاق روايته، شعره متعدد الأسفار كثير الأغراض (257) توفي سنة 747هـ.

37 — محمد بن أحمد بن فتوح بن شقرال اللخمي قرأ على الأستاذ ابن الزبير. (258)

38 — محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن خميس الأنصاري قرأ على ابن الزبير (259)

39 — محمد بن أحمد بن محمد بن الأشعري يعرف بابن المحروق الوكيل بالدار السلطانية القهرمان بها المستورز آخر عمره (260) قرأ على ابن الزبير وكانت له

(253) ثبت البلوي 276.

(254) الاحاطة 3/ 235، و 2/ 138—139.

(255) الاحاطة 2/ 138.

(256) الاحاطة 3/ 20—24 وشجرة النور الزكية 212.

(257) الاحاطة 2/ 240—242.

(258) المصدر السابق 3/ 24.

(259) المصدر السابق 3/ 185.

(260) المصدر السابق 2/ 136.

فيه فراسة صادقة، كتب الشروط وبرز في عدول الحضرة قبل سنة 727 هـ. (261)

40 — محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الهاشمي الطنجالي قرأ على ابن

الزبير (262)

41 — محمد البياني. (263)

42 — محمد بن بيش العبدري قرأ على شيخ الجماعة ببلده أبي جعفر ابن

الزبير (264)

43 — محمد بن جابر الوادي آشي شمس الدين أبو عبد الله قرأ وروى

عن ابن الزبير ومما رواه عنه الموطأ. (265)

44 — محمد بن محمد بن سهل أبو القاسم : قال الذهبي ورأيت إجازته

بالسمع لابن سهل وقد صدرها بخطبة فائقة الحسن من انشائه. (266)

45 — محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم الأنصاري الساحلي قرأ

على الأستاذ ابن الزبير (267)

46 — محمد بن محمد بن يوسف بن عمر الطنجالي أبو بكر روى عن

جده أبي جعفر وعن الراوية الكبير ابن الزبير. (268)

47 — محمد بن يحيى بن أبي بكر الأشعري المالقي أبو عبد الله القاضي

من اشيائه أبو جعفر ابن الزبير خاتمة المقرئين كما روى عنه البخاري (269)

(261) المصدر السابق 2 / 137

(262) نفس المصدر 3 / 247

(263) شجرة النور الزكية 212.

(264) الاحاطة 3 / 28

(265) ثبت البلوى 276. ودره الحجال 1 / 11 ترجمة : 88

(266) تذكرة الحفاظ 1 / 1484 وما بعدها والوافي بالوفيات 6 / 222

(267) الاحاطة 3 / 191

(268) الاحاطة 3 / 194 — و 3 / 247

(269) المصدر السابق 2 / 179 و ثبت البلوى 272 وشجرة النور الزكية 212

48 — محمد بن يوسف اللوشي أبو عبد الله الراوي الخطيب وهو آخر من روى عنه في الدنيا سماعاً، وإنبأنا عنه الإمام جمال الدين محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد الشريسي وغيره. (270)

49 — محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النفزي (صاحب البحر المحيط) قرأ ببلده على الأستاذ ابن الزبير ولازمه وانتفع به وشاد له بالمشرق ذكراً كبيراً ويقال انه نادى في الناس عندما بلغه نعيه وصلى عليه بالقاهرة (271) وقد وقعت بينه وبين أستاذه الوحشة فنال منه وتصدى للتأليف في الرد عليه وتكذيب روايته فرفع أمره إلى السلطان فامتعض ونفذ الأمر بتنكيله فاختفى ثم أجاز البحر مختفياً يلتفت خلفه (272)

50 — موسى بن محمد بن جرادة (273)

51 — يحيى بن عبد الله بن محمد بن أحمد اللخمي اخذ عن جماعة من أهل بلده غرناطة لما قدم إليها مغرباً عن وطنه أخذ عن الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير (274).

52 — محمد بن حسان القيسي الوادي آشي أبو عبد الله كتب عن ابن الزبير (275).

53 — محمد بن خلف السلمي المعروف بابن أبي البركات ابن الحاج البلفيقي وعمدته في الرواية من المغاربة أبو جعفر ابن الزبير وقد بقي يروي بعد السماع منه نحو السبعين وتوفي سنة 773 هـ (276)

(270) غاية النهاية 32/ 1 وثبت البلوى 171.

(271) الاحاطة 3/ 44.

(272) نفس المصدر 46/ 3 وتذكرة الحفاظ 1484/ 4 والوافي بالوفيات 222/ 6 وشجرة النور الزكية 212.

(273) غاية النهاية 32/ 1

(274) الاحاطة 4/ 341.

(275) ثبت البلوى 99 ترجمة 81

(276) الاحاطة 2/ 145—149 و 2/ 72، والمرقبة العليا 165 وغاية النهاية 32/ 1 وشجرة النور الزكية 212 وفهرس

الفهارس والاثبات 1/ 75

54 — محمد بن عبد الله بن عبد العظيم بن أرقم الثميري من أهل وادي
آش قرأ على ابن الزبير (277)

55 — محمد بن عبيد الله بن منظور القيسي توفي ببلده مالقة وقبر بها
شهيداً بالطاعون سنة 750 هـ اجازته ابن الزبير (278)

56 — محمد بن علي بن مثبت شيخ القدس (279)

57 — محمد بن علي بن عمر بن يحيى بن العربي الغساني اخذ بغرناطة
عن ابن الزبير (280)

58 — محمد بن علي بن محمد بن قطران الأنصاري أخذ عن ابن
الزبير (281)

59 — محمد بن القاسم بن أبي رمان أبو عبد الله (282) قرأ على ابن الزبير

60 — محمد ابن القاسم بن عمران الحضرمي السبتي (283) قرأ على ابن

الزبير.

61 — محمد بن محمد بن احمد بن علي الأنصاري قرأ على ابن الزبير (284)

62 — محمد بن محمد بن ادريس القضاءي من اهل اسطبونة يعرف
بالقللوسي قرأ على ابن الزبير بغرناطة (285)

63 — يحيى بن مسود المحاربي ولي قضاء الجماعة بالحضرة، من أهل
الأصالة والجزالة والجلالة كان عالي الهمة ماضي العزيمة شديد الشكيمة، اشتهر

(277) الاحاطة 3 / 89.

(278) المرقبة العليا : 153

(279) غاية النهاية 1 / 32

(280) 3 / 97 من الاحاطة

(281) المصدر السابق 2 / 203 و 2 / 230

(282) الوافي بالوفيات 6 / 222

(283) المصدر السابق.

(284) الاحاطة 3 / 37

(285) المصدر السابق 3 / 77

بالمضاء والاشتداد على اهل الجاه واقامة الحدود وازافة الشهود، قرأ على ابن الزبير
وتوفي سنة 727 هـ (286)

64 — يوسف بن إبراهيم الفهري من اهل غرناطة قرأ على ابن الزبير
ببلده (227)

65 — يوسف بن موسى بن سليمان المنشتاغري من اهل رندة — قال :
فمن شيوخه الذين رويت عنهم واسترقت البركة منهم الشيخ الإمام أبو جعفر
ابن الزبير (288).

وذكرت جماعة من تلاميذه بألقابهم وهم :
66 — أبو جعفر بن أبي حبل وهو ممن رثاه بعد موته بقصيدة أوردها ابن
الخطيب (289).

67 — أبو حفص الزيات (290)

68 — ابن الحبان (291)

69 — ابن الشراط (292)

70 — الزاهد أبو عمر بن المرباط (293)

مؤلفات ابن الزبير

ابن الزبير عالم كبير كانت له مشاركة واسعة في ثقافة عصره تدرسا وتأليفا
وقد خلف لنا مكتبة قيمة تبرز لنا مكانته العلمية وأصالته الفكرية وصلابته
العقيدية ولعل عددا من مؤلفاته قد ضاع فيما ضاع له من كتب عندما انتهب
العامة بيته بمالقة في فتنة الفزاري.

(286) المرقبة العليا : 139

(287) الأحاطة 4 / 404

(288) المصدر السابق 4 / 387

(289) الأحاطة 1 / 193

(290) شجرة النور الزكية 212.

(291) نفس المصدر السابق

(292) نفس المصدر السابق

(293) الوافي بالوفيات 6 / 222

- أما ما عرف من عناوين كتبه فهي على الشكل التالي :
- الإعلام بمن ختم به القطر الأندلسي من الأعلام⁽²⁹⁴⁾
 - ايضاح السبيل من حديث سؤال جبريل⁽²⁹⁵⁾
 - البرهان في ترتيب سور القرآن وهو موضوع بحثنا
 - تعليق على كتاب سيبويه⁽²⁹⁶⁾ في النحو
 - الذيل على الصلة لابن بشكوال وهو المعروف بصلة الصلة⁽²⁹⁷⁾
 - ردع الجاهل عن اعتساف المجاهل في الرد على الشوذية⁽²⁹⁸⁾
 - الزمان والمكان⁽²⁹⁹⁾
 - فهرسة شيوخه⁽³⁰⁰⁾
 - سبيل الرشاد في فضل الجهاد⁽³⁰¹⁾
 - شرح الإشارة لأبي الوليد الباجي في الأصول⁽³⁰²⁾

-
- (294) الذيل والتكملة س1 ق1 ص : 44 والدرر الكامنة 1/ 85 وهدية العارفين 1/ 103 والإعلام 1/ 29
- (295) ذكره ابن الزبير في بيان مناسبة سورة الماعون لقريش في : «البرهان في ترتيب سور القرآن» ص : 377 من هذا الكتاب.
- (296) طبقات المفسرين للداودي 1/ 26
- (297) الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص 44 والديباج 1/ 188 والدرر الكامنة 1/ 84 وطبقات المفسرين 1/ 26 والإعلام 1/ 29 والموسوعة المغربية للإعلام البشرية 1/ 110
- (298) الذيل والتكملة س1 ق1 ص : 44 والديباج 1/ 188 والدرر الكامنة 1/ 85 وطبقات المفسرين 1/ 26 وهدية العارفين 1/ 103.
- (299) معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة 1/ 138
- (300) الذيل والتكملة س1 ق1 ص : 44 وفهرس الفهارس والاثبات (وفيها روايات تلك الفهرسة وتداولها الى المؤلف).
- (301) طبقات المفسرين 1/ 26 وكذلك الديباج 1/ 188
- (302) الديباج 1/ 188 وطبقات المفسرين 1/ 26.

— معجم شيوخه (303)

— ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه التشابه اللفظ
من آي التنزيل. (304)

— نزهة البصائر والأبصار (305)

— أرجوزة في الرد على الشوذية (306).

(303) الذيل والتكملة س1 ق1 ص : 44

(304) حقق الكتاب الأستاذ سعيد الفلاح ونشر بدار الغرب الاسلامي بيروت سنة 1983

(305) الاحاطة 1 / 467 حيث نقل عنه ابن الخطيب وأشار اليه.

(306) وقد كانت درجة ابن الزبير في النظم منحطة ولهذا تعتبر ارجوزته هذه احط ما ألف وعيب عليه. انظر الذيل

والتكملة س1 ق1 ص : 44— 45

المبحث الثالث

- * تحقيق عنوان الكتاب
- * وصف النسخ المعتمدة في التحقيق
- * قيمة المخطوطتين.
- * منهج التحقيق
- * دليل الاشارات والرموز

تحقيق عنوان الكتاب ونسبته إلى صاحبه

لم يرد عنوان هذا الكتاب بشكل كامل وصحيح عند ابن الزبير سواء في ثنايا كتابه هذا أو في تفسيره لمتشابه القرآن المسمى بـ «ملاك التأويل»، وإنما أشار إلى موضوعه في مقدمة كتابه «البرهان» بقوله «فاقتصرت بحكم الإضطرار في هذا الاختصار على وجوه ترتيب السور»⁽¹⁾ ثم قال بعد ذلك : «باب التعريف بترتيب السور»⁽²⁾.

كما أحال عليه عدة مرات في كتابه «ملاك التأويل» فنبعته فيه «بالبرهان» اختصاراً، حيث قال عند حديثه عن مناسبة افتتاح السور الخمس : — أم القرآن، والانعام، والكهف، وسبأ وفاطر — ب : الحمد لله : «وقد بسطت هذا في كتاب البرهان»⁽³⁾

وقال أيضاً في موضع آخر : «وقد اوضحنا في كتاب البرهان ان ترتيب السور بتوقيف على أصح المأخذين»⁽⁴⁾

وإذا كان ابن الزبير قد أشار إلى أن هذا الكتاب يقتصر على وجوه ترتيب السور، فإننا نجد طائفة ممن ترجموا له أو نقلوا عنه قد وسموا كتابه بـ : «البرهان في ترتيب سور القرآن» ومن بين هؤلاء من هو قريب من عصره ممن يمكن أن يكون قد أخذ عن تلاميذه، مثل ابن فرحون المتوفى سنة 799 أي بعد وفاة ابن الزبير بـ 91 سنة، ومن أورد هذا الكتاب تحت نفس العنوان أيضاً :

(1) أنظر ص 2 من النص

(2) نفس المصدر ص : 4

(3) ملاك التأويل 1 / 154 ، 155

(4) نفس المصدر 1 / 316

(5) انظر الدياج المذهب 1 / 188

الإمام البقاعي⁽⁶⁾ في كتابه نظم الدرر في تناسب الآيات والسور⁽⁷⁾ والحافظ شمس الدين محمد الداودي⁽⁸⁾ وخير الدين أنزركلي⁽⁹⁾ وعبد العزيز بن عبد الله⁽¹⁰⁾

كما ورد اسم الكتاب تحت عناوين أخرى متقاربة نذكرها فيما يلي
— البرهان في تناسب سور القرآن. أورده كل من ابن الباشا البغدادي⁽¹¹⁾، وحاجي خليفة⁽¹²⁾، ومحمد بن مخلوف⁽¹³⁾
— البرهان في مناسبة سور القرآن : أورده كل من الإمام السيوطي⁽¹⁴⁾، والشيخ عبد الله بن الصديق⁽¹⁵⁾
— مناسبات ترتيب السور : أورده السيوطي⁽¹⁶⁾

والذي اختاره هو ما ذهب اليه الصنف الأول — وهم الأكثر — من ان اسم الكتاب هو : البرهان في ترتيب سور القرآن «وهذا موافق لاشارات المؤلف في كتابيه» ملاك التأويل و «البرهان» : إلى ان هذا الكتاب يتعلق بترتيب السور.

ولقد كان رأي المؤلف رحمه الله مع من يرى ان ترتيب السور توقيفي لا محل للاجتهاد فيه لذلك، فقد عمل جهده لابرار الحكمة من هذا الترتيب، واطهار

(6) هو ابراهيم بن عمر بن حسن الخرباوي البقاعي الشافعي عالم واديب ومفسر ومحدث ومؤرخ له عدة مولفات من بينها «الاصل الاصيل في تحريم النقل من التوراة والانجيل» توفي بدمشق سنة 325 هـ، انظر معجم المؤلفين لرضا كحالة 1/ 71

(7) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ق : 181. ج 1/ 3

(8) طبقات المفسرين 1/ 27

(9) الاعلام 1/ 29

(10) الموسوعة المغربية للاعلام البشرية 1/ 110

(11) انظر هدية العارفين في اسماء المؤلفين وآثار المصنفين 1/ 103

(12) انظر كشف الظنون 1/ 241

(13) شجرة النور الزكية ص : 212

(14) معترك الاقران 1/ 55

(15) جواهر البيان في تناسب سور القرآن ص : 16

(16) الاتقان 1/ 20

أوجه الترابط والتناسب بين سور القرآن الكريم كما ورد ترتيبها في المصحف الإمام، ولعل هذا الملحظ في عمل المؤلف هو الذي جعل الكثيرين ممن اشرت اليهم اعلاه يذهبون إلى تسمية كتابه بالبرهان في تناسب او مناسبة سور القرآن».

وإذا كان الإشكال قد وقع في عنوان الكتاب، فإن نسبته إلى ابن الزبير لا اشكال فيها ولا تحتاج إلى دليل لأن جل كتب التراجم والفهارس نسبت له هذا الكتاب⁽¹⁷⁾ من جهة، ولأن ابن الزبير نفسه أحال في كتابه ملاك التأويل عليه عدة مرات كما سبقت الإشارة إلى ذلك من جهة ثانية، ولأن الإمام البقاعي قد اطلع عليه وضمنه في تفسيره، كما أن الإمام السيوطي اطلع عليه بدوره وجعله مرجعا من مراجع كتابه : الاتقان⁽¹⁸⁾.

وصف النسخ المعتمدة في التحقيق

يعتبر تحقيق كتاب من نسخة واحدة وخاصة في رسالة جامعية مغامرة كبيرة، وخاصة اذا كانت تلك النسخة غير تامة كما هو الحال بالنسبة لكتاب «البرهان في ترتيب سور القرآن»⁽¹⁹⁾ موضوع بحثنا، لكنني وجدت في نفسي جرأة زائدة على القيام بهذا العمل، وذلك بفضل تشجيع بعض أساتذتي⁽²⁰⁾ للمضي في تحقيق هذا المخطوط مما قوى عزمي، ورغبني في الإقدام على ما ذكرت، مؤملا ان أعثر على نسخ أخرى لنفس المخطوط ولم أكد أقطع شوطا طويلا في تحقيق هذا المخطوط حتى اطلعت على تفسير البقاعي المسمى بـ : «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» الذي اعتمد فيه على كتاب ابن الزبير هذا في مناسبات

(17) انظر الديباج المذهب 1/ 188، طبقات المفسرين 1/ 26، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور البقاعي مخطوط بالخزانة العامة تحت رقم ق/ 181 ج 1/ 3، الاتقان 1/ 20 معترك الاقران 1/ 55، هدية العارفين 1/ 103، وكشف الظنون 1/ 241، وشجرة النور الزكية ص 212، والاعلام للزركلي 1/ 29 وغيرهم.

(18) الاتقان 1/ 20 وانظر معترك الاقران 1/ 55.

(19) تنتهي هذه النسخة عند ذكر مناسبة سورة القمر لسورة النجم.

(20) منهم الاستاذ الجليل محمد المنوني، والاستاذ المشرف د. الهراس.

السور خاصة اعتمادا كليا فكان ذلك فتحا لي في هذا البحث، ومعلما جديدا استترت به في هذا الطريق اذا اعتبرته نسخة ثانية للمخطوط.

وصف النسخة «أ»

النسخة الوحيدة التي علمت بوجودها لهذا المخطوط توجد بالخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع رقم 131 ك وتبتدىء من صفحة 83 إلى 169 أي 86 صفحة، وهو من الحجم الصغير كتب بخط نسخي دقيق، عدد اسطر الصفحة 21، ومعدل كلمات كل سطر، اربعة عشر كلمة.

والنسخة مبتورة من آخرها، حيث ينتهي كلام المؤلف بها عند ذكر مناسبة سورة القمر لسورة النجم بها خروم غير ضارة تسببت فيها الأرضة، وهي جيدة الخط، واضحة القراءة في عمومها، قليلة الأخطاء ملونة العناوين بالأحمر، وقد رمزت اليها بحرف «أ»

وصف النسخة «ب»

اعتمدت في تصحيح وتحقيق وتتميم النسخة المذكورة، على تفسير البقاعي الأنف الذكر، الذي التزم فيه بالنقل الحرفي لنصوص كتاب ابن الزبير هذا، وذلك في معرض بيانه لمناسبة السور، وقد صرح باطلاعه على كتاب ابن الزبير ونقله عنه فقال :

«وطالعت على ذلك كتاب العلامة ابي جعفر بن ابراهيم بن الزبير الثقفي الأندلسي المعلم ب «البرهان في ترتيب سور القرآن» وهو لبيان تعقيب السورة والسورة فقط لا يتعرض فيه للآيات، وسأذكر في اول كل سورة ما قال بلفظه كما ستراه ان شاء الله تعالى» : (21)

(21) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور 1 / 3.

واستنادا إلى ما ذكر، اعتبرت هذا النقل الملتزم به من طرف البقاعي الذي لم يتخلف في الكتاب كله⁽²²⁾ بقوله في بداية كل نقل : «قال ابن الزبير» وبقوله «انتهى» عند نهاية النقل، اعتبرت ذلك نسخة ثانية ورمزت لها بحرف «ب». وما اطلعت عليه من نسخ كتاب البقاعي المخطوطة : نسخة بالخزانة الملكية تحمل رقم : 2695 في ثماني مجلدات جيدة النسخ والخط، وهي التي اعتمدت عليها في تصحيح وتتميم نص النسخة «أ» وثانية بالخزانة العامة تحمل رقم 181 ق في خمس مجلدات كثيرة الأخطاء رديئة الخط، لم استفد منها، وثالثة تحمل رقم : 1896 ك في مجلد ضخيم، تبتدىء من قوله تعالى «من لدن حكيم خبير ألا تعبدوا إلا الله انني لكم منه نذير وبشير» من سورة هود، الآية (1-2) وتنتهي بقوله سبحانه : «وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك» من سورة الإسراء الآية (110) وهي جيد النسخ ملونة العناوين جميلة الخط، لكنها مبتورة الأول والآخر، وقد اغتنتني عنها نسخة الخزانة الملكية

قيمة المخطوطتين :

إذا كانت النسخة «أ» قد اسندها صاحبها إلى الإمام أبي جعفر بن الزبير حيث ابتدأت بالنص التالي : «قال الشيخ الفقيه الإمام المحدث المقرئ الأستاذ العلامة أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي رضي الله عنه وارضاه : الحمد لله الحكيم العليم... الخ» فاننا — بسبب البتر الحاصل في آخرها — لم نتمكن من معرفة كاتبها ولا المصدر المنقول منه، ولا تاريخ كتابتها.

إلا أنها رغم ذلك فهي نسخة قيمة وهامة، كتبت بخط مشرق متأنق، أخطاؤها يسيرة محتملة نبهت عليها في مكانها وعليها بعض التصحيحات التي تدل على اهتمام كاتبها بها، وحرصه على سلامة نصها

(22) الا انه تصرف في نص ابن الزبير اربع مرات، حيث جزأ النص واختصره في سورة البقرة وآل عمران، والمائدة، والانعام.

ومما أكد قيمتها وسلامتها موافقة النسخة «ب» لها في جملتها وتفصيلها،
فليس بين النسختين الا اختلافات طفيفة، باستثناء بعض ما اكلته الأرضة في
النسخة «أ» وتمم أو صحح من نسخة «ب».

واذا كان تاريخ نسخ المخطوطة «أ» مجهولا فان النسخة «ب» التي
اعتمدها البقاعي تعتبر نسخة قريبة من عهد المؤلف اذ أن البقاعي المولود سنة
809 هـ لا يفصله عن تاريخ وفاة ابن الزبير الا قرن من الزمان تقريبا

* * *

منهج التحقيق :

- لقد اتبعت في تحقيق نص كتاب البرهان المنهجية التالية :
- اعتمدت في التحقيق على نسختين وقابلت بينهما كلمة كلمة
 - ما وجدت من اختلاف بين النسختين ذكرته وبينت ما كان منها على صواب وما كان منها على خطأ.
 - حصرت ما نقص من نسخة من النسخ بين قوسين واشرت بالهامش إلى النسخة المنقوص منها. واما ما اختلفا فيه فقد وضعته بين قوسين كذلك، وعلقت عليه بالهامش.
 - قمت بتخريج الآيات بذكر سورها وأرقامها ووضعتهما بين قوسين وأثبتتهما مع النص لكثرتها لأن كتاب «البرهان» قائم على جمع الآيات المتناسبة وربطها بما تقدمها من الآيات وما يتلوها معا.
 - قمت بتصحيح بعض الآيات القرآنية التي وقع فيها الخطأ بالزيادة او النقصان، أو لاشتباهاها بآية أخرى تقاربها في التركيب واشرت إلى ذلك بالهامش.
 - اعتمدت في تخريج الآيات على المصحف المطبوع بدار المصحف شركة مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد برواية الإمام ورش.
 - خرجت الأحاديث والآثار بإرجاعها إلى مصادرها مع ذكر المواضيع التي تندرج تحتها ورقم ترتيبها ان كان، كما علقت على بعض الأحاديث بما رأيته مفيدا.

— ترجمت للاعلام الغير المشهورين او من رأيت انه بحاجة إلى ترجمة،
واحلت على مصادر الترجمة مع ذكر الجزء والصفحة.
— شرحت بعض الألفاظ الصعبة بالرجوع إلى معاجم اللغة، وعلقت على
ما رأيت التعليق عليه مفيدا للنص أو للقارىء.

دليل الإشارات والرموز

هذا وقد استعملت في التحقيق بعض الإشارات والرموز، اختصارا لبعض
الكلمات التي تتردد كثيرا أثناء التحقيق أو لغرض اقتضاه التحقيق وهي كما يلي :
«أ» رمزت به لمخطوطة الخزانة العامة. رقم 131 ك
«ب» رمزت به لمخطوطة الخزانة الملكية المضمنة في تفسير البقاعي.
() حصرت بهما ما سقط من احدى النسختين او خالفت فيه
احدهما الأخرى، كما حصرت بهما اسم السورة ورقم الآية عقب كل آية.
إشارة إلى بداية صفحة جديدة من المخطوطة «أ» يقابلها في الهامش
رقمها كما استعملتها أيضا للفصل بين الرقم المشير إلى جزء الكتاب، والرقم المشير
إلى صفحته وكذا للفصل بين التاريخين الهجري والميلادي.

- س — اختصار كلمة سفر.
- ق — اختصار كلمة قسم.
- ج — اختصار كلمة جزء.
- ص — اختصار كلمة صفحة.
- ط — اختصار كلمة طبعة.
- ت — اختصار كلمة المتوفى.

البرهان في ترتيب سور القرآن

(تحقيق نص الكتاب)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

قال الشيخ الفقيه الامام المحدث المقرئ الأستاذ العلامة أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي رضي الله عنه وأرضاه.

الحمد لله الحكيم العليم، العلي العظيم، ذي الفضل العميم، والجود القديم، الذي ابتداء الانسان بالنعم فرادى ومثنى، وخلقه في أحسن تقويم بعد كونه نقطة من مني تمنى، وخصه بمزيد التشريف والتكريم، وأهله لتلقي خطابه، وهياه لتحمل فرقانه العزيز وكتابه، وقد قال سبحانه فيه :

«وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم (الزخرف 4)، والصلاة والسلام على محمد نبيه المعظم، ورسوله المصطفى المكرم، المخصوص بالكتاب، والفتاح لأولي البصائر الباصرة، بما أيد به من الاعلام الباهرة، والحجج القاطعة القاهرة، مستغلق ذلك الباب، فأوضح السبيل للسالك، فلن يهلك على الله بعد بيانه إلا هالك، وأنى بسلوك ذلك الباب لمن حقت عليه كلمة العذاب، وقد قال سبحانه : «إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم» (يس 11).

وبعد، فإني اعتبرت قوله ﷺ : (ما من نبي إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)(1).

وتأمل ما أيد به ﷺ من المعجزات سوى القرآن، فإذا بضروب لا يحصيها العد ولا تكاد تنحصر بالحد(2)، وقد قال عليه السلام : (وإنما كان الذي أوتيت

(1) أخرجه أحمد في مسنده 341/2 : 451 والبخاري في صحيحه 3/9 و247/13، ومسلم في صحيحه، والنسائي في فضائل القرآن، الحديث رقم 2.

(2) وقد ألف أئمة الاسلام نوعا من التأليف سموه الدلائل، جمعوا فيه المعجزات التي ظهرت على يديه ﷺ مما يدل على نبوته وهذه المؤلفات كثيرة جدا منها :

دلائل النبوة للحري ت : 255 هـ، دلائل النبوة لأبي زرعة الرازي ت : 264 هـ وهو كتاب جليل، ودلائل النبوة لأبي داود السجستاني ت : 275 هـ ودلائل النبوة للطبراني ت : 360 هـ، ودلائل النبوة لجعفر المستغفري ت : 432 هـ.

وحيا) يشير إلى دليل القرآن وما خُص به ﷺ من ساطع ذلك البرهان، وما ذاك إلا لكون معجزته أوضح وأعظم وأهدى وأقوم، فإنها ضمت إلى الدلالة والشهادة إيضاح الطريق، وأعلمت بمآل كل فريق، ثم زادت ببقائها للمعتبر وشهادتها للمذكر، وقد اضطر من تأخر فيما سواها للخبر، وليس الخبر كالعيان⁽³⁾، فله ما أعظمها معجزة باقية مدى الدهور والأزمان، وللمشاهدة حال لا ينكر، وفرق بين ما عرف بالمشاهدة وبين ما علم بالدليل، وحسبك سؤال نبي الله الخليل⁽⁴⁾، فالحمد لله الذي جمع هذه الأمة الأميين، وخصها بالاعتبارين، فمن معجزات نبينا عليه السلام المستوضح اعتبارا بالبيان، والمشاهد حسا للعيان.

وكما أن من تعامى في حياته ﷺ عن نبع الماء من بين أصابعه⁽⁵⁾، وغير ذلك من معجزاته ملوم مدحور، ومازور غير مأجور، فكذلك من تعامى عن آيات الكتاب وكأن لم يقرع أذنه قارع من هذا الباب، ولهذا نبه تعالى بقوله : «أفلا يتدبرون القرآن» (النساء 82 ومحمد : 24) ويقول تعالى : «كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته» (ص. 29) وجهات اعتباره كثيرة.

ولسلف هذه الأمة وخلفها مسالك في ذلك شهيرة، وإني تأملت منها بفضل الله وجوه ارتباطاته، وتلاحم سوره وآياته، إلى ما يلتحم مع هذا القبيل من

ومن الكتب المطبوعة في الموضوع : دلائل النبوة لأبي نعيم الإصفهاني ت : 430 هـ وأعلام النبوة للموردي ت : 450 هـ، ودلائل النبوة للبيهقي ت : 458 هـ. أنظر (مصادر السيرة النبوية) للدكتور فاروق حمادة ص : 44.

(3) جاء في الحديث النبوي بلفظ : (ليس الخبر كالمعاينة) أخرجه أحمد والطبراني وابن منيع، وصححه ابن حبان والحاكم وغيرهما، كما أخرجه غيرهم وفي هذا المعنى قال الشاعر :

ولكن للعيان لطيف معنى من أجله سأل المعاينة الكلم
أنظر المقاصد الحسنة للامام السخاوي ص : 351 والدرر المنترة في الأحاديث المشتهرة للسيوطي ص

154.

(4) إشارة إلى قوله تبارك وتعالى : (رب أرني كيف تحيي الموتى) الآية : البقرة 259.

(5) أخبار نبع الماء من بين أصابعه ﷺ متواترة، قال القرطبي : تكررت منه ﷺ في عدة مواطن في مشاهد عظيمة وردت من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي، وقال عياض في الشفا : قصة نبع الماء وتكثير الطعام رواها الثقة والعدد الكثير عن الجمع الغفير عن العدد الكثير من الصحابة أنظر : نظم المتناثر من الحديث المتواتر ص : 136، والشفا : 1/ 285.

عجائب شواهد التنزيل فعلقت في ذلك ما قدر، ثم قطعت بي قواطع الايام عن تميم رومي من ذلك وعملي، فاقصرت بحكم الاضطرار في هذا الاختصار على توجيه ترتيب السور، وإن لم أر في هذا الضرب شيئاً لمن تقدم وغير، وإنما نذر لبعضهم توجيه ارتباط آيات في مواضع مفترقات، وذلك في الباب أوضح، ومجال الكلام فيه أفسح وأسرح⁽⁶⁾.

أما تعلق السور على ما ترتب في الامام⁽⁷⁾، واتفق عليه الصحابة الاعلام فمما لم يتعرض له فيما أعلم، ولا قرع أحد هذا الباب ممن تأخر أو تقدم، فإن صلى أحد بعد هذه الاقامة، أو ائتم فمرتبط حتما بهذه الامامة، فإن انصف فلا بد أن ينشد إذ عانا للحق وانا⁽⁸⁾:

فلو قبل مبكاها بكيت صبا

ولما كمل لي بفضل الله الأمل من جليل هذا العمل، غريبا في باب، رفيعا في نصابه، موفى التحرير، معلوم النظر، تحصل بمطالعة العلم اليقين، ويفصح بشهادته أن العاقبة للمتقين، والله ينفع فيه بالنية من مرضاته الأمنية بمنه وبمنه.

(6) شهد بالسبق للمصنف في هذا الباب الامام بدر الدين الزركشي ت : 794. ثم قال : «ومن أكثر منه (أي من ارتباط الآيات والسور ببعضها) الامام فخر الدين الرازي، ت : 606 هـ. وقال في تفسيره : أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط».

أنظر البرهان في علوم القرآن 1/ 35.

(7) أي المصحف الامام الذي أجمع عليه الصحابة وكتب في عهد عثمان رضي الله عنه، ووزعت نسخ منه على الامصار، واعتمدته الأمة الاسلامية جيلا بعد جيل إلى يومنا هذا.

(8) هذا الشطر لعدي بن الرقاع العاملي الذي عاش في العصر الاسلامي وهو شاعر محسن مجيد، كان ينزل الشام توفي سنة 95 هـ.

وتمة لمعنى هذا الشطر يقول :

..... بسعدي شفيت النفس قبل التندم.

ولكن بكت قبلي فهاج لي البكا بكاهما فقلت الفضل للمتقدم.

أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ج : ص : 622.

باب التعريف بترتيب السور وهل ذلك بتوقيف من الشارع ﷺ أم هو من فعل الصحابة؟

اعلم أولاً أن ترتيب الآيات في سورها وقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين⁽⁹⁾، وإنما اختلف في ترتيب السور على ما هي عليه وكما ثبت في الامام مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي بعث بنسخة إلى الآفاق⁽¹⁰⁾، واطبقت الصحابة على موافقة عثمان في ترتيب سورة وعمله فيه، فذهب مالك⁽¹¹⁾، والقاضي أبو بكر بن الطيب⁽¹²⁾. فيما اعتمده واستقر عليه مذهبه من قوله، والجمهور من العلماء، إلى أن ترتيب السور إنما وقع باجتهاد الصحابة، وأن رسول ﷺ فوض ذلك إلى أمته بعده، وذهبت طائفة من العلماء إلى أن ذلك إنما وقع بتوقيفه ﷺ وأمره، ولكل من الطائفتين جهات تعلق، وكلا القولين والحمد لله لا يقدح في الدين، ولا يثمر إلا اليقين، فأقول مستعينا بالله سبحانه :

(9) ما ذهب إليه المؤلف لم يخالفه فيه أحد بل كان قبله وبعده موضع تسليم واتفاق وذلك لأمرين اثنين

أ — لأنه نقل الكافة عن الكافة إلى عهد نزول الوحي، فلم يحدث أي خلاف في هذا.

ب — النصوص الواردة عن الصحابة الذين شاهدوا الوحي والتنزيل وعاصروه، تدعم هذا وتؤيده، وفي هذا يقول مكّي بن أبي طالب : «ترتيب الآيات في السور هو من النبي ﷺ»، وقال الباقلاني : «ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم»، وقال الزركشي : «فأما الآيات في كل سورة ووضع البسملة أوائلها فترتيبها توقيفي بلا شك ولا خلاف فيه، ولهذا لا يجوز تعكيسها.»

والنصوص الواردة في هذا الباب مترادفة كما قال السيوطي وساق طائفة منها أنظر البرهان 1 / 256، الاتقان : 1 / 63. والمدخل لعلوم القرآن والتفسير ص : 107.

(10) أما عدد المصاحف التي نسخت في عهد عثمان وأرسل بها إلى الآفاق فيرى أكثر العلماء أنها أربع، بعث واحدا إلى الكوفة وواحدا إلى البصرة، وواحدا إلى الشام وأبقى في المدينة واحدا.

ويرى أبو حاتم السجستاني أن عثمان كتب سبع نسخ وانفذها إلى مكة والبصرة والكوفة والشام واليمن والبحرين وترك عند أهل المدينة واحدة. أنظر فضائل القرآن لابن كثير الملحق بتفسيره 7 / 445 والاتقان : 1 / 60.

(11) مالك بن أنس صاحب الموطأ، وله كتاب : «التفسير لغريب القرآن» / ت : 179هـ أنظر الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون ص : 27 وترتيب المدارك : 1 / 104.

(12) هو أبو بكر ابن الطيب المعروف بالباقلاني صاحب اعجاز القرآن، ونكت الانتصار لنقل القرآن ت : 403هـ أنظر وفيات الابن خلكان 4 / 269، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي / 168.

اعلم أن الأمر في ذلك كيفما قدر فلا بد من رعي التناسب، والتفات التواصل والتجاذب، فإن كان بتوقيف منه ﷺ، فلا مجال للخصم بعد ذلك التحديد الجليل والرسم، وإن كان مما فوض فيه الأمر إلى الأمة بعده فقد أعمل الكل من الصحابة في ذلك جهده، وهم الأعلياء بعلمه، والمسلم لهم في وعيه وفهمه، والعارفون بأسباب نزول الآيات، ومواقع الكلمات، وإنما ألقوا القرآن على ما كانوا يسمعون من رسول الله ﷺ، وهذا قول مالك رضي الله عنه في حكاية بعضهم عنه، ومالك أحد القائلين بأن ترتيب السور اجتهاد من المسلمين كما تقدم عنه، فكيف ما دار الأمر، فمنه ﷺ عرف ترتيب السور، وعلى ما سمعوه منه بنوا جليل ذلك النظر، فإذا إنما الخلاف هل ذلك بتوقيف قولي أو بمجرد استناد فعلي بحيث بقي لهم فيه مجال للنظر؟ فهذا موضع الخلاف (13).

فإن قيل إذا كانوا قد سمعوا منه كما استقر عليه ترتيبه فقيم إذا عملوا الأنظار، وأي مجال بقي لهم بعد للاختيار؟ فالجواب أنا قد روينا/ في صحيح مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح بالبقرة، فقلت يركع عند المائة؛ ثم مضى، فقلت يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران..... الحديث (14).

فلما كان ﷺ ربما فعل هذا إرادة التوسعة على الأمة، وبياناً لجليل تلك النعمة، كان محلاً للتوقف حتى استقر النظر على رعي من كان من فعله الأكثر فهذا محل اجتهادهم في المسألة والله اعلم.

ثم يشهد لما بنينا كتابنا هذا عليه ما روينا في مصنف ابن أبي شيبة عن أناس من أهل المدينة قال الحكم: أرى منهم أبا جعفر قال: كان رسول الله

(13) سبق تفصيل ذلك في المبحث الثاني من هذا الكتاب ص 43 وما بعدها.

(14) أخرجه أحمد في مسنده 5/ 397 وقارن به: 384، ومسلم في صحيحه «كتاب صلاة المسافرين وقصرها»:

صلى الله عليه وسلم يقرأ في الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين، فأما سورة الجمعة فيبشر بها المؤمنين ويحرضهم، وأما سورة المنافقين فيؤيس بها المنافقين ويوبخهم⁽¹⁵⁾.

وحكى الخطابي⁽¹⁶⁾. ان الصحابة لما اجتمعوا على القرآن، وضعوا سورة القدر عقيب العلق، واستدلوا بذلك على أن المراد بهاء الكتابة في قوله : «إنا أنزلناه في ليلة القدر» (القدر : 1) إشارة إلى قوله : اقرأ، قال القاضي أبو بكر ابن العربي⁽¹⁷⁾. وهذا بديع جدا، قلت : ومن ظن ممن اعتمد القول بأن ترتيب السور اجتهاد من الصحابة أنهم لم يراعوا في ذلك التناسب والاشتباه فقد سقطت مخاطبته، وإلا فما المرامي وترتيب النزول غير ملحوظ في ذلك بالقطع، بل هذا معلوم في ترتيب آي القرآن، الواقع ترتيبها بأمره عليه السلام وتوقيفه بغير خلاف، ألا ترى أن سورة البقرة من المدني وقد تقدمت سور القرآن بتوقيفه عليه السلام في الصحيح المقطوع به، وتقدم المدني على المكي في ترتيب السور والآي كثير جدا، فإذا سقط تعلق الضمان بترتيب النزول لم يبق إلى رعي التناسب والاشتباه، وارتباط النظائر والاشباه.

(15) أما قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين، فقد أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهما.

أنظر صحيح مسلم 2/ 597 و599. وأخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وأما بسياقة ابن أبي شيبة التي ذكرها المصنف فأخرجه سعيد بن منصور، والطبراني في الأوسط بسند حسن عن أبي هريرة قال : كان صلى الله عليه وسلم يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة فيحرض بها المؤمنين وفي الثانية بسورة المنافقين فيقرع بها المنافقين، كما أخرج هذا الحديث غير المذكورين أنظر الدر المنثور : 6 / 215 و 222.

(16) هو الامام العلامة أحمد بن محمد ابن ابراهيم ابن الخطاب البستي أبو سليمان فقيه محدث لغوي مصنف كبير، له كتب كثيرة وآراء سديدة، من آثاره المطبوعة : معالم السنن (شرح سنن أبي داود)، إصلاح غلط المحدثين، غريب الحديث. وله شرح على البخاري وكتب أخرى توفي سنة : 388 هـ. قال الذهبي كان ثقة مثبته من أوعية العلم أنظر تذكرة الحفاظ 1018/3.

(17) هو محمد بن عبد الله بن محمد المعروف بابن العربي الماعفري الاشبيلي المالكي ولد في اشبيلية ورحل إلى المشرق وعاد بعلم كثير وتفنن في علوم كثيرة وتولى القضاء. قال ابن بشكوال سحتماء علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها ترك ثروة علمية كبيرة في مصنفات جليلة تدل على بلوغه رتبة الاجتهاد منها : أحكام القرآن، وعارضة الأحوذى، في شرح الترمذي، والعواصم من القواصم، والقيس شرح موطأ مالك بن أنس، ومسائل الخلاف في عشرين مجلدا، وقانون التأويل وغيرها من الكتب، ويجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق مع حسن المعاشرة ولين الكنف وحسن العهد وثبات الود توفي سنة 543 خارج فاس ونقل إليها ودفن خارج باب المحروق. أنظر وفيات الأعيان : 4 / 296. وتاريخ قضاة الأندلس : ص : 105، نفح الطيب 2 / 25 والصلة : 2 / 590. الاعلام 6 / 230. ازهار الرياض للمقري : 3 / 62، فهرسة ابن خير ص : 54. أحكام صنعة الكلام للكلاعي ص : 191. مطمح الأنفس للضبي : 369. الغنية القاضي عياض ص : 133، الخريدة للعماد الاصفهاني : 2 / 296.

وتدبر بعقلك وضوح ذلك في عدة سور كالانفال وبراءة، والطلاق والتحريم، والتكوير والانفطار، والضحي والم نشرح، والفيل وقريش، والمعوذتين إلى غير هذه السور مما لا يتوقف في وضوحه من له أدنى نظر.

وقد (مال) (18). القاضي ابو محمد عبد الحق بن عطية (19). رحمه الله في ترتيب السور إلى القول بالتفصيل (20). وهو أن كثيرا من سور القرآن قد كان علم ترتيبها في أيامه عليه السلام كالسبع الطوال، والخواصم، والمفصل، وأشار كلامه إلى أن ما سوى ذلك يمكن ان يكون عليه السلام فوض فيه الأمر إلى الأمة بعده، ولم يقطع القاضي أبو محمد في هذا القسم الثاني بشيء (21).

وظواهر الآثار شاهدة بصحة ما ذهب إليه في أكثر ما نُص عليه، ثم يبقى بعد قليل من السور يمكن فيها جري الخلاف أو يكون وقع، وإذا كان مستند المسألة النقل لم يصعب خلاف غير أهله، على أن ما مهدناه من المراعاة في الترتيب حاصل لا محالة على كل قول، ولنورد هنا بعض ما يشهد بظاهرة من الآثار لما قاله القاضي أبو محمد على ما نطنا به فمن ذلك :

قوله عليه السلام : (اقرأوا الزهراوين : البقرة وآل عمران) (22). في حديث أخرجه مسلم وغيره، وأخرج أيضا قوله عليه السلام : (يوتي بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران) (23).

(18) في النسختين قال والسياق يقتضي ما أثبتناه.

(19) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية الحارثي الغرناطي أبو محمد القاضي من بيت علم وفضل وكرم ونبيل، كان فقيها نبيا مفسرا أديبا شاعرا لغويا أثنى عليه المصنف في كتابه الصلاة وقال مولده 481 هـ. وتوفي في 25 رمضان 341 هـ بمدينة لوزقة، ومن أشهر مصنفاته المحرر الوجيز وهو جليل الفائدة عظيم العائدة أنظر في ترجمته : تاريخ قضاة الأندلس : ص : 109، المعجم في أصحاب الصدي ص : 269، والأعلام : 3 / 282.

(20) ما بين القوسين زيادة ليلتئم الكلام.

(21) أنظر المحرر الوجيز : 1 / 35.

(22) أخرجه مسلم من حديث أبي أمامة الباهلي ونصه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما.... الحديث أنظر : 1 / 553 كما أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن وأحمد وابن حبان والحاكم والبيهقي في سننه أنظر الدر المنثور : 1 / 18.

(23) أخرجه مسلم : 1 / 554 والترمذي : الحديث رقم : 3045 المجلد الرابع من حديث النواس بن سمعان ولفظه (يأتي القرآن وأهله الذين يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران قال نواس : (وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال يأتيان كأنهما غيايتان وبينهما شرق أو كأنهما غمامتان سوداوان، أو كأنهما ظلة من طير صواف تجادلان عن صاحبهما) كما أخرجه أحمد وغيرهم. أنظر الدر المنثور : 1 / 18.

وفي مصنف ابن أبي شيبة عن معبد بن خالد (24). قال : (صلى رسول الله ﷺ بالسبع الطوال في ركعة) (25)، وفيه أنه عليه السلام (كان يجمع المفصل في ركعة) (26).

وفي صحيح البخاري عن عبد الرحمن بن زيد قال سمعت عبد الله بن مسعود يقول في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء : إنهن من العتاق الأولى، وهن من تلادى (27)، فذكرها نسقا كما استقر ترتيبها.

وفي صحيح البخاري أيضا عن عائشة (أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس..... الحديث (28).

وفي المصنف (29) عن عمر أنه قرأ في ركعة واحدة ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ولأيلاف قريش، وروى أنهما في مصحف أبي (30) غير مفصول بينهما

(24) معبد بن خالد الجهني أبو زرعة قديم الإسلام كان من الذين حملوا ألوية جبهة يوم الفتح توفي سنة 72 هـ، وله رواية أنظر تجريد أسماء الصحابة 2/ 84 والاصابة : 3/ 439.

(25) وفيه حدثنا علي بن هشام ووكيع ابن أبي ليلى عن عبد الكريم عن معبد بن خالد قال : صلى رسول الله ﷺ بالسبع الطوال في ركعة، إلا أن وكيعا قال : قرأ. وأنظر أيضا في مصنف عبد الرزاق عن ابن جريج عن عبد الكريم عن رجل قال : أخبرني بعض أهل السبي ﷺ فساق الحديث وفيه فقرأ بالسبع الطوال في ركعة 2/ 147.

(26) ولفظه عن عبد الله بن شفيق العقيلي قال : قلت لعائشة كان رسول الله ﷺ يجمع بين السور في ركعة قالت : نعم المفصل، المصنف : 1/ 368، كما أخرجه الامام أحمد : 5/ 204.

والمفصل هو أواخر القرآن الكريم سمي بذلك لكثرة الفصول بين السور بالبسملة وقيل لقلة المنسوخ منه ولهذا سمي بالمحكم أيضا وفي تحديد أوله أهوال صحح أن أوله سورة الحجرات وذكر السيوطي الخلاف في أوله على إثني عشر قولاً. الاتقان : 1/ 180.

(27) أنظر البخاري 8/ 388 و9/ 435 و9/ 39، والعتاق جمع عتيق وهو القديم أو هو كل ما بلغ الغاية في الجودة والاتقان، وقوله هن من تلادى أي مما حفظ قديماً، والتلاد : قديم الملك وهو بخلاف الطارف ولفظ البخاري في المواضع الثلاثة المشار إليها (من العتاق الأول)، ولا يخفى أن السبع الطوال هي البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، والسابعة أما الأنفال وبراءة، لعدم الفصل بينهما بالبسملة، وما يونس، وأما الكهف. أنظر الاتقان ج : 1 ص 179.

(28) أخرجه الامام أحمد في مسنده : 6/ 116 و154 والبخاري في صحيحه 9/ 62، وأبو داود في سننه رقم 5056 والترمذي في جامعه : 4/ 231 والنسائي في اليوم والليلة رقم : 788، وابن ماجه رقم : 3875، وله طرق لكن مداره على ابن شهاب الزهري عن عروة عن عائشة، وهو في مسلم من طريق مالك عن ابن شهاب بأطول من سياقه في الكتب المتقدمة.

(29) يقصد مصنف ابن أبي شيبة.

(30) أبي بن كعب ابن قيس بن عبيد أبو المنذر الأنصاري رضي الله عنه أقرأ الأمة عرض القرآن على النبي ﷺ وقرأ النبي عليه خاصة بأمر من الله سبحانه وتعالى وتلقى عنه القراءة عدد من الصحابة وجمع من التابعين شهد غزوات رسول الله ﷺ بدرا وما بعدها كلها ومناقبه كثيرة وكان يختم القرآن في ثمان وقال له النبي ﷺ لهنك العلم أبا المنذر وهو أحد أربعة أمر النبي ﷺ أن يتلقوا عنهم القرآن قال الذهبي : وهو أقرأ من أبي بكر وعمر وفضله في هذا الباب شهير كثير أنظر : معرفة القراء الكبار للذهبي 1/ 32.

بالبسملة (31).

قلت والوارد من هذا عن النبي ﷺ وعن كبار الصحابة قبل كتب المصحف كثير ومروي من طرق شتى، وفي أحوال مختلفة، فإن قيل فقد كان يجب على ما أشرت إليه أن يكون القول بالتوقيف أكثر وأشهر، والأمر على خلاف ذلك، فإن مالكا رحمه الله، والقاضي أبا بكر من المتكلمين وأكثر أهل العلم قائلون بأن ترتيب السور اجتهاد من الصحابة وقد مر (32).

فالجواب أن الآثار المستفيضة والمقطوع به منها، إنما ورد ذلك في الأكثر ولم يرد فيما بين كل سورتين سورتين، ولا شك أنه إذا بقي بعض ذلك لاجتهادهم ولو فيما بين سورتين (33)، جرى المقول المشهور عليه وصح اعتماده، ثم إن الآثار إنما وقعت بفعل، لا بقول وأمر يحصل منه التوقيف. فإذا قد آل الأمر إلى أن تلك الآثار هي مستند اجتهادهم وأصل اتفاقهم، وهذا أراد مالك رحمه الله بقوله : وإنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعون من رسول الله ﷺ، وهذا القدر كاف في المقصود، والحمد لله رب العالمين.

سورة أم القرآن (34)

قد ذكر الناس كيفية تضمينها مجملًا لما تفصل في الكتاب العزيز

(31) قال القرطبي في تفسيره : 10 / 200 قبل أن هذه السورة (لإيلاف قريش) متصلة بالتي قبلها في المعنى يقول أهلك أصحاب الفيل لإيلاف قريش أي لتألف أو لتتفق قريش أو لكي تأمن قريش فتؤلف رحلتها، ومن عد السورتين واحدة أبي بن كعب ولا فصل بينهما في مصحفه وقال سفيان بن عيينة : كان لنا إمام لا يفصل بينهما ويقرأهما معاً، وقال عمر بن ميمون الأودي : صلينا المغرب خلف عمر رضي الله عنه فقرأ في الأولى والثين والزيتون وفي الثانية ألم تر كيف فعل ربك وإيلاف قريش، وقال القراء هذه السورة (لإيلاف قريش) متصلة بالسورة الأولى (ألم تر).

(32) نقل السيوطي في الانتقان وقال كل مذهب واختار ما ذهب إليه البيهقي من أن ترتيب جميع سور القرآن توقيفي إلا الأنفال وبراءة. الانتقان : 1 / 179.

(33) وهو مذهب البيهقي والسيوطي اللذين يريان بأن ترتيب السور كلها توقيفي إلا سورتي الأنفال وبراءة. الانتقان : 1 / 179.

(34) سأقتصر في تعليقي على هذه السورة على توضيح أوجه التناسب التالية :
أ - تسمية السورة : تسمى هذه السورة بأم القرآن، وهذا الاسم من أبرز أسمائها وقد وردت أحاديث كثيرة في شأنها منها :

= — ما أخرجه الترمذي في جامعة (132/4) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : الحمد لله أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني، وقال عنه : حسن صحيح :

— ما أخرجه مالك في الموطأ 106/1 ومسلم في صحيحه 9/2، وأحمد في مسنده 250/2 وغيرهم أن رسول الله ﷺ قال : «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج». أنظر تخریج الحديث في فضائل القرآن للنسائي ص : 74.

— ومنها قول أبي هريرة في البخاري 251 / 2 «وان لم تزد على أم القرآن أجزأت». ولهذا جوز العلماء تسميتها بأم القرآن، وقد كرهه أنس بن مالك وابن سيرين، والأحاديث الثابتة ترد قولهما. أنظر المحرر الوجيز 62/1، وتفسير القرطبي 111 / 1.

وتسميتها بأم القرآن لأن أم الشيء ابتداءً وأصله، ومنه سميت مكة أم القرى، وقيل سميت أم القرآن لاشتغالها عن المعاني التي في القرآن من الثناء على الله تعالى والتعبد بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، وعلى ما فيها من ذكر الذات والصفات والفعل واشتغالها على ذكر المبدأ والمعاد والمعاش.

وللسورة أسماء أخرى منها : أم الكتاب، السبع المثاني، والكنز، والشافية، والكافية، والحمد، والحمد لله، والأساس، والشكر، وغيرها، وقد وردت في هذه الأسماء أحاديث أو آثار. أنظر البخاري : 8 / 155، 156 وتفسير القرطبي 111 / 1.

ب — فضلها : وردت أحاديث كثيرة تبين فضلها وتعلي شأنها وتحض على التحصن بها، وقد وصفها النبي ﷺ بأنها أعظم سورة في القرآن كما جاء في حديث أبي سعيد بن المولى قال : كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، فقلت يا رسول الله إني كنت أصلي، فقال ألم يقل الله «استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحكيكم» ثم قال لي لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد، ثم أخذ بيدي فلما أراد أن يخرج قلت : ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن ؟ قال الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته، أخرجه الشيخان وأحمد وغيرهم.

ج — مناسبتها : جاءت هذه السورة على قصرها متصدرة للكتاب العزيز، وقد راح العلماء والمفسرون يتلمسون سر افتتاح القرآن بها حتى صارت كالعنوان له. قال الحسن البصري : إن الله أودع علوم الكتب السابقة في القرآن، ثم أودع علوم القرآن في المفصل، ثم أودع علوم المفصل في الفاتحة وبني الامام فخر الرازي على ذلك رأيه — عند تفسيره لسورة الفاتحة — فقال : المقصود من القرآن كله تقرير أمور أربعة : الالهيات، والمعاد، والنبوات وإثبات القضاء والقدر. فقوله : «الحمد لله رب العالمين» يدل على الالهيات. وقوله «مالك يوم الدين» يدل على نفى الجبر وعلى إثبات أن الكل بقضاء الله وقدره، وقوله «إهدنا الصراط المستقيم» إلى آخر السورة، يدل على قضاء الله وعلى النبوات.

ومع اشتغال هذه السورة على المطالب الأربعة التي هي المقصد الأعظم من القرآن، فقد اشتملت على الألفاظ الحسنة والمقاطع المستحسنة وأنواع البلاغة وهذا هو الغاية في براعة الاستهلال.

يقول السيوطي : أحسن البلاغة عند البيانين هو أن يتأنق في أول الكلام لأنه أول ما يقرع السمع، فإن كان محرراً قبل السامع قبل الكلام ووعاه، وإلا أعرض وإن كان في نهاية الحسن. ثم قال : ومن الابتداء الحسن نوع أخص منه يسمى براعة الاستهلال وهو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه، ويشير إلى ما سبق الكلام لأجله، والعلم الأسنى في ذلك سورة الفاتحة التي هي مطلع القرآن. معترك الاقران 1 / 74، 75.

بجملته⁽³⁵⁾. وهو أوضح وجه في تقدمها سورة الكريمة. ثم هي مما يلزم المسلمين حفظه، ولابد للمصلين من قرائتها⁽³⁶⁾، ثم افتتاحها بحمد الله⁽³⁷⁾ سبحانه. وقد شرع في ابتداءات الأمور، وأوضح الشرع فضل ذلك⁽³⁸⁾ وأخذ به كل خطيب ومتكلم، وفيها تعقيب الحمد له سبحانه بذكر صفاته الحسنى والإشارة إلى إرسال الرسل في قوله، «إهدنا» وقوله «صراط الذين أنعمت عليهم»، وقد قال تعالى : «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده (الأنعام 90) وذكر افتراق الخلق بذكر المهتدين، وذكر المغضوب عليهم ولا الضالين، وإن ملاك الهدى بيده، «وإياك نستعين» وهذا كله أشفى شيء في بيان التقديم.

(35) يشير المؤلف إلى أن المفسرين تعرضوا لبيان مدلول سورة الفاتحة، وتضمنها لمقاصد القرآن الكريم، وقلما تجد تفسيراً يخلو من ذلك، وقد فصل هذه المقاصد بكلام نفيس الإمام الغزالي في كتابه جواهر البيان ص. 38. كما أفاض ابن القيم في كتابه القيم «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» في تجلية أسرار هذه السورة التي جعلها أساس كتابه هذا الذي يقع في ثلاث مجلدات.

(36) للحديث الذي أخرجه الشيخان وأصحاب السنن من حديث عبادة ابن الصامت أن رسول الله ﷺ قال : «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» أنظر فيض القدير 6/ 429.

(37) لقد تساءل المؤلف — رحمه الله — عن وجه افتتاح السور الخمس وهي : سورة أم القرآن وسورة الأنعام، وسورة الكهف، وسورة سبأ، وسورة فاطر، بقوله : «الحمد لله» واختصاصها بذلك مع تساوي السور كلها في استقلالها بأنفسها وامتياز بعضها من بعض. فأجاب بقوله : أما أم القرآن فهي أول السور ومطلع القرآن العظيم بالترتيب الثابت، فافتتاحه بحمده تعالى بين، وأما سورة الأنعام فمشيرة إلى إبطال مذهب التثوية ومن قال بمثل قولهم ممن جعل الأفعال بين فاعلين.... وإذا كانت هذه السور مشيرة إلى ما ذكر وانفردت بذلك فافتتاحه بحمده تعالى بين،..... وأما سورة الكهف فكذلك لبنائها على قصة أصحاب الكهف وذكر ذي القرنين حسبما ألفت يهود لسائلهم من كفار قريش وذلك مما لم يتكرر في القرآن فافتتحت بحمده تعالى وذلك بين. وأما سورة سبأ فإن قصة سبأ لم يرد فيها أيضاً في غير هذه السور إلا الإيماء الوارد في سورة النمل. وجئتك من سبيل نبيل يقين (21)، فلما تضمنت سورة سبأ من هذا ما تضمنت ومن قصص داود وسليمان عليهما السلام وما منحهما الله سبحانه وتعالى من تسخير الجبال والطير والجن والآلة الحديد، ولم يجتمع مثل هذا التعريف في سواها، افتتحها سبحانه بحمده وانفراده بملك السموات والأرض وما فيها، وأنه أهل الحمد في الدنيا والآخرة. وأما سورة فاطر ففيها التعريف بخلق الملائكة عليهم السلام وجعلهم رسلاً أولي أجنحة : إلى خلق السموات والأرض وإمساكهما أن تزولا وانفراده بذلك، ولم يقع هذا التعريف في غيرها من سور القرآن فناسب هذه المقاصد التي لم ترد في غير هذه السور، فناسب ما افتتحت به ولا يلزم على هذا اطراد ذلك في كل سورة انفردت بحكم أو تعريف ليس في غيرها، بل جواز ذلك منسحب على الجميع، واختصاص هذه السور بذلك واضح لانفرادها بما ذكرناه. أنظر ملاك التأويل :

1/ 150 و 154 وما بعدها :

(38) لقول الرسول ﷺ : «كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع» أنظر طرق تخريج الحديث والكلام عليه في «عمل اليوم والليلة» ص : 494.

سورة البقرة (39).

لما قال العبد بتوفيق ربه «إهدنا الصراط المستقيم» قيل له : «ذلك الكتاب لا ريب فيه» (آية 2) هو مطلوبك وفيه أربك، وهو الصراط المستقيم «هدى للمتقين» (آية 2) القائلين إهدنا الصراط المستقيم والخائفين من حال الفريقين المغضوب عليهم ولا الضالين، فاتخذوا وقاية من العذاب خوف ربه وتقواه بامتنال أمره ونهيه، ثم أشير من الأعمال إلى ما يستحق سائرهما من قبلي البدنيات والماليات بيانا للصراط المستقيم فقيل في وصف المتقين أنهم «الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون» (البقرة 3) وحصل من هذا حصر الفعل والترك الضابطين لجميع الأعمال كيف ما تشعبت كما في مهد التفسير عند ضم ما ورد هنا إلى قوله : «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» (العنكبوت 45) ووقع الفعل صريحا والترك إيماء للتناسب المبين حيث ذكر، ثم بين لهم قدر النعمة عليهم في طلب الهدى من الله في قولهم «اهدنا» قيل : «إن الذين كفروا... الآية

(39) هذه السورة مدنية وهي أول ما نزل بالمدينة وآياتها مائتان وسبع وثمانون آية وقيل ست وثمانون وقيل خمس وثمانون. وهي من أعظم السور القرآنية وأطولها، نزلت في أزمان متباعدة، فقد صح أن قوله تعالى : «واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله» مع آيات الرأيا من آخر القرآن نزولا. انظر الفتح الباري 8 / 205.

وهي مليئة بآيات الاحكام والتشريع، ولعظيم فقهها اقام عبد الله ابن عمر ثمانين سنين في تعلمها، ولهذا سميت فسطاط القرآن، ووصفها الرسول ﷺ بأنها سنام القرآن. انظر موارد الظمان على صحيح ابن حبان الحديث رقم 1727.

ومما يمكن تاكيداه وبراظه في الربط بين هذه السورة وسورة الفاتحة هو ان فاتحة الكتاب لما علمت المؤمنين ان يسألوا الله عز وجل سلوك الطريق المستقيم ويجنبهم طريق المغضوب عليهم والضالين، وبين رسول الله ﷺ ان المغضوب عليهم هم اليهود، والضالين هم النصارى كما جاء ذلك في الحديث الذي اخرج الترمذي في جامعه 4 / 76 عن عدي بن حاتم قال : رسول الله ﷺ : اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال، جاءت هذه السورة مفصلة لحال وتعنت المغضوب عليهم، وكان اكثر الحديث فيها عن اليهود — الذين ذكروا في سورة الفاتحة قبل النصارى الضلال — معالجة كبريات القضايا التي عرضت لانبيا بني اسرائيل، وابانت عن مستوى تفكير هؤلاء القوم وقصور نظرهم، ولهذا سميت باسم حدث بارز من احداثهم، وفندت دعواهم الصلة بابراهيم ابى الانبياء وصاحب الحنيفية السمحة، لتبين الطريق المستقيم الذي سلكه هو ومن جاء بعده من المؤمنين، وليكون جليا للسائرين عليه الذين وصفهم الله عز وجل بقوله «صراط الذين انعمت عليهم» ومن اخص خصائصهم الايمان بالغيب والتماس الهداية من الله تعالى.

وهذا كله بيان وتفصيل لذلك الاجمال الوارد في سورة الفاتحة وتنبية على خط الانحراف الذي الحق غضب الله بني اسرائيل والله اعلم.

(البقرة : 6) ليعلموا أن الهدى من عنده فيلجوا في الطلب ويتبرؤوا من ادعاء حول أو قوة.

ثم نهوا على الاخلاص، وان يكون قولهم «اهدنا الصراط» صادرا عن يقين وإخلاص حتى لا يشبهوا من يقول : «آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين» (البقرة : 8)، وبسط لهم حال هؤلاء في ثلاث عشرة آية ما يوضح لهم طريق الهدى الواضح، إذ حذروا من شكك هؤلاء وحيرتهم فقالوا : إهدنا عن يقين وإخلاص، ثم اعقب ذلك الدلائل المشاهدة من جعل الأرض فراشا والسماء بناء وإنزال الماء وإخراج النبات وذلك كله أمر مشاهد يصل إليه كل عاقل بأول وهلة.

ثم اعقب بابتداء الخلق وهو قوله تعالى : «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة» (البقرة : 30) وذلك كله مبين لقوله «رب العالمين ملك يوم الدين» إذ من البداية تعلم العودة لمن تدبر، وقد نبه تعالى بتكرار النبات.

ثم ذكر أحوال بني إسرائيل وامهالهم على مرتكباتهم ومعاملتهم بالعفو والاقالة وذلك مبين سعة رحمته، واعلم تعالى أن أفعالهم تلك مما أعقبهم أن «ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله» (البقرة : 61) تحذيرا لمن طلب سلوك الطريق المستقيم من حالهم، واعلاما لعباده أن المتقين المستجاب لهم عند قولهم «إهدنا» ليسوا في شيء من ذلك لأنهم/ قالوا إهدنا عن يقين وإخلاص متبرين من المساوىء.

ثم اعقب تعالى تفصيل أحوال هؤلاء بقوله : «وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن» (البقرة 124) ليبين أحوال المصطفى من أهل الصراط المستقيم فائبا تعالى بحال إبراهيم، وإتمام ما ابتلاه به من غير توقف ولا بحث عن علة، وهي أسنى أحوال العباد، وفي طرف من حال من قدم من بني إسرائيل وهذا الموضع مما يعضد ما ظهر في قصة أمر بني إسرائيل في ذبح البقرة من وجوه الحكمة، فتوقفوا وشددوا بعد إسمائهم الأدب مع نبيهم فأورثهم ذلك نكالا وبعدا.

فالصراط المستقيم حال إبراهيم عليه السلام ومن ذكر من الأنبياء والرسل
«أولئك الذين هدى الله» (الأنعام 90) وهم المنعم عليهم.

ثم أعقب ذلك بما نسبوا لإبراهيم وبنيه المصطفين بعد أن بين حاله فقال :
«أم يقولون أن إبراهيم... الآية (البقرة : 140) وبين فساد اليهودية والنصرانية وبرأ
نبيه إبراهيم والأنبياء عن ذلك، وأوضح أن الصراط المستقيم هو ما كانوا عليه لا
اليهودية ولا النصرانية.

ثم ذكرهم بوحدانيتها تعالى «والهكم إله واحد» (البقرة : 163) ثم نبه على
الاعتبار ودلائل التوحيد، وبين حال من اعتمد سواه جل وتعالى فقال : «إذ تبرأ
الذين اتبعوا من الذين اتبعوا» (البقرة : 166) وبين سوء حال المشركين وأنهم
لاحقون باليهود والنصارى في انحرافهم عن الصراط المستقيم وحيدتهم عن الجادة، ووقع
تنبيه هؤلاء بدون ما تضمنه تنبيه بني إسرائيل من التفرع والتويع لفرقان ما بينهم
لأن كفر هؤلاء تعنت بعد مشاهدة الآيات «وجعلنا قلوبهم قاسية»
(المائدة : 13).

ومتى بين شيء في الكتاب العزيز من أحوال النصارى فليس على ما ورد
مثله في (بني إسرائيل)⁽⁴⁰⁾ لما ذكر، وخطاب مشركي العرب فيما أشير إليه دون
خطاب الفريقين إذ قد تقدم لهم (ذكر)⁽⁴¹⁾ ما لم يتقدم للعرب، وبشروا في كتبهم
وليس لمشركي العرب (مثل ذلك)⁽⁴²⁾، والزيف عن الهدى شامل للكل، وليسوا في
شيء من الصراط المستقيم، مع أن أسوأ الأحوال حال من أضله الله (على
علم)⁽⁴³⁾.. وان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد (البقرة : 176).

وهنا انتهى ذكر ما حذر منه ونهى عنه من أراد سلوك الصراط المستقيم،
وبيان حال من حاد عنه وتنكبه، وظن أنه على شيء، وضم مفترق أصناف الزائغين في

(40) ب : «اليهود أي أن كفرهم تعنت».

(41) ساقطة من : ب

(42) ساقطة من : أ

(43) ب : بعد العلم. وسقطت الآية «وان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد».

أصناف ثلاثة وهم : اليهود، والنصارى، وأهل الشرك، وبهم يلحق سائر من تنكب فيلحق باليهود منافقو أمتنا ممن ارتاب بعد إظهار إيمانه وفعل أفاعيلهم من المكر والخديعة والاستهزاء، ويخلق بالنصارى من اتصف بأحوالهم، وبالمشركين من جعل لله ندا (أو اعتقد)⁽⁴⁴⁾. فعلا لغيره تعالى⁽⁴⁵⁾ على غير طريقة الكسب، والمجوس لا حقون بأهل⁽⁴⁶⁾ الشرك، والشرك أكثر هذه الطرق السيئة تشعبا، ولهذا قال ﷺ : «الشرك في أمتي أخفى من ذيب الثعل»⁽⁴⁷⁾، ومن فعل أفعال من ذكر ولم ينته به الأمر إلى مفارقة دينه والخروج في شيء من اعتقاده خيف عليه أن يكون ذلك وسيلة إلى اللحق بمن تشبه به وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا»⁽⁴⁸⁾. إلى أشباه هذا من الأحاديث.

ثم ذكر تعالى من أول آية «ليس البر» (177) ما لزم المتقين لما بين لهم ما هو خروج عن الصراط المستقيم، وحذروا منها عقب ذكر ما يلزمهم، فابتدىء من هناك بذكر الأحكام إلى قوله : «آمن الرسول» خاتمة السور، وفصل لهم كثيرا مما كلفوه، فذكر الإيمان وفصل تفصيلا لم يتقدم، وأعقب بذكر الصدقة وموقعها على التفصيل، وفي ذكر إتيان المال عقب الإيمان إشعارا بما فيه السلامة من فتنة المال «إنما أموالكم وأولادكم فتنة» التغبين : 15)، وإشارة من الآية إلى أنه يبعد حب المال بل يستحيل وجوده ممن أحب الله سبحانه، وإن محبة الله تعالى تهون عليه كل شيء «لا تمدن عينيك.... إلى لا نسألك رزقا» (طه : 131 — 132)، ثم ذكر الزكاة والصيام والحج والجهاد إلى غير ذلك من الأحكام كالنكاح والطلاق والعُد والحِيض والرضاع والحدود والربا والبيوع إلى ما تخلل هذه الآيات من تفاصيل

(44) ب : واعتقد.

(45) ب : ساقطة.

(46) ب : لاهل.

(47) الترمذي وأبو يعلى وابن عدي وابن حبان وأحمد والطبراني والبخاري وأبو نعيم في الحلية وقال الحاكم صحيح وضعفه الذهبي وغيره، انظر فيض القدير 4/ 172.

(48) تمام الحديث (ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر) أخرجه أحمد في مسنده والبخاري في صحيحه 1/ 89. ومسلم في صحيحه 1/ 78. وأصحاب السنن عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

الأحكام ومجملها، وقدم منها الوفاء بالعهد والصبر، لأن ذلك يحتاج إليه في كل الأعمال، وما تخلل هذه الآيات من لدن قوله: «ليس البر إلى قوله آمن الرسول» (آية : 177 — 185) مما ليس من قبيل الإلزام والتكليف فلسبب أوجب ذكره ولتعلق أو نسق استدعاه

ولما بين سبحانه أن الكتاب هو الصراط المستقيم، وذكر افتراق الأمم كما شاء، وأحوال الزائغين والمتنكبين تحذيرا من حالهم ونهيا عن مرتكبتهم وحصل قبيل التروك بمجملته وانحصار التاركين، واعقب بذكر ملتزمات المتقين وما ينبغي لهم امتثاله والأخذ به من الأوامر والأحكام والحدود، اعقب⁽⁴⁹⁾ ذلك بأن المرء يجب أن ينطوي على ذلك ويسلم⁽⁵⁰⁾ الأمر لما لكه فقال تعالى : «آمن الرسول» (آية : 285) فاعلم أن هذا إيمان الرسول ومن كان معه على إيمانه وأنهم قالوا : «سمعنا وأطعنا» (البقرة : 325) لا كقول بني إسرائيل «سمعنا وعصينا» (البقرة : 93) وأنه اثابهم على إيمانهم برفع الإصر والمشقة والمواخظة بالخطا والنسيان عنهم⁽⁵¹⁾ فقال : «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها» (البقرة : 286) فحصل من هذه السورة⁽⁵²⁾ بأسرها بيان الصراط المستقيم على الاستيفاء والكمال اخذا وتركاً، وبيان شرف من أخذ به، وسوء حال من تنكب عنه، وكأن العباد لما عُلِّموا (أن يقولوا)⁽⁵³⁾ اهدنا الصراط المستقيم إلى آخر السورة قيل لهم عليكم بالكتاب إجابة لسؤالهم، ثم بين لهم حال من سلك ما طلبوه، فكان قد قيل لهم أهل⁽⁵⁴⁾ الصراط المستقيم وسالكوه هم الذين من شأنهم وأمرهم، والمغضوب عليهم من المتنكبين هم اليهود الذين من أمرهم وشأنهم، والضالون هم النصارى الذين من شأنهم وأمرهم.

(49) ب. واعقب.

(50) أ : وان يسلم.

(51) ب : ساقطة.

(52) أ : ساقطة.

(53) ب : ساقطة.

(54) أ : أصل

فيجب على من رغب في سلوك الصراط المستقيم أن يحذر ما أصاب هؤلاء مما نُبه عليه وأن يأخذ نفسه بكذا وكذا، وأن (ينسحب إيمانه) (55)، على كل ذلك وأن يسلم الأمر لله الذي يُطلب (56) منه الهداية ويتضرع إليه بأن لا يواخذه لما (57) يثمره الخطأ والنسيان وألا يُحمّله ما ليس في وسعه وأن يعفو عنه إلى آخر السؤال.

سورة آل عمران (58)

اتصالها بسورة البقرة والله أعلم من جهات :

إحداها (59) ما تبين في صدر السورة مما هو إحالة على ما ضمن في سورة البقرة بأسرها.

(55) أ : يستحب بإيمانه.

(56) ب : تطلب.

(57) ب : بما يثمر.

(58) هذه السورة مدنية بالإجماع نزلت في النصف الأخير من السنة الثانية أو السنة الثالثة للهجرة، والذي يرجح ذلك كون صدرها عالج قضايا أهل الكتاب وخاصة النصارى الذين قدموا على رسول الله ﷺ من نجران في وفد من ستين راكباً ولم يكونوا ليقدموا على من لا شأن له. بل كان قدومهم إثر غزوة بدر وإحراز المسلمين على النصر فيها كما ورد ذلك في أسباب نزول السورة. وأيضاً فقد عالج الشطر الثاني منها درس «أحد» الذي كانت فيه الدائرة على المسلمين وكانت أحد بالاتفاق في السنة الثالثة، وعلى هذا فيكون نزول هذه السورة في فترة زمنية متقاربة، انظر في تفصيل وفد نجران ابن هشام 2/ 175 وتفسير القرطبي 3/ 111.

— سميت سورتا البقرة وآل عمران بالزهرابين أي النيرتان، وقد وردت آثار في فضل السورتين وجليل مكانتهما عند الله، ففي الحديث أن اسم الله الأعظم يوجد فيهما في قوله تعالى في البقرة «والهكم الله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم» وفي آل عمران في قوله تعالى «الله لا اله الا هو الحي القيوم». انظر في فضل هذه السورة تفسير القرطبي 4/ 2.

— أما في مناسبة هذه السورة لما قبلها فقد أبدى صاحب المنار أوجها في ارتباطها بها منها : أن كلا من السورتين بدىء بذكر الكتاب وشأن الناس في الاهتداء به ففي الأولى ذكّل اصناف الناس من يؤمن به ومن لا يؤمن والمناسب في ذلك التقديم لانه كلام في اصل الدعوة وفي الثانية ذكر الرائيين الذين يتبعون ما تشابه من ابتغاء الفتنة وابتغاء تاويله. والراسخين في العلم الذين يؤمنون بمحكمه ومتشابهه، والمناسب فيه التأخير.

ومنها : أن كلا منهما قد حاج أهل الكتاب ولكن الأولى افاضت في محاجة اليهود واختصرت في محاجة النصارى، والثانية بالعكس، والنصارى متأخرون عن اليهود في الوجود وفي الخطاب بالدعوة الى الاسلام، فناسب ان تكون الافاضة في محاجتهم في الثانية.

ومنها : أن في كل منهما أحكاماً مشتركة كأحكام القتال ومن قابل بين هذه الأحكام رأى أن ما في الأولى أحق بالتقديم وما في الثانية أجدر بالتأخير.

ثانيها⁽⁶⁰⁾ الإشارة في صدر السورة أيضا إلى أن الصراط المستقيم/ قد بين شأنه لمن تقدم في كتبهم، وأن هذا (الكتاب)⁽⁶¹⁾ جاء مصدقا لها «نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس» (آل عمران : 3 — 4) ليبين لأمة محمد ﷺ، أن من تقدمهم قد بين لهم «وما كنا معذيين حتى نبعث رسولا»⁽⁶²⁾(الاسراء 15).

والثالثة⁽⁶³⁾ قصة عيسى عليه السلام، وابتداء أمره من غير أب والاعتبار به نظير الاعتبار بآدم عليه السلام، ولهذا أشار قوله تعالى : «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم (آل عمران : 59) كما اتبعت قصة آدم بذكر بني إسرائيل لوقوفهم من تلك القصة⁽⁶⁴⁾. على ما لم تكن العرب تعرفه وانذروا وحذروا، واتبعت (أيضا)⁽⁶⁵⁾ قصة عيسى عليه السلام⁽⁶⁶⁾ بذكر الحواريين وأمر النصارى إلى آية المباهلة حسبا نيسط بعد، ولنبين وجه الانفصال من صدر السورة فأقول مستعينا بالله. إن قوله سبحانه : نزل عليك الكتاب «بيان لحال الكتاب الذي هو هدى للمتقين ولما⁽⁶⁷⁾ بين افتراق الأمم بحسب السابقة إلى أصناف ثلاثة، وذكر من تعنيت بني

ومنها : الدعاء في آخر كل منهما، فالدعاء في الأولى يناسب بدء الدين لأن معظمه فيما يتعلق بالتكليف وطلب النصر على جاحدى الدعوة ومحاربي أهلها، وفي الثانية يناسب ما بعد ذلك لأنه يتضمن الكلام في قبول الدعوة وطلب الجزاء عليه في الآخرة.

ومنها : ما قاله بعضهم من ختم الثانية بما يناسب بدء الأولى كأنها متممة لها، ذلك أنه بدأ الأولى بآيات الفلاح للمتقين، وختم الثانية بقوله «واتقوا الله لعلكم تفلحون» تفسير القرآن الحكيم ج : 3 / 153.

(59) ب : أحدها.

(60) أ : ثم.

(61) أ : ساقطة.

(62) ب : سقط من قوله وأنزل التوراة الى قوله رسولا، ولعل هذا من تصرف البقاعي، لأنه أشعر بهذا في بداية كلامه عن هذه السورة بقوله، قال ابن الزبير ما حاصله، وهذا يعني أنه اختصر النص وتصرف فيه على غير عادته ومنهجه.

(63) ب : والثالث .

(64) ب : القصص.

(65) ب : ساقطة.

(66) ب : زيادة «يعني هنا» بين كلمتي «السلام» و «بذكر».

(67) أ : لما.

إسرائيل وتوقفهم ما تقدم، أخبر تعالى هنا أنه أنزل عليهم التوراة وأنزل بعده (68) الانجيل وأن كل ذلك هدى لمن وفق.

ثم أشار قوله تعالى : «إن الله لا يخفى عليه شيء» (آل عمران : 5) إلى ما تقدم (69) من تفصيل أخبارهم، فكان الكلام في قوة أن لو قيل أتخفى (70) عليه مرتكبات العباد وهو مصورهم في الأرحام والمطلع عليهم حيث لا يطلع عليهم غيره.

ثم لما بلغ الكلام هنا، كأن قد قيل فكيف طرأ عليهم مع وجود الكتاب فأخبر تعالى بشأن الكتاب، وأنه محكم ومتشابه (71) وكذا غيره من الكتب والله أعلم.

(68) ب : بعدها.

(69) ب : (اي في البقرة) زدت للتوضيح بين كلمتي «تقدم» و «من تفصيل».

(70) ب : أئخفى.

(71) لا بد من الإشارة هنا الى المحكم والمتشابه في النص القرآني لأن قوله تعالى في الآية (7) من سورة آل عمران «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات.... الآية» هي أم هذا الباب وأصله، وقد وقع في تحديد الآيات المحكمات والآيات المتشابهات التي بين الله عز وجل انها موجودة في النص المنزل خلاف بين العلماء تشعبت فيه آراؤهم وتعددت اقوالهم كثيرا وحاصلها ان المحكمات ما عرف تاويله وفهم معناه وتفسيره، والمتشابهات ما لم يكن لاحد الى علمها سبيل مما استأثر الله بعلمه دون خلقه، وذلك مثل وقت قيام الساعة، وخروج ياجوج وماجوج، والدجال، وعيسى ونحو الحروف المقطعة في اوائل السور، وهذا احسن ما قيل في المتشابه، كما قال القرطبي. وقال النحاس : احسن ما قيل في المحكمات والمتشابهات ان المحكمات ما كان قائما بنفسه ولا يحتاج ان يرجع فيه الى غيره، نحو : «لم يكن له كفوا أحد» «واني لغفار لمن تاب»، والمتشابهات نحو : «ان الله يغفر الذنوب جميعا» يرجع فيها الى قوله جل وعلا «واني غفار لمن تاب» «وقوله عز وجل» «ان الله لا يغفر ان يشرك به».

واستحسن ابن عطية قول محمد بن جعفر بن الزبير إذ قال : المحكمات هي التي فيهن حجة الرب وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل ليس لها تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه، والمتشابهات لهن تصريف وتحريف وتاويل ابتلى الله فيهن العباد، وهذا ما ارتآه مجاهد وابن اسحاق. انظر لباب هذا الموضوع في : المحرر الوجيز لابن عطية 3/ 15 وتفسير القرطبي : 2.2/ 10 والبرهان في علوم القرآن : 1/ 112 والاتقان في علوم القرآن 2/ 2. واشير الى ابرز مؤلفين في المتشابه وهما : «درة التنزيل وغرة التأويل» للخطيب الاسكافي ت : 385 هـ وملاك التأويل لابن الزبير صاحب هذا الكتاب ت : 708 هـ.

وللسيوطي أيضا كتاب في المتشابه سماه : «البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان» حققه الاستاذ عبد القادر احمد عطا ووضع له عنوانا مختصرا هو : «اسرار التكرار في القرآن».

فحال أهل التوفيق تحكيم المحكم، وحال أهل الزيغ المتشابه والتعلق به، وهذا بيان قوله : «يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا» (البقرة : 26) وكل هذا بيان لكون الكتاب العزيز أعظم فرقا وأوضح بيانا، إذ قد أوضح أحوال المختلفين، ومن أين أتى عليهم مع وجود الكتب، وفي أثناء ذلك تنبيه العباد على عجزهم، وعدم استبدادهم لئلا يغتر الغافل فيقول مع هذا البيان ووضوح الأمر/ لا طريق إلى تنكب الصراط، فنهوا حين علموا الدعاء من قوله «واياك نستعين».

ثم كرر تنبيههم لشدة الحاجة ليذكر هذا أبداً ففيه معظم البيان، ومنه ينشأ الشرك الأكبر، إذ اعتقاد الاستبداد بالأفعال إخراج لنصف الموجودات عن يد بارئها «والله خلقكم وما تعملون» (الصفات : 96)، فمن التنبيه «إن الذين كفروا» (البقرة : 6) ومنه «يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا» (البقرة : 26) ومنه «آمن الرسول» إلى خاتمها» (البقرة : الآيتان : 285 و 286).

هذا من جلي التنبيه ومحكمه، ومما يرجع إليه ويحز معناه بعد اعتباره «وإلهمكم إله واحد» (البقرة : 163) وقوله : «الله لا إله إلا هو الحي القيوم» (البقرة : 255)، فمن رأى الفعل أو بعضه لغيره تعالى حقيقة فقد قال بالهية غيره، ثم حذروا أشد التحذير لما بين لهم فقال تعالى : «إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد. (آل عمران : 4) ثم ارتبطت الآيات إلى آخرها.

سورة النساء (72)

لما تضمنت سورة البقرة ابتداء الخلق وإيجاد آدم عليه السلام من غير أب ولا أم، وأعقبت بسورة آل عمران لتضمنها مع ما ذكر في صدرها أمر عيسى عليه

(72) هذه السورة الكريمة مدنية لما أخرجه البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ. ومعلوم أن الرسول عليه السلام لم يبن بعائشة إلا بعد الهجرة، وزعم النحاس أنها مكية وهم بعيد واستدلال باطل. المنار 4/ 320، 321.

وسميت السورة بالنساء لأنها افتتحت بذكر النساء وبعض الأحكام المتعلقة بهن. ومن وجوه اتصالها بالتي قبلها — كما يرى ذلك الشيخ رشيد رضا — أن هذه افتتحت بمثل ما اختتمت به تلك من الأمر بالتقوى وهو ما يسمى في البديع بتشابه الاطراف، وهو وجه من أكد وجوه المناسبات في ترتيب السور.

السلام، وانه كمثل آدم في (عدم)⁽⁷³⁾ الافتقار إلى أب، وعلم الموقنون من ذلك أنه تعالى لو شاء لكانت سنة فيمن بعد آدم عليه السلام، (فكان سائر الحيوان لا يتوقف على أبوين، أو كان يكون)⁽⁷⁴⁾ عيسى عليه السلام لا يتوقف إلا على أم فقط، أعلم سبحانه أن من عدا المذكورين عليهم السلام من (ذرية)⁽⁷⁵⁾ آدم سبيلهم سبيل الأبوين⁽⁷⁶⁾ فقال تعالى : «يا أيها الناس اتقوا ربكم» إلى قوله : «ويث منها رجالا كثيرا ونساء» (آية : 1).

ثم أعلم⁽⁷⁷⁾ تعالى بكيفية⁽⁷⁸⁾ النكاح المجمعول سببا في التناسل وما يتعلق به، وبين حكم الأرحام والموارث، وتضمنت⁽⁸⁰⁾ السورة ابتداء الأمر وانتهاءه فاعلمنا بكيفية التناكح، وصورة الاعتصام واحترام بعضنا لبعض وكيفية تناول الإصلاح فيما بين الزوجين عند التشاجر والشقاق، وبين لنا ما ينكح (وما لا ينكح)⁽⁸¹⁾ وما أبيح من العدد، وحكم من لم يجد الطول وما يتعلق بهذا إلى الموارث، فصل ذلك كله، إلا⁽⁸²⁾ الطلاق لأن أحكامه (قد تقدمت، ولأن بناء هذه السورة على التواصل والائتلاف ورعي حقوق ذوي الأرحام)⁽⁸³⁾ وحفظ ذلك كله إلى حالة الموت

= ومنها : حاجة اهل الكتاب اليهود والنصارى، وذكر شيء عن المنافقين في كليهما، ومنها : ذكر احكام القتال في كل منهما، وان في هذه شيئا يتعلق بغزوة أحد التي فصلت وقائعها وحكمها واحكامها في آل عمران وهو قوله تعالى في هذه السورة «فما لكم في المنافقين فئتين... الآية» وكذا ذكر شيء يتعلق بغزو حمراء الأسد التي كانت بعد احد وسبق ذكرها في آل عمران، وذلك قوله تعالى في هذه السورة «و لا تنهوا في ابتغاء القوم». المنار : 4 / 321، 322.

(73) ب : ذلك. 1.1.

(74) ب : ساقطة.

(75) النسختين : ذريته ولعل ذرية آدم أوضح في فهم المعنى.

(76) في أ : أبوين.

(77) ب : أعلى.

(78) ب : كيفية.

(79) أ : تسببا.

(80) ب : فتضمنته.

(81) ب : ساقطة.

(82) ب : إلى.

(83) ب : ساقطة.

المكتوب علينا وناسب هذا المقصود (من) (84) التواصل والألفة ما افتتحت به السورة من قوله (تعالى) : «اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة» (85) وخلق منها زوجها» (آية : 1) بالائتمام والوصلة، (ولهذا خصت حكم تشاجر الزوجين بالاعلام بصورة الاصلاح والعدل إبقاء لذلك التواصل) (86)، فلم يكن الطلاق ليناسب هذا فلم يقع له هنا ذكر ولا إيماء (87) «وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته» (النساء 136) ولكثرة ما يعرض من رعي حظوظ النفوس عند الزوجية ومع القرابة ويدق ذلك (88) ويغمض، لذلك (ما) (89) تكرر كثيرا في هذه السورة الأمر بالاتقاء، وبه افتتحت «اتقوا ربكم» (آية : 1) «واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام» (آية : 1) «ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم ان اتقوا الله» (آية : 131) ثم حذروا من حال من صمم على الكفر، وحال اليهود والنصارى والمنافقين وذوي القلب في الأديان (بعدا عن) (90) اليقين، «وكل ذلك تأكيد لما أمروا به من الاتقاء، والتحمت الآيات إلى الختم بالكلالة من الموارث المتقدمة.

سورة المائدة (91)

لما بين تعالى حالة أهل الصراط المستقيم ومن تنكب عن نهجهم، ومآل الفريقين من المغضوب عليهم ولا الضالين، وبين لعباده المتقين ما فيه هداهم وبه خلاصهم أخذا وتركاً، وحصل طي ذلك الأسهم الثمانية الواردة في حديث

(84) . ب : ساقطة.

(85) . ب : واحدة الآية.

(86) . ساقطة من ب.

(87) . ب : الایماء.

(88) . أ : لذلك.

(89) يستقيم المعنى بدونها ولعلها مقحمة في النص.

(90) . ب : بعد اذن.

(91) . وتسمى أيضا سورة العقود لما اشتملت عليه من الفروع الحكيمة المتصلة بالحياة الاجتماعية نزلت في أوقات متفرقة كما تفيد ذلك نصوصها، وطابعها العام تفصيل الاحكام العملية والمعاملات الاجتماعية وما يحتاجه الناس من ذلك في سفرهم وحضرهم، ولهذا كانت عائشة رضي الله عنها تحض على قراءتها وتوصي بالعمل بأحكامها، فعن جبير بن

حذيفة⁽⁹²⁾ من قوله : (الاسلام ثمانية أسهم : الشهادة سهم، والصلاة سهم، والصوم سهم، والحج سهم، والجهاد سهم، والأمر بالمعروف سهم، وقد خاب من لا سهم له)،⁽⁹³⁾ وقال عليه السلام : بني الاسلام على خمس⁽⁹⁴⁾، وقد تحصلت⁽⁹⁵⁾ وتحصل مما تقدم أيضا أن أسوأ حال المخالفين حال من غضب الله عليه ولعنه، وإن ذلك ببغيم وعدوانهم ونقضهم العهود «فبا نقضهم ميثاقهم لعناهم»

نفي قال حججت فدخلت على عائشة فقالت يا جبير تقرأ المائدة ؟ فقلت نعم، فقالت اما انها آخر سورة نزلت فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه وما وجدتم من حرام فحرموه.
انظر مستدرک الحاكم : 2 / 311.

ووجه تقدم سورة النساء على المائدة ان الاحكام التي في سورة النساء وخاصة ما يتعلق بالمرأة والمرأة أهم في الحياة العملية واولى بالتقديم من الاحكام المذكورة في هذه السورة، ثم ان اتحاد وتلازم السورتين شبيه بتلازم البقرة وآل عمران، فتلك اتحدتا في تقرير الأصول من الوحدانية والنبوة ونحوهما، وهاتان في تقرير الفروع الحكيمة.
وقد ابدى بعض العلماء وجهها قويا لتناسب السور الاربع الطوال المتقدمة مع سورة الفاتحة خلاصته أن الفاتحة تضمنت الاقرار بالربوبية والاعتصام بدين الاسلام ومخالفة اليهودية والنصرانية، ثم جاءت البقرة فتضمنت قواعد الدين، وآل عمران مكملته لذلك المقصود، وكانت البقرة بمنزلة اقامة الدليل على الحكم وآل عمران بمنزلة دفع شبهات الخصوم، ولهذا ورد فيها ذكر المحكم والمتشابه، ثم ان ذكر اليهود ورد كثيرا في سورة البقرة وورد ذكر النصارى كثيرا في سورة آل عمران، وغير خاف أن التوراة أصل والانجيل فرع، ولهذا قدم خطاب اليهود على النصارى.

ثم جاءت سورة النساء فتضمنت أسباب الاحكام التي بين الناس واكملتها سورة المائدة، وبالكمال يكون تمام الدين والشرع، ولهذا ذكر في هذه السورة ما يختص بالشرعية المحمدية كالوضوء والتيمم وغيرها من الفروع، وعليه فهذه السورة تعتبر سورة التكميل لما قبلها، وفيها جاء قوله تعالى : «اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً» وتكرر فيها ذكر التمام والكمال لأن الشريعة المحمدية بها ختمت الشرائع وامت، فكان التناسب بين هذه السور الاربع المدنية في غاية الاحكام والالتزام. انظر تفسير المنار 117/ 6 وجواهر البيان ص : 25.

(92) . هو حذيفة بن اليمان واسم اليمان حسيل ويقال حسيل العبسي حليف الانصار صحابي جليل من السابقين الاولين للاسلام، اخرج عنه مسلم ان رسول الله ﷺ اعلمه بما كان وما يكون الى قيام الساعة، ولهذا يقال له صاحب سر رسول الله ﷺ، وأبوه صحابي استشهد بأحد، مات حذيفة في أول خلافة علي رضي الله عنه سنة 36هـ، انظر الاصابة : 1 / 317، تهذيب الاسماء : 1 / 153 والاستيعاب 1 / 227، وحلية الأولياء : 1 / 270.

(93) انظر مسند الطيالسي حديث رقم 413.

(94) وتام الحديث (شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله، واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت) اخرجه البخاري ومسلم وغيرهما، من حديث ابن عمر وقد جاء من حديث غير واحد من الصحابة، وانظر في تخرجه والكلام عليه : جامع العلوم والحكم. ص : 40.

(95) زيد في (ب) للتوضيح : اى الاسهم الثمانية والدعائم الخمس فيما مضى «بين كلمتي» «تحصلت» و «وتحصل»

(آية : 13) وكان النقض كل مخالفة، قال الله تعالى : لعباده المؤمنين : «ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود» (آية : 1) لأن اليهود والنصارى إنما أتى عليهم من عدم الوفاء ونقض العهود فحذر المؤمنين.

ولهذا الغرض والله أعلم⁽⁹⁶⁾ ذكر هنا العهد المشار إليه في قوله تعالى : «وأوفوا بعهدي» (البقرة : 40) فقال تعالى : «(ولقد أخذ)⁽⁹⁷⁾ الله ميثاق بني إسرائيل» إلى قوله : «فقد ضل سواء السبيل» (المائدة : 12).

ثم بين نقضهم وبني اللعنة وكل محنة ابتلوا بها عليه فقال : «فبما نقضهم ميثاقهم» (آية : 13) وذكر تعالى عهد الآخرين فقال : «ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم.... الآية (آية : 14)، ثم فصل تعالى للمؤمنين أفعال الفريقين ليتبين لهم فيما نقضوا (فيه من ادعائهم في المسيح ما ادعوا، وقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه، وكفهم عن فتح الأرض المقدسة، وإسرافهم في القتل وغيره، وتغييرهم أحكام التوراة إلى غير ذلك مما ذكره في أحكام هذه السورة⁽⁹⁸⁾) ثم بين تفاوتهم في البعد عن الاستجابة فقال تعالى : «لتجدن أشد الناس عداوة.... الآية (آية : 82) ثم نصح عباده وبين لهم أبوابا منها دخول الامتحان، وهي سبب في كل ابتلاء فقال تعالى : «لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا» (آية : 89).

واعقب ذلك بقوله : «يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام... الآية» (آية : 90) ثم قال تعالى : «جعل الله الكعبة البيت الحرام... الآية (آية : 97) فنبه على سوء العاقبة في تتبع البحث عن التعليل، وطلب الوقوف على ما لعله استأثر الله بعلمه، ومن هذا الباب أتى على بني إسرائيل في أمر البقرة وغير ذلك، وجعل هذا التنبيه إيماء، ثم أعقبه بما يفسره «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم» (آية : 101) ووعظهم بحال غيرهم في

(96) ب : زيادة «اي غرض التحذير من نقض العهد» بين كلمتي «أعلم» و «ذكر».

(97) أ : «واذا أخذ» وهو خطأ.

(98) ساقطة من أ.

هذا، وانهم سألوا فخيروا ثم امتحنوا، وقد كان التسليم أولى لهم فقال تعالى : «قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين» (آية : 102) ثم عرف عباده أنهم إذا استقاموا فلن يضرهم خذلان غيرهم «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم» (آية : 105) فلما طلب تعالى المؤمنين بالوفاء فيما نقض فيه غيرهم وذكرهم ببعض ما وقع فيه النقض، وما أعقب ذلك فاعله، وأعلمهم بشمرة التزام التسليم والامثال أراهم جل وتعالى ثمرة الوفاء وعاقبته فقال تعالى : «وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس» إلى قوله تعالى «هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم» إلى آخر السورة (116 — 120).

فحصل من جملتها الأمر بالوفاء فيما تقدمها وحال من حاد ونقض، وعاقبة من وفى وانهم الصادقون، وقد أمرنا أن نكون معهم «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين» (التوبة : 119).

سورة الأنعام⁽⁹⁹⁾

لما بين سبحانه وتعالى لعباده حال المتقين وهو الصراط المستقيم وأوضح تعالى ما يحذرون من جانبي الأخذ والترك، وبين حال من تنكب عنه ممن كان قد يلحقه

(99) هذه السورة في جملتها مكية وهي أول سورة على هذا الترتيب في القرآن المكي إذا ما استثنينا الفاتحة، وقد جاء في الحديث من عدة طرق أنها نزلت دفعة واحدة شيعها موكب من الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتحميد. انظر الدر المنثور 2/ 3، وتفسير المنار : 7 / 283—287.

ومن أوجه التناسب بين هذه السورة وسابقتها ما أشار إليه السيد رشيد رضا في تفسيره اذ يقول : لما كان أمر العقائد هو الأهم المقدم في الدين، وكان شأن أهل الكتاب فيه أعظم من شأن المشركين، قدمت السور المشتملة على محاجتهم بالتفصيل (وهي البقرة، آل عمران، النساء، المائدة)، وناسب ان يجيء بعدها ما فيه محاجة للمشركين بالتفصيل وتلك سورة الانعام لم تستوف سورة مثلها لشرح ما في سورة البقرة، ما يتعلق بالعقائد وجاءت سورة الاعراف بعدها متممة لما فيها ومبينة لسنن الله تعالى في الانبياء المرسلين وشؤون اممهم معهم وهي حجة على المشركين وأهل الكتاب جميعا، ولكن سورة الانعام فصلت الكلام في ابراهيم الذي ينتمي اليه العرب وأهل الكتاب في النسب والدين وسورة الاعراف فصلت الكلام في موسى الذي ينتمي اليه أهل الكتاب ويتبع شريعته حتى عيسى عليهم الصلاة والسلام.

ولما تم بهذه الصورة تفصيل ما أجمل في سورة البقرة من العقائد في الالهيات والنبوات والبعث ناسب ان يذكر بعدها ما يتم ما أجمل فيها من الاحكام ولا سيما احكام القتال والمنافقين — وكان قد فصل بعض التفصيل في سورة النساء — فكانت سورة الانفال والتوبة هما المصطلتين لذلك وهما يتم ثلث القرآن.

وهم اليهود والنصارى وكونهم لم يلتزموا الوفاء، وحادوا⁽¹⁰⁰⁾ عما أنهج لهم، وانقضى أمر الفريقين ذما لحالهم وبياناً لنقضهم وتحذيراً للمتقين أن يصيبهم ما أصابهم، وختم ذلك ببيان حال المؤمنين في القيامة «يوم ينفع الصادقين صدقهم» (المائدة : 119).

وقد كان انجبر مع ذلك ذكر مشركي العرب وصممهم عن الداعي، وعماهم عن الآيات فكانوا أشبه بالبهائم منهم بالأناسي، أعقب ذلك تعالى بالإشارة إلى طائفة أومأت إلى النظر والاعتبار، فلم توفق لأصابة الحق، وقصرت عن الاستضاءة بأنوار الهدى وليسوا ممن يرجع إلى شريعة قد حرفت وغيرت، بل هم في صورة من هم أن يهتدى بهدى الفطرة، ويستدل بما بسط الله تعالى في المخلوقات، فلم يمعن النظر ولم يوفق فضل وهم المجوس وسائر الثنوية⁽¹⁰¹⁾ ممن كان قصارى أمره نسبة الفعل إلى النور والاضلام ولم يكن تقدم لهؤلاء ذكر ولا أخبار بحال فقال تعالى : «الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور» (آية : 1). فبدأ تعالى بذكر خلق السموات والأرض التي عنها أوجد⁽¹⁰²⁾

= كما أوضح السيد رشيد رضا بأن ركن المناسبة الأعظم بين سورتي المائدة والانعام ان المائدة معظمها في حاجة أهل الكتاب ، والانعام معظمها بل كلها في حاجة المشركين، ومن التناسب بينهما في الاحكام أن سورة الانعام قد ذكرت احكام اطعمة المحرمة في دين الله والذبايح بالاجمال وسورة المائدة ذكرت ذلك بالتفصيل، وهي قد نزلت أخيراً كما هو معلوم، ومن التفصيل في هذه المسألة ما في سورة الانعام من الكلام على محرمات الطعام عند المشركين وما في المائدة من الكلام على طعام أهل الكتاب. تفسير المنار : 288، 289/ 7.

(100) . أ : وجادلوا.

(101) . الثنوية أخص من المجوسية وهي شعبة منها وسموا ثنوية لأنهم أثبتوا أصليين اثنين مدبرين قديمين يقتسمان الخير والشر والنفع والضرر والصلاح والفساد يسمون احدهما النور والآخر الظلمة وبالفارسية يزدن وأهرمن.

وسائر المجوس زعموا أن الاصليين لا يجوز ان يكونا قديمين ازليين بل النور أزلي والظلمة محدثة، ويزعمون ان الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة، وبعامتهم ينتسبون الى الديانة الزرادشتية، وقد انتهت المجوسية ظاهراً بعد ان تم فتح بلاد فارس ولكنها اتخذت أشكالاً سرية واثرت الى حد ما في الفكر الاسلامي في العصر العباسي.

وتجدر الإشارة الى ان الصحابة سنوا بهم في أخذ الجزية سنة أهل الكتاب. انظر الملل والنحل للشهرستاني 2/ 70 وما بعدها، والنهاية في غريب الحديث 4/ 299.

(102) . ب : وجد.

النور والظلمة، إذ الظلمة ظلال هذه الاجرام، والنور عن أجرام نيرة محمولة فيها (وهي الشمس)،⁽¹⁰³⁾ والقمر والنجوم، فكأن الكلام في قوة : الحمد لله الذي أوضح الأمر لمن اعتبر واستبصر فعلم أن وجود النور والظلمة متوقف بحكم السببية التي شاءها تعالى على وجود أجرام السموات والأرض وما أودع فيها، ومع بيان الأمر في ذلك حاد عنه من عمي عن الاستبصار «ثم الذين كفروا ببرهم يعدلون» (آية 1) وقوله تعالى : «هو الذي خلقكم من طين» (آية : 2) مما يزيد هذا المعنى وضوحاً فإنه تعالى ذكر أصلنا والمادة التي عنها أوجدنا كما ذكر للنور والظلمة ما هو كالمادة وهو وجود السموات والأرض وأشعر لفظ «جعل» بتوقف الوجود بحسب المشيئة على ما ذكر فكأن⁽¹⁰⁴⁾ قد قيل : أي فرق (بين)⁽¹⁰⁵⁾ وجود النور والظلمة عن⁽¹⁰⁶⁾ وجود السموات والأرض وبين وجودكم عن الطين حتى يقع امتراء فتدعى نسبة اليجاد إلى النور والظلمة ؟ وهما لم يوجد إلا بعد مادة أو سبب كما طرأ في إيجادكم، فالأمر في ذلك أوضح شيء ثم أنتم تمترون.

ثم مرت السورة من أولها إلى آخرها منبهة على بسط الدلالات في الموجودات مع التنبيه على أن ذلك لا يصل إلى استثمار فائدته إلا من هيء بحسب السابقة. فقال «إنما يستجيب الذين يسمعون» (آية 36) ثم قال (تعالى)⁽¹⁰⁷⁾ «والموتى يعثهم الله» (آية : 36) وهو والله أعلم من نمط «أو من كان ميتاً فأحييناه» (آية : 122) أجمل هنا، ثم فسر⁽¹⁰⁸⁾ بعد في السورة بعينها، والمراد أن من الخلق من جعله الله سامعاً مستيقظاً معتبراً بأول وهلة، وقد أرى المثال سبحانه وتعالى من ذلك في قصة إبراهيم عليه السلام في قوله «وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض» (آية : 75) فكأنه يقول لعباده المتقين تعالوا فانهجوا طريق الاعتبار ملة

(103) . ب : ساقطة.

(104) . ب : وكان.

(105) . ب : ساقطة.

(106) . ب : ممن.

(107) . ساقطة من : ب .

(108) . ب : نشر.

أييكم إبراهيم، كيف نظر عليه السلام نظر السامع المتيقظ فلم يعرج في أول نظرة على ما سبب وجوده بين فيحتاج فيه إلى فرض (ما فرض)⁽¹⁰⁹⁾ في الكوكب والقمر والشمس، بل نظر فيما عنده صدور النور لا في النور «فلما جن عليه الليل رأى كوكبا» (آية : 76) فتأمل كونه عليه السلام لم يطول النظر بالتفات النور، ثم كان يرجع إلى اعتبار الجرم الذي عنه⁽¹¹⁵⁾ النور، بل لما رأى النور اجرام سماوية تأمل تلك⁽¹¹¹⁾ الاجرام وما قام بها من الصفات فرأى الافول والطلوع والانتقال فقال هذا لا يليق بالربوبية لأنها صفات حدوث، ثم رقى⁽¹¹²⁾ النظر إلى القمر والشمس فرأى ذلك الحكم جاريا فيهما، فحكم بأن وراءها مدبرا لها يتنزه عن الانتقال والغيبة والافول فقال : «إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض» (آية : 79) وخص عليه السلام ذكر هذين لحملهما أجرام النور وسببتهما في وجود الظلمة، ثم تأمل هذا النظر منه عليه السلام، وكيف خص بالاعتبار أشرف/ الوجودين واعلاهما فكان في ذلك وجهان من الحكمة.

أحدهما علو النظر ونفوذ البصيرة في اعتبار الأشرف الذي إذا بان فيه⁽¹¹³⁾ الأمر فهو فيما سواه أبين، فجمع بين قرب التناول وعلو التهدي.

والوجه الثاني : التناسب بين حال الناظر والمنظور فيه، والتفاوت⁽¹¹⁴⁾ والجري على الفطرة العلية، وهو من قبيل أخذ نبينا عليه السلام⁽¹¹⁵⁾ اللبن حين عرض عليه اللبن والخمر، فاختر اللبن فليل له اخترت الفطرة، فكان قد قيل : هذا النظر والاعتبار بالهام لا نظر من أخلد إلى الأرض فبعد الضياء والظلام.

(109) . ب : ساقطة.

(110) . ب : عند.

(111) . أ : ذلك.

(112) . أ : رمى.

(113) . ب : منه.

(114) . ب : والتناول

(115) . ب : صلى الله عليه وسلم.

وينبغي أن يعتمد في قصة إبراهيم عليه السلام في هذا الاعتبار أنه ﷺ في قوله : « هذا ربي » (آية : 78) إنما (قصد) (116) قطع حجة من عبد شيئاً من ذلك، إذ كان دين قومه، فبسط لهم الاعتبار والدلالة، وأخذ بعرض ما قد تنزه (117) قدره عن الميل إليه، فهو كما يقول المناظر لمن يناظره هب أن هذا على ما تقول يريد بذلك إذعان خصمه (وساتدناؤه) (118) للاعتبار حتى يكون غير (منافر له) (119) فيسلم له ما لا يعتقد له ليبي على ذلك مقصوده ليقع خصمه وهو على يقين من أمره. فهذا ما ينبغي أن يعتمد هنا لقول يوسف عليه السلام « ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء » (يوسف : 38) فالعصمة قد اكتنفتهم عما يتوهمه المبطلون ويتقوله المفترون (120)، ويشهد لما قلناه قوله تعالى : « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه » (آية : 83)، فهذه حال من علت درجته من الذين يسمعون، فمن الخلق من جعله الله سامعاً بأول وهلة، وهذا مثال شاف في ذلك، ومنهم الميت، والموتى على ضربين (121) منهم من يزاح ضربين (121) عمه، ومنهم من يبقى في ظلماته ميتاً لا حراك به يبين ذلك قوله تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الأرض كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » (آية : 123).

(116) . ب : ساقطة.

(117) . ب : نزّه.

(118) . ب : استدعاء.

(119) . ب : مناظر له.

(120) . العصمة للرسول : قال أبو منصور عبد القاهر البغدادي : أجمع أصحابنا على وجوب كون الأنبياء معصومين بعد النبوة عن الذنوب كلها وأما السهو والخطأ فليس من الذنوب، فلذلك ساغ وقوعهما منهم، وقد سها نبينا عليه الصلاة والسلام في صلاته انظر أصول الدين ص : 168.

وقال القاضي عياض في الشفا : 2 / 117 واعلم ان الامة مجمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان وكفايته منه لا في جسمه بأنواع الأذى ولا على خاطره بالوسواس. وقال في ص : 147، وقد اختلف في عصمتهم من المعاصي قبل النبوة فمنعها قوم واجازها آخرون. والصحيح ان شاء الله تنزيههم من كل عيب وعصمتهم من كل ما يوجب الريب. وقال ابن حزم في الفصل : 2 / 4، وذهبت جميع فرق أهل أهل الاسلام من أهل السنة والمعتزلة والخوارج والشيعة الى أنه لا يجوز البتة أن يقع من النبي أصلاً معصية بعدم لا صغيرة ولا كبيرة، وهذا الذي ندين الله تعالى به ولا يحل لأحد ان يدين بسواه.

(121) . ب : جزأين.

(122) . ب : ساقطة.

(123) . أ : أو من كان ميتاً فأحييناه « الى قوله » في الظلمات ليس بخارج منها :

ولما كانت السورة مضمنة جهات الاعتبار ومحركة إلى النظر ومعلنة من مجموع آياتها أن المعتبر والمتأمل وإن لم يكن متيقظاً بأول وهلة، ولا سامعاً أول محرك ولا مستجيباً لأول سامع قد⁽¹²⁴⁾ قد تنقل حاله عن جموده وغفلته إلى أن يسمع ويلحق بمن كان تيقظ⁽¹²⁵⁾ في أول وهلة، ناسب تحريك العباد وأمرهم بالنظر أن تقع الإشارة في صدر السورة إلى حالتين : حالة السامعين لأول وهلة، وحالة السامعين في ثاني حال فقيل : «إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يعثهم الله» (آية : 36).

ولم تقع هنا إشارة إلى القسم الثالث مع العلم به وهو الباقي على هموده وموته ممن لم يحركه زاجر ولا واعظ ولا اعتبار، وكان هذا الضرب لو ذكر هنا لكان فيه ما يُكسل من ضعفته همته ورجعت حاله ابتدائية، فقيل «والموتى يعثهم الله» وأطلق القول ليعمل الكل على هذا البعث من الجهل والتيقظ من سنة الغفلة، كما دعي الكل إلى الله دعاء واحداً فقيل : «ياأيها الناس اعبدوا ربكم» (البقرة : 21) ثم اختلفوا في إجابة الداعي بحسب السوابق هكذا ورد في هذا «والموتى يعثهم الله» اسماعاً للكل، وفي صورة التساوي مناسبة للدعاء لتقوم الحجة على العباد، حتى إذا انبسطت الدلائل وانشرحت الصدور لتلقيها، وتشبثت النفوس وتعلقت بحسب ما قدر، وفاز بالخير أهله قال تعالى بعد آي «أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس» (آية : 122) وكان قد قيل (لمن)⁽¹²⁶⁾ انتقل عن حالة الموت فرأى قدر نعمة الله عليه بإحيائه هل تشبه الآن حالك النيرة⁽¹²⁷⁾ بما منحت حين اعتبرت (بحالك)⁽¹²⁸⁾ الجمادية فاشكر ربك، واضرع إليه في طلب الزيادة، (واتعظ)⁽¹²⁹⁾ بحال من لزم حال موته، فلم تغن عنه الآيات وهو المشار إليه بقوله : «كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها» (آية : 122) «إنا جعلنا على قلوبهم

(124) . ب : ينتقل.

(125) . ب : يتيقظ.

(126) . ب : ساقطة.

(127) . ب : التنزه

(128) . ب : لحالك.

(129) . ب : والنقص.

أكنة أن يفقهوه» (الكهف : 57) «ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله» (الأنعام : 111) «سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم» (البقرة : 6)، وكان القسم المتقدم الذي سمع لأول وهلة لم يكن ليوقع ذكره هنا من جهة قصد إراءة قدر هذه النعمة، وإنقاذ المتصف بها من حيرة شكه (موقعها)⁽¹³⁰⁾ فيما تقدم من قوله : «إنما يستجيب الذين يسمعون» (آية : 36) فذكر هنا ما هو واقع في إراءة قدر نعمة الانقاذ والتخليص من عمى الجهل، وهذا حال من انتقل بتوفيق ربه⁽¹³¹⁾ وحال من بقي على موته، أو يكون الضربان/ قد شملها قوله : «أو من كان ميتا فأحييناه» (آية : 122).

وأما الثاني وهو الذي (تبينت)⁽¹³²⁾ فيه صورة النقل فأمره صريح من الآية وأما الضرب الأول وهو السامع لأول وهلة المكفي المؤنة (بواق)⁽¹³³⁾ العصمة من طوارق الجهل والشكوك فدخوله (تحت)⁽¹³⁴⁾ مقتضى هذا اللفظ من حيث أن وقايتة تلك أو سماعه بأول وهلة ليس من جهته ولا بما (هو)⁽¹³⁵⁾ إنسان أو مكلف، بل باسداء الرحمة وتقديم النعمة ولو أبقاه لنفسه (ووكله)⁽¹³⁶⁾ إليها لم يكن كذلك، «وما بكم من نعمة فمن الله» (النحل : 53) فهذا النظر قد تكون الآية قد شملت الضروب الثلاثة وهو أولى.

أما سقوط الضرب الثالث من قوله : «إنما يستجيب الذين يسمعون» فلما قدم والله أعلم بما أراد.

(130) . في ب : موقعها.

(131) . في ب : الله.

(132) . ب : بينت.

(133) . ب : لواقي.

(134) . ب : ساقطة.

(135) . ب : ساقطة.

(136) . ب : وكله.

ولما تضمنت هذه السورة الكريمة من بسط الاعتبار وإبداء جهات النظر ما إذا تأمله المتأمل علم أن حجة الله قائمة على العباد، وأن إرساله الرسل رحمة ونعمة وفضل وإحسان، وإذا كانت الدلالات مبسطة والموجودات شاهدة مفصحة، ودلالة النظر من سمع وإبصار وأفئدة موجودة، فكيف يتوقف عاقل في عظيم رحمته تعالى بإرسال الرسل، فتأكدت الحجة وتعاضدت البراهين.

فلما عرف الخلق (بقيام) (137) الحجة عليهم بطريقي الاصغاء إلى الداعي والاعتبار بالصنعة قال (الله) (138) تعالى : «قل فله الحجة البالغة» (آية 149) «فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة» (آية : 157) (فما) (139) عذر المعتذر بعد هذا أتريدون كشف الغطاء ورؤية الأمر عيانا، لو استبصرتم لحصل لكم ما منحتم «هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك». (الآية : 158)، ثم ختمت السورة من التسليم والتفويض بما يجدي مع قوله : «فلو شاء لهداكم أجمعين» (آية : 149) وحصل من السور الأربع بيان أهل الصراط المستقيم وطبقاتهم في سلوكهم وما ينبغي لهم التزامه أو تركه وبيان حال المتنكبين عن سلوكه من اليهود والنصارى وعبداء الأوثان والمجوس.

سورة الأعراف (140)

لما قال تعالى ابعداء بالاعتبار «ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض / ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحته

(137) . ب : لقيام.

(138) . ب : ساقطة.

(139) . ب : فيما.

(140) . سورة الأعراف مكية بالاجماع وهي أطول من سورة الأنعام، فلو كان ترتيب السبع الطوال مراعى فيه تقديم الأطول فالأطول مطلقا لقدمت الأعراف على الأنعام، على أنه وقد روى أنها نزلت قبلها والظاهر أنها نزلت دفعة واحدة مثلها، فلم يبق وجه لتقديم الأنعام إلا أنها أجمع لما تشترك السورتان فيه وهو أصول العقائد وكلليات الدين كما سبقت الإشارة إلى ذلك في السورة السابقة.

وإذا كانت سورة الأنعام لبيان الخلق فيها «هو الذي خلقكم من طين» وقال في بيان القرون «كم أهلكنا من قبلهم من قرن»، وأشار فيها إلى ذكر المرسلين وتعداد كثير منهم وكانت الأمور الثلاثة على وجه الإجمال لا التفصيل، ذكرت هذه السورة عقبها لأنها مشتملة على شرح الأمور الثلاثة وتفصيلها.

فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين» (الأنعام : 6) ثم قال تعالى : «ولقد استهزئ برسلك من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون» (الأنعام : 10) ثم قال تعالى : «قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين» (الأنعام : 11) ثم قال تعالى : «ولقد كذب رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا.... الآية» (الأنعام : 36) وقال تعالى : «ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء..... الآية» (الأنعام : 42) وقال تعالى : «يا معشر الجن والإنس ألم ياتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي» (الأنعام : 130) فوقعت الاحالة في هذه الآي على الاعتبار بالأمم السالفة وما كان منهم حين كذبوا أنبياءهم (وهلاك تلك) (141) القرون بتكذيبهم وعتوهم وتسليية رسول الله ﷺ وسلم يجران ما جرى له (لمن) (142) تقدمه من الرسل «قد نعلم أنه (ليحزنك)» (143) الذي يقولون» (الأنعام : 33) فاستدعت الاحالة والتسليية بسط أخبار الأمم السالفة وهلاك تلك القرون الماضية، والاعلام بصبر الرسل عليهم السلام وتلطفهم في دعائهم ولم يقع في السور الأربع قبل سورة الأنعام مثل هذه الاحالة والتسليية، وقد تكررت في سورة الأنعام كما تبين بعد انقضاء ما قصد من بيان طريق المتقين أخذا وتركاً وحال من حاد عن سننهم ممن رامه أو قصده فلم يوفق له، ولا تم له أمل من (الفريقين) (144) المستندين للسمع والمعتمدين للنظر، فحاد الأولون بطاريء التغيير والتبديل وتنكب الآخرون سوء (التأويل) (145) وقصور الافهام، وعلة حيد الفريقين السابقة الأزلية (146).

وايضاً لما قال تعالى في آخر سورة الانعام «وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه»، ناسب ذلك افتتاح هذه السورة بالحث على اتباع الكتاب بقوله : «كتاب انزل اليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين، اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء» (2-3) : كما أن السورة ختمت بالامر بالاستماع الى القرآن «واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون» فتناسب المطلع والمقطع. انظر تفسير المنار : 8/ 294، 295 وتناسب الدرر : 101، وجواهر البيان : 32.

(141) . ب : ساقطة.

(142) . أ : بمن.

(143) . ب : لحزنك.

(144) . ب : الفريقين.

(145) . أ : التناول.

(146) . ب : الاولى.

فلما انقضى⁽¹⁴⁷⁾ أمر هؤلاء وصرف الخطاب إلى تسليته عليه السلام وتثبيت فؤاده بذكر (أحوال)⁽¹⁴⁸⁾ الأنبياء مع أممهم، وأمر الخلق بالاعتبار بالأمم السالفة، وقد كان قدم لرسوله عليه السلام⁽¹⁴⁹⁾ عند ذكر الأنبياء «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده» (الأنعام : 90) بسط تعالى حال من وقعت الاحالة عليه واستوفى الكثير من قصصهم إلى آخر سورة هود وإلى قوله سبحانه «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك» (هود : 128).

فتأمل بما افتتحت السور المقصود بها قصص الأمم وبما اختتمت يلوح لك ما أشرت إليه والله أعلم بمراده، وتأمل⁽¹⁵⁰⁾ افتتاح سورة الأعراف بقوله «فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين» (الأعراف : 7) وختم القصص فيها بقوله : «فاقص القصص لعلهم يتفكرون» (الأعراف : 176) بعد تعقيب قصص بني إسرائيل بقصة بلعام⁽¹⁵¹⁾ «واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها... الآية» (الأعراف : 175) ثم قال : «ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا» (الأعراف : 176).

(147) . أ : انقض.

(148) . ساقطة من : أ.

(149) . ب : لرسول الله ﷺ.

(150) . أ : فتأمل.

(151) . لقد اختلف المفسرون في تعيين هذا الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها على أقوال عديدة ارجحها انه رجل من بني اسرائيل سمته النصوص الواردة «بلعم» أو «بلعام» ابن باعوراء أو ابن آجر، وكان في زمن موسى أو بعده، وقد تفضل الله عليه باجابة الدعاء، فبعث الى ملك مدين يدعوه الى الايمان فأعطاه واقطعه فاتبع دينه وترك دين موسى، فهذا هو الانسلاخ من آيات الله والارتداد الى الكفر والشرك، ويشبهه في العرب أمية ابن أبي الصلت الثقفي وكان قد قرأ الكتب وساح في الارض وعلم أن رسولا سيبعثه الله في ذك الوقت، وتنى أن يكون ذلك الرسول، فلما اصطفى الله محمدا ﷺ حسده وكفر به مع اعترافه لقريش بصدق نبوته ومات على كفره بالطائف، ويشبهه كذلك أبو عامر ابن صيفي وكان يلبس المسوح في الجاهلية فلما دخل النبي ﷺ المدينة قال : يا محمد ما هذا الذي جئت به ؟ قال جئت بالحنيفية دين ابراهيم، قال : فاني عليها، فقال النبي ﷺ لست عليها، لأنك أدخلت عليها ما ليس منها، فقال أبو عامر : أمات الله الكاذب طريدا وحيدا، فقال له النبي ﷺ أمات الله الكاذب كذلك، فخرج الى قيصر واتصل بالمنافقين وعاد بعد بدر في أحد ومات حقيرا ذليلا غير مأسوف عليه وحقق الله الدعوة فيه.

وهذا المثل الذي ضربه الله عز وجل خالد الى قيام الساعة ينطبق على كل من يعرف الحق وينكص عنه، أو يتنبدى الى الاسلام ثم يتركه الى متاع من الدنيا زهيد، فمثله كمثل الكلب دائم اللهاث مستمر التعب وعدم الاستقرار. انظر تفسير ابن كثير : 3/ 250، الدر المنثور : 3/ 145، تفسير القرطبي : 7/ 319.

(وتأمل (152) هذا الايماء بعد ذكر القصص وكيف الحق من كذب رسول الله ﷺ من العرب وغيرهم (ممن) (153) قص ذكره من المكذبين، وتأمل (إفتتاح (154) ذكر الأشقياء بقصة إبليس وختمها بقصة بلعام وكلاهما ممن كفر على علم، وفي ذلك أعظم موعظة، قال الله تعالى اثر ذلك «من يهد الله فهو المهتدى... الآية» (الأعراف: 178) (فبدأ) (155) الاستجابة لنبيه بذكر ما أنعم به عليه وعلى من استجاب له فقال تعالى: «المص كتاب أنزل إليك» آية: 1-2) فأشار إلى نعمته بإنزال الكتاب الذي جعله هدى للمتقين، وأشار هنا إلى ما يحمله (على) (156) التسلية وشرح الصدور بما حوى (157) من العجائب والقصص مع كونه هدى ونورا فقال «فلا يكن في صدرك حرج منه» أي أنه قد تضمن مما احلناك عليه ما يرفع الحرج ويسلي النفوس لتتذكر به كما أنذر من قبلك ممن نقص خبره من الرسل ولتستن في إنذارك ودعائك وصبرك بسنتهم ولتذكر المومنون.

ثم أمر عباده بالاتباع لما أنزله فقال: «اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم» (آية: 3) فإن هلاك من نقص عليكم خبره من الأمم إنما كان لعدم الاتباع والركون إلى أوليائهم من شياطين الجن والانس، ثم اتبع (تعالى) (158) ذلك بقصة آدم عليه السلام ليتبين لعباده ما جرت (به) (159) سنته فيهم من تسلط الشيطان وكيدته وانه عدو لهم «يابني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة» (آية: 27) ووقع في قصة آدم هنا ما لم يقع في قصة البقرة من بسط ما أجمل هناك، كتصريح اللعين بالحسد، وتصور خيريته (بخلقه من النار وطلبه) (160)

(152) . أ : فتأمل.

(153) . ب : بمن.

(154) . ب : ساقطة.

(155) . ب : قيد

(156) . أ : من.

(157) . ب : جرى.

(158) . ب : ساقطة.

(159) . ب : ساقطة.

(160) . ب : لخلقه من النار وطلبه.

الانظار والتسلط على / ذرية آدم والأذن له في ذلك ووعيده ووعيد متبعيه، ثم أخذه في الوسوسة إلى آدم عليه السلام، وحلفه له «وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين» (آية : 21)، وكل هذا مما أجمل في سورة البقرة، ولم تتكرر قصة إلا وهذا شأنها أعني أنها تفيد مهما (161) تكررت ما لم يكن حصل منها أولا، ثم انجرت الآي إلى ابتداء قصة (نوح عليه السلام) (162) واستمرت القصص إلى قصص بني إسرائيل، فبسط هنا من حالهم وأخبارهم شبيه ما بسط في قصة آدم وما جرى من محنة إبليس، وفصل هنا الكثير، وذكر ما لم يذكر في (سورة) (163) البقرة حتى لم يتكرر بالحقيقة ولا التعرض لقصص طائفة معينة فقط.

ومن عجيب الحكمة أن الواقع في السورتين من كلا القصتين مستقل شاف وإذا ضم بعض ذلك إلى بعض ارتفع إجماله، ووضح كماله، فتبارك من هذا كلامه، ومن جعله حجة قاطعة وآية باهرة.

ولما اعقب تعالى قصصهم في البقرة بأمره نبيه والمومنين بالعفو والصفح فقال تعالى : «فاعفوا واصفحوا» (آية : 109) اعقبه تعالى (أيضا) (164) هنا بقوله لنبيه (عليه الصلاة والسلام) (165) خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين» (آية : 199) وقد خرجنا عن المقصود فلنرجع إليه.

سورة الأنفال (166).

لما قص سبحانه على نبيه عليه السلام في سورة الأعراف أخبار الأمم وقطع المومنين من مجموع ذلك بأنه لا يكون الهدى إلا بسابقة السعادة لافتتاح السورة

(161) . ب : فيما.

(162) . ساقطة من : أ.

(163) . ساقطة من : ب .

(164) . ساقطة من : أ.

(165) . ساقطة من : أ.

(166) . سورة الانفال مدنية كلها كما روى عن الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وعطاء وعبد الله ابن الزبير وزيد بن ثابت،

وقال ابن عباس انها نزلت في بدر، وفي لفظ: تلك سورة بدر، وقيل ان قوله تعالى «يا أيها النبي حسبك الله ومن

اتبعك من المومنين» التي نزلت لما اسلم عمر، وقوله تعالى «واذ يمكر بك الذين كفروا» التي نزلت قبل الهجرة

=
فهما مكيتان. وإذا تخللت السورة بعض آيات عن حال كفار مكة ومكرهم برسول الله ﷺ فإن ذلك لا يقتضي نزولها في مكة، بل ورود مثل هذه الآيات غاية تذكير رسول الله ﷺ بعد الهجرة، ومعلوم أن كل ما نزل بعد خروج النبي ﷺ مهاجرا فهو مدني. انظر الدر المنثور : 3 / 158، وتفسير المنار : 9 / 536. ووجه مناسبتها لسورة الاعراف زيادة على ما تقدم أن هذه بينت حال خاتم المرسلين ﷺ مع قومه، وسورة الاعراف بينت احوال اشهر الرسل مع أقوالهم كما هو واضح بين.

وهنا لابد من وقفة حول ترتيب الانفال وتناسيبها لما قبلها هل كان ذلك بتوقيف ام اجتهاد ؟ ذكر الجلال السيوطي ان ذكر هذه السورة هنا ليس بتوقيف من الرسول ﷺ كما هو المرجح في سائر السور بل باجتهاد من عثمان رضي الله عنه، وقد استشكل ذلك قديما حبر الأمة رضي الله تعالى عنه فقال لعثمان ما حملكم على ان عمدتم الى الانفال وهي من المثاني والى براءة وهي من المثين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بالبسملة بينهما ووضعتموها في السبع الطوال ؟ فقال عثمان : كان رسول الله ﷺ ينزل عليه السور ذوات العدد فكان اذا نزل عليه الشيء دعا من كان يكتب يقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وكانت الانفال من اوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا انها منها من أجل ذلك قرنت بينهما ولم اكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتهما في السبع الطوال.

وقد تعقب الالوسي الامام السيوطي فيما ذهب اليه بأن عثمان رضي الله عنه جعل الانفال قبل براءة مع قصرها لكونها مشتملة على البسملة كتتمتها وبقيتها ولهذا قال جماعة من السلف انها سورة واحدة. وان وضع براءة هنا لمناسبة الطول فانه ليس بعد الست السابقة سورة اطول منها وذلك كاف في المناسبة، وانه خلل بالسورتين اثناء السبع الطوال المعلوم ترتيبها في العصر الاول للاشارة الى ان ذلك أمر صادر لا عن توقيف. وانه لو اخرهما وقدم يونس واتى بعد براءة بهود كما في مصحف ابي لمراعاة مناسبة السبع لفات مع ما أشرنا اليه أمر آخر أكد في المناسبة، فان الأولى بسورة يونس ان يوقى بالسور الخمس التي بعدها لما اشتركت فيه من المناسبات من القصص والافتتاح «بالر» ويذكر الكتاب ومن كونها مكيات.

الا ان الشيخ رشيد رضا لم يسلم ما ذهب اليه كل من السيوطي والالوسي، ذاهبا الى ان ترتيب جميع السور توقيفي عن النبي ﷺ وان مستند السيوطي والبيهقي من قبله هو حديث عثمان المذكور، ورد عليهما بأنه لا يعقل ان يرتب النبي ﷺ جميع السور الا الانفال وبراءة، وقد صرح انه ﷺ كان يتلو القرآن كله في رمضان على جبريل عليه السلام مرة واحدة كل عام فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه بالقرآن مرتين فأين كان يضع هاتين السورتين في قراءته ؟ التحقيق ان وضعهما في موضعهما توقيفي وان فات عثمان أو نسيه، ولولا ذلك لعارضه الجمهور أو ناقشوه فيه عند كتابة القرآن.

ثم قال : وهذا الحديث الذي قال الترمذي حسن، لا نعرفه الا من حديث عوف بن ابي جميلة عن يزيد الفارسي عن ابن عباس، ويزيد الفارسي هذا غير مشهور، وسئل عنه يحيى بن معين فقال لم اعرفه : ومثل هذا الرجل لا يصح ان تكون روايته التي انفرد بها مما يؤخذ به في ترتيب القرآن المتواتر. انظر روح المعاني : 9 / 140، 141 وتفسير المنار : 9 / 539، 540.

من ذكر الأشقياء بقصة إبليس وختمها بقصة بلعام، وكلاهما كفر على علم، ولم ينفعه ما قد كان حصل عليه، ونبه تعالى عباده على الباب الذي أتى منه على بلعام بقوله سبحانه «ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه» (الأعراف : 176) فأشار سبحانه إلى أن اتباع الأهواء أصل كل ضلال، نهبوا على ما فيه الحزم من ترك الأهواء جملة فقال تعالى : «يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول» (الآية) (167) (آية : 1) فكان قد قيل لهم اتركوا ما ترون أنه حق واجب لكم (وفوضوا) (168) في أمره لله وللرسول فذلك أسلم وأحزم في ردع أغراضكم وقمع شهواتكم، وترك أهوائكم، وقد أُلّف في هذه الشريعة السمحة البيضاء حسم الذرائع كثيرا، وإقامة مظنة الشيء مقامه كتحريم الجرعة من الخمر، والنظرة، والخطبة في العدة، واعتداد النوم الثقيل ناقضا، فهذه مظان لم يقع الحكم فيها على ما هو لا نفسها، ولا بما هي كذا، بل بما هي مظان وروادع لما منع لعينه، أو استوجب حكما ما لعينه وعلته الخاصة به.

ولما أمر المسلمون بحل أيديهم عن الأنفال يوم بدر، إذ كان المقاتلة قد هموا بأخذها، وحدثوا أنفسهم بالانفراد بها، ورأوا أنها من حقهم، وإن من لم يباشر قتالا من الشيوخ، ومن انحاز فئة لهم فلا حق له فيها، ورأى الآخرون أيضا أن حقهم فيها ثابت لأنهم كانوا فئة للمقاتلين، وعدة وملجأ وراء ظهورهم، كان ما أمرهم الله به من تسليم الحكم في ذلك إلى الله ورسوله من باب حسم الذرائع، لأن تمشية أغراضهم في ذلك — وإن تعلق كل من الفريقين بحجة — مظنة لرياسة النفوس، واستسهال اتباع الأهواء، فأمرهم الله بالتنزه عن ذلك والتفويض فيه لله ولرسوله فإن ذلك أسلم لهم واوفا لدينهم وأبقى في إصلاح ذات البين (وأجدى) (169) في الاتباع (بقوله) (170) «فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم.... الآية

(167) . ساقطة من : أ.

(168) . في أ : فوضوا.

(169) . في ب : وأغرى.

(170) . ساقطة من : أ.

(آية : 1) ثم ذكروا بما ينبغي لهم أن يلتزموا فقال تعالى : «إنما المومنون» (171) إلى قوله : «زادتهم إيماناً» (آية : 2)، ثم نبهوا على أن أعراض الدنيا من نفل أو غيره لا ينبغي للمومن أن يعتمد عليه اعتماداً يدخل عليه ضرراً من الشرك أو التفاتاً إلى غير الله سبحانه بقوله : «وعلى ربه يتوكلون» (آية : 2) ثم ذكروا بما وصف به المتقين من الصلاة والانفاق، ثم قال : «أولئك هم المومنون حقاً» (آية : 4) تنبيهاً على أن من قصر عن هذه الأحوال ولم يأت بها على كمالها لم يخرج عن الإيمان، ولكن ينزل (172) (عن) درجة الكمال بحسب تقصيره، وكأن هذا إشعاراً بعذرهم في كلامهم في الأنفال، وأنهم قد كانوا في مطلبهم على حالة من الصواب، وشرب من التمسك والاتباع لكن أعلى الدرجات ما يبين لهم ومنحوه، وأنه الكمال والفوز.

ثم نبههم سبحانه بكيفية أمرهم في الخروج إلى بدر، وودهم أن غير ذات الشوكة تكون لهم، وهو سبحانه يريهم حسن العاقبة فيما (اختار) (173) لهم فقد كانوا تمنوا/ لقاء العير واختاروا ذلك على (لقاء) (174) العدو ولم يعلموا ما وراء: «ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين» (آية : 7) إلى ما قصه تعالى عليهم من اكتنافهم برحمته وشمول لطفه وآلائه وبسط نفوسهم، ونبههم على ما ثبت يقينهم ويزيد في إيمانهم.

ثم اعلم أن الخير كله في التقوى فقال : «يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً» (آية : 29)، وهذا الفرقان هو الذي حرفه إبليس وبلغام فكان منهما ما تقدم من اتباع الأهواء القاطعة لهم عن الرحمة، وقد تضمنت حصول الدنيا والآخرة بنعمة الاتقاء، ثم أجمل الخياران معاً في قوله : «والله ذو الفضل العظيم» (آية : 29). والفضل العظيم بعد تفضيل ما إليه إسراع المومن من الفرقان والتكفير والغفران، ولم يقع التصريح بخير الدنيا الخاص بها مع اقتضاء الآية إياه

(171) . في ب : «إنما المومنون اخوة» (الحجرات : 10) وهي ليست مقصودة هنا.

(172) . في ب : على.

(173) . في ب : اختاره.

(174) . في ب : القاء.

تنزيها للمؤمن — في مقام إعطاء الفرقان وتكفير السيئات والغفران — عن ذكر متاع (الدنيا) (175) التي هي لهو ولعب، فلم يكن ذكر متاعها الفاني ليذكر مفصلاً مع ما لا يجانسه ولا يشاكله، «وان الدار الآخرة هي الحيوان» (العنكبون : 64)، ثم التحمت الآي. ووجه آخر وهو أنه سبحانه لما قال : «وإذا قرأ القرآن فاستمعوا له» (الأعراف : 204) بين لهم كيفية هذا الاستماع وما الذي يتصف به المؤمن من ضروبه فقال : «إنما المومنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً» (176) (آية : 2)، فهؤلاء لم يسمعوا بأذانهم فقط ولا كانت لهم آذان لا يسمعون بها، ولا قلوب لا يفقهون بها ولو (كانت) (177) كذا لما وجلت وعملهم الفزع والخشية، وزادتهم الآيات إيماناً، فإذا إنما يكون سماع المومن هكذا، «ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون» (آية : 21).

ولما كان هؤلاء إنما أتى عليهم من اتباع أهوائهم والوقوف مع أغراضهم وشهواتهم يأخذون عرض هذا الأدنى «ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه» (الأعراف : 176) وهذه بعينها كانت آفة إبليس (فإنه) (178) رأى لنفسه مزية واعتقد لها الحق ثم اتبع هذا الهوى حين قال : «لم أكن لأسجد لبشر خلقتة من صلصال من حمأ مسنون» (الحجر : 33) فلما كان اتباع الأهواء أصلاً في الضلال/ (وتنكب الصراط المستقيم، أمر المومنون بحسم باب الأهواء والتسليم فيما لهم به تعلق وان لم يكن هوى مجرداً. لكنه مظنة تيسير اتباع الهوى (179)، فافتتحت السورة بسؤالهم عن الأنفال، واخبروا أنها لله ورسوله، يحكم فيها (بما) (180) شاء، فاتقوا الله واحذروا الأهواء التي أهلكت من قص عليكم ذكره، واصلحوا ذات بينكم يرفع التنازع، وسلموا لله ولرسوله، وإلا لم تكونوا سامعين، وقد أمرتم أن

(175). في أ : الدين.

(176). ساقطة من : ب.

(177). في أ : كانوا.

(178). ساقطة من : ب.

(179). ما بين القوسين غير واضح في أ نظراً للخزم الحاصل في المخطوط.

(180). في أ : ما.

تسمعوا السماع الذي عنه ترجى الرحمة، وبيانه في قوله تعالى : «إنما المومنون» (الآية)(181) (آية : 2).

ووجه آخر، وهو أن قصص بني إسرائيل عَقَّب بوصاة المومنين خصوصا بالتقوى، وعلى حسب ما يكون الغالب فيما يذكر من أمر بني إسرائيل، (ففي)(182) البقرة اتبع قصصهم بقوله : «يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا» (آية : 104). ولما كان قصصهم مفتتحا بذكر تفضيلهم «يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وإني فضلتكم على العالمين» (البقرة : 47) افتتح خطاب هذه الأمة بما يشعر بتفضيلهم، وتأمل ما بين «يا بني إسرائيل» و«يا أيها الذين آمنوا»، وأمر أولئك بالإيمان «وآمنوا بما أنزلت» (البقرة : 41) وأمر هؤلاء بتعبد احتياطي فقيل : «وقولوا انظرنا واسمعوا» (آية : 104).

ثم أعقبت البقرة بآل عمران : وافتتحت ببيان المحكم والمتشابه الذي من جهته أتى على بني إسرائيل في كثير من مرتكباتهم.

ولما ضمنت سورة آل عمران من ذكرهم ما ورد فيما أعقب بقوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين» (آية : 100) ثم أعقبت(183) السورة بقوله : «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة» (النساء : 1) وعدل عن الخطاب باسم الايمان للمناسبة، وذلك أن سورة آل عمران خصت من مرتكبات إسرائيل بجرائم كقولهم في الكفار «هؤلاء اهدي من الذين آمنوا سبيلا» (النساء : 51)، فهذا (بهت)(184)، (ومنها)(185) قولهم : «إن الله فقير ونحن أغنياء» (آل عمران : 181) إلى ما تخلل هاتين من الآيات المنبئة عن

(181) . في ب : الآيات.

(182) . في أ : يعني.

(183) . في أ : أعقب.

(184) . البهت الكذب والافتراء أو اشده.

(185) . ب : منها.

تعمدهم الجرائم، فعدل عن «يا أيها الذين آمنوا» إلى «يا أيها الناس» ليكون أوقع في الترتيب (وأخوف وأوضح) (186) مناسبة لما ذكر.

ولما ضمنت سورة النساء/ قوله تعالى : «فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم» (آية 160) إلى قوله : «وأكلهم أموال الناس بالباطل» (آية : 161)، اتبعت بقوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود» (المائدة : 1) ثم ذكر لهم ما أحل لهم وحرم عليهم ليحذروا مما وقع فيه أولئك، فعلى هذا لما ضمنت سورة الأعراف من قصصهم جملة وبين فيها اعتداءهم وبناه على اتباع الأهواء والهجوم على الأعراض طلب هؤلاء باتقاء ذلك والبعد عما يشبهه جملة، فقليل في آخر السورة إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا» (الأعراف : 201).

ثم افتتحت السورة الأخرى بصرفهم عما لهم به تعلق وإليه (تسبب) (187) يقيم عذرهم شرعا فيما كان منهم، فكأن قد قيل لهم ترك هذا أسلم وأبعد عن اتباع الأهواء فسلموا في ذلك الحكم لله ورسوله، واتقوا الله، ثم تناسج السياق والتحمّت الآي وقد تبين وجه اتصال الأنفال بالأعراف من وجوه والحمد لله.

سورة براءة (188)

اتصالها بالأنفال أوضح من أن يتكلف توجيهه، حتى أن شدة المشابهة والالتئام — مع أن الشارع عليه السلام لم يكن يبيّن انفصالهما — أوجب أن لا يفصل بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم، وذلك أن الأنفال قد تضمنت الأمر بالقتال

(186) . ساقطة من : ب .

(187) . في ب : تشبث .

(188) . هذه السورة مدنية بالاتفاق، وقد نزل أولها على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهو بالحج، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عاداتهم في ذلك وأنهم يطوفون بالبيت عراة فكره مخالطتهم وبعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميرا على الحج تلك السنة ليقم للناس مناسكهم ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا وإن ينادى في الناس «براءة من الله ورسوله» فلما قفل اتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغا عن رسول الله ﷺ.

«وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة» (آية : 39) وبين أحكام الفرار من الزحف وحكم النسبة المطلوبة فيها بالثبوت ولحوق التأثيم للفرار، وانها على الضعف، وحكم الأسرى، وحكم ولاية المؤمنين ومن يدخل تحت هذه الولاية، ومن يخرج عنها، ثم ذكر في السورة الأخرى من عهد إليه من المشركين، والبراءة منهم إذا لم يوفوا، وحكم من استجار منهم إلى ما يتعلق بهذا وكله باب واحد، وأحكام متواردة على قضية واحدة وهو تحرير حكم المخالف، فالتحمت السورتان أعظم التحام ثم عاد الكلام إلى حكم المنافقين وهتك أسرارهم.

سورة يونس عليه السلام (189)

لما تضمنت سورة براءة قوله تعالى : «إلا تنصروه فقد نصره الله» (آية : 40) وقوله : «عفا الله عنك لم اذنت لهم» (آية : 43) وقوله : «ورحمة للذين آمنوا منكم

أما بقية السورة فنزلت في مجملها في شأن المنافقين قبيل وأثناء غزوة تبوك التي كانت في السنة التاسعة للهجرة وهي آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ، فكان صدر السورة التبري من الشرك والكفر وسائرهما فصح للمنافقين وبيان لأساليبهم ليحذرهم المسلمون لذلك سماها الصحابة ب : الفاضحة، والبعوث، والمنفرة، والمثيرة، والمبعثرة، المدممة، والخزيرة، والمنكدة، والمقشقة، وذلك لتنفيرها وتعبيرها عما في القلوب وبحت ذلك وإثارته وبعثته، وفضح المنافقين وما يترتب على ذلك من الدمة عليهم والخزي والنكال والتشريد بهم، وهي تقشقرش من النفاق أى تبرئ منه كما قال الزمخشري.

ولم يكن الصحابة ولا من بعدهم يكتبون البسملة في أولها لأنها لم تنزل معها كما نزلت مع غيرها من السور وهذا هو المعتمد المختار في تعليقه، وقيل رعاية لمن كان يقول انها مع الانفال سورة واحدة، والمشهور انه لنزولها بالسيف ونبد العهد وقيل غير ذلك انظر : تفسيرى ابن كثير والناظر : 3/ 356، 357 و 10/ 174.

ونحن مع المؤلف في ان اتصال السورتين واضح لا يحتاج الى تكلف في بيان المناسبة حتى عدما جمع من السلف بانهما سورة واحدة، إلا أننا نزيد الأمر إيضاحاً فنقول : اذا كانت سورة الانفال بينت أن النصر من عند الله ليس بكثرة عدد ولا عدة — وان كانت العدة مطلوبة — اذ قال تعالى : «وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى» وقال أيضا : «وما النصر الا من عند الله» فان هذه السورة بينت للمسلمين بأن يلتجئوا الى الله ويتبرؤوا من الشرك والا يخافوا كثرة عدوهم وعظمة عدته، ويحذروا مكر المنافقين وأساليبهم وخذ لانهم حتى لا تؤتى الجماعة المسلمة من داخلها وفي ذلك اعظم البلاء وأشد المصيبة. ولذلك ختمت بقوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة» ووصفت المنافقين بأنهم لا يفقهون : تثبيتاً للمؤمنين على الاستمرار في جانب الحق والايمان والتأسي برسول الله الذي أرشده الله الى التوكل عليه وبذلك ختمت السورة «فان تولوا فقل حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم».

(189) . هذه السورة في مجملها مكية سوى آيات ليست بالكثيرة قيل انها مدنية ولكن طابعها ومضمونها كشأن سائر السور المكية، ونشير هنا الى أن سورة يونس نزلت ثم تلتها هود ثم يوسف فوافق ترتيبها في النزول ترتيبها في المصحف، وهذا وجه من وجوه المناسبة بين هذه السور.

والذين يوذون رسول الله لهم عذاب أليم» (آية : 61) وقوله لقد جاءكم (رسول) (190) إلى آخر السورة، (الآيتين : 128—129) إلى ما تخلل أثناء آى هذه السورة الكريمة مما شهد لرسول الله ﷺ بتخصيصه بمزايا السبق والقرب والاختصاص والملاطفة في الخطاب، ووصفه بالرفقة والرحمة، هذا مع ما انطوت (عليه هي والأنفال) (191) من قهره أعداءه وتأيدته ونصره عليهم وظهور دينه، وعلو دعوته واعلاء لكلمته إلى غير هذا من نعم الله سبحانه عليه، كان ذلك كله مظنة لتعجب المرتاب وتوقف الشاك، ومثيرا لتحرك ساكن الحسد من العدو (لعظيم)، (192) ما منحه عليه السلام قال تعالى في هذه السورة : «أكان للناس عجبا ان أوحينا إلى رجل منهم أن انذر الناس إلى قوله لسحر مبين» (آية : 2) (193) ثم قال تعالى : «إن ربكم الله» الآيات (آية : 3 وما بعدها) فبين انفراده تعالى بالربوبية والخلق والاختراع والتدبير، فكيف تعترض أفعاله أو يطلع البشر على وجه الحكمة في كل ما يفعله ويديره، وإذا كان الكل ملكه وخلقه فيفعل في ملكه ما يشاء ويحكم في خلقه بما يريد «ذلكم الله ربكم فاعبدوه» (آية 3) «ما خلق الله ذلك إلا بالحق» (آية : 5) ثم تواعد سبحانه الغافلين عن التفكير في عظيم آياته حتى أدتهم الغفلة إلى مرتكب سلفهم في العجب والانكار حتى قالوا «مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق» الفرقان : 7 «وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا» (الفرقان : 21)، وهذه مقالات الأمم المتقدمة «قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا» (يس : 15)، «ما نراك إلا بشرا مثلنا» (هود : 27)

وقد ابدى المؤلف وجهها قويا في مناسبة مجيئها بعد براءة، وهناك وجه آخر وهو أن جل تلك في بيان أحوال المناقذين ومنه ما كانوا يقولونه ويفعلونه عند نزول القرآن «وإذا ما نزلت سورة فمنهم من يقول ايهكم زادته هذه ايمانا الى قوله لا يفقهون» (125—128) وهذه في أحوال الكفار ومنها ما كانوا يقولونه في القرآن : «وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا إئت بقرآن غير هذا أو بدله.. (الى قوله) عما يشركون» (15—18)، انظر تفسير المنار : 11 / 142.

(190) . ساقطة من : ب.

(191) . في ب : هي والأنفال عليه.

(192) . في ب : العظيم.

(193) . وقد روي عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية أنه قال لما بعث الله محمدا ﷺ انكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم فقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد، ، فنزلت «أكان للناس عجبا... الآية» انظر أسباب النزول للواحدى : 199 وتفسير ابن كثير : 3 / 482.

«قالوا أنؤمن لبشرين مثلنا» (المؤمنون : 48) (194) «(ما) هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم» (سبأ : 43) فقال تعالى متوعداً للغافلين : «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم... الآيات» (آية : 9 وما بعدها) وكل هذا بين الالتحام جليل الالتحام ثم تناسجت أي السورة.

سورة هود عليه السلام (195)

لما (196) كانت سورة يونس عليه السلام قد تضمنت من أي التنبيه والتحريك للنظر، ومن العظات والتخويف والتهديد والترهيب والترغيب/ وتقريع المشركين والجاحدين والقطع بهم والاعلام بالجريان على حكم السوابق ووجوب التفويض والتسليم ما لم تشتمل على مثله سورة لتكرر هذه الأغراض فيها، وسبب

(194) . في الاصل : ان.

(195) . هذه السورة كسابقتها مكية وكان لها في حياة رسول الله ﷺ شأن، فقد أخرج جمع من المحدثين عن عدد كبير من الصحابة ان أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال للرسول ﷺ، يا رسول الله لقد أسرع اليك الشيب قال : شيبني هود واخوانها، وفي طريق أخرى : شيبني هود والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، واذا الشمس كورت : انظر : تحفة الاحوذى 493 ومستدرک الحاكم : 2/ 343، وتفسير ابن كثير 3/ 535. والدر المنثور 3/ 319.

وسبب اهتمام رسول الله ﷺ بهذه السورة أنها ابانت عن المثلثات والنوازل المريعة التي حلت بالقرون الخوالي والأمم الماضية وكشفت عن القانون الالهي الصارم الذي يحكم هذا الكون وتسير عليه الانسانية، فقد استعرضت ستة أمم بارزة في التاريخ الانساني كان لها شأن وجاه وقوة، وأوضحت السبل التي انحرفت بها عن منهج الرسل ودعوات الانبياء، وان كانت السبل مختلفة عن بعضها الا أنها اشتركت في مجانبة الحق والعدل فكان مصيرها الهلاك. ومن الواضح البين — يقول صاحب المنار — ان المناسبة بين هذه السورة وسابقتها أن في هذه تفصيل لما أجمل في يونس من قصص الرسل عليهم السلام مع أمهم وهي مناسبة لها ببراعة المطلع في فائقها والمقطع في خاتمها وتفصيل الدعوة في اثنائها. فقد افتتحنا بذكر القرآن بعد «الر» ومثلها في هذا ما بعدهما من السور الأربع الا الرعد فأولها «المر»، وذكر رسالة النبي المبلغ له عن الله تعالى، وبيان وظيفته فيها وهو الانذار والتبشير، وختمتا بخطاب الناس بالدعوة الى ما جاء به الرسول ﷺ وامره في الأولى بالصبر حتى يحكم الله بينه وبين الكافرين، وفي الثانية بالانتظار اى انتظار هذا الحكم منه تعالى مع الاستقامة على عبادته والتوكل عليه، وذكر في اثناء كل منهما التحدى بالقرآن ردا على من زعم الرسول ﷺ قد افتراه، وكذا محاجة المشركين في اصول الدين كلها، فهما باتفاق الموضوع واختلاف النظم والاسلوب آيتان من آيات الاعجاز. تفسير المنار : 2/ 12.

(196) . ب : ولما.

تكرر ذلك فيها والله أعلم، أنها (أعقبت) (197) بها السبع الطوال، وقد مر التنبيه على أن سورة الأنعام بها وقع استيفاء بيان حال المتنكبين عن الصراط المستقيم على اختلاف أحوالهم، ثم استوفت سورة الأنعام ما وقعت الاحالة عليه من أحوال الأمم السالفة كما تقدم، وبسطت ما أجمل من أمرهم، ثم اتبع ذلك بخطاب المستجيبين لرسول الله ﷺ، وحذروا وأنذروا وكشف عن حال من تلبس بهم من عدوهم من المنافقين، وتم المقصود من هذا في سورتي (الأنفال وبراءة) (198) ثم عاد الخطاب إلى طريقة الدعاء إلى الله والتحذير من عذابه بعد بسط ما تقدم، فكان مظنة لتأكيد التخويف والترهيب لآتيان ذلك بعد بسط حال وإيضاح أدلة، فلهذا كانت سورة يونس عليه السلام مضمنة من هذا ما لم يضمن غيرها، الا ترى افتتاحها بقوله «إن ربكم الله... الآيات (آية : 3) ومناسبة هذا الافتتاح دعاء الخلق إلى الله في سورة البقرة بقوله تعالى : «يا أيها الناس اعبدوا ربكم» (آية : 21)، ثم قد نبهوا هنا كما نبهوا هناك فقال تعالى : «أم يقولون افتراه، قل فاتوا بسورة مثله» (يونس : 38) ثم تأكدت المواعظ والزواجر والاشارات إلى أحوال المكذبين والمعاندين (فمن التنبيه) (199) «إن ربكم الله» (يونس : 3) إن في اختلاف الليل والنهار» (يونس : 6) «قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق» (يونس : 35) «قل انظروا ماذا في السماوات والأرض» (يونس : 101) إلى غير هذا.

وعلى هذا السنن تكررت العظات والأغراض المشار إليها في هذه السورة إلى قوله تعالى : «يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم» (يونس : 108) فحصل من سورة الأعراف والأنفال وبراءة ويونس تفصيل ما كان أجمل فيما تقدمها، كما حصل مما تقدم تفصيل أحوال السالكين والمتنكبين، فلما تقرر هذا كله، اتبع المجموع بقوله : «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» / (آية : 1).

(197) . ب : اعقب.

(198) . أ : الانعام وبراءة.

(199) . أ : في الشبه.

وتأمل مناسبة الاتيان بهذين الاسمين الكريمين وهما : الحكيم، الخبير، ثم تأمل تلاؤم صدر السورة لقوله : «(قل)(200) يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم» (يونس : 108) وقد كان تقدم قوله تعالى : «قد جاءكم موعظة من ربكم»(201) (يونس : 57) فاتبع قوله تعالى : «قد جاءكم الحق من ربكم» بقوله في صدر سورة هود كتاب أحكمت آياته ثم فصلت» (آية : 1) فكأنه في معرض بيان الحق والموعظة، وإذا كانت محكمة مفصلة فحق لها أن تكون شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمومنين، وحق توبيخهم في قوله تعالى : «بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه» (يونس : 39). والعجب في عمهم مع أحكامه وتفصيله، ولكن.. «(إن)(202) الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون» (يونس : 96).

وتأمل قوله سبحانه آخر هذه السورة «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمومنين» (آية : 120) فكل الكتاب حق وموعظة وذكرى، وإنما الإشارة والله أعلم بما أراد إلى ما تقرر الايماء إليه من كمال بيان الصراط المستقيم، وملتزمات متبعيه أخذا وتركاً، وذكر أحوال المتنكبين على شتى طرقهم واختلاف أهوائهم وغاياتهم وشرهم إبليس فإنه متبعهم والقائل لجميعهم في اخبار الله تعالى (سبحانه :)(203) «إن الله وعدهم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم» (إبراهيم : 22) وقد بسط من أمره وقصته في (البقرة والأعراف)(204) ما يسر على المومنين الحذر منه وعرفهم به، وذكر اليهود والنصارى والمشركون والصائبون والمنافقون وغيرهم، وفصل مرتكب كل فريق منهم، كما استوعب ذكر أهل الصراط المستقيم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين، وفصل من أحوالهم ابتداء وانتهاء والتزاما وتركاً ما أوضح طريقهم وعين حزمهم وفريقهم، «أولئك الذين هدى الله» (الأنعام : 90) وذكر أحوال الأمم مع

(200) . ساقطة من : ب.

(201) . قد جاءكم موعظة من ربكم ساقطة من ب.

(202) ساقطة من : ب .

(203) . ب : ساقطة.

(204) . أ : الاعراف والبقرة.

أنبيائهم وأخذ كل من الأمم بذنبه مفصلاً، وذكر ابتداء الخلق في قصة آدم عليه السلام، وحال الملائكة في التسليم والاذعان، وذكر فريقا الجن من مومن وكافر، وأمر الآخرة وانتهاء حال الخلائق واستقرارهم الأخروي، وتكرر دعاء الخلق إلى الله تعالى طمعا (فيه)⁽²⁰⁵⁾/ ورحمة، واعلام الخلق بما هو عليه سبحانه، وما يجب له من الصفات العلا، والأسماء الحسنى، ونبه العباد على الاعتبار وعلموا طرق الاستدلال ورغبوا ورهبوا وانذروا واعلموا بافتقار المخلوقات بجملتها إليه سبحانه كما هو المنفرد بخلقهم إلى ما تخلل ذلك مما يعجز الخلائق عن حصره والاحاطة به، والله يقول الحق.

فلما تقدم هذا كله في السبع الطوال وما تلاها، أعقب ذلك بقوله : «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» (آية : 1) ثم اتبع هذا بالايحاء إلى فصول ثلاثة عليها مدار آى (الكتاب)⁽²⁰⁶⁾، وهي فصل الالهية وفصل الرسالة وفصل التكاليف. أما الأول فأشار إليه قوله : «الا تعبدوا إلا الله» (آية : 2). وأما فصل الرسالة فأشار إليه سبحانه : «انني»⁽²⁰⁷⁾ لكم منه نذير وبشير» (آية : 2) وأما فصل التكاليف فأشار إليه قوله سبحانه : «وان استغفروا ربكم ثم توبوا إليه» (آية : 3) وهذه الفصول الثلاثة (هي)⁽²⁰⁸⁾ التي تدور عليها آى القرآن، وعليها مدار السورة الكريمة.

فلما حصل استيفاء ذلك كله فيما تقدم ولم يبق وجه (شبهه)⁽²⁰⁹⁾ للمعاند ولا تعلق للجاحد، واتضح الحق وبان، قال سبحانه وتعالى : «وجاءك في هذه الحق» (آية : 120) إشارة إلى كمال المقصود، وبيان المطلوب واستيفاء التعريف (بوضوح)⁽²¹⁰⁾ الطريق، وقد وضح من هذا تلاؤم هذه السورة الكريمة لما تقدمها، ومما

(205). أ : منه.

(206). ب : الكتب.

(207). في الاصل : اني.

(208). ساقطة من : ب.

(209). ساقطة من : ب.

(210). ب : وضوح.

يشهد لهذا والله أعلم قوله تعالى : «أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه» (آية : 17) وقوله تعالى : «فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا» (آية : 112) فقد وضع طريقك وفاز بالفلاح حزبك وفريقك «ولا تركنوا إلى الذين ظلموا» (آية : 113) فقد عرفتم سبيلهم ومصيرهم فقد بان طريق الحق. (وكيف)⁽²¹¹⁾ تنكب من حُرْم سلوكه من الخلق. ونظير قوله سبحانه : «وجاءك في هذه الحق» (آية : 120) عقب ما ذكر سبحانه «لمن الملك اليوم غافر» (غافر : 16) وقوله (تعالى) :⁽²¹²⁾ «يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله» (الانفطار : 19) فتأمل ذلك والله المستعان.

سورة يوسف عليه السلام⁽²¹³⁾

هذه السورة من جملة ما قص عليه عليه السلام⁽²¹⁴⁾ من أنباء الرسل وأخبار من تقدمه مما فيه التثبيت الممنوح في قوله تعالى : «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك» (هود : 120)، ومما وقعت الاحالة عليه في سورة الأنعام كما

(211) . ب : وكيف.

(212) . ب : ساقطة.

(213) . وسبب نزولها ما رواه سعد بن أبي وقاص انه أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه على أصحابه زمانا فقالوا لو قصصت علينا فنزلت، وقيل هي تسلية عما يفعله به قومه بما فعلت اخوة يوسف بيوسف عليه السلام، وقيل أن اليهود سألوه ﷺ ان يحدثهم بأمر يعقوب وولده وشأن يوسف وما انتهى اليه فنزلت. روح المعاني : 12 / 152.

وما أبداه المصنف من ارتباط هذه السورة بسالفتها ظاهر ووجيه، نزيد ذلك ايضاحا فنقول : لما ذكرت سورة هود النهايات الأئمة والخواتيم السيئة للأمم المكذبة، انفصلت هذه السورة بأن الأمة التي بعث فيها يوسف عليه السلام لم تكن نهايتها كأولئك بل هداها الله عز وجل وآمنت فتمتعت الى حين، وحياة سيدنا يوسف وما لاقاه تشبه حياة سيدنا رسول الله ﷺ في تحمله وصبره، فكما كانت العاقبة الحسنة والمنزلة الرفيعة لسيدنا يوسف، ففي هذه السورة وعد ضمني من الله عز وجل لمحمد ﷺ أنه سينصره وسيجعله بالمقام الارفع والمحل الأسنى، ولهذا جاءت متميزة عن القصص المذكورة في سورة هود وان كان الموضوع في حقيقته واحدا، ولكن النتائج مختلفة.

وأشير الى ملاحظة أبداها القرطبي حيث قال : قال العلماء : ذكر الله افاصيص الأنبياء في القرآن وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة بألفاظ متباينة على درجات البلاغة، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر ولا على معارضة غير المتكرر. انظر الجامع لاحكام القرآن : 9 / 118.

(214) . ب : ﷺ .

تقدم، وانما افردت على حدثها ولم تنسق على قصص الرسل مع (أهمهم) (215) في سورة واحدة لمفارقة مضمونها تلك القصص، (ألا ترى) (216) ان تلك قصص إرسال من تقدم ذكرهم عليهم السلام وكيفية تلقي قومهم لهم وإهلاك مكذبيهم، أما هذه القصة فحاصلها فرج بعد شدة، وتعريف بحسن عاقبة الصبر، فإنه تعالى امتحن يعقوب عليه السلام بفقد ابنه وبصره وشتاب بنيه، وامتنح يوسف عليه السلام بالجب والبيع وامرأة العزيز وفقد الأب والأخوة والسجن، ثم امتحن جميعهم بشمول الضرر وقلة ذات اليد «مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل» (آية : 88) ثم تداركهم الله بالفهم وجمع شملهم ورد بصر أبيهم وائتلاف قلوبهم ورفع ما نزع به الشيطان، وخلص يوسف عليه (الصلاة) (217) والسلام من كيد من كاده واكتنافه بالعصمة وبرأته عند الملك، وكل ذلك مما أعقبه جميل الصبر، وجلالة اليقين في حسن تلقي الأقدار بالتفويض والتسليم على توالي الامتحان وطول المدة، ثم انجر في أثناء هذه القصة الجليلة إثابة امرأة العزيز ورجوعها إلى الحق وشهادتها ليوسف عليه السلام بما منحه الله من النزاهة عن كل ما يشين، ثم استخلاص العزيز إياه إلى ما أنجز في هذه القصة الجليلة من العجائب والعبر، «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الأبواب» (آية : 111). فقد انفردت هذه القصة بنفسها ولم تناسب ما ذكر من قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام، وما جرى من أهمهم، فلهذا فصلت عنهم (218). وقد أشار في

(215) أ : أنهم.

(216) . أ : الأخرى.

(217) . اقطة من : ب.

(218) . يقول الشيخ عبد الله بن الصديق عن سبب ذكر قصة يوسف في سورة مستقلة وعدم تكرارها كسائر القصص القرآني : ان هذه القصة نزلت بسبب سؤال وقع «لقد كان ليوسف واخوته آيات للسائلين» وذلك يقتضي ان نذكر كلها في موضع واحد ولو آخر شيء منها الى سورة أخرى كان الجواب غير واف بالسؤال وذلك غير جائز، لأن تأخير الجواب عن وقت الحاجة لا يجوز كما هو مقرر في علم الاصول، ثم ان القصة ذكرت مجملة في قول يوسف لأبيه : «اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين» وما حصل بعد ذلك بينه وبين اخوته يعد تفصيلا لهذه الرؤيا وتمهيدا لتفسيرها، الا ترى الى يوسف حين تلاقى بأبويه واخوته وخروا له سجدا قال : «يا أبت هذا تأويل رؤيائى من قبل قد جعلها ربي حقا» ولا شك ان السامع للرؤيا تطلعت نفسه الى تأويلها ومعرفة ما المراد بالكوكب وما المراد بالشمس والقمر، وما معنى سجودهم، فكان من مقتضيات البلاغة التي هي مطابقة الكلام للمقتضى الحال، تفصيل القصة بعد هذا الاجمال وتفسير الرؤيا بعد ذلك الابهام، لتهاد نفس السامع ويطمئن قلبه. انظر جواهر البيان : 39.

سورة برأسها إلى عاقبة من صبر ورضي وسلم ليتنبه المومنون على ما في طي ذلك، وقد صرح لهم (بما) (219) اجملته هذه السورة من الإشارة في قوله تعالى : «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض إلى قوله أمنا» (النور : 35) وكانت قصة يوسف (عليه السلام) (220)، بجملتها أشبه شيء بحال المومنين في مكابدتهم في أول الأمر وهجرتهم وتشتتهم مع قومهم، وقلة ذات أيديهم إلى أن جمع الله شملهم «واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا» (آل عمران : 103) وأورثهم الأرض وأيدهم ونصرهم، ذلك. بجليل إيمانهم وعظيم صبرهم.

فهذا ما أوجب تجرد هذه القصة عن تلك القصص والله أعلم، وأما تأخر ذكرها عنها فمناسب لحالها، ولأنها إخبار بعاقبة من آمن واتعظ ووقف عند ما حُدله فلم يضره ما كان، ولم تُذكر أثر قصص الأعراف لما بقي من استيفاء تلك القصص الحاصل ذلك في سورة هود، ثم أن ذكر أحوال المومنين مع من كان معهم من المنافقين وصبرهم عليهم مما يجب أن يتقدم ويعقب بهذه القصة من حيث عاقبة الصبر والحض عليه كما مر فأخرت إلى عقب سورة هود عليه السلام لمجموع هذا والله تعالى أعلم.

ثم ناسبت سورة يوسف أيضا أن تذكر أثر قوله تعالى : «إن الحسنات يذهبن السيئات» (هود : 114) وقوله : «واصبر فإن الله لا يضيع أمر المحسنين» (هود : 115) وقوله : «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة الآية» (هود : 118) وقوله «وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم انا عاملون وانتظروا انا منتظرون» (هود : 121) فتدبر ذلك. أما نسبتها (للآية) (221) الأولى فإن ندم اخوة يوسف واعترافهم بخطيئهم وفضل يوسف عليهم «لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين» (آية : 91) وعفوه عنهم «لا تثريب عليكم اليوم» (آية : 92)، وندم

(219) . أ : ما .

(220) . أ : ساقطة .

(221) . أ : ساقطة .

امرأة العزيز وقولها «الآن حصحص الحق... الآية» (آية : 51) كل هذا من باب إذهاب الحسنه السيئه، وكأن ذلك مثال لما عرف المؤمنون من إذهاب الحسنه السيئه، وأما نسبة السورة لقوله تعالى : «واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين» (هود : 115) فإن هذا أمر منه سبحانه لنبيه عليه السلام بالصبر على قومه، فاتبع بحال يعقوب يوسف عليهما السلام. وما كان من صبرهما مع طول المدة وتوالي امتحان يوسف عليه السلام بالجلب ومفارقة الأب والسجن حتى خلصه الله أجمل خلاص بعد طول تلك المشقات، ألا ترى قول نبينا (عليه الصلاة والسلام) (222)، وقد ذكر يوسف عليه السلام فشهد له بجلالة الحال، وعظيم الصبر فقال : «ولو لبثت في السجن ما لبث أخي يوسف لأجبت الداعي» (223)، فتأمل عذره له عليهما السلام وشهادته بعظيم قدر يوسف «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك» (آية : 120). لما قيل له عليه السلام «واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين» (هود : 115) اتبع بحال يعقوب ويوسف من المحسنين، «ووهبنا له إسحاق ويعقوب إلى قوله وكذلك نجزي المحسنين» (الأنعام : 84).

وقد شملت الآية ذكر يعقوب ويوسف (عليهما السلام) (224)، ونبينا عليه (الصلاة) (225) والسلام قد (أمر) (226) بالاقتداء في الصبر بهم، وقيل له «فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل» (الاحقاف : 35) ويوسف عليه السلام من أولي العزم (صلى الله عليهم أجمعين) (227).

(222). ب : ساقطة.

(223). ونص الحديث «يرحم الله لوطا وقد كان يأوى الى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي، ونحن أحق بالشك من ابراهيم اذ قال : رب أرني كيف نعبي الموق قال أو لم تؤمن قال بلى، ولكن ليطمئن قلبي» أخرجه البخارى في صحيحه من حديث أبي هريرة، واحمد في مسنده ومسلم في صحيحه، فتح البارى : 6/ 410 و 8/ 366 وانظر الدر المنثور : 4/ 23، وتفسير ابن كثير : 4/ 32.

(224). أ : ساقطة.

(225). أ : ساقطة.

(226). أ : أمرنا.

(227). ب : ساقطة.

ثم إن حال يعقوب ويوسف عليهما السلام في صبرهما ورؤية حسن عاقبة الصبر في الدنيا مع ما أعد الله لهما من عظيم الثواب انسب شيء لحال (228)، نبينا عليه السلام في مكابدة قريش ومفارقة وطنه، ثم تعقب ذلك بظفره بعدوه، واعزاز دينه، واظهار كلمته، ورجوعه إلى بلده على حالة قرت بها عيون المؤمنين وما فتح الله عليه وعلى أصحابه فتأمل ذلك.

ويوضح ما ذكرناه ختم السورة بقوله تعالى : «حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا... الآية (آية : 110)، فحاصل هذا كله الأمر بالصبر وحسن (عاقبة) (229)، أولياء الله فيه. وأما النسبة لقوله «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين» (هود : 118) فلا أنسب لهذا ولا أعجب من حال اخوة فضلاء لأب واحد من أنبياء الله وصالحى عباده جرى بينهم من التشئت ما جعله الله عبرة لأولى الألباب، وأما النسبة لآية التهديد فيينة، وكأن الكلام في قوة اعملوا على مكانتكم وانتظروا، (فلن) (230) نصبر عليكم مدة صبر يعقوب ويوسف (عليهما السلام) (231)، (وقد) (232) وضح بفضل الله وجه ورود هذه السورة عقب سورة هود والله أعلم.

سورة الرعد (233)

هذه السورة تفصيل لمجمل قوله سبحانه في خاتمة سورة يوسف عليه السلام «وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون (آية :

(228). ب : بخال.

(229). ب : عواقب.

(230). ب : على.

(231). ب : عليهما الصلاة والسلام.

(232). ب : فقد.

(233). هذه السورة الكريمة اختلف فيها هل هي مكية أو مدنية فبعضهم قال مكية وبعضهم قال مدنية وبعضهم قال فيها المدني والمكي، ولكن المتبع لآياتها اذا قارنها بالآيات المكية يجدها بها أشبه، وموضوعها بيان آيات الله عز وجل في السماء والارض ودلائل عظمته وقدرته في الخلق والتدبير، ولهذا فقد برع المصنف كعادته في بيان وجه ارتباطها بسورة يوسف من حيث أنها تفصيل لأواخر سورة يوسف، واقامة البراهين أمام الخلق للاهتداء الى معرفة الخالق، ومن هذه البراهين برهان القرآن وانه منزل من عند الله تعالى : قارن بذلك تناسق الدرر : 109، 110، وتفسير المراغي : 13 / 60.

(105) «وما يومن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون» (آية : 106) «أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون» (آية : 107) «قل هذه سبيلي ادعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين» (آية : 108)، فبيان آي السماوات في (قوله)⁽²³⁴⁾ الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى» (آية : 2) وبيان آي الأرض في قوله : «وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين» (آية : 3) فهذه آي السماوات والأرض وقد زيدت بيانا في مواضع ثم في قوله تعالى : «يغشي الليل النهار» (آية : 3) (و)⁽²³⁵⁾ ما (يكون)⁽²³⁶⁾ من الآيات عنهن، لأن الظلمة عن جرم الأرض والضياء عن نور الشمس وهي سماوية ثم زاد تعالى آيات الأرض بيانا وتفصيلا في قوله : «وفي الأرض قطع متجاورات إلى قوله لقوم يعقلون» (آية : 4)، ولما كان إخراج الثمر بالماء النازل من السماء من أعظم آية ودليلا واضحا على صحة المعاد، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى «كذلك نخرج الموتى» (الأعراف : 57) وكان قد ورد هنا على أعظم جهة في الاعتبار من إخراجها مختلفات في الطعوم والألوان والروائح مع اتحاد المادة، تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الطعوم والألوان والروائح مع اتحاد المادة «تسقى بماء واحد وتفضل بعضها على بعض في الأكل» (آية : 4) لذلك⁽²³⁷⁾ أعقب قوله تعالى : «وفي الأرض قطع متجاورات... الآية بقوله «وان تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد» (آية : 5)، ثم بين سبحانه الصنف القائل بهذا وإنهم الكافرون أهل الخلود في النار، ثم أعقب ذلك ببيان عظيم حلمه وعفوه فقال : «ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة... الآية» (آية : 6) ثم اتبع ذلك بما يشعر بالجري على السوابق في قوله : «إنما أنت منذر ولكل قوم هاد» (آية : 7) ثم بين عظيم ملكه وإطلاعه على

(234). أ : قول.

(235). زيادة من المحقق لربط الكلام.

(236). ب : تكون.

(237). ب : لذلك.

دقائق ما أوجده من جليل صنعه واقتداره فقال : «الله يعلم ما تحمل كل أنثى.... الآيات إلى قوله «وما لكم من دونه من وال» (8—11) ثم خوف عباده وانذرهم ورغبهم «هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً الآيات» (13 وما بعدها) وكل ذلك راجع إلى ما أودع سبحانه في السماوات والأرض وما بينهما من الآيات، وفي ذلك أكثر آي السورة. ونبه تعالى على الآية الكبرى والمعجزة العظمى فقال : «ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى» (آية : 31) والمراد لكان هذا القرآن (238) ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» (النساء : 82)، والتنبيه بعظيم هذه الآيات مناسب لمقتضى السورة من التنبيه بما أودع تعالى من الآيات في السماوات والأرض، وكأنه جل وتعالى لما بين لهم عظيم ما أودع في السماوات والأرض وما بينهما من الآيات وبسط ذلك وأوضحه أردف ذلك بآية أخرى جامعة للآيات ومتسعة للاعتبارات فقال تعالى : «ولو أن قرآنا سيرت به الجبال» فهو من نحو «إن في السموات والأرض آيات للمؤمنين (الجاثية : 3)، «وفي أنفسكم» (الذاريات : 21)، أي لو فكرتم في آيات السماوات والأرض لا قلتم وكفتم في بيان الطريق إليه، ولو فكرتم في أنفسكم وما أودع تعالى فيكم من العجائب لاكتفيتم، (من عرف نفسه عرف ربه) (239).

(238). يقول الشيخ المراغي تأكيداً لهذا المعنى : «ولو أن قرآنا سيرت به الجبال» أي ولو ثبت أن كتاباً سيرت بتلاوته الجبال وزعزعت من أماكنها كما فعل بالطور لموسى عليه السلام، «أو قطعت به الأرض» أي شققت وجعلت أنهاراً وعيوناً كما حدث للحجر حين ضربه موسى بعصاه، «أو كلم به الموتى» أي أو كلم به أحد الموتى في قبورهم بأن أحياهم بقراءته فتكلم معهم بعد كما وقع لعيسى عليه السلام — لو ثبت هذا الشيء من الكتب لثبت هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه : لما انطوى عليه من الآيات الكونية الدالة على بديع صنع الله في الأنفس والآفاق.... ويجوز أن يكون المعنى لو أن كتاباً فعلت بواسطته هذه الأفاعيل العجيبة لما آمنوا به لفرط عنادهم وغلوهم في مكابرتهم. تفسير المراغي : 13 / 104، 105.

(239). هذا النص قال ابن السمعاني لا يعرف مرفوعاً وإنما هو من كلام يحيى بن معاذ الرازي، قال الامام النووي : انه ليس بخديث ثابت. انظر تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على السنة الناس من الحديث ص : 165 والدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ص 148 قلت : ويحيى بن معاذ الرازي أبو زكريا من كبار الزهاد والوعاظ من أهل الري، مات بنيسابور سنة 258 هـ. ولم يكن له نظير في وقته في الزهد والورع، وله كلمات سائرة.

فمن قبيل هذا الضرب من الاعتبار هو الواقع في سورة الرعد من بسط آيات السماوات والأرض، ثم ذكر القرآن وما يحتمل، فهذه إشارة إلى ما تضمنت هذه السورة الجليلة من بسط الآيات المودعة في الأرضين والسماوات.

وأما قوله تعالى : «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون» (يوسف : 106) فقد أشار إليه قوله تعالى : «ولكن أكثر الناس لا يؤمنون» (الرعد : 1) «إنما يتذكر أولوا الألباب» (الرعد : 19) وقوله : «الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر» (240) الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب» (الرعد : 28)، فالذين تطمئن قلوبهم بذكر الله هم أولوا الألباب المتذكرون التامو الايمان (وهم) (241) القليل المشار إليهم في قوله : «وقليل ما هم» (سورة ص : 24) والمقول فيهم «أولئك هم المؤمنون حقا» (الأنفال : 4) ودون هؤلاء طوائف من المؤمنين ليسوا في درجاتهم ولا بلغوا يقينهم وإليهم الإشارة بقوله : «وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون» (يوسف : 106) قال عليه (الصلاة) (242) والسلام (الشرك في أمتي أخفى من ديب النمل) (243) فهذا بيان ما أجمل في قوله : «وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون».

وأما قوله تعالى : «أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله» يوسف : 107) فما عجل (244) لهم من ذلك في قوله : «ولا يزال الذين كفروا تصيهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله» (الرعد : 31) القاطع دابرهم والمستأصل لأمرهم، وأما قوله تعالى : «قل هذه سبيلي ادعوا إلى الله على

(240) . في أ : لذكر.

(241) . في أ : وهو.

(242) . أ ساقطة.

(243) . جاء هذا النص مرفوعا من رواية عدد من الصحابة وبعضها مطولا، فقد أخرجه الإمام أحمد والطبراني والبيهقي من حديث أبي موسى الأشعري، وأخرجه أبو يعلى الموصلي، وأبو القاسم البغوي، وابن عدي وابن حبان من حديث أبي بكر الصديق كما أخرجه الحاكم في التفسير والحكيم في نواذر الأصول من حديث عائشة، وطرقه كلها مضعفة. انظر فيض القدير : 4/ 172، 173. وتفسير ابن كثير : 4/ 57.

(244) . أ : فما أعجل.

بصيرة.... الآية (يوسف : 108)، فقد أوضحت آى سورة الرعد سبيله عليه السلام وبينته بما تحتمله من عظيم التنبيه وبسط الدلائل بما في السماوات والأرض وما بينهما وما في العالم بجملته وما تحمله الكتاب المبين كما تقدم.

ثم قد تعرضت السورة لبيان جلي سالكي تلك السبيل الواضحة المنجية فقال تعالى : «الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق» (آية : 20) إلى آخر ما حلاهم به أخذا وتركاً.

ثم عاد الكلام بعد إلى ما فيه من التنبيه والبسط وتقريع الكفار وتوبيخهم وتسلييه عليه السلام في أمرهم «إنما أنت منذر» (آية : 7) «ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية» (آية : 38) فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب» (آية : 40) «ويقول الذين كفروا لست مرسلًا» (آية : 43) والسورة بجملتها غير حائدة عن تلك الأغراض المجملة في الآيات الأربع المذكورات من آخر سورة يوسف، ومعظم السورة وغالب آيها في التنبيه وبسط الدلالات والتذكير بعظيم ما أودعت من الآيات، ولما كان هذا شأنها أعقبت بمفتتح سورة إبراهيم عليه السلام.

سورة إبراهيم عليه السلام (245)

لما كانت سورة الرعد على ما تمهد (246) (بأن) (247) كانت تلك الآيات والبراهين (التي سلفت فيها) (248) لا يبقى معها شك لمن اعتبرها لعظيم (249) شأنها واتضاح (250) أمرها، قال تعالى : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم » (الآيتين : 1—2) أي إذا هم تذكروا به واستبصروا ببراهينه وتدبروا آياته « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض (أو كلم به

(245) . هذه السورة الكريمة مكية النزول في جملتها، ويظهر لي أن من وجوه ارتباط هذه السورة بما قبلها والله أعلم، أنه لما تقدم في سورة الرعد إقامة الدلائل والبراهين على عظمة الله وقدرته وتدبيره، جاءت هذه السورة لتبين ناموسا من نواميس هذا الكون، وتجلي حقيقة من حقائق هذا الوجود، ألا وهي أن الحق يشب ويدوم وينمو مع الأيام ويزداد، وإن الباطل يتضاءل ويتصاغر ويذوب، فبعد أن مهدت السورة بمحاورة الرسل مع أقوامهم وجهدهم في النصح لهم، جاء قوله تعالى : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرון مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد » وهذا مثل الباطل الذي يزول سريعا ثم بعد آيات جاء مثل الحق « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ».

وبعد هذا التقرير الإلهي تنتقل هذه السورة إلى حقيقة كان العرب يعيشونها ألا وهي حقيقة إبراهيم وإسماعيل، إذ ترك إبراهيم فلذة كبده إسماعيل في الأرض القفر لا ظل ولا ماء ولكنه فرع من الشجرة الطيبة فهيا الله له أسباب النماء والعفاء، وهو أبوكم الذي إليه تنتسبون وبأصله تعتزون يا معشر المخاطبين من العرب، فإذا كان أصلكم بالحق والایمان فما عليكم إلا سلوك هذا السبيل ليستمروا وجودكم ويزداد عزكم وشرفكم، ولا تكونوا كالأمم التي عصت وكذبت وتقدم ذكرها في سورة هود فكان عاقبتها خسارنا، بل اسلكوا سبيل إبيكم إبراهيم، ففي هذا بلاغ وإنذار يهتدي به أولو الألباب « هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا إنما هو اله واحد وليذكر أولوا الألباب ».

وقد أبدى الشيخ المراغي أوجه ارتباطها بالتي قبلها وهي : أنه قد ذكر سبحانه في السورة السابقة أنه أنزل القرآن حاكما عربيا ولو يصرح بحكمة ذلك وصرح به هنا . وأنه ذكر في السورة السالفة قوله « وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله » « وهنا ذكر أن الرسل قالوا : وما كان لنا أن ناتيكم بسلطان إلا بإذن الله » وذكر هناك أمره عليه السلام بالتوكل على الله وهنا حكى عن إخوانه المرسلين أمرهم بالتوكل عليه جل شأنه . وذكر هناك رفع السماوات بغير عمد، ومد الأرض وتسخير الشمس والقمر، وذكر هنا نحو ذلك . وذكر هناك مكر الكفار وذكر مثله هنا، وذكر من وصفه ما لم يذكر هناك . واشتملت تلك على تمثيل الحق والباطل، واشتملت هذه على ذلك أيضا . تفسير المراغي : 122/ 13 .

(246) . أ : أقحم بعد كلمة تمهد ما يلي : (قال تعالى : كتاب أنزلناه إليك إلى قوله بإذن ربهم) وبدونها يستقيم التركيب .

(247) . أ : لما .

(248) . ساقطة من : أ .

(249) . ب : لتعظيم .

(250) . ب : وإيضاح .

الموتى» (الرعد : 31) لكان هو⁽²⁵¹⁾، ولما كان الهدى والضلال كل ذلك موقوف على مشيئة الله سبحانه وسابق إرادته، وقد قال لنبيه عليه السلام : «إنما أنت منذر ولكل قوم هاد» (الرعد : 8) قال تعالى هنا «بإذن ربهم» (الآية : 1) «فإنما عليك البلاغ» (الرعد : 40) وكما قال تعالى : «وكآين من آية في السماوات والأرض» (يوسف : 105)، ثم بسطها في سورة الرعد، اعلم هنا أن ذلك كله له وملكه فقال : «الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض» (آية : 2) فالسماوات والأرض بجملتهما وما فيهما (وما بينهما)⁽²⁵²⁾ من عظيم ما أوضح لكم الاعتبار به، كل ذلك/ له ملكا وخلقاً واختراعاً «وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً» (آل عمران : 83) «وويل للكافرين من عذاب شديد»⁽²⁵³⁾ إبراهيم : 2) لعنادهم مع وضوح الأمر وبيانه، ويصدون عن سبيل الله مع وضوح السبيل وانتهاج ذلك بالدليل⁽²⁵⁴⁾ (ثم)⁽²⁵⁵⁾ قال تعالى : «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه» (آية : 4) وكان هذا من تمام قوله سبحانه «ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية» (الرعد : 38) وذلك أن الكفار لما حملهم الحسد والعناد (وبعد)⁽²⁵⁶⁾ إلفهم بما جبل على قلوبهم وطبع عليها على أن انكروا كون الرسل من البشر حتى قالوا : «أبشر يهدوننا» (التغابن : 6) ما أنتم إلا بشر مثلنا» (يس : 15) وحتى قالت قريش : «لولا أنزل (عليه)⁽²⁵⁷⁾ ملك» (الأنعام : 8) «وما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك.... الآية» (الفرقان : 7) «وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» (الزخرف : 31) فلما كثر هذا منهم وتبع خلقهم في هذا سلفهم رد تعالى (أزعامهم)⁽²⁵⁸⁾ وأبطل توهمهم في آيات وردت على التدرج في هذا الغرض شيئاً

(251) . ب : ساقطة.

(252) . ساقطة.

(253) . هذه الآية ساقطة من : أ.

(254) . ب : الدليل.

(255) . ب : ساقطة.

(256) . ب : بعد.

(257) . أ، ب : إليه وهو خطأ

(258) . في أ : أزعاما لهم.

فشيئا، فأول الوارد من ذلك في معرض السرد عليهم وعلى ترتيب سور الكتاب قوله تعالى : «أكان للناس عجبا ان أوحينا إلى رجل منهم... الآية» (يونس : 2)، ثم اتبع ذلك بانفراده تعالى بالخلق والاختراع والتدبير والربوبية، وفي طي ذلك أنه يفعل ما يشاء، لأن الكل خلقه وملكه وأنه العليم بوجه الحكمة في إرسال الرسل وكونهم من البشر، فأرغم (الله) (259) تعالى بمضمون هذه (الآية) (260) كل جاحد ومعاند، ثم ذكر تعالى في سورة هود قوم نوح : «ما نراك إلا بشرا مثلنا... الآية (هود : 27) وجوابه عليه السلام : «أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون» (هود : 28) أي واني وان كنت في البشرية مثلكم فقد خصني الله من فضله وآتاني رحمة من عنده وبرهانا على ما جئكم به عنه، وفي هذه القصة (أوضح) (261) عظة، ثم جرى هذا لصالح وشعيب عليهما السلام وديدن الأمم أبدا مع أنبيائهم ارتكاب هذه المقالات، وفيها من الحيد والعجز عن مقاومتهم ما لا يخفى، وما هو شاهد على تعنتهم (262)، ثم زاد تعالى نبيه ﷺ تعريفا بأحوال من تقدمه من / الأنبياء (عليهم السلام) (263) ليسمع ذلك من جرى (له) (264) مثل ما جرى لهم فقال مثل مقالته فقال تعالى : «ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية» (الرعد : 38) واعلم سبحانه أن هذا لا يحيط شيئا من مناصبهم بل هو أوقع في قيام الحجة على العباد، ثم تلى ذلك بقوله : «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه» (إبراهيم : 4) أي ليكون ابلغ في الحجة وأقطع للعدر (265)، فرما كانوا يقولون عند اختلاف الألسنة لا نفهم عنهم، إذ (قد) (266) قالوا ذلك مع اتفاق اللغات، فقد قال قوم شعيب عليه السلام :

(259). في أ : ساقطة.

(260). ب : الآية.

(261). في ب : أعظم.

(262). في أ : تعبتهم.

(263). ساقطة من : أ.

(264). ب : لهم.

(265). ب : في العذر.

(266). ب : ساقطة.

«(ما)(267) نفقه كثيرا مما تقول» (هود : 91) هذا وهو عليه السلام يخاطبهم بلسانهم، فكيف لو كان على خلاف ذلك، بل لو خالفت الرسل عليهم السلام الأمم في التبتل وعدم اتخاذ الزوجات والأولاد، واستعمال الأغذية وغير ذلك من مألوفات(268) البشر لكان ذلك منفرا(269)، فقد بان وجه الحكمة في كونهم من البشر، ولو كانوا من الملائكة لوقع النفار والشروء لافتراق الجنسية وإليه الإشارة بقوله تعالى : «ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون» (الأنعام : 9) أي ليكون أقرب إليهم لئلا يقع تنافر فكونهم من البشر أقرب وأقوم للحجة.

ولما كانت رسالة محمد ﷺ عامة(270) كان عليه الصلاة(271) والسلام يخاطب كل طائفة من طوائف العرب بلسانها ويكلمها بما تفهم(272) وتأمل (كم)(273) بين كتابه ﷺ لأنس (رضي الله عنه)(274) في الصدقة، وكتابه إلى وائل

(267) . ب : لا .

(268) . في ب : مما لو لوفات .

(269) . أ مقصراً، والصواب منفراً .

(270) . أ : تامة .

(271) . أ : ساقطة .

(272) أنظر الهامش : 275

(273) . أ : ساقطة .

(274) . أ : ساقطة .

ابن حُجْر مع اتحاد الغرض، وللكتابين نظائر يوقف عليها في مظانها⁽²⁷⁵⁾ وكل ذلك لتقوم⁽²⁷⁶⁾ الحجة على الجميع، واستمر باقي سورة إبراهيم عليه السلام على التعريف بحال مكذبي الرسل ووعيد من خالفهم وبيان بعض أهوال الآخر وعذابها.

سورة الحجر⁽²⁷⁷⁾

لما تقدم من وعيد الكفار ما تضمنته الآي المختتم بها سورة إبراهيم عليه السلام من لدن قوله سبحانه : «ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون» إلى خاتمها (الآيات : 42—52) أعقب ذلك بقوله : «ربما يود الذين كفروا لو كانوا

(275) . أما كتابه لوائل بن حجر فانه لما أراد الشخوص الى بلاده بعد أن وفد على رسول الله ﷺ قال يا رسول الله اكتب لي الى قومي كتابا، فقال رسول الله ﷺ اكتب له يا معاوية الى الأفيال العباهلة ليقموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، والصدقة على التبعة السائمة لصاحبها التبعة لا خلاط ولا وراط، ولا شغار، ولا جلب ولا جنب ولا شناق وعليهم العون لسرايا المسلمين، وعلى كل عثرة ما تحمل العرب من أجبا فقد أرى. انظر نص الكتاب في طبقات ابن سعد الكبرى : 1 / 287، وانظر نماذج كتبه ﷺ الى قبائل العرب بلهجاتها المختلفة في نفس المصدر. أما كتاب أنس فقد كتبه النبي ﷺ وختمه ليوجهه عاملا الى البحرين لكن النية عاجلته فوجهه أبو بكر، وقد أخرجه البخاري في صحيحه مطولا ومفردا في مواضع في كتاب الزكاة من صحيحه، كما أخرجه أحمد والشافعي واليهقي والحاكم والدارقطني، انظر صحيح البخاري مع الفتح : 3 / 317 ونيل الاوطار : 4 / 143.

(276) . ب : يقوم.

(277) . هذه السورة مكية كما أخرج ذلك النحاس وابن مردويه، وجريا على قاعدتنا في بيان بعض أوجه الارتباط بين السور فأقول : ان ارتباط سورة الحجر بسورة إبراهيم له متعلقات عديدة منها ما أبداه المصنف وما أبداه غيره، ومن هذه المتعلقات :

لما كانت سورة إبراهيم قبلها تذكرة بفضل الله على إبراهيم وإسماعيل أبي العرب ونبيهم الوحيد قبل محمد ﷺ، وتبيننا بألطف الله عز وجل بعباده المخلصين، وكانت خاتمة هذه السورة «هذا بلاغ» للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو اله واحد، وليذكر اولو الالباب «وان الاله الواحد هو الذي أكرمهم بهذا الرسول وهذا الكتاب الذي جاء به، بينت سورة الحجر مصير قوم من جلدتهم عاشوا في هذه الديار أو قريبا منها، فلما عتوا عن أمر الله أصبحوا أثرا بعد عين، وفي ذلك دعوة لهم ليتأملوا بعقولهم وألبابهم. فقد قال ﷺ مستثيرا عقول اصحابه عندما مروا معه على الحجر لاجتناب سبيل المجرمين : لا تدخلوا على هؤلاء القوم الا أن تكونوا باكين، فان لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم يصيبكم ما أصابهم. أخرجه أحمد والبخاري من حديث ابن عمر انظر فتح الباري : 8 / 381.

وقبل أن يقص الحق تبارك وتعالى خبر اصحاب الحجر ذكر المنشأة الاولى للانسانية، وتسلمت إبليس من تلك اللحظات ليغوى هذا المخلوق، واستمراره في هذا الخط، ثم ذكرت قصة إبراهيم مع الملائكة ومع قوم لوط ودمارهم، تنبيها لكل ذي لب أن قدرة الله تبارك وتعالى لا يحجزها حاجز ولا يدافعها مدافع وذكرتهم بمنة الله عليهم ان الله آتى نبيه سبعا من المثاني والقرآن العظيم تشريفا وتكريما له ولهم، ثم جاءت بعد ذلك سورة النحل لتعدد لهم نعم الله عليهم كما سنبين ذلك في سورة النحل.

مسلمين» (آية : 2) أي (278) عند مشاهدة تلك الأهوال الجلائل (279)، ثم قال تعالى تأكيداً لذلك الوعيد «ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون» (آية : 3) ثم أعقب تعالى (280) هذا بيان ما جعله سنة في عباده من ارتباط الثواب والعقاب معجلة ومؤجلة بأوقات وأحيان لا انفكاك لهما (281) عنها، ولا تقدم ولا تأخر إذ استعجال البطش في الغالب إنما يكون ممن يخاف الفوت، والعالم بجملتهم لله تعالى وفي قبضته لا يفوته أحد منهم ولا يعجزه، قال تعالى : «وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم» (آية : 4) وكان هذا يزيد (282) إيضاحاً قوله عز وجل «إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار» (إبراهيم : 42) وقوله : «وانذر الناس يوم ياتيهم العذاب» (إبراهيم : 44) وقوله : «يوم تبدل الأرض غير الأرض... الآية : (إبراهيم : 48).

وتأمل نزول قوله تعالى : «ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين» (آية 2) على هذا وعظيم موقعه في اتصاله به ووضوح ذلك كله.

وأما افتتاح السورة بقوله : «(الر)» (283) تلك آيات الكتاب وقرآن مبين» (آية : 1) فأحاله على أمرين واضحين أحدهما ما نبه به سبحانه من الدلائل والآيات كما يفسر، والثاني ما بينه القرآن المجيد وأوضحه وانطوى عليه من الدلائل والغيوب والوعد والوعيد وتصديق بعض ذلك بعضاً، فكيف لا يكون المتوعد به في قوة (284) الواقع الشاهد (285) لشدة البيان، في صحة الوقوع، فالعجب من التوقف والتكذيب ثم أعقب هذا بقوله : «ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين» (آية : 2).

(278) . أ : ساقطة.

(279) . أ : الجذائل.

(280) . أ : ذلك.

(281) . ب : لها.

(282) . ب : يزيد.

(283) . ساقطة من : أ.

(284) . أ : به لا يكون في قوة...

(285) . ب : المشاهد.

سورة النحل (286)

هذه السورة في التحامها بسورة الحجر مثل الحجر بسورة إبراهيم من غير فرق، لما قال تعالى : «فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون» (الحجر : 92-93) وقال بعد ذلك في وعيد المستهزئين «فسوف يعلمون» (الحجر : 96) أعقب هذا ببيان تعجيل الأمر فقال تعالى : «أتى أمر الله فلا تستعجلوه» (آية : 1) وزاد هذا بيانا قوله سبحانه وتعالى : «عما يشركون» (آية : 1) فنه سبحانه نفسه عما فاهوا به في استهزائهم وشركهم وعظيم بهتهم واتباع ذلك تنبيها (287) وتعظيما فقال : «خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون» (آية : 3) ثم اتبع ذلك بذكر ابتداء خلق الانسان وضعف جبلته «خلق الانسان من نطفة» (آية : 4). ثم أبلغه تعالى حدا يكون منه (288) الخصام والمحاجة، كل ذلك ابتلاء منه واختبار ليميز الخبيث من الطيب، وأعقب هذا (289) بذكر بعض ألطافه (سبحانه) (290) في خلق الأنعام وما جعل فيها من المنافع المختلفة/ وما هو سبحانه

(286) . هذه السورة الكريمة مكية النزول خلا آيات ثلاثة مدنية نزلت بشأن أسف النبي ﷺ على عمه حمزة، بعد ان استشهد بوقعة أحد ومثل به فقال : لكن اقدرني الله عز وجل لأمتلن بسبعين منهم، فنزل قوله تعالى بعد ذلك، «وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به الى قوله والذين هم محسنون» الآيات الثلاثة الأخيرة من السورة. وأضيف الى ما أبداه المؤلف من التناسب بين السورتين بأن سورة الحجر التي ذكرت المخاطبين بالقرآن بمصارع الغابرين وأرشدتهم الى دار الفاسقين، وأمرت النبي صلى الله عليه وسلم بأن يدوم على عبادته حتى يلقي ربه هو من اتبعه بقوله تعالى : «واعبد ربك حتى ياتيك اليقين» وجاءت كلمة رب ذات دلالة خاصة (أى المربي) بالنعمة والألطف والعناية فكانت المناسبة قوية في بيان طائفة من هذه النعم وهذا ما جاءت به هذه السورة. وقد أبدى الشيخ عبد الله بن الصديق أوجها أخرى من التناسب من بينها : ختام السورة السابقة بقوله تعالى : «واعبد ربك حتى ياتيك اليقين» وهو الموت وفتحت هذه بقوله : «أتى أمر الله» يوم القيامة فتناسبت فاتحة هذه وخاتمة تلك في ذكر أمرين واجبي الوقوع، وأيضا فقد ذكر الله تعالى في السورة السابقة بداية خلق آدم ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون» وذكر في هذه ما خلق من النعم له ولأولاده مثل خلق نعمة الانعام وانزال الماء من السماء، وانبات الزرع والريتون والنخيل والاعناب ونعم أخرى كاللبن والعسل والازواج والذرية وغير ذلك، ولهذا قال قتادة تسمى هذه السورة سورة النعم وهذه مناسبة واضحة. جواهر البيان : 49-50 وتناسق الدرر : 112.

(287) . في ب : تنزيها.

(288) . في ب : فيه.

(289) . في ب : ذلك.

(290) . ساقطة من : ب.

عليه من الرأفة والرحمة اللتين بهما أخرج العقوبة عن مستوجبها، وهدى من لم يستحق الهداية بذاته بل كل هداية فبرأفة الخالق ورحمته، ثم أعقب ما ذكره بعد من خلق الخيل والبغال والحمير وما في ذلك كله قوله : «ولو شاء لهداكم أجمعين» (آية : 9) فيبين أن كل الواقع من هداية وضلال، خلقه وفعله، وأنه أوجد الكل من واحد وابتدأهم ابتداء واحدا «خلق الانسان من نطفة» (آية 4)، فلا بعد في اختلاف غاياتهم بعد ذلك، فقد ارانا سبحانه مثال هذا الفعل ونظيره في قوله : «هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر إلى قوله لأية لقوم يتفكرون» (الآيتان : 10—11).

سورة الاسراء (291)

لما تقدم قوله تعالى : «إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا (ولم يكن من المشركين)» (292) إلى قوله «ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا.... الآية» (النحل : 120—123) كان ظاهر ذلك تفضيل إبراهيم عليه السلام على محمد ﷺ وعلى جميع الأنبياء لا سيما مع الأمر بالاتباع، فاعقب ذلك بسورة الاسراء،

(291) . هذه السورة الكريمة، والسور الأربع التي تليها — الكهف، ومريم، وطه، والأنبياء — في جماعتها سور مكية هكذا ثبتت في المصحف وعرفها الصحابة منذ نزولها بهذه الكيفية كما جاء ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنهم فيما أخرجه البخارى وغيره. (انظر فتح البارى : 8 / 388 و 435) قال : بني اسرائيل ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادي.

ووجه مناسبتها لما قبلها — والله اعلم — ان «النحل» التي سبقتها هي سورة الامتنان بالنعم على جميع الخلق، وهذه السورة بيان للنعم الخاصة بسيد الخلق محمد ﷺ، فأبتدأت بذكر إسرائئه وجاء فيها بعد تعداد بعض النعم التي خص بها قوله تعالى : «ومن الليل تهجد به نافلة لك عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا» (الآية : 79)، وقد جاء أن التهجد وقيام الليل كان مفروضا عليه ﷺ.

ومن الظاهر في هذه السورة ان الله عز وجل ذكر أفضل نعمة على بني آدم وهي نعمة التكريم والتفضيل على سائر المخلوقات في قوله عز وجل «ولقد كرمتنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا»، ففيها تخصيص بعد أن ذكرت النعم بشكل عام في السورة السابقة. وانظر أوجها أخرى في كتاب جواهر البيان في تناسب سور القرآن لأبي الفضل عبد الله بن الصديق. ص : 50—51.

(292) . ب : ساقطة.

وقد تضمنت من خصائص نبينا (عليه السلام) (293) وانطوت على ما حصل من المنصوص في الصحيح والمقطوع به والمجمع عليه من أنه ﷺ سيد ولد آدم (294) فاستفتحت السورة بقصة الاسراء، وقد تضمنت حسبا وقع في صحيح مسلم وغيره امامته بالأنبياء عليهم السلام وفيهم إبراهيم وموسى وغيرهما من الأنبياء من غير استثناء (295)، هذه رواية ثابت عن أنس (رضي الله عنه) (296) (وهي أنقى رواية عند أهل صناعة الحديث وأجودها) (297)، وفي (298) حديث (أبي هريرة أنه عليه السلام) (299) أثنى على ربه فقال : (الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين كافة وللناس بشيرا ونذيرا. وأنزل علي القرآن فيه تبيان كل شي وجعل أمتي خير أمة (أخرجت للناس) (300)، وجعل أمتي وسطا، وجعل أمتي (هم) (301) الأولون وهم

(293). ب : ﷺ.

(294). جاء عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري وعن جابر قوله ﷺ : انا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع أخرجه مسلم وأبو داود من حديث أبي هريرة، وجاء في رواية أبي سعيد الخدري انا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، ويبدى لواء الحمد ولا فخر. الحديث أخرجه أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجة، وفي رواية جابر أنا قائد المرسلين ولا فخر وانا خاتم النبيين ولا فخر... الحديث أخرجه الدارمي. انظر : فيض القدير 3/ 42 وصحيح مسلم : 4/ 1782.

قال القاضي عياض في الشفا : 1/ 165، لا خلاف انه أكرم البشر وسيد ولد آدم وأفضل الناس منزلة عند الله وأعلامهم درجة وأقربهم زلفى، واعلم أن الاحاديث الواردة في ذلك كثيرة جدا، وقد ساق طرفا منها، فانظرها هناك.

(295). أما الاسراء والمعراج فقد أجمع عليه المسلمون وتواتر فقد روي عن خمسة وأربعين صحابيا وجاء في كتب ودواوين الاسلام ولا ينكره بعد أن ورد به الكتاب ورواه هذا الجمع من الصحابة الا زنديق معاند أو جاهل جاحد، وصلاته صلى الله عليه وسلم بالانبياء ثابتة في الصحاح

(296). أ : ساقطة.

(297). ب : ساقطة. وانظر رواية ثابت البناني عن أنس في صحيح مسلم : 1/ 145 و 147 وكأن المصنف يعرض بالرواية التي جاءت عن شريك ابن أبي نمر وقد قال الأئمة ان فيها اضطرابا ونبه الى ذلك الامام مسلم في صحيحه حيث قال عن رواية شريك : وقدم فيه شيئا وأخر، وزاد ونقص : صحيح مسلم 1/ 148. وسبب ذلك ان شريكا ساء حفظه ولم يضبط الحديث انظر تفسير ابن كثير : 4/ 240.

(298). ب : في.

(299). ب : ساقطة.

(300). أ : ساقطة.

(301). ب : ساقطة.

الآخرون، وشرح لي صدري، ووضع عني وزري ورفع لي ذكري، وجعلني فاتحا وخاتما فقال إبراهيم (عليه السلام) (302) بهذا فضلكم محمد).

وفي رواية أبي هريرة (303) (رضي الله عنه) (304) من طريق الربيع بن أنس وذكر صلى الله عليه وسلم سدره المنتهى وأنه تبارك وتعالى قال له : سل فقال إنك اتخذت إبراهيم خليلا وأعطيته ملكا عظيما، وكلمت موسى تكليما، وأعطيت داود ملكا عظيما، وألئت له الحديد وسخرت له الجبال، وأعطيت سليمان ملكا عظيما، وسخرت (305) له الجن والانس والشياطين والرياح وأعطيته ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، وعلمت عيسى التوراة والانجيل وجعلته يرىء الأكمة والأبرص، وأعدته وأمه من الشيطان الرجيم، فلم يكن له عليهما سبيل فقال له ربه تعالى : قد اتخذتك حبيبا فهو مكتوب في التوراة (محمد) (306) حبيب الرحمن وأرسلتك إلى الناس كافة، وجعلت أمتك هم الأولون والآخرون، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي، وجعلتك أول النبيين خلقا وآخرهم بعثا، وأعطيتك سبعا من المثاني ولم أعطهما لنبي (307) قبلك وأعطيتك خواتم البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبيا قبلك، وجعلتك فاتحا وخاتما (308).

(302). أ : ساقطة.

(303). وحديث أبي هريرة — وفيه الثناء على الله — أخرجه مطولا ابن جرير الطبري والبخاري وأبو يعلى ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة وابن عدي والبيهقي في الدلائل وابن مردويه. انظر تفسير الطبري ج 15 / 8 والدر المنثور 4 / 144.

قال الحافظ ابن كثير : وهي رواية مطولة جدا وفيها غرابة انظر التفسير : 4 / 266. واسناده عند ابن جرير : حدثني علي بن سهل قال حدثنا حجاج قال أخبرنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية الرياحي عن أبي هريرة أو غيره (شك أبو جعفر) الحديث...

(304). أ : ساقطة.

(305). ب : سخرت.

(306). ب : ساقطة.

(307). ب : نبيا.

(308). قال أبو جعفر الرازي رواية عن الربيع ابن أنس خاتم النبوة وفاتح بالشفاعة. وانظر عن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة كتاب : نبوة محمد في الكتاب المقدس للدكتور احمد حجازي السقاء ص : 74 وما بعدها. وهو رسالة دكتوراة قدمت الى كلية اصول الدين بجامعة الأزهر سنة 1977 وقد أورد سبع نبوءات من التوراة مطابقة لما ورد في القرآن الكريم عن محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته وأمته.

وفي حديث شريك أنه رأى موسى عليه السلام في السماء السابعة (309) قال بتفضيل كلام الله، قال ثم علا به فوق ذلك ما لا يعلمه إلا الله فقال (موسى) (310) لم أظن أن يرفع علي أحد (311).

وفي حديث علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) (312) أخرجه البزار في ذكر تعليمه عليه (السلام) (313) الأذان وخروج الملك فقال رسول الله ﷺ يا جبريل من هذا؟ قال : والذي بعثك بالحق إني لأقرب الخلق مكاناً وإن هذا الملك ما رأيته منذ خلقت قبل ساعتني هذه... الحديث (314)، وفيه ثم أخذ الملك بيد

(309) . أ : موسى في السابعة.

(310) . ب : ساقطة.

(311) . رواية شريك هذه. انظرها بطولها في صحيح البخاري في كتاب التوحيد 13 / 478.

(312) . أ : ساقطة.

(313) . في ب : ﷺ .

(314) . قال البزار : حدثنا محمد بن عثمان بن مخلد الواسطي ثنا أبي عن زياد بن المنذر عن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جده عن علي لما أراد الله تبارك وتعالى أن يعلم رسوله الأذان أتاه جبريل صلى الله عليهما بداية يقال لها البراق، فذهب يركبها فاستصعبت فقال لها جبريل : أسكني فوائده ما ركبت عبد اكرم على الله من محمد ﷺ قال فركبها حتى انتهى الى الحجاب الذي يلي الرحمن تبارك وتعالى، قال : فبينما هو كذلك اذ خرج ملك من الحجاب فقال رسول الله ﷺ يا جبريل ما هذا ؟ فقال : والذي بعثك بالحق إني لأقرب الخلق مكاناً وإن هذا الملك ما رأيته منذ خلقت قبل ساعتني هذه فقال الملك : الله أكبر الله أكبر قال فقيل له من وراء الحجاب صدق عبدي أنا أكبر أنا أكبر، ثم قال الملك : أشهد أن لا اله الا الله قال فقيل له من وراء الحجاب صدق عبدي انا ارسلت محمداً، قال الملك حي على الصلاة، حي على الفلاح، قد قامت الصلاة، ثم قال الله أكبر الله أكبر، قال فقيل له من وراء الحجاب : صدق عبدي انا أكبر انا أكبر ثم قال : لا اله الا الله قال فقيل له من وراء الحجاب : صدق عبدي لا اله الا أنا، قال ثم أخذ الملك بيد محمد صلى الله عليه وسلم فأم أهل السماء فيهم آدم ونوح. قال أبو جعفر محمد بن علي : فيومئذ اكمل الله لمحمد ﷺ الشرف على أهل السماوات والارض.

قال البزار : لا نعلمه يروى عن علي بهذا اللفظ الا بهذا الاسناد، وزیاد بن المنذر شيعي روى عنه مروان بن معاوية وغيره، (انظر كشف الأستار : 1 / 178).

وزیاد بن المنذر أبو الجارود الاعمى رافضي خبيث كذبه يحيى بن معين وقال : عدو الله ليس يسوى فلسا وقال ابن حبان كان رافضيا يضع الحديث في مثالب اصحاب رسول الله ﷺ ويروي في فضائل أهل البيت أشياء

محمد ﷺ فقدمه فأَمَ أهل⁽³¹⁵⁾ السماء فيهم آدم ونوح.

وفي هذا الحديث قال أبو جعفر محمد بن علي راويه : اكمل الله لمحمد ﷺ الشرف على أهل السماوات والارض، قلت :⁽³¹⁶⁾ (وفي هذا الحديث إشكالات صعبة فلهذا لم نورد منه إلا أطرافاً بحسب الحاجات، إذ ليس ما فيه الاشكال من مطلوبنا هنا)⁽³¹⁷⁾.

وقد حصل منه تفضيله ﷺ بالاسراء وخصوصه بذلك، ثم قد انطوت السورة على ذكر المقام المحمود، وهو مقامه في الشفاعة الكبرى⁽³¹⁸⁾، وذلك مما خص به حسبما ثبت في الصحيح، وانعقد عليه إجماع أهل السنة، ولا أعلم في الكتاب العزيز سورة تضمنت من خصائصه التي⁽³¹⁹⁾ فضل بها⁽³²⁰⁾ كافة الأنبياء مثل ما تضمنت هذه السورة والحمد لله.

= ما لها أصول، لا يحل كتب حديثه، وهو رأس الفرقة الجارودية المنسوبة إليه. انظر تهذيب التهذيب : 3 / 386،

والمغني في الضعفاء : 1 / 244.

وأقول أثر الصنعة والوضع ظاهر في هذا الحديث.

. ب : بأهل.

(315) . ب : بأهل.

(316) . ب : قال ابن الزبير.

(317) . ب : ساقطة.

(318) . احاديث الشفاعة كثيرة ومتواترة انظرها في الخصائص الكبرى للسيوطي 2 / 218 وتفسير ابن كثير :

333 / 4.

(319) . ب : الذي.

(320) . ب : به.

سورة الكهف (321)

(321) هذه السورة مكية النزول على ما أخرجه النحاس وابن عباس وابن الزبير ووافقه عليه جميع المفسرين كما يقول القرطبي، وموضوعها وتوجيهاتها تؤيد ذلك وتؤكد. وقد ورد في فضلها أن في قراءتها وقاية من الفتن المادية والمباهج الدنيوية الآتية وفي قمتها الدجال الذي يزين الباطل بالحق ويضل الناس وهو أعظم فتنة تواجه المسلمين، فقد أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ : من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف (وفي روايات عديدة من آخرها عصم من فتنة الدجال) انظر عمل اليوم والليلة : 27 والدر المنثور : 4/ 209.

ووجه ارتباطها بما قبلها — والله اعلم — أنه لما تقدم في سورة الاسراء قوله تعالى : «انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا لا تجعل مع الله الها آخر الى قوله كل ذلك كما سيئة عند ربك مكروها (21—38) جاء قوله تعالى : في نفس السورة ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة، ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا» (39)، كما جاء فيها تعاليم علوية المنزعة، سماوية التوجيه مع ما فيها من خصوصيات للنبي ﷺ، اعقبتها سورة الكهف وفيها اخبار سماوية لا يطلع على حقائقها بشر، فقد يعرفون جزءا منها، ولكنهم لا يدركون أبعادها وتوجيهاتها، وهذه الاخبار التي وردت فيها أربع قصص عجيبة : اصحاب الكهف، وصاحب الجنتين، وموسى والخضر، وذو القرنين، وتمثل هذه القصص مواجهة الايمان في حياة الانسان مع المادية التي تستولي على بعض بني البشر، فشرحتها هذه القصص باجلى بيان، وقضى الله فيها أن الغلبة في النهاية للايمان، وكان هذه القصص تفصيل لقوله تعالى في سورة الاسراء «من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا» (18—19)

ويمكن القول باجمال ان الارتباط والتناسب من وجهين اثنين :
اولهما : بيان غلط تفكير الذين انكروا الاسراء والمعراج وتعجبوا منه واستغربوه، لأن فيه خرقا لنواميس المادة، فكشف الله لهم عن حقائق جرت على هذه الارض وفيها خرق لنواميس المادة وطبيعتها.
ثانيهما : اخبارهم بمعلومات سماوية فيها العجب لمن يتعجب منهم، وإيضاح الحقيقة لذوي الأبواب بما يدل على صد محمد ﷺ ونبوته.

ثالثها : انه جاء في السورة السابقة «فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا (آية 104) ثم فصل ذلك في هذه السورة بقوله : «فاذا جاء وعد ربى جعله دكا وكان وعد ربى حقا، وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا، وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا» (آية : 94—96).

من الثابت المشهور⁽³²²⁾ أن قريشا بعثوا إلى يهود بالمدينة يسألونهم في أمر رسول الله ﷺ فأجابتها⁽³²³⁾ يهود بسؤاله عن ثلاثة أشياء قالوا فإن أجابك (بجوابها)⁽³²⁴⁾ فهو نبي، وإن عجز (عن جوابكم)⁽³²⁵⁾ فالرجل متقول، فروا فيه⁽³²⁶⁾ رأيكم وهي : الروح، وفتية ذهبوا في الدهر الأول، وهم أهل الكهف، وعن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغربها، فأنزل الله عليه (سبحانه)⁽³²⁷⁾ جواب ما سألوه وبعضه في سورة الاسراء «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي»⁽³²⁸⁾ (آية : 85)، واستفتح تعالى سورة الكهف بحمده وذكر نعمة الكتاب وما أنزل بقريش وكفار العرب من البأس يوم بدر وعام الفتح وبشارة المؤمنين بذلك وما منحهم الله من النعيم الدائم وانذار القائلين بالولد من النصارى وعظيم مرتكبهم وشناعة قولهم : «ان يقولون إلا كذبا» (آية : 5) وتسلية نبي الله ﷺ في أمر جمعهم «فلعلك باخع نفسك الآية...» (آية : 6) والتحمت الآي أعظم التحام وأحسن التئام إلى ذكر ما سأل عنه الكفار من أمر الفتية «أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا» (آية : 9) ثم بسطت الآي قصتهم وأوضحت أمرهم واستوفت خبرهم، ثم ذكر سبحانه أمر ذي القرنين وطوافه وانتهاء أمره فقال : «ويسألونك عن ذي القرنين.... الآيات» (آية : 83—94) وقد فصلت بين القصتين مواعظ وآيات مستجدة على أتم ارتباط وأجل اتساق⁽³²⁹⁾ ومن جملتها قصة

(322). قوله من الثابت المشهور فيه تجوز لأن هذا الخبر لم يخرج في الصحيحين ولا في الكتب الستة، بل أخرجه ابن إسحاق في سيرته وابن جرير الطبري في تفسيره، وأبو نعيم في دلائل النبوة، وكذلك البيهقي في سننه وابن المنذر في تفسيره. انظر الدر المنثور : 4/ 210. وهذه الكتب لا تلتزم الصحة، ولهذا فتعبيره هذا فيه تجاوز وتسامح.

(323). أ : فأجابته.

(324). ب : ساقطة.

(325). ب : ساقطة.

(326). أ : فيكم.

(327). ب : ساقطة.

(328). في ب : ويسألونك عن الروح الآية.

(329). في ب : أنساق.

الرجلين وجنتي أحدهما وحسن الجنتين وما بينهما وكفر صاحبهما واغتراره وهما من بني إسرائيل ولهما قصة، وقد أفصحت هذه الآي منها⁽³³⁰⁾ باغترار أحدهما بما لديه وركونه إلى توهم البقاء وتعويل صاحبه على ما عند ربه ورجوعه إليه وانتهاء أمره بعد المحاورة الواقعة في الآيات بينهما إلى إزالة ما تخيل المفتون بقاءه ورجع ذلك كأنه⁽³³¹⁾ لم يكن ولم يبق بيده إلا الندم، ولا صح له من جنتيه بعد عظيم تلك البهجة سوى التلاشي والعدم. (وهذه حال من)⁽³³²⁾ ركن إلى ما سوى المالك، وكل شيء إلا وجهه سبحانه وتعالى فإنه فان وهالك، «إنما الحياة الدنيا لعب ولهو» (محمد : 36) «ففروا إلى الله» (الذاريات : 50).

ثم أعقب ذلك بضرب مثل الحياة الدنيا لمن اعتبر واستبصر، وأعقب تلك الآيات بقصة موسى والخضر عليهما السلام إلى تمامها وفي كل ذلك من تأديب بني إسرائيل وتقريعهم وتوبيخ مرتكبهم في توقفهم عن الايمان وتعنيفهم في توهمهم عند فتواهم لكفار قريش بسؤاله عليه السلام عن القصص الثلاث، ان قد حازوا العلم وانفردوا بالوقوف على ما لا يعمله غيرهم، فجاء جواب قريش بما يرغم الجميع ويقطع⁽³³³⁾ دابرهم، وفي ذكر قصة موسى والخضر إشارة⁽³³⁴⁾ لهم لو عقلوا وتحريك لمن سبقت له منهم السعادة، وتنبيه لكل موفق في تسليم الاحاطة لمن هو العليم الخبير، وبعد تقريعهم وتوبيخهم بما أشير إليه عاد الكلام إلى بقية سؤالهم فقال : «ويسألونك عن ذي القرنين» إلى آخر القصة (آية : 83) وليس بسط هذه القصص من مقصودنا وقد حصل ما أردناه ولم يبق إلا السؤال عن وجه انفصال جوابهم ووقوعه في السورتين مع أن السؤال واحد وهذا ليس من شرطنا فلننساه بحول الله إلى⁽³³⁵⁾ موضعه ان قدر به⁽³³⁶⁾.

(330). في ب : منها.

(331). في أ : كان.

(332). في أ : غير مقروء بسبب الحرم.

(333). في أ : ويقطع.

(334). في ب : بشارة.

(335). في أ : في.

(336). والسر في ذلك — والله أعلم — أنه لما لم يقع الجواب عند السؤال الأول — يسألونك عن الروح — فصل عن بقية الأسئلة التي جاء جوابها شافيا كافيا، مع بيان المولى عز وجل ليهود وغيرهم أنهم لم يؤثروا الا قليلا من أجوبة هذه الاسئلة وغيرها ثم جاء التفصيل في السورة اللاحقة — الكهف — لما أقرؤا بصدق هذا الكلام وعجزوا عن الرد عليه.

سورة مريم (337)

لما قال تعالى : «أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا» (الكهف : 9) ثم أورد خبرهم وخبر الرجلين موسى والخضر (عليهما السلام) (338)، وقصة ذي القرنين، اتبع سبحانه ذلك (339) بقصص تضمنت من العجائب ما هو أشد عجبا واخفى سببا فافتتح سورة مريم ببيحيى بن زكريا وبشارة زكريا به بعد الشيخوخة وقطع الرجاء وعقر الزوج حتى سأل زكريا مستفهما ومتعجبا «أنى يكون لي غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا» (آية : 8) فأجابه (الله) (340) تعالى بأن ذلك عليه هين وأنه يجعل ذلك آية للناس وأمر هذا أعجب من القصص المتقدمة فكأن قد قيل : أم حسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا نحن نخبرك بخبرهم ونخبرك بما هو أعجب وأغرب وأوضح آية وهو قصة (زكريا في ابنه يحيى) (341) عليهما/ السلام، وقصة عيسى (عليه السلام) في كينونته بغير أب ليعلم أن الأسباب في الحقيقة لا يتوقف

(337) . وهي مكة باجماع، وقد قرأ جعفر ابن أبي طالب طرفا منها في حضرة النجاشي عندما تابعهم القرشيون الى الحبشة وأرادوا ايداءهم بعد غزوة بدر والانتقام منهم فيكى النجاشي ومن معه من الأساقفة حتى اخضلوا لحاهم وقال : ان هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة. انظر : سيرة ابن هشام 1 / 359.

ووجه مناسبتها لسورة الكهف اشتغالها على نحو ما اشتملت عليه من أعاجيب القصص كقصة ولادة يحيى وقصة ولادة عيسى عليهما السلام وهو ما بينه المؤلف أوضح بيان.

(338) . أ : ساقطة.

(339) . ب : ذلك سبحانه.

(340) . ب : ساقطة.

(341) . ب : يحيى في ابنه زكريا.

عليها شيء من مسبباتها إلا بحسب سنة الله، وإنما الفعل له سبحانه لا لمسبب⁽³⁴²⁾ وإلى هذا أشار قوله تعالى لذكرنا عليه السلام «وقد خلقتك من قبل ولم تكن شيئا» (آية : 9) ثم اتبع سبحانه بشارة زكريا بيحيى باتيانة الحكم صبيا ثم بذكر مريم وابنها عليهما السلام وتعلقت الآي بعد إلى انقضاء السورة.

سورة طه⁽³⁴³⁾

لما ذكر سبحانه قصة إبراهيم وما منحه وأعطاه وقصص الأنبياء بعده بما خصهم به، وأعقب ذلك بقوله تعالى : «أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم» (مريم : 58) وكان ظاهر (هذا)⁽³⁴⁴⁾ الكلام تخصيص هؤلاء بهذه المناصب العالية والدرجات المنيفة الجليلة لا سيما وقد اتبع ذلك بقوله «فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا» (مريم : 59) كان هذا مظنة اشفاق وخوف فاتبعه تعالى بملاطفة نبيه (محمد)⁽³⁴⁵⁾ ﷺ

(342). أ : غير مقروءة بسبب الحرم.

(243). هذه السورة مكية بالاجماع، وهي من قديم ما نزل، وكان ذلك قبل اسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد أخرج الدارقطني في سننه وابن اسحاق في سيرته قصة اسلام عمر بن الخطاب وأنه خرج شاهرا سيفه يريد قتل رسول الله ﷺ، ثم ذهب الى أخته فاطمة وزوجها خباب بن الارت فوجد عندها سورة طه مكتوبة فكانت سبب اسلامه، انظر سيرة ابن اسحاق 1/ 297، تلخيص الجبير 1/ 132، عيون الاثر 1/ 122.

ومن اوجه تناسب هذه السورة بالتالي قبلها أيضا أنها نزلت بعدها كما روى ذلك عن ابن عباس، وأن أول هذه متصل بآخر تلك ومناسب له في المعنى حيث جاء في آخر سورة مريم قوله تعالى : «فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا» وجاء في مطلع هذه السورة قوله تعالى : «ما انزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى» وأنه تعالى لما ذكر في سورة مريم قصص عدد من الأنبياء والمرسلين بعضها بطريق البسط والاطناب كقصص زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام وبعضها بين البسط والانيجاز كقصص إبراهيم عليه السلام وبعضها موجز يحمل كقصص موسى عليه السلام، ذكر هنا قصة موسى التي اجملت فيما سلف، واستوعبها غاية الاستيعاب، ثم فصل قصة آدم عليه السلام، ولم يذكر في سورة مريم الا اسمه. انظر تفسير المراغي : 17/ 93.

(344). أ : ساقطة.

(345). ب : ساقطة.

ملاطفة المحبوب المقرب المحتبى فقال : «ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» (آية : 2) وأيضا فقد ختمت سورة مريم بقوله تعالى : «وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا» (آية : 98) بعد قوله : «وتنذر به قوما لذا» (آية : 97) وقد رأى عليه السلام من تأخر قريش عن الاسلام ولردها ما أوجب اشفاقه وخوفه عليهم ولا شك أنه عليه السلام يحزنه تأخر إيمانهم ولذلك قيل له : فلا تحزن عليهم»⁽³⁴⁶⁾.

فكأنه، عليه (الصلاة)⁽³⁴⁷⁾ والسلام ظن أنه (يستصعب)⁽³⁴⁸⁾ المقصود من استجابتهم أو ينقطع الرجاء من (إنابتهم)⁽³⁴⁹⁾ فيطول العناء والمشقة فبشره سبحانه بقوله : «ما أنزلنا عليه القرآن لتشقى : (آية : 2) فلا عليك من لدن هؤلاء وتوقفهم فسيستجيب من انطوى على الخشية إذا ذكر وحرك إلى النظر في آيات الله كما قيل له في موضع آخر «فلا يحزنك قولهم» (آية : يس 76).

ثم اتبع (سبحانه)⁽³⁵⁰⁾ ذلك تعريفًا وتأييسًا بقوله : «الرحمن على العرش استوى» (آية : 5) إلى أول قصص موسى عليه السلام (الرحمن : 1) فأعلم سبحانه أن الكل خلقه وملكه وتحت قهره وقبضته لا يشذ شيء عن ملكه، فإذا شاء هداية/ من وفقه لم يصعب أمره، ثم اتبع ذلك بقصة⁽³⁵¹⁾ موسى عليه السلام وما كان منه في القائه صغيرا في اليم، وما جرى بعد ذلك من عجيب الصنع وهلاك فرعون وظهور بني إسرائيل، وكل هذا مما يؤكد القصد المتقدم، وهذا الوجه الثاني أولى من الأول والله أعلم.

(346). إشارة الى قوله تعالى : «ولا تحزن عليهم ولأنك في ضيق مما يمكرون» (النحل : 127).

(347). أ : ساقطة.

(348). أ : يستضعف. ب : يستصعب.

(349). أ : اذابتهم.

(350). ب : ساقطة.

(351). أ : بقتلهم.

سورة الأنبياء (352)

لما تقدم قوله سبحانه «ولا تمدن عينيك إلى قوله فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى» (طه : 131—135) قال تعالى : «اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون» (آية : 1) أي لا تمدن عينيك إلى ذلك فإني جعلته فتنة لمن ناله بغير حق ويسأل عن قليل ذلك وكثيره «لتسألن يومئذ عن النعيم» (التكاثر : 8) والأمر قريب «اقرب للناس حسابهم» وأيضا فإنه تعالى لما قال : «وتنذر به قوما لذا» (مريم : 97) وهم الشديدي الخصومة في الباطل (المرتكبوا للجح) (353) ثم قال (تعالى) (354) «وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا» (355) (مريم : 98) استدعت هذه الجملة بسط حال ابتدأت بتأنيسه عليه السلام وتسليته (حتى لا) (356) يشق عليه لردهم، فتضمنت سورة طه من هذا الغرض بشارته بقوله : «ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى (طه : 2) وتأنيسه بقصة موسى عليه السلام وما كان من حال بني إسرائيل وانتهاء أمر فرعون ومكابدة موسى عليه السلام لدد (357) فرعون ومرتكبه إلى أن وقصه الله وأهلكه

(352) . هذه السورة مكية باجماع، اخرج البخاري عن ابن مسعود أنه قال : «بنو اسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والانبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادى».

وعن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب فأكرم مثواه، وكلم فيه رسول الله ﷺ فجاءه الرجل فقال : اني استقطعت رسول الله واديا ما في ديار العرب واد أفضل، وقد أردت أن أقطع اليك قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك فقال عامر : لا حاجة لي في قطعك نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا، يعني سورة الانبياء. انظر تفسير المراعي : 3/ 17.

ومن مناسبة هذه السورة لما بعدها أن تلك ختمت بأن الناس قد شغلهم زهرة الحياة الدنيا، وأن الله نهي نبيه أن يتطلع اليها، وأمره بالصلاة والصبر عليها، وان العاقبة للمتقين، وبدئت هذه السورة بمثل ما ختمت به السالفة من ان الناس غافلون عن الساعة والحساب، وأنهم لا يستمعون للقرآن الا وهم لاعبون، لاهية قلوبهم عنه.. انظر المصدر السابق.

(353) . أ. ب. الم يكفوا النجح، والصواب ما أثبتته.

(354) . ب : ساقطة.

(355) . ب : وكم أهلكنا قبلهم من قرن الى آخرها.

(356) . أ : على ما.

(357) . ب : لرد.

وأورث عباده أرضهم وديارهم، ثم اتبعت بقصة آدم عليه السلام ليرى نبيه (ﷺ) (358) سننه في عباده حتى أن آدم عليه السلام وإن لم يكن امتحانه بذريته ولا مكابדתه من أبناء جنسه فقد كابد من إبليس ما قصه (359) الله في كتابه، وكل هذا تأنيس للنبي (ﷺ)، فإنه إذا تقرر لديه أنها سنة الله تعالى في عباده هان عليه لدد قریش ومكابدتهم ثم ابتدأت سورة الأنبياء ببقية هذا التأنيس فبين اقتراب الحساب ووقوع يوم الفصل المحمود فيه ثمرة ما كابد في ذات الله والمتمنى فيه أن لو كان ذلك أكثر والمشقة أصعب لجليل الثمرة وجليل الجزاء، ثم اتبع سبحانه ذلك بعظات / ودلائل (ومواعظ) (360) وبسط آيات، وأعلم أنه سبحانه قد سبقت سنته فأهلك (361) من لم يكن منه الايمان من متقدمي القرون وسالفي الأمم «ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها» (آية : 6) وفي قوله : «أفهم يومنون» (آية : 6) تعزية لرسول الله (ﷺ) في أمر قریش ومن (362) قبيل ما الكلام بسبيله (363).

وقد تضمنت هذه السورة إلى ابتداء قصة إبراهيم عليه السلام من المواعظ والتنبية على الدلالات وتحريك العباد إلى الاعتبار بها ما يعقب لمن اعتبر به التسليم والتفويض لله سبحانه والصبر على الابتلاء وهو من مقصود السورة في قوله تعالى : «ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين» (آية : 9) اجمال لما فسره النصف الأخير من هذه السورة من تخليص الرسل عليهم السلام من قومهم واهلاك من أسرف وأفك ولم يؤمن، وفي ذكر تخليص الرسل وتأبيدهم الذي تضمنه النصف الأخير من لدن قوله : «ولقد آتينا إبراهيم رشده (آية : 51) إلى (آخر) (364) السورة» (آية : 112) كمال الغرض المتقدم من التأنيس وملاءمة ما تضمنته سورة طه وتفصيل المجمل «وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا» (مريم : 98).

(358). أ : ساقطة.

(359). أ : ما نصه.

(360). ساقطة من : ب.

(361). ب : بأهلك.

(362). أ : من . ج.

(363). ب : سبيله.

(364). ب : ساقطة.

سورة الحج (365)

لما افتتحت سورة الأنبياء بقوله تعالى : «اقرب للناس حسابهم» (الأنبياء : 1) وكان (366) واردا في معرض التهديد، وتكرر في مواضع منها كقوله تعالى : «والينا يرجعون» (آية : 35) سأوريكم آياتي فلا تستعجلون ويقولون متى هذا الوعد (إن كنتم صادقين) (367) «لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار» (الآيات : 37—39) «ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك (آية : 46) «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة» (آية : 47) «وهم من الساعة مشفقون» (آية : 49) «كل الينا راجعون» (آية : 93) «واقرب الوعد الحق» (آية : 97) «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم (أنتم لها واردون)» (368) (آية : 98) «يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب» (آية : 104) إلى ما تخلل هذه الآي من التهديد وتشديد الوعيد حتى لا تكاد تجد أمثال هذه الآي في الوعيد والانذار بما في الساعة وما بعدها وما بين يديها في نظائر هذه السورة، وقد ختمت من ذلك بمثل ما به ابتدئت، اتصل بذلك ما يناسبه من الاعلام بهول الساعة وعظيم أمرها فقال تعالى : يا أيها الناس اتقوا ربكم إلى قوله (تعالى) (369) «ولكن عذاب الله شديد» (آية : 1—2) ثم اتبع هذا ببسط الدلالات على البعث الأخير وإقامة البرهان «يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث» (آية 370)، (آية : 5) ثم قال : «ذلك بأن الله هو الحق» (آية : 6) أي اطردها هذا الحكم العجيب ووضح من تقلبكم من حالة إلى حالة في الأرحام وبعد خروجكم إلى الدنيا وأنتم تعلمون ذلك من أنفسكم وتشاهدون الأرض على صفة من الهمود

(365) . اختلف فيها هل هي مكية أم مدنية، والصحيح الذي عليه الجمهور أنها مختلطة، منها المكية ومنها المدني قيل هي من أعاجيب السور نزلت ليلا ونهارا سفرا وحضرا، مكيا، ومدنيا، سلميا وحربيا، ناسخا ومنسوخا، محكما ومتشابها، انظر القرطبي 1/ 12.

(366) . أ : كان.

(367) . ب : ساقطة.

(368) . ب : ساقطة.

(369) . ب : ساقطة.

(370) . أ : الآيات.

والموت إلى حين نزول الماء فتحيى وتخرج أنواع النبات وضروب الثمرات تسقى بماء واحد «ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى» (آية : 6) كما أحياكم أولاً وأخرجكم من العدم إلى الوجود وأحيى الأرض بعد موتها وهمودها (كذلك) (371) تأتي الساعة من غير ريب ولا شك ويبعثكم لما وعدتم من حسابكم جزائكم «فريق في الجنة وفريق في السعير» (الشورى : 7).

سورة المومنين (372)

فَصِّلْ في افتتاحها ما أجمل (373) في قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون» (الحج : 77) واعلم بما ينبغي للراكع والساجد التزامه من الخشوع، ولالتحام الكلامين أورد (374) الأول أمراً والثاني مدحة وتعريفاً بما به كمال الحال، وكأنه لما أمر المومنين وأطمع بالفلاح (375) جزاء لامتناله كان مظنة لسؤاله عن تفضيل ما أمر به من العبادة وفعل الخير الذي به

(371) . ب : ساقطة.

(372) . وهي مكة النزول في قول الجميع كما يقول القرطبي، وصح أن النبي ﷺ قرأ بها في صلاة الصبح بمكة كما أخرجه احمد ومسلم وغيرهما، لكن يحتمل ذلك أنه كان بعد الهجرة في حجة الوداع أو عمرة القضاء، بل في أحد طرق الحديث أنه كان يوم الفتح.

رجاء في فضلها في الحديث الذي أخرجه احمد والترمذي والنسائي وصححه الحاكم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان اذا نزل عليه الوحي كيُسمع عند وجهه كدوي النحل، وأنزل عليه يوماً فمكثنا عنده ساعة فسرني عنه، فاستقبل القبلة فرفع يديه فقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا، واعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارضنا وارض عنا، ثم قال : لقد أنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة. ثم قرأ : قد أفلح المومنون حتى ختم العشر. انظر الدر المنثور 2/ 5، والقرطبي 102/ 12.

وأضيف بأن ارتباط هذه السورة بسابقتها يتضح من خلال تشابه وتكامل موضوعات السورتين، فقد جاء في نهاية السورة السابقة أمر المومنين باقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وفعل الخيرات لعلهم يفلحون وافتتحت هذه السورة ببيان الخير المحقق لذلك الفلاح والموصل الى جنات الفردوس (الآيات : من 1—11). وأيضاً ففي السورتين الحديث عن النشأة الأولى واعتبار ذلك دليلاً على البعث والنشور، واشتباها على قصص الأنبياء الماضين وأممهم للعلظة والاعتبار، مع ذكر الأدلة على وجود الخالق ووحدانيته.

(373) . أ : جمل.

(374) . أ : أورد ما.

(375) . أ : الفلاح.

يكمل فلاحه فليل له (المفلح من التزم كذا وكذا وذكر سبعة أضرب من العبادة وفعل الخير الذي يكمل به فلاحه، فليل له) (376) هي أصول لما وراءها ومستتبعة سائر التكاليف، وقد بسط حكم كل عبادة منها وما يتعلق بها في الكتاب والسنة.

ولما كانت المحافظة على الصلاة منافرة اتيان المأثم جملة : «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» (العنكبوت : 45) لذلك اختتمت بها هذه العبادات بعد التنبيه على محل الصلاة من هذه العبادات (337) بذكر (التنبيه على الخشوع) (378) فيها أولا، واتبعت هذه الضروب السبعة بذكر أطوار سبعة يتقلب فيها الانسان قبل خروجه إلى الدنيا/ فقال تعالى : «ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين إلى قوله : (ثم) (379) أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين» (380) (الآيات : 12—14) (وكان) (381) قد قيل له إنما كمل خلقك وخروجك إلى الدنيا بعد هذه التقلبات السبعة، وإنما تتخلص من دنياك بالتزام هذه العبادات السبع، وقد وقع عقب هذه الآيات قوله تعالى : «ولقد خلقنا فوقك سبع طرائق» (آية : 17) ولعل ذلك مما يقرر هذا الاعتبار، ووارد لمناسبته والله أعلم. وكان صدر هذه السورة مفسرا لما أجمل في الآيات قبلها فكذا الآيات بعد مفصلة لمجمل ما تقدم في قوله تعالى : «يا أيها الناس إن كنتم في ريب من

(376) . أ : ساقطة.

(377) . في الأصل : لذلك ما ختمت بها هذه العبادات بعد التنبيه على محل الصلاة من هذه العبادات.

(378) . ب : ساقطة.

(379) . أ : ساقطة.

(380) . الأطوار السبعة هي :

1 — الطين.

2 — النطفة.

3 — العلقة.

4 — المضغة.

5 — خلق العظام.

6 — كسوة العظام باللحم.

7 — نفخ الروح وبها تمام الخلق، فتبارك الله أحسن الخالقين.

(381) . ب : وكأنه.

البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة الآية (الحج آية : 5) وهذا كاف في التحام السورتين والله سبحانه المستعان.

سورة النور⁽³⁸²⁾

لما قال تعالى : «والذين هم لفروجهم حافظون...» الآية (المومنون : 5) ثم قال (تعالى)⁽³⁸³⁾ «فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون» (المومنون : 7) استدعى الكلام بيان حكم العادين⁽³⁸⁴⁾ في ذلك، ولم يبين فيها، فأوضحه في سورة النور فقال تعالى : «الزانية والزاني... الآية» (آية : 2)، ثم اتبع ذلك بحكم اللعان والقذف، وانجر مع ذلك الأخبار بقصة الافك تحذيرا للمومنين من زلل الألسنة رجما بالغيب «وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم» (آية : 15)، واتبع ذلك بوعيد محبي⁽³⁸⁵⁾ شياع الفاحشة في المومنين بقوله تعالى : «ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المومنات... الآيات» (آية : 23) ثم بالتحذير من دخول البيوت إلا بعد الاستئذان المشروع، ثم بالأمر بغض البصر للرجال والنساء، ونهي النساء عن إبداء الزينة إلا لمن سمى الله سبحانه في الآية وتكررت هذه المقاصد في هذه السورة إلى ذكر حكم العورات الثلاث، ودخول بيوت الأقارب وذوي الأرحام، وكل هذا مما يبرىء ذمة المومن بالتزام ما أمر الله به من ذلك والوقوف عند ما حده تعالى من أن يكون من العادين المذمومين في قوله تعالى : «فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون» (المومنون : 7) وما تخلل الآي المذكورات ونسق عليها

(382). هذه السورة مدنية، روى مجاهد أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : علموا رجالكم سورة المائدة وعلموا نساءكم سورة النور، وعن حارث بن مضرب رضي الله عنه قال : كتب الينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور. انظر الدر المنثور : 5/ 18، والمراغي : 66/ 18.

وأضيف الى ما أبداه المؤلف من وجه الارتباط وجها آخر، وهو أن السورة السابقة لما ختمت بقوله تعالى : «افحسبم انما خلقناكم عبثا وانكم اليها لا ترجعون» جاءت هذه السورة لتبين جملة من الأوامر والنواهي، وتحمل الانسان مسؤولية فعله وقوله وما يترتب على ذلك من الجزاء العاجل بالقصاص في الدنيا والآجل بالعذاب الأليم في الآخرة.

(383). أ : ساقطة. وفي ب : العادة.

(384). أ : ساقطة.

(385). ب : محبي، أ : فجىء.

مما ليس من الحكم المذكور فلاستجرار الآي إياه واستدعائه ومظنة استيفاء ذلك وبيان ارتباط (386) التفسير، وليس من شرطنا هنا/ والله سبحانه يوفقنا لفهم كتابه.

سورة الفرقان (387)

لما تضمنت سورة النور بيان كثير من الأحكام كحكم الزنا ورمي الزوجات به والقذف والاستئذان والحجاب، واسعاف الفقير والكتابة وغير ذلك، والكشف عن مغيبات من تغاير (388) حالات تبين بمعرفتها والاطلاع عليها الخبيث من الطيب — كاطلاعه سبحانه نبيه والمومنين على ما تقوله أهل الإفك وبيان حالهم واضمحلال محالهم — (ثم) (389) في قصة المنافقين (في إظهارهم) (390) ضد ما يضمرون، ثم كريم وعده للخلفاء الراشدين «وعد الله الذين آمنوا منكم (وعملوا الصالحات)» (391) (النور : 55)، ثم ما فضح (به) (392) تعالى منافقي الخندق «قد

(386). أ : ارتباطه.

(387). هذه السورة مكية في جملتها، وبينها وبين السورة السابقة من التناسب أكثر من وجه : منها اختتام السورة السابقة بوصفه تعالى مالكا لما في السماوات والأرض مصرفا لهما على ما تقتضيه المصلحة والحكمة من النظام البديع، وافتتاح هذه بما يدل على تعاليه في ذاته وصفاته وأفعاله، وعلى حبه لخير عباده بانزال القرآن لهم هاديا وسراجا منيرا. ومنها اختتام السورة السابقة بوجوب متابعة المومنين للرسول ﷺ مع مدحهم على ذلك وتحذيرهم من مخالفة أمره خوف الفتنة والعذاب الأليم، وافتتاح هذه بمدح الرسول ﷺ وأنزلنا الكتاب عليه لأرشادهم الى سبيل الرشاد وذم الجاحدين لنبوته بقولهم : انه رجل مسحور وأنه يأكل الطعام... الخ.

ومنها وصف السحاب وانزال الأمطار فيهما معا ففي السورة السابقة قال تعالى : ألم تر أن الله يرزقي سحابا «الخ» وفي هذه قال : «وهو الذي ارسل الرياح بشرا»

ومنها وصف أعمال الكافرين فيهما معا يوم القيامة وانها لا تجديهم فتىلا فقال في الأولى «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة» الخ وقال في هذه «وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا».

ومنها وصف النشأة الأولى للانسان في اثنتاهما فقال في الأولى «وان الله خلق كل دابة من ماء» وفي الثانية «وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا».

انظر تفسير المراغي : 145/ 18.

(388). ب : تغير.

(389). ب : ساقطة.

(390). غير واضحة في «أ» بسبب خرم في المخطوطة.

(391). ب : ساقطة.

(392). أ : ساقطة وفي مكانها بياض.

يعلم الله الذين يتسللون منكم لو اذا» إلى آخر الآية (النور : 63) كان (في) (393)
مجموع هذا فرقانا يعتضد به الايمان ولا ينكره مقر بالرحمن، يشهد (394) لرسول الله
ﷺ بصحة رسالته ويوضح مضمّن (395) قوله تعالى : «لا تجعلوا دعاء الرسول
بينكم (كدعاء بعضكم بعضا)» (396) (النور : 63) من عظيم قدره ﷺ، وعلي
جلالته اتبعه سبحانه بقوله : «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده» (آية : 1) وهو
القرآن الفارق بين الحق والباطل والمطلع على ما أخفاه المنافقون وأبطنوه من المكر (397)
والكفر ليكون للعالمين نذيرا، فيحذرهم من مرتكبات المنافقين والتشبه (398) بهم، ثم
تناسج الكلام والتحم جليل المقصود (399) من ذلك النظام.

(وقد) (440) تضمنت هذه السورة من النعي على الكفار والتعريف ببهتهم
وسوء مرتكبهم ما لم يتضمن كثير من نظائرها كقولهم : (401) «ما لهذا الرسول
يأكل الطعام... الآيات» (آية : 7) وقولهم : «لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى
ربنا» (آية : 21) وقولهم : «لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة» (آية : 32)،
وقولهم : «وما الرحمن» (آية : 60) إلى ما عضّد هذه وتخللها، ولهذا ختمت
بقواطع الوعيد، وأشد التهديد وهو قوله سبحانه «فقد كذبتكم فسوف يكون لزاما»
(آية : 77).

(393). أ ساقطة.

(394). ب : لرحمن يشهد.

(395). ب : تضمن.

(396). ب : ساقطة.

(397). أ : الذكر.

(398). ب : والتشبيه.

(399). ب : تناسخ الكلام والنجم جليل العهود.

(400). ب : ساقطة.

(401). أ : كقوله.

سورة الشعراء (402)

لما عرفت سورة الفرقان (بشنيع) (403) مرتكب الكفرة المعاندين وختمت بما ذكر في الوعيد كان ذلك مظنة لاشفاقه عليه السلام وتأسفه على فوت إيمانهم لما جبل عليه من الرحمة والاشفاق، فافتتحت السورة الأخرى بتسليته عليه السلام وأنه سبحانه/ لو شاء (لأنزل عليهم آية تبهرهم وتذل جبابرتهم فقال سبحانه : «لعلك باخع نفسك» (404) ألا يكونوا مومنين ان نشأ نزل عليهم آية من السماء فظلت أعناقهم لها خاضعين» (405) (آية : 3—4) وقد تكرر هذا المعنى عند إرادته (406) تسليته عليه السلام كقوله تعالى : «ولو شاء الله لجمعهم على الهدى» (الأنعام : 35)، «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها» (السجدة : 13) «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا» (يونس : 99) «ولو شاء الله ما فعلوه» (الأنعام : 138).

(402) . هذه السورة مكية كما هو ظاهر من جوها العام وآياتها لا يستثنى من ذلك شيء، ووجه اتصالها بما قبلها واضح كل الوضوح بحمد الله، فالفرقان عاجلت موضوع تثبيت نبوة محمد «البشر» ﷺ الذي لا يملك مالا ولا ذهابا ولا فضة، فخّصّت هذه السورة لبيان الحجة التي جاء بها محمد رسول الله ﷺ وتقدمته دعواه بأنه رسول الا وهي هذا الكتاب المبين، فافتتحت السورة بذلك «طسم تلك آيات الكتاب المبين» ثم قص الله عز وجل فيها حجة طائفة من الأنبياء السالفين على قومهم، فذكر حجة موسى : عصاه ويده، وابطال سحر السحرة ثم نجاته ونجاة المومنين.

كما ذكر حجة ابراهيم على قومه ومحاكمته لهم بأن الأصنام لا تضر ولا تنفع وهم يرون ذلك رأى العين. ثم ذكر حجة نوح ونجاته بالسفينة التي هزؤوا بها بادية الأمر، ثم حجة هود على قومه الذين اعتصموا بأبنيتهم الشاخنة وعدم غنائها عنهم شيئا.

ثم حجة صالح وناقته وتدبير قومه، وهكذا لوط وشعيب ثم ختمت حجج الأنبياء السابقين بقوله تعالى : «وانه — أي هذا القرآن الكريم — لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين...» ولما كانت صناعة الشعر عند العرب منتشرة، واقدار الشعراء المفلقين عالية ميز الله عز وجل هذا الكلام عن الشعر وزنه قدر رسوله ان يدانيه الشعر، ولا يجهل أحد أن الشاعر يقول السفه بل أكثر كلامه السفه، وهذا الكلام الذي جاء محمد منزّه عن السفه والضلالة لأنه من الحق ويهدي الى الحق، والسورة كلها في آياتها التي يأخذ بعضها برقاب بعض لا يشد منها شيء، وهذا التلاحم مع السورة السابقة ظاهر والله الحمد والمنة.

(403) . أ : شنيع.

(404) . أ : غير واضحة بسبب خرم في المخطوطة.

(405) . ب : لعلك باخع نفسك الايتين.

(406) . ب : رادة.

ثم أعقب سبحانه بالتنبيه والتذكير «أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم» (الشعراء : 7) «وإذ نادى ربك موسى» (الشعراء : 10).

وقل ما تجد في الكتاب العزيز ورود تسليته عليه السلام إلا معقبة بقصص موسى عليه السلام وما كابد من بني إسرائيل وفرعون، وفي كل قصة منها احراز ما لم تحرزه الأخرى من الفوائد والمعاني والأخبار حتى لا تجد قصة تتكرر، وإنه ظن ذلك من لم يمعن النظر، فما من قصة من القصص المتكرر في الظاهر إلا ولو سقطت أو قدر إزالتها لنقص من الفائدة ما لا يحصل من غيرها وسنوضح هذا في التفسير (407) بحول الله (تعالى) (408).

ثم اتبع جل وتعالى قصة موسى بقصص غيره من الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) (409) مع أمهم على الطريقة المذكورة وتأنيسا له عليه السلام حتى لا يهلك نفسه أسفا على فوت إيمان قومه، ثم اتبع سبحانه ذلك بذكر الكتاب وعظيم النعمة به فقال : «وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك» (192—194) فيا لها كرامة تقصر الألسنة عن شكرها وتعجز العقول عن تقريرها، ثم أخبر تعالى أنه بلسان عربي مبين، ثم أخبر سبحانه (بعلي أمر هذا الكتاب) (410) وشائع ذكره على السنة الرسل والأنبياء عليهم السلام فقال : «وانه لفي زبر الأولين» (آية : 196) وأخبر أن علم بني إسرائيل من أعظم آية وأوضح برهان وبينه، وإن تأمل ذلك كاف، واعتباره شاف، فقال : «أولم يكن لهم آية أن

(407). جاء فيه : «أن قصص الرسل عليهم السلام مع أمهم لم تات في القرآن العظيم على نهج واحد في الدعاء والجواب والمراجعة والمحاورة، ولا يمكن ذلك لاختلاف طبائع الأمم وأغراضهم واختلاف الحالات، ولكل مقام مقال، فمرة ترد القصة على الدعاء وابداء الحجة والتوبيخ من غير ذكر شيء من جواب المدعويين سوى الاخبار بتكذيبهم، ومرة يورد من مقالات الأمم لرسولهم اليسير، ومرة يمد اطناب الكلام في المحاورات بين الرسل والأمم» اهـ وقد مثل المؤلف لكل ضرب من هذه الاضرب. انظر ملاك التاويل 2 / 892، 893.

(408). أ : ساقطة.

(409). أ : ساقطة.

(410). أ : تعالى الكتاب. وأشير الى الحق بالهامش لم يتضح لي رسمه ولا معناه.

يعلمه علماء بني إسرائيل» (آية : 197) كعبد الله بن سلام⁽⁴¹¹⁾ وأشباهه، ثم وبخ تعالى متوقفي العرب فقال : «ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مومنين» (الآيتين : 198—199) ثم اتبع ذلك بما يتعظ به المومن الخائف من أن الكتاب مع أنه هدى ونور قد يكون/ محنة في حق طائفة كما قال تعالى : «يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا» (البقرة : 26) «وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم» (التوبة : 125) وقال تعالى : في هذا المعنى : «كذلك سلكناه⁽⁴¹²⁾ في قلوب المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم... الآيات» (الشعراء 200 وما بعدها)، ثم عاد الكلام إلى تنزيه الكتاب وإجلاله على أن تتسور⁽⁴¹³⁾ الشياطين على شيء منه أو تصل إليه فقال سبحانه : «وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم» (آية : 210—211) أي ليسوا (أهلين)⁽⁴¹⁴⁾ له ولا يقدرّون على استراق سمعه بل هم معزولون عن السمع مرجومون بالشهب، ثم وصى تعالى نبيه ﷺ والمراد المومنون فقال : «فلا تدع مع الله إلها آخر (آية : 213) فتكون من المعذبين، ثم أمره بالانذار ووصاه بالصبر فقال : «وانذر عشيرتك الأقربين واخفض جناح لمن اتبعك من المومنين» (الآيتين : 214—215)، ثم اعلم تعالى بموقع ما توهموه وأهلية ما تخيلوه فقال : «هل أنبؤكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم» (الآيتين : 221—222) ثم وصفهم، وكل هذا تنزيه لنبيه عليه السلام على ما (تقولوه)⁽⁴¹⁵⁾، ثم هددهم وتوعدهم فقال : «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» (آية : 226).

(411) . عبد الله بن سلام بن الحارث، أبو يوسف الاسرائيلي، ومن ذرية النبي يوسف عليه السلام من بني قينقاع، وكان اسمه الحصين فغيره النبي ﷺ وسماه عبد الله ولما دخل رسول الله صلوات الله عليه وسلم المدينة جاءه وكان حيرا من أحبار يهود قرأ الكتب، وعرف الأخبار، فسمع النبي ﷺ يقول : أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام. وسأل النبي عن ثلاث خصال لا يعلمها الا نبي ثم آمن في قصة طويلة هامة تبين اخلاصه للحق ومعرفته بنفسية يهود الحبيثة وهو يقول للنبي ﷺ : ان يهود قوم بهت، توفي رضي الله عنه سنة ثلاث وأربعين بالمدينة المنورة وفضائله جمّة. انظر ترجمته في الاصابة 321/2، والاستيعاب 2/382.

(412) . في الأصل «نسلكه» وهو التباس مع قوله تعالى : «كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين» الحجر : 12.

(413) . أ : تصور.

(414) ب : أهلا.

(415) ب : يقولون.

سورة التمل (416)

لما أوضح في سورة الشعراء عظيم رحمته بالكتاب وبيان ما تضمنه مما فضح به الأعداء أو رحم به الأولياء وبراءته من أن (تتسور) (417) الشياطين عليه، وباهر آياته الداعية من اهتدى بها إليه، فتميز بعظيم آياته كونه فرقانا قاطعا ونورا ساطعا، اتبع ذلك سبحانه ذلك مدحة وثناء، وذكر من شملته رحمته به تخصيصا واعتناء فقال : «تلك آيات القرآن» (آية : 1) أي الحاصل عنها مجموع تلك الأنوار آيات القرآن (وكتاب مبین) (418) هدى وبشرى للمومنين» (آية : 1—2) ثم وصفهم ليحصل للتابع قسطه من بركة التبوع وليقوى رجاءه في النجاة مما أشار إليه، وسيعلم الذين ظلموا من عظيم ذلك المطلع، ثم اتبع ذلك بالتنبيه على صفة الأهلين لما تقدم من التقول والافتراء (تنزيها لعباده المتقين وأوليائه المخلصين عن دنس الشكوك والافتراء) (419) فقال : «إن الذين لا يؤمنون (بالآخرة)» (420) زيننا لهم أعمالهم فهم يعمهون» (آية : 4) أي يتحiron (فلا) (421) يفرقون بين النور/

(416) هذه السورة مكية في قول الجميع وهي في مضمونها لا تخرج عن تأكيد السورة السابقة الا وهي بيان حجة الرسول وأنه علوي المصدر فوق مستوى البشر، ولهذا فقد بدئت بذكر الكتاب العزيز — كسابقيتها — وأنه هدى وبشرى للمومنين «طس تلك آيات الكتاب وقرآن مبین هدى وبشرى للمومنين» (آية : 1 — 2)، وفي أثنائها أكد ذلك بقوله : «وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبین ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل اكثر الذي هم فيه يختلفون» (الآيتان : 77 — 78) ثم ختمت السورة بهذا التأكيد «انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرما وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن» (الآيتان : 93—94)، والقصص التي سبقت في ثنايا هذه السورة فيها بسط وتأكيد لما جاء في السورة السابقة، فقد جاءت بمعلومات هي فوق مستوى أم في دقتها وتنوعها وتباعداها. ففيها خبر موسى، وسليمان وداود، وملكة سبأ، وصالح مع قومه ثمود، ولوط مع قومه عاد، وهي ترشد كلها إلى وقائع العلم الذي يشترك فيه محمد صلى الله عليه وسلم مع اخوانه الأنبياء في تلقيه من الله سبحانه وتعالى ويعجز عن ادراكه البشر، الذين يرون آثاره حقيقة ماثلة، ولكنهم لا يلمسون مصدره، ولهذا فكثير منهم لا يؤقن بذلك.

(417) أ : يتصور.

(418) ب : ساقطة.

(419) أ : ساقطة.

(420) أ : ساقطة.

(421) ب : ولا.

والإِظلام (لارتباب)(422) الخواطر والأفهام، ثم اتبع ذلك بتسليته عليه السلام بالقصص الواقعة بعد تنشيطا له وتعريفا (بعلو)(423) منصبه، واطلاعا له على عجيب صنعه تعالى فيمن تقدم، (ثم)(424) ختمت السورة بذكر أهل القيامة وبعض ما بين يديها والاشارة إلى الجزاء ونجاة المومنين، وتهديد من تنكب عن سبيله عليه السلام.

سورة القصص(425)

لما تضمن قوله سبحانه : «إِنَّمَا أَمْرٌ أَنْ أُعْبَدَ رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ» إلى آخر السورة (النمل : 91—93) من التخويف والترهيب والانذار والتهديد ما انجر معه الاشعار بأنه عليه السلام سيملك مكة ويفتحها تعالى عليه، ويذل عتاة قريش ومتمرديهم، ويعز أتباع رسوله عليه السلام ومن استضعفته قريش من المومنين، اتبع سبحانه ذلك بما قصه على نبيه من نظير ما

(422) ب : لارتباك.

(423) ب : بعلو.

(424) ب : ساقطة.

(425) هذه السورة مكية في جملتها وقيل أن بعضها نزل في وقت الهجرة والنبي صلى الله عليه وسلم متوجه إلى المدينة، وهي خاتمة الطواسين، وموضوع الطوسين التي سبقتها هي بشكل عام اقامة الحجة على رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم وصدق نبوته، وفي هذه السورة أمران رئيسيان : أولا

1 — تفصيل قصة موسى عليه والسلام التي ذكرت مجملة في السورتين السابقتين، فذكرت ولادته في فترة حاول فرعون (رمز الظلم) أن يذبح كل مولود ذكر قصدا منه اطفاء جذوة الحق التي تحرق الباطل وأشياعه، ثم شباب موسى وخروجه من قومه في بلاد الله الواسعة، ثم عودته رسولا نبيا مبلغا ووقوفه في وجه الباطل بهيله وهيلمانه وانتصاره في النهاية ونجاته وغرق عدوه.

2 — قصة قارون وغروره بالمال، وطغيان أصحابه، وميل النفوس إلى زخارفه وكيف كانت نتيجة ذلك وهي تفصيل لقوله تعالى في السورة السابقة : قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين».

ومضمون هذين الموضوعين هنا سبب انحراف العرب عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم فهم أصحاب سطوة وصول في الجزيرة، وهم ذوو مال ورياش أكثر من صاحب هذه الرسالة، فبعد أن قامت الحجج عليه في السور السابقة، ختمت الطواسين بهذين النموذجين وأبانت عن نهاية أصحابهما، وأعلم الله رسوله صلى الله عليه وسلم وهو يغادر مكة كما غادر أخوه موسى موطنه من قبل بأنه عائد كما عاد سلفه موسى عليه والسلام «ان الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد» (القصص : 85)، وهذا مما يرجح لدى ان هذه السورة أو بعضها نزل، بين مكة والمدينة أثناء الهجرة.

أشار إليه في قصة بني إسرائيل وابتداء امتحانهم بفرعون واستيلائه عليهم وفتكه بهم الى أن أعيمهم الله وأظهرهم على عدوهم وأورثهم⁽⁴²⁶⁾ ارضهم وديارهم. ولهذا أشار تعالى في كلا القصتين بقوله⁽⁴²⁷⁾ في الأولى : «سيرىكم آياته فتعرفونها» (النمل : 93) وبقوله في الثانية :⁽⁴²⁸⁾ ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون» (آية : 6).

ثم قص ابتداء أمر فرعون واستعصامه⁽⁴²⁹⁾ بقتل ذكور الأولاد، ثم لم يغن ذلك عنه من قدر الله شيئاً، ففي حاله عبرة لمن وفق للاعتبار، ودليل أنه سبحانه أنه المنفرد بملكه يوتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء لا ينازعه نازع⁽⁴³⁰⁾ ولا يمنعه عما يشاء مانع «قل اللهم مالك الملك توتي الملك من تشاء»⁽⁴³¹⁾ (آل عمران : 26)، وقد أفصح قوله تعالى : «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم...»⁽⁴³²⁾ (الأنعام : 55) بما أشار إليه مجمل⁽⁴³³⁾ ما أوضحنا اتصاله من خاتمة النمل وفاتحة القصص ونحن نزيده بيانا بذكر لمع من تفسير ما قصد التحامه فنقول : ان قوله تعالى (معلما)⁽⁴³⁴⁾ لنبيه ﷺ وأمرأ «إنما أمرت أن أعبد رب هذه (البلدة الذي حرمها)⁽⁴³⁵⁾ إلى قوله : «وقل الحمد لله سيريكم آياته»⁽⁴³⁶⁾ (النمل : 91—93) لاختفاء⁽⁴³⁷⁾ بما تضمن ذلك من التهديد وشديد الوعيد. ثم في قوله : «رب هذه

(426) ب : فأورثهم.

(427) أ : كقوله.

(428) ب : وفي الثانية بقوله.

(429) ب : واستعصائه.

(430) ب : لا يزعه وازع.

(431) أ : ساقطة.

(432) «منكم» ساقطة من : أو «كما استخلف الذين قبلهم» ساقطة من : ب.

(433) ب : مجمل.

(434) أ : ساقطة.

(435) ب : ساقطة.

(436) من ربه : «وقل الحمد لله» ساقطة من الآية في : ب.

(437) أ : لاحقاً.

البلدة» أشار أنه عليه السلام سيفتحها ويملكها (لأنها بلدة ربه) (438) وهو عبده ورسوله، وقد اختصه (439) برسالته وله كل شيء، فالعباد والبلاد ملكه، ففي هذا من الإشارة مثل ما في قوله تعالى : «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد» (آية : 85) وقوله : «وان اتلوا القرآن» (النمل : 92) أي (ليسمعوه) (440) فيتذكر من سبقت له السعادة ويلحظ سنة الله في العباد والبلاد، ويسمع ما جرى لمن عاند وعتا، وكذب واستكبر، وكيف وقصه (441) الله وأخذه ولم يغن عنه حذره، وأورث مستضعف عباده أرضه ودياره، ويمكن لهم (442) في الأرض، وأعز رسله واتباعهم، «نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون» (آية : 3) أي يصدقون ويعتبرون ويستدلون فيستوضحون وقوله : «سيريكم آياته : (النمل : 93) يشير إلى ما حل بهم يوم بدر، وبعد ذلك إلى يوم فتح مكة، وإذعان من لم يكن يظن انقياده، واهلاك من (ظن) (443) تمرده وعناده وانقياد العرب بجملتها بعد فتح مكة ودخول الناس في الدين أفواجا، وعزة أقوام وذلة آخرين بحاكم» «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» (الحجرات : 13) إلى فتح الله على الصحابة (رضوان الله عليهم) (444) ما وعدهم به نبيهم (ﷺ) (445)، فكان كما وعد.

فلما تضمنت (هذه) (446) الآي ما أشير إليه أعقب بما هو في قوة ان لوقيل ليس عتوكم بأعظم من عتو فرعون وآله، ولا حال مستضعفي المؤمنين بمكة ممن

(438) أ : لأنه رب بلد.

(439) أ : خصه والمعنى واحد، يقال : خصه بالشيء يخصه خصا خصوصا وخصصه، واختصه افردة به دون غيره. انظر لسان العرب 1% 841.

(440) في ب : لتسمعوه.

(441) الوقص بالتحريك : قصر العنق، يقال وقص عنقه يقصها وقصا : كسرهما ودقها، ووقص البعير فهو موقوص إذا أصبح داؤه في ظهره لا حراك به. انظر لسان العرب 3% 965.

(442) أ : مكن له.

(443) في ب : طال.

(444) زيادة من : ب.

(445) زيادة من : ب.

(446) أ : ساقطة.

(قصدم) (447) فنتته في دينه، بدون حال بني إسرائيل حين كان فرعون يمتحنهم بذبج أبنائهم، فهلا تأملتم عاقبة الفريقين وسلكتهم أنهج الطريقين «أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم إلى قوله : «فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون» (غافر : 82)، فلو تأملتم ذلك لعلمتم أن العاقبة للتقوى فقال سبحانه بعد افتتاح السورة «إن فرعون علا في الأرض» (آية : 4)، ثم ذكر من خبره ما فيه عبرة، وذكر سبحانه آياته الباهرة في أمر موسى عليه السلام وحفظه ورعايته وأخذ أم عدوه إياه «عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا» (آية : 9) فلم يذبج الأبناء خيفة من مولود يهتك ملكه حتى إذا كان ذلك/ المولود تولى بنفسه تربيته وحفظه وخدمته ليعلم لمن (448) (التدبير) (449) والامضاء، وكيف يقود سابق الحكم والقضاء فهل لا سألت قريش وسمعت وفكرت واعتبرت «أولم تاتهم بينة ما في الصحف الأولى :» (طه : 133).

ثم اتبع سبحانه ذلك بخروج موسى عليه السلام من أرضه «فخرج منها خائفا يترقب» (آية : 21) وما ناله عليه السلام في ذلك الخروج من عظيم السعادة، وفي ذلك منبهة لرسول الله ﷺ على خروجه من مكة وتعزية له، وإعلام بأنه تعالى سيعيده إلى بلده ويفتحه عليه، وهذا المستشعر من هنا صرح آخر السورة في قوله تعالى : «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد» (آية : 85) وهذا كاف فيما قصد.

(447) ب : قصدهم.

(448) أ : من.

(449) في ب : التدبير.

سورة العنكبوت (450)

افتتحت سورة القصص بذكر امتحان بني إسرائيل بفرعون وابتلائهم بذبح أبنائهم وصبرهم على عظيم تلك المحنة، ثم ذكر تعالى حسن عاقبتهم وثمرة صبرهم، وانجر مع ذلك مما هو منه، لكن انفصل عن عمومهم (بالقضية امتحان أم موسى بفراقه حال الطفولية وابتداء الرضاع، وصبرها على أليم ذلك المذاق) (451) حتى رده تعالى إليها أجمل رد وأحسنه، ثم ذكر ابتلاء موسى عليه السلام بأمر القبطي وخروجه خائفا يترقب، وحسن عاقبته وعظيم رحمته، وكل هذا ابتلاء أعقب خيرا، وختم برحمة، ثم بضرب آخر من الابتلاء، أعقب محنة وأورث شرا وسوء فتنة، وهو ابتلاء قارون بماله وافتتانه به «فخسفنا به وبداره الأرض» (القصص : 81) فحصل

(450) مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وقال ابن عباس في أحد قوليه، ومثله قتادة هي مدنية ولهما قول آخر أنها مكية إلا عشر آيات من أولها، وقال علي بن أبي طالب نزلت بين مكة والمدينة انظر : القرطبي : المجلد 7/323 والدر المنثور 141/5.

ويبدو لي أن القولين الأولين لا يتعارضان بل هما يتفقان مع قول سيدنا علي رضي الله عنه ونزولها هذا ومضمونها يؤكد ذلك، فهي في الواقع امتداد لسورة القصص وهي — أي سورة القصص — من آخر ما نزل بمكة، فكانت هذه السورة امتداد لها، ولهذا جاءت عقبها وابتدأت بذكر سنة من سنن الله في خلقه ألا وهو الامتحان والابتلاء وخاصة لأصحاب المبادئ والمذاهب، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعيش أخطر ابتلاء في حياته. ألا وهو الهجرة وهي من أشد أنواع الابتلاء، فابتدئت بقوله تعالى : «ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون».

ولما كانت السورة السابقة فصلت في قصة فرعون واستعلائه وجبروته، وجعله الناس شيئا افتتحت هذه السورة بذكر المؤمنين الذين فتنهم المشركون وعذبوهم على الإيمان دون ما عذب به فرعون بني إسرائيل تسليية لهم، وتهوينا لما أصابهم، وحثا لهم على تحمل الأذى والصبر عليه.

وأیضا لما ذكر في السورة السابقة نجاة موسى من فرعون وهربه منه ثم عودته إلى مصر رسولا نبيا، ثم ظفروا من بعد بفرق فرعون وقومه ونصره عليهم نصرا مؤزرا، ذكرهنا نجاة نوح عليه السلام وأصحاب السفينة واغراق من كذبه من قومه.

وإذا كانت السورة السابقة قد انحلت إلى هجرته صلى الله عليه وسلم وظفروا على قومه «ان الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد» فقد جاء في خاتمة هذه السورة الإشارة كذلك إلى هجرة المؤمنين «يا عبادي الذين آمنوا ان أرضي واسعة».

(451) ب : ساقطة.

من هذا أن الابتلاء في غالب الأمر سنة، وجرت منه (سبحانه) (452) في عباده ليميز الخبيث من الطيب، وهو المنزه عن الافتقار إلى تعرف أحوال العباد بما يتلهم به، إذ قد علم كون ذلك منهم قبل كونه، إذ هو موجدته وخالقه كان خيرا أو شرا، فكيف يغيب عنه أو يفتقر تعالى إلى ما به يتعرف (453) أحوال العباد، أو يتوقف علمه على سبب «ألا يعلم من خلق» (الملك : 14) ولكن هي سنة في عباده ليظهر لبعضهم من بعض عند الفتنة والابتلاء ما لم يكن ليظهر قبل ذلك حتى يشهدوا على أنفسهم وتقوم الحجة/ عليهم باعترافهم ولا افتقار به تعالى إلى شيء من ذلك.

فلما تضمنت سورة القصص هذا الابتلاء في الخير والشر، وبه وقع افتتاحها واختتامها هذا، وقد انجر بحكم الإشارة أولا خروج نبينا ﷺ من بلده ومنشئه ليأخذه عليه السلام بأوفر حظ مما ابتلى به الرسل والأنبياء من مفارقة الوطن وما يحرز لهم الأجر المناسب لعل درجاتهم عليهم السلام، ثم بشارته ﷺ آخرا بالعودة والظفر «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد» (القصص : 85)، فأعقب سبحانه هذا بقوله معلما للعباد ومنبها أنها سنته (454) فيهم فقال : «احسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون» (آية : 2) أي احسبوا أن يقع الاكتفاء بمجرد استجابتهم وظاهر إنابتهم ولما يقع امتحانهم بالشدائد والمشقات وضروب الاختبارات : «ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات» (البقرة : 155) فإذا وقع الابتلاء فمن فريق يتلقون ذلك تلقى العليم، إن ذلك من عند الله ابتلاء واختبارا فيكون تسخيرا لهم وتخليصا، ومن فريق يقابلون ذلك بمرضاة الشيطان والمصارعة إلى الكفر والخذلان «ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه» (آية : 6).

(452) ب : ساقطة.

(453) ب : بيانه بتعرف.

(454) ب : سنته.

ثم اتبع سبحانه هذا بذكر حال بعض الناس ممن يدعي الايمان، فإذا أصابه أدنى أذى من الكفار (صرفه) (455) ذلك عن إيمانه، وكان عنده مقاوما لعذاب الله الصارف لمن عرفه عن الكفر والمخالفة فقال تعالى : «ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله» (آية : 10) فكيف حال هؤلاء في تلقي ما هو أعظم من الفتنة وأشد في المحنة.

ثم اتبع سبحانه ذلك بما به يتأسى الموفق من صبر الأنبياء عليهم السلام وطول مكابدتهم من قومهم، فذكر نوحا وإبراهيم ولوطا وشعيبا، وخص هؤلاء عليهم السلام بالذكر (456) لأنهم من أعظم الرسل مكابدة وأشدّهم ابتلاء، أما نوح عليه السلام، فلبث في قومه (457) كما أخبر الله سبحانه ألف سنة إلا خمسين عاما، وما آمن معه/ إلا قليل، وأما إبراهيم عليه السلام فرمي بالمنجنيق في النار فكانت عليه بردا وسلاما، وقد نطق الكتاب العزيز بخصوص المذكورين (صلى الله عليهما وسلم وعلى الرسل والأنبياء أجمعين) (458) بضروب من الابتلاءات حصلوا على ثوابها وفازوا من عظيم الرتبة النبوية العليا بأسنى نصابها، ثم ذكر تعالى أخذ المكذبين من أممهم فقال : «فكلا أخذنا بذنبه» (آية : 40) ثم وصى نبيه عليه السلام (459) وأوضح (460) حجته وتتابع اتساق الكلام (إلى) (461) آخر السورة.

(455) ب : عرفه.

(456) ب : وشعيبا عليهم السلام وخص هؤلاء بالذكر.

(457) أ : فلبث فيهم في قومه.

(458) ب : عليهم السلام.

(459) ب : صلى الله عليه وسلم.

(460) ب : في أوضح.

(461) ب : ساقطة.

سورة الروم (462)

لما أعتب (463) سبحانه أهل مكة ونعى عليهم قبح صنيعهم في التغافل عن الاعتبار بحالهم وكونهم مع قلة عددهم قد منع الله بلدهم عن قاصد نهيه، وكف أيدي العتاة والمتمردين عنهم مع تعاور أيدي المنتهين من حولهم، وتكرر ذلك وإطراده صونا منه لحرمه وبيته فقال تعالى : «الم يروا انا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم» (العنكبوت : 67) أي أولم يكفهم هذا في الاعتبار ويتبينوا أن ذلك ليس عن قوة منهم ولا حسن دفاع، وإنما هو بصون الله إياهم بمجاورة بيته وملازمة أمنه مع أنهم أقل العرب، أفلا يرون هذه النعمة ويقابلونها بالشكر والاستجابة قبل أن يحل بهم نقمه ويسلبهم نعمه، فلما قدم تذكاريهم (464) بهذا أعقبه (465) بذكر طائفة هم أكثر منهم وأشد قوة وأوسع بلادا وقد أيد غيرهم ولم يغن عنهم انتشارهم وكثرتهم فقال : «ألم غلبت الروم في أدنى الأرض... الآيات» (آية: 1 وما بعدها) فذكر تعالى (غلبة) (466) غيرهم لهم، وانهم ستكون لهم كرة ثم يغلبون، وما ذلك إلا بنصر الله من شاء من عبده ينصر من يشاء فلو كشف عن أبصار من كان بمكة من الكفار لرأوا (467) أن اعتصام بلادهم وسلامة ذرياتهم وأولادهم مما

(462) سورة الروم مكية بلا خلاف. وقد ذكر في مطلعها ظهور الروم على فارس بعد هزيمتهم التي أسى لها المسلمون وبطريها المشركون، وقد تردد كثيرا في هذه السورة الإشارة إلى قدرة الله عز وجل وتصرفه في ملكوته، ويظهر لي أن وجه تعلقها بسابقتها هو أن ما ورد فيها من دلائل التوحيد والنظر في الآفاق والأنفس والأمر بالسير في فجاج الأرض، والتفكير في عواقب السالفين «أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة واثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها....» (9-10) «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل» (42). وما ورد فيها من ذكر آيات الله والتنبيه إليها كخلق السماوات والأرض، وحياء الموتى، وتعدد الألوان، وتصريف الرياح، وتعاقب الليل والنهار وانزال المطر وحياء الأرض به، وغير ذلك من الآيات كل ذلك جاء بيانا وتفصيلا لقوله تعالى في السورة السابقة : «أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير، قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق» (19-20).

(463) في ب : عتب، وفي أ : أعقب، واثبت أعتب لأنها المناسبة للسياق، ومعناها ازال شكواهم وعتابهم، وهذا ما تعالجه أواخر سورة العنكبوت (الآية 50 إلى آخر السورة).

(464) ب : تذاكرهم.

(465) أ : أعقب.

(466) ب : ساقطة.

(467) أ، ب : لرؤا.

يتكرر⁽⁴⁶⁸⁾ على من حولهم من الانتهاب والقتل وسبي الذراري والحرم، إنما هو بمنع الله تعالى وكريم صونه لمن جاور حرمه وبيته، والا فالروم أكثر عددا وأطول مددا ومع ذلك تتكرر عليهم الفتكات⁽⁴⁶⁹⁾ والغارات وتتوالى عليهم الغلبات أفلا يشكر أهل مكة من/ أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف. (وأیضا)⁽⁴⁷⁰⁾ فإنه سبحانه لما قال : «وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وان الدار الآخرة هي الحيوان» (العنكبوت 64) اتبع ذلك سبحانه بذكر تقلب حالها وتبين⁽⁴⁷¹⁾ اضمحلالها ومحالها، وانها لا تصفو ولا تتم وانما حالها ابدا التقلب وعدم الثبات، فأخبر بأمر⁽⁴⁷²⁾ هذه الطائفة التي هي من أكثر (أهل) الأرض وامكنهم وهم الروم، وأنهم لا يزالون مرة عليهم واخرى لهم، فأشبهت حالهم هذه حال اللهو واللعب فوجب اعتبار العاقل بذلك وطلبته الحصول على تنعم دار لا يتقلب⁽⁴⁷⁴⁾ حالها، ولا يتوقع انقلابها وزوالها، «وان الدار الآخرة هي الحيوان» (العنكبوت : 64) ومما (يقوي هذا)⁽⁴⁷⁵⁾ المأخذ قوله تعالى : «يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا» (الروم : 7) أي لو علموا باطنها لتحققوا أنها لهو ولعب ولعرفوا أمر الآخرة «من عرف نفسه عرف ربه»⁽⁴⁷⁶⁾ ومما يشهد لكل من القاصدين ويعضد كلا الامرين قوله سبحانه : «أولم يسيروا في الأرض... الآيات» (آية : 9 وما بعدها) أي لو فعلوا هذا وتأملوا لشاهدوا من تقلب أحوال الأمم وتغير الأزمنة والقرون ما بين⁽⁴⁷⁷⁾ لهم عدم بقائها⁽⁴⁷⁸⁾ على أحد، فتحققوا لهوها ولعبها، وعلموا أن حالهم ستؤول إلى حال من ارتكب في العناد والتكذيب وسوء التبار والهلاك.

(468) ب : ساقطة.

(469) ب : النكبات.

(470) ب : ساقطة.

(471) ب : وتبين.

(472) ب : عن.

(473) ب : ساقطة.

(474) ب : يتقلب.

(475) ب : يقوى على هذا.

(476) قال النووي : غير ثابت، وقال السمعاني : هو من كلام يحيى بن معاذ الرازي رضي الله عنه. انظر الدرر المنتثرة

ص : 167.

(477) في ب : بين.

(478) في ب : ايفائها.

سورة لقمان (479)

لما تكرر الأمر بالاعتبار والحض عليه والتنبيه بعجائب المخلوقات في سورة الروم كقوله : «أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق» (آية : 8) وقوله «أولم يسيروا في الأرض» (آية : 9) وقوله : «الله يبدأ الخلق ثم يعيده» (آية : 11) وقوله : «يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي إلى قوله كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون» (الآيات : 19—28) وهي عشر آيات تحملت من جليل الاعتبار والتنبيه ما لا تبقى⁽⁴⁸⁰⁾ معه شبهة ولا توقف لمن وفق إلى ما بعد هذا من آيات التنبيه وبسط الدلائل، وذكر ما فطر عليه العباد وضرب الأمثال الموضحة سواء السبيل لمن عقل معانيها وتدبر حكمها إلى قوله : «ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل» (آية : 58) وهي إشارة إلى ما أودع الله كتابه المبين من مختلف الأمثال وسني العظات، وما تحملت هذه السورة من ذلك، اتبع سبحانه ذلك بقوله الحق «ألم تلك آيات الكتاب الحكيم» (آية : 1—2) أي دلائله وبراهينه لمن وفق وسبقت له الحسنى وهم المحسنون الذين ذكرهم بعد، ووصف الكتاب بالحكيم يشهد لما مهدناه، ثم أشار سبحانه إلى من حرم منفعة والاعتبار به واستبدل الضلالة بالهدى، وتنكب عن (سنن)⁽⁴⁸¹⁾ فطرة الله التي فطر الناس عليها فقال : «ومن الناس من يشتري لهو الحديث... الآيات» (آية : 6 وما بعدها)، ثم اتبع ذلك بما ييكت كل معاند ويقطع بكل جاحد، فذكر خلق السماوات بغير عمد مرئية مشاهدة لا يمكن في أمرها امتراء،

(479) سورة لقمان مكية في جملتها، وأضيف أن وجه اتصالها بسابقتها أنه لما ختمت الروم بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر حتى يتحقق وعد الله، وكان فيها الأمر بإقامة وجهه للدين جاءت سورة لقمان لتبين أن التزام آيات الله والعمل بها يورث الحكمة وينتج الهداية وينزل الرحمة. وفي عرض هذه السورة لقصة لقمان وهو يعظ ابنه، وينهاه عن الشرك والطغيان والبطر والأشر، تأكيد لذلك وتعريض بكفار قريش، وتعليم للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن يجافوا هذه الأخلاق الذميمة، ويتذكروا نعم الله عليهم الظاهرة منها والباطنة ثم ختمت بالتذكير بخشية الله وتقواه وهو القادر على أن ينتقم من الكفار، وقد ضربت لهم الأمثال بذلك في هذه السورة، وهي (أي الأمثال) بيان وتفصيل لقوله تعالى في السورة السابقة «ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل».

(480) ب : يبقى.

(481) ب : ساقطة.

ثم ذكر خلق الأرض وما أودع فيها ثم قال سبحانه «هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه» (آية : 11) ثم اتبع ذلك بذكر من هداه سبيل الفطرة فلم تزغ به الشبه ولا تنكب سواء السبيل فقال : «ولقد آتينا لقمان الحكمة... الآية» (آية : 12) (ليبين لنا سنن) (482) من اتبع فطرة الله التي تقدم ذكرها في سورة الروم ثم تناسق الكلام وتناسج.

سورة السجدة (483)

لما انطوت سورة الروم على ما قد أشير إليه من التنبيه بعجائب ما أودعه سبحانه في عالم السماوات والأرض على (484) ذكر الفطرة ثم اتبعت بسورة (485)

(482) أ : وليس لتأسيس. ب : لتأسيس، والصواب ما أثبتته. مة للسياق.

(483) سورة السجدة مكية في جملتها وكانت مخصوصة بفضل عظيم وهو قراءة النبي صلى الله عليه وسلم لها في صلاة صبح يوم الجمعة في الركعة الأولى كما أخرج ذلك البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة. انظر الدر المنثور 170/5 والقرطبي المجلد السابع 83/2 . سماها أحد التابعين وهو خالد بن معدان الكلاعي بالمنجمية كما أخرج ذلك عنه الدارمي في سننه. انظر الحديث رقم 3411 حيث يقول : اقرأوا المنجمية وهي «الم تنزيل» فانه بلغني أن رجلا كان يقرأها ما يقرأ شيئا غيرها وكان كثير الخطايا فنشرت جناحها عليه وقالت رب اغفر له فانه كان يكثر قراءتي فشفعها الرب فيه وقال اكتبوا له خطيئته حسنة وارفعوا له درجة.

وهذا الحديث وان كان مرسلًا ولم يبين هذا التابعي مصدره الا أنه معضد بأحاديث صحيحة متصلة منها ما أخرجه أحمد والترمذي والنسائي والحاكم وصححه والدارمي وغيرهم عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ «الم تنزيل وتبارك». انظر سنن الدارمي حديث رقم 3414. وعمل اليوم واللييلة حديث 706 وما بعده مع ملاحظة تخرجه هناك.

أما صلتها بسابقتها فقد أشار السيوطي إلى وجه قوى في ذلك حيث قال : «وجه اتصالها بما قبلها أنها شرحت مفاتيح الغيب الخمسة التي ذكرت في خاتمة لقمان : فقلوه في هذه السورة «ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون» (5) شرح لقلوه في لقمان «ان الله عنده علم الساعة» (34) ولذلك عقب هنا بقلوه «عالم الغيب والشهادة» (6) وقلوه في هذه السورة «أو لم يروا انا نسوق الماء إلى الأرض الجرز» (27) شرح لقلوه في لقمان «وينزل الغيث» (34) وقلوه في هذه السورة «الذي أحسن كل شيء خلقه» (7) شرح لقلوه : في لقمان «ويعلم ما في الأرحام» (34) وقلوه هنا «يدبر الأمر من السماء إلى الأرض» (5) «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها» (13) شرح لقلوه في لقمان : «وما تدري نفس ماذا تكسب غدا» (34)، وقلوه ائذا ضللنا في الأرض إلى قوله : قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربيكم ترجعون» (11) شرح لقلوه تعالى في لقمان «وما تدري نفس بأي أرض تموت» (34). انظر : تناسق الدرر ص. 125.

(484) ب : وعلى.

(485) ب : سورة.

لقمان تعريفاً بأن مجموع تلك الشواهد من آيات الكتاب وشواهد ودلائله، وأنه قد هدى به من شاء⁽⁴⁸⁶⁾ إلى سبيل الفطرة، وإن لم يمتحنه بما امتحن به كثيراً ممن ذكر فلم يغن عنه، ودُعِيَ فلم يجب، وتكررت الانذارات فلم يُصْنَعْ لها، إن كل ذلك من الهدى والضلال واقع بمشيئته وسابق إرادته، واتبع سبحانه ذلك بما ينبه المعتبر على صحته فقال : «ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى» (لقمان : 22) فأعلم سبحانه أن الخلاص والسعادة في الاستسلام (له ولما يقع)⁽⁴⁸⁷⁾ من أحكامه، وعزَى نبيه، وصبره بقوله : «ومن كفر فلا يحزنك كفره» (لقمان : 23) ثم ذكر تعالى لَجْأ الكل قهراً ورجوعاً بحكم اضطرابهم⁽⁴⁸⁸⁾ — لوضوح الأمر — إلى الله تعالى فقال : «ولئن سألتكم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله» (لقمان : 25) ثم وعظ تعالى الكل بقوله : «ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة» (لقمان : 27) أي أن ذلك لا يشق عليه تعالى ولا يصعب، والقليل والكثير سواء، ثم نبه بما يبين ذلك من إيلاج الليل في النهار وجريان الفلك بنعمته «ذلك بأن الله هو الحق» (لقمان : 30) ثم أكد ما تقدم من رجوعهم في الشدائد إليه فقال : «وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين» (لقمان : 32) فلما⁽⁴⁸⁹⁾ خلصهم سبحانه ونجاهم عادوا إلى سيء أحوالهم هذا، وقد عاينوا رفقة بهم، وأخذهم عند الشدائد بأيديهم، وقد اعترفوا بأنه خلق السماوات وسخر⁽⁴⁹⁰⁾ الشمس والأرض والقمر، وذلك شاهد من حالهم بجريانهم على ما قدر لهم ووقفهم عند حدود السوابق «ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى» (لقمان : 22) ثم عطف سبحانه على الجميع فدعاهم إلى تقواه وحذرهم يوم المعاد وشدته، وحذرهم من الاغترار وأعلمهم

(486) ب : سلك.

(487) ب : لما يقع.

(488) أ : اضطراب.

(489) ب : فاذا.

(490) في أ : ومسخر.

أنه المنفرد بعلم الساعة وانزال الغيث وعلم ما في الأرحام وما يقع من المكتسبات وحيث يموت⁽⁴⁹¹⁾ كل المخلوقات.

ولما⁽⁴⁹²⁾ كانت سورة لقمان بما بين من مضمونها محتوية من⁽⁴⁹³⁾ التنبيه والتحريك على ما ذكر، ومعلمة بانفراده سبحانه بخلق الكل وملكهم اتباعها تعالى بما يحكم بتسجيل صحة الكتاب وانه من عنده وان ما انطوى عليه من الدلائل والبراهين يرفع كل ريب ويزيل كل شك فقال : «ألم تنزل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك» (الآيتين : 1 و 3) أي أيقع منهم هذا بعد وضوحه وجلاء شواهدة، ثم اتبع ذلك بقوله ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع» (آية : 3) وهو تمام لقوله : «ومن يسلم وجهه إلى الله» (لقمان : 21) ولقوله : ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله» (لقمان : 24) ولقوله : «وإذ غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين»⁽⁴⁹⁴⁾ (لقمان : 32) ولقوله : ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون» (السجدة : 4) بما ذكرتم، ألا ترون أمر لقمان وهدايته بمجرد دليل/ فطرته فمالكم بعد التذكير وتقريع الزواجر وترادف الدلائل وتعاقب الآيات متوقفون⁽⁴⁹⁵⁾ عن السلوك إلى ربكم وقد أقررتم بأنه خالقكم ولجأتم إليه عند احتياجكم.

ثم أعلم نبيه (ﷺ)⁽⁴⁹⁶⁾ برجوع من عاند واجابته حين لا ينفعه رجوع ولا يغني عنه إجابة فقال : «ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم» (آية : 12) ثم أعلم سبحانه أن الواقع منهم إنما هو بإرادته وسابق من حكمه ليأخذ الموفق الموقن نفسه بالتسليم فقال : «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها»

(491) في أ : يفوت.

(492) ب : فلما.

(493) ب : على.

(494) مخلصين : ساقطة من : أ.

(495) ب : تتوقفون.

(496) ساقطة من : أ.

(آية : 13) كما فعلنا بلقمان ومن أردنا توفيقه، ثم ذكر انقسامهم بحسب السوابق فقال : «أفمن كان مومنا كمن كان فاسقا لا يستوون» (آية : 18) ثم ذكر مصير الفريقين ومآل الحزبين، ثم اتبع ذلك بسوء حال من ذُكر فأعرض فقال : «ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها (آية : 22) وتعلق الكلام إلى آخر السورة.

سورة الأحزاب (497)

افتتحها سبحانه بأمر نبيه باتقائه ونهيه عن الصغو إلى الكافرين والمنافقين، واتباعه ما (498) يوحى الله إليه تنزيها لقدره عن محنة من سبق له الامتحان ممن قدم ذكره في سورة السجدة، وأمر له بالتسليم لخالفه والتوكل عليه «والله يقول الحق وهو يهدي السبيل» (آية : 4) ولما تحصل من السورتين قبل (ما يعقب العالم من الخوف أشده) (499) لغية العلم بالخواتم، وما جرى في السورتين من الإشارة إلى السوابق «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداياها» (السجدة : 13) كان ذلك مظنة

(497) هذه السورة مدنية في قول جميع الأئمة، وقد عالج موضوع غزوة الأحزاب والبيت النبوي في طاعته لله والرسول وحق حرمة وعدم ايدائه وختمت بالتأكيد بعدم ايداء الرسول صلى الله عليه وسلم والحث على طاعته وهذا كله داخل في الاستسلام لله عز وجل وهو الموضوع الذي عالجته سورة السجدة قبلها، فكأن هذه السورة تأكيد لمعنى الاستسلام والخضوع والسجود الوارد في السورة السابقة مع بيان نتيجة الخاضعين لأمر الله من نصر كالذي حدث في غزوة الأحزاب وتكريم كما في الصلاة على النبي وآل بيته، وهذا وجه في ترابط السورتين.

وأشير إلى وجه آخر يبين الصلة بين هذه السورة وسابقتها أبداه الشيخ عبد الله بن الصديق إذ قال : «مناسبتها لما قبلها أن الله تعالى توعد الكفار في السورة السابقة بأن يذيقهم من العذاب الأدنى في الدنيا بالقتل والأسر قبل العذاب الأكبر وهو عذاب الآخرة» ولنذيقهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون» فآخبر هنا بتحقيق الوعيد المذكور «يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءكم جنود فارسنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا... ورد الله الذين كفروا بغيضهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا، وانزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيمهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا».

انظر جواهر البيان : 81. وهو وجه جيد ظاهر.

(498) ب : لما.

(499) ب : ان ما يعقب العالم من الخوف أشد.

لتيئيس نبي الله ﷺ وصالحى أتباعه، فلهذا أعقب سورة السجدة بهذه السورة المضمنة من التأنيس والبشارة ما(500) يجرى على المعهود من لطفه تعالى وسعة رحمته، فافتتح سبحانه السورة بخطاب نبيه بالتقوى وإعلامه بما قد أعطاه قبل من سلوك (سبيل)(501) النجاة، وإن ورد على طريقة الأمر ليشعره(502) باستقامة سبيله وإيضاح دليله، وخاطبه بلفظ النبوة لأنه أمر ورد عقب تخويف وإنذار وإن كان عليه السلام قد نزه الله قدره عن أن يكون منه خلاف/ التقوى وعصمه من كل (ما ينافر)(503) نزاهة حاله وعلي منصبه ولكن طريقة خطابه تعالى للعباد أنه تعالى متى جرد ذكرهم للمدح من غير أمر ولا نهي فهو موضع ذكرهم بالأخص إلا مدحٌ من محمود صفاتهم ومنه : «محمد رسول الله والذين معه..... الآيات»(504) (الفتح : 29) فذكره ﷺ باسم الرسالة، ومهما كان الأمر أو النهي(505) عدل في الغالب إلى الأعم ومنه «يا أيها النبيء اتق الله» (الأحزاب : 1) «يا أيها النبيء حرّض المؤمنين على القتال» (الأنفال : 65) «يا أيها النبيء إذا طلقتم النساء» (الطلاق : 1) «يا أيها النبيء لم تحرم ما أحل الله لك» (التحریم : 1) «يا أيها النبيء إذا جاءك المومنات» (المتحنة : 12)، وقد بين في غير هذا، وإن ما ورد على خلاف هذا القانون فلسبب خاص استدعى العدول عن المطرد كقوله : «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك» (المائدة : 67)، فوجه هذا أن قوله سبحانه : «وإن لم تفعل فما بلغت رسالاته» (المائدة : 67) موقعه شديد فعدل(506) بذكره عليه السلام(507) باسم الرسالة لضرب من التلطف فهو من باب «عفا الله عنك لم أذنت لهم» (التوبة : 43) وفيه بعض غموض.

(500) أ : بما.

(501) أ : ساقطة.

(502) ب : ليشعر.

(503) ب : منافر.

(504) محمد رسول الله إلى آخر سورة الفتح آية واحدة.

(505) ب : والنهي.

(506) ب : فعودل.

(507) ب : صلى الله عليه وسلم.

وأيضاً فإنه لما قيل له : «بلغ» طابق هذا ذكره بالرسالة، فإن المبلغ رسول
والرسول مبلغ ولا يلزم النبي أن يبلغ إلا أن يرسل، وأما قوله تعالى : «يا أيها
الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر» (المائدة : 41) فأمره وإن كان نهياً
أوضح من الأول لأنه تسلية له عليه السلام وتأسيس⁽⁵⁰⁸⁾، وأمر بالصبر والرفق بنفسه،
فمآله⁽⁵⁰⁹⁾ راجع إلى ما يرد مدحاً مجرداً عن الطلب وعلى ما أشير إليه يخرج ما ورد
من هذا.

ولما افتتحت هذه السورة بما حاصله ما قدمناه من اعلامه عليه السلام من
هذا الأمر بعلي حاله ومزية قدره، ناسب ذلك ما احتوت عليه السورة من باب
التنزيه في مواضع :

منها إعلامه تعالى بأن أزواج نبيه أمهات للمؤمنين⁽⁵¹⁰⁾ فنزههن عن أن
يكون حكمهن حكم غيرهن من النساء مزية لهن وتخصيصاً وإجلالاً لنبيه ﷺ.
ومنها قوله تعالى : «ولما رأى المؤمنون الأحزاب.... الآية (آية : 22)
فنزههم/ عن تطرق سوء أو دخول ارتياب على مصون معتقداتهم وجليل إيمانهم
«قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً
وتسليماً» (آية : 22) والآية بعد كذلك وهي قوله تعالى : «من المؤمنين رجال
صدقوا.... الآية» (آية : 23).

ومنها «يا نساء النبيء لستن كأحد من النساء أن أتقنين» (آية : 32)
فنزههن تعالى وبين شرفهن على من عداهن.

ومنها تنزيه أهل البيت وتكرمتهم «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل
البيت ويطهركم»⁽⁵¹¹⁾..... الآية» (آية : 33).

(508) ب : وتأسيس.

(509) أ : فباه.

(509) ب : المؤمنين.

(511) ويطهركم ساقطة من : ب.

ومنها الأمر بالحجاب «يا أيها النبيء قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن» (آية : 59) فنه المومنات عن حالة الجاهلية من التبرج وعدم الحجاب وصانهن عن التبذل والامتهان.

ومنها قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى» (آية : 69) فوصاهم جل وتعالى، ونزهمهم بما نهاهم عنه أن يتشبهوا بمن استحق اللعن والغضب في سوء أدبهم وعظيم مرتكبهم إلى ما تضمنت السورة من هذا القبيل، ثم أتبع سبحانه ما تقدم بالبشارة⁽⁵¹²⁾ العامة واللفظ الشامل كقوله تعالى : «يا أيها النبيء إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا» (آية : 45-46) ثم قال تعالى : وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا» (آية : 47) وقوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا إلى قوله أجرا كريما» (الآيات : 41-44) وقوله تعالى : «إن الله وملائكته يصلون على النبيء....» (الآية : 56) وقوله تعالى : «إن المسلمين والمسلمات إلى قوله أجرا عظيما» (آية : 35) وقوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقلوا قولا سديدا يصلح الآية⁽⁵¹³⁾ إلى قوله عظيما» (آية : 70) وقوله : «ويتوب الله على المؤمنين والمومنات وكان الله غفورا رحيما» (آية : 73) وقوله سبحانه مثنيا على المؤمنين بوفائهم وصدقهم «ولما رأى المومنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله — إلى قوله : — وما بدلوا تبديلا» (الآيتان : 22-23) وقوله سبحانه تعظيما لحرمة نبيه صلوات الله عليه (آية : 54) والمؤمنين «إن الذين يؤذون الله ورسوله إلى قوله واثما مبينا» (الآيتان : 57-58).

وفي⁽⁵¹⁵⁾ هذه الآيات من تأنييس المؤمنين وبشارتهم وتعظيم حرمتهم ما يكسر سورة الخوف الحاصل في سورتي لقمان والسجدة ويسكن روعهم تأنيسا/ لا رفعاً،

(512) في أ : بالبشارة.

(513) ساقطة من : ب.

(514) أ : ساقطة.

(515) أ : وهي.

ومن هذا القبيل أيضا ما تضمنت السورة من تعداد نعمه تعالى عليهم وتحسين خلاصهم كقوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنودا فأرسلنا عليهم... — إلى قوله — هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا» (الآيات : 9—11) وقوله (تعالى) (516) : «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال إلى قوله : وكان الله على كل شيء قديرا» (الآيات : 25—27) وختم السورة بذكر التوبة والمغفرة أوضح شاهد لما تمهد من دليل قصدها وبيانها على ما وضع والحمد لله، ولما كان حاصلها رحمة ولطفا ونعمة لا يُقدر عظيم قدرها، وينقطع العالم دون الوفاء بشكرها أعقب بما ينبغي من الحمد (يعني أول سبأ) (517).

سورة سبأ (518)

افتتحت بالحمد لله سبحانه (519) لما أعقب بها ما انطوت عليه سورة الأحزاب من عظيم الآلاء وجيل النعماء حسبما أبين آنفا (520) فكان مظنة الحمد على ما منح عباده المؤمنين وأعطاهم فقال تعالى : «الحمد لله الذي له ما في

(516) أ : ساقطة.

(517) أ : ساقطة.

(518) هذه السورة مكية باجماع، وقال ابن عطية مكية إلا قوله : «ويرى الذين أوتوا العلم» فقالت فرقة مدنية فيمن أسلم من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأشباهه. البحر المحيط : 257/7.

قال الألوسي في مناسبتها «وجه اتصالها بما قبلها أن الصفات التي أجريت على الله تعالى في مفتتحها مما يناسب الحكم التي في محتتم ما قبل في قوله تعالى «ليعذب الله المنافقين والمنافقات»... الخ، وأيضا قد أشير فيما تقدم إلى سؤال الكفار عن الساعة على جهة الاستهزاء، وههنا قد حكى عنهم انكارها صريحا والظعن بمن يقول بالمعاد على أتم وجه، وذكر مما يتعلق بذلك ما لم يذكر هناك.

وفي «البحر المحيط» أن سبب نزول هذه السورة أن أبا سفيان قال لكفار مكة لما سمعوا : «ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات» أن محمدا يتوعدهن بالعذاب بعد أن نموت ونخوفنا بالبعث، واللات والعزى لا تأتينا الساعة أبدا ولا نبعث، فقال الله قل يا محمد : بلى وربى لتبعثن، قاله مقاتل وباقي السورة تهديد لهم وتخويف، ومن ذكر هذا السبب ظهرت المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها، انظر : الألوسي 95/22 والبحر المحيط : 257/7.

(519) ب : ساقطة.

(520) ب : زيادة «يعني في آخر كلامه على سورة الأحزاب» بين كلمتي «آنفا» و«فكان».

السموات وما في الأرض» (آية : 1) ملكا واختراعا وقد أشار هذا إلى إرغام من توقف منقطعا عن فهم تصرفه سبحانه في عباده بما تقدم، وتقريرهم⁽⁵²¹⁾ بحسب ما شاء، فكأن قد قيل إذا كانوا له ملكا وعبيدا أفلا يتوقف في فعله بهم ما فعل من تيسير للحسنى أو لغير ذلك مما شاء بهم على فهم علته أو استطلاع سببه⁽⁵²²⁾، بل يفعل بهم ما شاء وأراد من غير حجر ولا منع وهو الحكيم الخبير وجه الحكمة في ذلك التي خفيت عنكم، وأشار قوله : «وله الحمد في الآخرة» (آية : 1) إلى أنه سيطلع عباده المؤمنين من موجبات حمده ما يمنحهم أو يضاعف لهم من الجزاء وعظيم الثواب في الآخرة على ما لم تبلغه عقولهم في الدنيا وفت به أفكارهم «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين».

ثم اتبع سبحانه ما تقدم من حمده على ما هو أهله ببسط شواهد حكمته وعلمه فقال تعالى : «يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها (إلى قوله)⁽⁵²³⁾ وهو الرحيم (الغفور)⁽⁵²⁴⁾» (آية : 2)، فبرحمته وغفرانه أنال عباده المؤمنين/ ما خصهم به واعطاهم، فله الحمد الذي هو أهله، ثم أتبع هذا بذكر إمهاله من كذب وكفر مع عظيم اجترائهم لتبين سعة رحمته ومغفرته فقال تعالى : «وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة (إلى قوله) : إن في ذلك لآيات لكل عبد منيب» (الآيات : 3—9) أي أن في إمهاله سبحانه لهؤلاء بعد عتوهم واستهزائهم في قولهم :⁽⁵²⁵⁾ «لا تأتينا الساعة» وقوله : «هل ندلكم على رجل ينبؤكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد» (آية : 7) وإغضائهم عن الاعتبار بما بين أيديهم من السماء والأرض وأمنهم أخذهم من أي الجهات، ففي إمهالهم وادرار أرزاقهم مع عظيم مرتكبهم آيات لمن أناب (واعتبر)⁽⁵²⁶⁾، ثم بسط

(521) ب : وتعريفهم.

(522) أ : استطلاع سبب.

(523) زائدة لأن الآية متصلة وليس فيها حذف.

(524) أ : ساقطة.

(525) ب : قوله.

(526) ب : ساقطة.

لعباده المؤمنين من ذكر آلائه ونعمه وتصريفه في مخلوقاته ما يوضح اسنيلاء قهره وملكه، ويشير إلى عظيم ملكه، كما أعلم في قوله سبحانه : «الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض» (آية : 1) فقال سبحانه : «ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد» (آية : 10) (ثم قال) (527)، ولسليمان الريح إلى قوله اعملوا آل داود شكراً» (الآيتان : 12—13)، ثم إتبع ذلك بذكر حال من لم يشكر فذكر قصة سباً إلى آخرها، ثم وبخ (تعالى) (528) من عبد غيره (معه) (529) بعد وضوح الأمر وبيانه فقال : «قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله» (آية : 22) إلى وصفه حالهم الأخروي ومراجعة متكبرهم ضعفاءهم (530)، وضعفاءهم متكبرهم «وأسروا الندامة لما رأوا العذاب»، ثم التحمت الآي جارية على ما تقدم من لدن افتتاح السورة إلى ختمها.

سورة فاطر (531)

لما أوضحت سورة سباً أنه سبحانه مالك السماوات والأرض ومستحق الحمد في الدنيا والآخرة، أوضحت هذه السورة أن ذلك خلقه كما هو ملكه وأنه الأهل للحمد والمستحق، إذ الكل خلقه وملكه، ولأن (532) السورة الأولى تجردت لتعريف العباد بأن الكل ملكه وخلقه دارت آيها (533) على تعريف عظيم ملكه،

(527) ب : ساقطة.

(528) ب : ساقطة.

(529) ب : ساقطة.

(530) ب : ضعفاؤهم، أ : ضعفاهم.

(531) وتسمى سورة الملائكة وهي مكية كما روي عن ابن عباس وقتادة وغيرهما، وقيل مكية إلا قوله تعالى : «إن الذين يتلون كتاب الله» الآية وقوله تعالى : «ثم أورثنا الكتاب... الآية».

وفي مناسبتها قال ابن حيان «لما ذكر تعالى في السورة التي قبلها هلاك المشركين أعداء المؤمنين وأنزلهم منازل العذاب تعين على المؤمنين حمده تعالى وشكره لنعمائه ووصفه بعظيم آلائه كما في قوله : «فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين». البحر المحيط : 297 / 7.

ولا تخفي كذلك مناسبة السورتين في افتتاحهما بالحمد وتقاربهما في المقدار.

(532) أ : وكأن

(533) ب : ساقطة.

فقد⁽⁵³⁴⁾ أعطي داود وسليمان عليهما السلام ما هو كالنقطة في البحار الزاخرة⁽⁵³⁵⁾ فلان الحديد وانقادت الرياح والوحوش والطير والجن والانس مذلة خاضعة «قل ادعو الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير» (سبأ : آية : 22) تعالى ربنا عن الظهير والشريك والند، وتقديس ملكه عن أن تحصره العقول أو تحيط به الأفهام، فتجردت سورة سبأ لتعريف العباد بعظيم ملكه سبحانه، وتجردت هذه الأخرى للتعريف بالاختراع والخلق، وشهد لهذا استمرار آي سورة فاطر على هذا الغرض من التعريف وتنبئها⁽⁵³⁶⁾ على الابتداءات كقوله تعالى : «جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة.... الآية» (آية : 1) وقوله : «ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها... هل من خالق غير الله يرزقكم» (آية : 2) وقوله : «أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا.... الآية» (آية : 8) وقوله : «الله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا... الآية» (آية : 9) «والله خلقكم من تراب» (آية : 11) «يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل» (آية : 13)، «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها» (آية : 27) «هو الذي جعلكم خلائف في الأرض» (آية : 39) «إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا» (آية : 41).

فهذه عدة آيات معرفة بابتداء الخلق والاختراع أو مشيرة، ولم يقع من ذلك في سورة⁽⁵³⁷⁾ سبأ آية واحدة، ثم إن سورة سبأ جرت آيها على نهج تعريف الملك والتصرف والاستبداد بذلك والابداء به، وتأمل افتتاحها وقصة داود وسليمان وقوله سبحانه : «قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة... الآيات» (سبأ : 22) يتضح لك ما ذكرناه وما أنجز⁽⁵³⁸⁾ في السورتين مما ظاهره الخروج

(534) أ : فقهه.

(535) أ : إلى آخره.

(536) ب : وتنبئها.

(537) أ : من سورة.

(538) أ : نحن.

عن هذين الغرضين فملتحم⁽⁵³⁹⁾ ومستدعى بحكم الانجرار بحسب استدعاء مقاصد الآي رزقنا الله الفهم عنه بمنه.

سورة يس (540)

لما أوضحت سورة سبأ وسورة فاطر من عظيم ملكه تعالى وتوحده بذلك وانفراده بالملك والخلق والاختراع ما تنقطع العقول دون تصور⁽⁵⁴¹⁾ أدناه ولا تحيط من ذلك إلا بما شاءه، وأشارت من البراهين والآيات إلى ما يرفع الشكوك ويوضح السلوك مما⁽⁵⁴²⁾ كانت الأفكار قد خمدت عن إدراكها واستولت عليها الغفلة، فكان قد خمدت عن معهود حراكها/، ذكر سبحانه بنعمة التحريك إلى اعتبارها بشئائه⁽⁵⁴³⁾ على من اختاره لبيان تلك الآيات واصطفاه بإيضاح تلك البينات فقال تعالى : «يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم» (آية : 1-4) ثم قال : «لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون» (آية : 6) فأشار

(539) ب : ملتحم.

(540) هذه السورة مكية على ما روي عن ابن عباس. وقد ورد في الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة والطبراني وغيرهم من معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : «يس قلب القرآن» وبين حجة الاسلام الغزالي وجه إطلاق ذلك عليها بأن المدار على الايمان وصحته بالاعتراف بالحشر والنشر وهو مقرر فيها على أبلغ وجه وأحسنه، ولذا شبهت بالقلب الذي به صحة البدن وقوامه.

وعد «قلب القرآن» من أسماء هذه السورة، كما تسمى أيضا «العظيمة عند الله» لما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «إن في القرآن سورة تدعى العظيمة عند الله تعالى، ويدعى صاحبها الشريف عند الله تعالى يشفع صاحبها يوم القيامة في أكثر من ربيعة ومضر وهي سورة يس» وتسمى أيضا المعظمة، والمدافعة القاضية.

وقد ورد في شأنها عدة أخبار وآثار تشهد بفضلها وعلو شأنها وذلك لاشتغالها على أمهات علم الأصول وتقديرها إياها بأبلغ وجه واتمه ولعل هذا هو السر — يقول الألوسي — في الأمر الوارد في صحيح الأخبار بقراءتها على الموتى أي المحتضرين. أنظر : روح المعاني 22 / 192، 193. ومن أوجه ارتباطها بما قبلها ما أبداه السيوطي حيث قال : «إنه لما ذكر في سورة فاطر قوله : «وجاءكم النذير»، وقوله : «وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير» والمراد به محمد ﷺ، وقد عرضوا عنه وكذبوه، فافتتح هذه السورة بالإقسام على صحة رسالته وأنه على صراط مستقيم لينذر قوما ما أنذر آباؤهم «تناسق الدرر : 127.

(541) أ : تطور.

(542) ب : بما.

(543) ب : بشئائه.

سبحانه إلى ما تثمر نعمة الانذار ويبعثه التيقظ بالتذكار، ثم ذكر علة من عمي بعد تحريكه، وإن كان مسببا⁽⁵⁴⁴⁾ عن الطبع وشر السابقة «لقد حق القول على أكثرهم.... الآيات» (آية : 7 وما بعدها)، ثم أشار بعد إلى بعض من عمي عن عظيم تلك البراهين لأول وهلة قد يهتز عن تحريكه لسابق⁽⁵⁴⁵⁾ سعادته فقال تعالى : «إنا نحن نحيي الموتى» (آية : 12) فكذا نفعل بهؤلاء إذا شئنا هدايتهم «أومن كان ميتا فأحييناه» (الأنعام : 122) ثم ذكر دأب المعاندين وسبيل المكذبين مع بيان الأمر فقال : «واضرب لهم مثلا أصحاب القرية.... الآيات» (آية : 13 وما بعدها)، وأتبع ذلك سبحانه بما أودع في الوجود من الدلائل الواضحة والبراهين فقال : «ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون.... الآية» (آية : 31) ثم قال : «وآية لهم الأرض الميتة أحييناها إلى قوله أفلا يشكرون» (آية : 33) ثم قال : «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار (إلى قوله) :⁽⁵⁴⁶⁾ وكل في فلك يسبحون» (الآيات : 37—40) ثم قال : «وآية لهم أننا حملنا ذرياتهم (إلى قوله) إلى حين» (الآيات : 41—44) ثم ذكروا إعراضهم مع عظيم هذه البراهين وتكذيبهم وسوء حالهم عند بعثتهم وندمهم وتوبيخهم وشهادة أعضائهم بأعمالهم ثم تناسجت⁽⁵⁴⁷⁾ الآي جارية على ما يلائم ما تقدم إلى آخر السورة.

سورة الصافات⁽⁵⁴⁸⁾

لما تضمنت سورة يس من جليل التنبيه وعظيم الارشاد ما يهتدي الموفق باعتبار بعضه ويشغل المعبر به في تحصيل مطلوبه وفرضه، ويشهد بأن الملك

(544) أ : مسبت.

(545) ب : بسابق.

(546) أضفناها لاقتضاء السياق لها.

(547) ب : تناسخت.

(548) هذه السورة مكية في قول جميع أهل العلم، ووجه ترابطها بما قبلها وهي مكية مثلها أنها تفصيل لمضمون السورة السابقة.

بجملته (549) : «لواحد وان رغم أنف المعاند والجاحد، أتبعها تعالى بالقسم على وحدانيته فقال تعالى : «والصافات صفا فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكراً إن إلهكم لواحد (إلى قوله) رب المشارق» (الآيات : 1—5) ثم عاد الكلام إلى التنبيه لعجيب مصنوعاته فقال تعالى : «إنا زينا السماء بزينة الكواكب إلى قوله شهاب ثاقب» (الآيات : 7—10)، ثم أتبع بذكر عناد من جحد مع بيان الأمر ووضوحه وضعف ما خلقوا/ منه «إنا خلقناهم من طين لازب» (آية : 11) ثم ذكر استبعادهم العودة الأخروية وعظيم حيرتهم وندمهم إذا شاهدوا ما به كذبوا، والتحمت الآي إلى ذكر الرسل مع أمهم وجريهم في العناد والتوقف والتكذيب على سنن متقارب وأخذ كل بذنبه وتخليص رسل الله وحزبه، وإبقاء جميل ذكرهم باصطفائه وقربه، ثم عاد الكلام إلى تعنيف المشركين وبيان إفك المعاندين إلى ختم السورة.

سورة ص (550)

لما ذكر تعالى حال الأمم السالفة مع أنبيائهم في العتو والتكذيب وان ذلك أعقبهم الأخذ الويل والطويل كان هذا مظنة لتذكير حال مشركي العرب وبيان (سوء مرتكبهم، وانهم قد سبقوا إلى ذلك الارتكاب فحل بالمعاندين سوء

= أما الوجه الأول فإن سورة يس قد عاجلت البعث بعد الموت وهو من الأمور التي أنكرها العرب أشد الإنكار. جاءت هذه السورة لتقلب لهم الأمر على وجوهه بدءاً ونهاية إذ بينت لهم أنهم خلقوا من تراب ومن طين لازب، وليسوا هم بأعظم خلق الله فليتأملوا إلى السماء فوقهم وإلى الأرض حولهم، فمن أنشأهم قادر على إعادتهم ومن خلق ما حولهم قادر على خلقهم خلقاً جديداً. فهذه السورة «يس» يقول السيوطي : كالأعراف بعد الأنعام وكالشعراء بعد الفرقان في تفصيل أحوال القرون المشار إلى إهلاكهم. تناسق الدرر : 128.

وقال أبو حيان في مناسبة أول هذه السورة لأواخر سابقتها : «إنه تعالى لما ذكر المعاد وقدرته على إحياء الموتي وأنه هو منشئهم، وإذا تعلقت إرادته بشيء كان، ذكر تعالى وحدانيته إذ لا يتم ما تعلقت به الإرادة وجوداً وعدماً إلا بكون المرید واحداً «البحر المحيط» 7 / 351.

(549) أ : بجملته.

(550) هذه السورة مكية في قول جميع أهل العلم، ووجه ارتباطها بسابقتها أنه لما أمر الله سبحانه رسوله الكريم في السورة السابقة بأن يصبر عليهم وينتظر مصيرهم بعد وعده بالنصر جاءت هذه السورة لتؤكد على رسوله بالصبر وتضرب له الأمثال من أنبياء الله السابقين الذين لم تذكرهم السورة السالفة، فذكرت داود وسليمان وأيوب وقصصهم الواردة

العذاب⁽⁵⁵¹⁾، فبسط حال هؤلاء وسوء مقالهم أنه لا فرق بينهم وبين مكذبي الأمم السالفة في استحقاق العذاب وسوء الانقلاب وقد وقع التصريح بذلك في قوله تعالى : « كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد (إلى قوله) : إنَّ كلَّ إلا كذب الرسل فحق عقاب » (الآيات : 12—14).

ولما أتبع سبحانه هذا بذكر استعجالهم في قولهم : «عجل لنا قطنًا قبل يوم الحساب» (آية : 16) أتبع ذلك بأمر نبيه ﷺ بالصبر فقال : «اصبر على ما يقولون» (آية : 17) ثم آنسه⁽⁵⁵²⁾ بذكر الأنبياء وحال المقربين الأصفياء «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك» (هود : 120).

سورة الزمر⁽⁵⁵³⁾

لما بينت سورة (ص) على ذكر المشركين وعنادهم وسوء ارتكابهم واتخاذهم الأنداد والشركاء ناسب ذلك ما افتتحت به سورة الزمر من الأمر بالاخلاص الذي

= في هذه السورة من عجيب القصص أسلوبا ومعنى بما يأخذ بالألباب ويغير الأفكار، واستهلت هذه السورة بذكر عنجهيتهم وشقاقهم واستكبارهم على الحق وختمت باستكبار إبليس وإبائه الذي أورده موارد الهلاك واتبعه اللعنة إلى يوم الدين. فكانها تنبههم إلى أن هذا الاستعلاء على الحق سيوردهم موارد إبليس مع تأكيد السورة للرسول صلى الله عليه وسلم بان جمعهم متفرق وشملهم متشئت (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) فالصبر عاقبته خير وبهذا أمر عليه الصلاة والسلام.

قال الألوسي في مناسبة هذه السورة لما قبلها : «وهي كالتممة لما قبلها من حيث أنه ذكر فيها ما لم يذكر في تلك من الأنبياء عليهم السلام كداود وسليمان. ولما ذكر سبحانه فيما قبل عن الكفار أنهم قالوا : «لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكننا عباد الله المخلصين»، وأنهم كفروا بالذكر لما جاءهم، بدأ عز وجل في هذه السورة بالقرآن ذي الذكر وفصل ما أجمل هناك من كفرهم وفي ذلك من المناسبة ما فيه» روح المعاني : 146/23.

(551) ب : ساقطة.

(552) ب : أتبعه.

(553) هذه السورة في جملتها مكية وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخصصها بالقراءة قبل النوم كما جاء ذلك عن السيدة عائشة فيما أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة حديث رقم 718 والترمذي في جامعه 65/4، 232 وأحمد والحاكم وغيرهم قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر.

ومن أوجه ارتباط هذه السورة بسابقتها أن السورة السابقة قد أمرت بالصبر كما قدمنا وهذه بينت قضاء الله في خلقه، فهم مخلوقون من نفس واحدة لكن بعضهم اصطفاهم الله عز وجل كما جاء في السورة السابقة فكان

هو نقيض حال من تقدم، وذكر ما عنه يكون وهو الكتاب، فقال تعالى : «تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص» (الآيتان : 1—2) وجاء قوله تعالى : «والذين اتخذوا من دونه أولياء.... الآية» (آية : 3) في معرض أن لو قيل عليك بالاخلاص ودع من أشرك ولم يخلص فسترى حاله وهل ينفعهم اعتذارهم بقولهم : «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» (آية : 3) وهؤلاء هم الذين بنيت سورة ص على ذكرهم، ثم ونحهم الله تعالى وقرعهم⁽⁵⁵⁴⁾ فقال / «لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى.... الآية» (آية : 4) فتره نفسه عن عظيم مرتكبهم بقوله سبحانه : «وهو الواحد القهار» (آية : 4) ثم ذكر بما فيه أعظم شاهد من خلق السماوات والأرض وتكوين الليل على النهار وتكوين النهار على الليل وذكر آيتي النهار والليل ثم خلق الكل من البشر من نفس واحدة وهي نفس آدم عليه السلام، ولما حرك تعالى إلى الاعتبار بعظيم هذه الآيات وكانت أوضح شيء وأدل شاهداً، عقب ذلك بما يشير إلى معنى التعجب من توقفهم بعد وضوح الدلائل، ثم بين تعالى أنه غني عن الكل بقوله : «إن تكفروا فإن الله غني عنكم» ثم قال : «ولا يرضى لعباده الكفر» (آية : 7) فبين أن من اصطفاه وقربه واجتباها من العباد لا يرضى بالكفر وحصل من ذلك بمفهوم الكلام أن الواقع من الكفر إنما وقع بإرادته ورضاه لمن ابتلاه به، ثم آنس من آمن ولم يتبع (سبيل أبيه وقبيلته)⁽⁵⁵⁵⁾ من المشار إليهم في

من السعداء، وبعضهم أغواه إبليس فسلك سبيله فأقسم الله عز وجل في سورة «ص» أن يملأ جهنم منهم فكانت سورة الزمر مبينة لهذه الحقيقة كي لا يأسى النبي صلى الله عليه وسلم ولا يهلك نفسه حسرات عليهم وعلى عنادهم، وأمرته أن يعلن الاخلاص في دينه لله رب العالمين وختمت هذه السورة ببيان نهاية فصل القضاء الذي علمه الله عز وجل قبل أن يخلق الخلق فتحقق علمه فيهم فريق في الجنة وفريق في السعير» وسبق الذين كفروا إلى جهنم زمراً.... وسبق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً 71 — 73 «وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين».

قال السيوطي في : تناسب الدرر ص 128 : «لا يخفى وجه اتصال أولها بآخر «ص» حيث قال في «ص» «إن هو الا ذكر للعالمين» ثم قال هنا : «تنزيل الكتاب من الله» فكانه قيل : هذا الذكر تنزيل، وهذا تلاؤم شديد، بحيث أنه لو أسقطت البسملة لالتأمت الايتان كالأية الواحدة.
(554) ب : وفرعهم.
(555) ب : سبيل الشيطان.

السورة قبل فقال تعالى : «ولا تزر وازرة وزر أخرى» (الإسراء : 15) إن أحسنتم
أحسنتم لأنفسكم» (الإسراء : 7) ولا تكسب كل نفس إلا عليها» (الأنعام :
164) ثم تناسجت الآي والتحمت الجمل إلى خاتمة السورة.

سورة المؤمن (556)

لما افتتح سبحانه سورة الزمر (بالأمر) (557) بالاخلاص وذكر سببه والحامل
باذن الله عليه وهو الكتاب، وأعقب ذلك بالتعريض بذكر من بنيت على وصفهم
سورة ص تتابعت الآي في ذلك الغرض إلى توبيخهم بما ضربه سبحانه من المثل
الموضح في قوله : «ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما
لرجل» (الزمر : 29) ووصف الشركاء بالمشاكسة إذ بذلك الغرض يتضح عدم

(556) هذه السورة أول سورة من سبع سور متتابعة افتتحها الله عز وجل بالحروف المقطعة «حم» وكما هو الشأن في جميع
السور المبتدأة بالأحرف المقطعة لا بد أن تعرض لذكر القرآن وتنزيهه والاشادة به، ولم تتخلف هذه السور عن هذه
القاعدة.

وقد جاءت روايات تؤكد أن هذه السور السبع «الحواميم» نزلت متتالية كترتيبها في المصحف الكريم في
مكة المكرمة، وقد خصها النبي ﷺ بتنويه كريم حيث قال فيما أخرجه أبو الشيخ وأبو نعيم والديلمي عن أنس :
الحواميم ديباج القرآن، وجاء هذا الحديث عن ابن مسعود من قوله أخرجه أبو عبيد والحاكم والبيهقي وغيرهم. انظر
الدر المنثور : 344/5.

وأخرج أبو عبيد في الفضائل عن ابن عباس قال : «إن لكل شيء لبابا وأن لباب القرآن حم أو قال :
الحواميم.

وكان السلف يسمين العرائس، أو عرائس القرآن لجمالهن وتناسقهن وما فيهن من حجة بالغة على الناس
وخاصة كفار قريش، وأشهر أسمائها «غافر».

وقد سميت هذه السورة بالمؤمن لأنه ورد فيها ذكر مؤمن آل فرعون وقيامه بالحق في موقف قد كثر
الطغيان عن انيابه وتضاغر الحق فيما يبدو لكثير من الناس أمام سطوته وارهابه، فانبعث صوت هذا المؤمن ليرد
القول إلى نصابه بحجة هادئة واضحة لينة. وهو موقف يتكرر ويتردد ما تعاقب الملوان فجعله خالدا في كتابه
نبراسا أمام أوليائه وأحبابه. هذا الموقف يحتاج للشجاعة والصبر، وقد جاء الحظ على الصبر في السورة السالفة،
وهذا موقف من مواقفه ووجه من وجوه تعلق هذه السورة بسابقتها والله أعلم.

وقد أبدى الامام السيوطي وجها آخر في مناسبة هذه السورة لما قبلها وما بعدها إذ قال : وجه ايلاء الحواميم
السبع سورة الزمر تأخي المطالع في الافتتاح بتنزيل الكتاب، وفي مصحف أبي بن كعب : أول الزمر «حم» وذلك
مناسبة جلية».

انظر تناسق الدرر : 129.

(557) ساقطة من : ب.

استمرار المراد (558) لأحدهم وذكر قبيح اعتذارهم بقولهم (559) : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » (الزمر : 3)، ثم أعقب تعالى بالاعلام بقهره وعزته حتى لا يتخيل مخذول شذوذ أمر عن يده وقهره فقال تعالى : «أليس الله بكاف عبده (إلى قوله) : أليس الله بعزیز ذي انتقام» (الزمر : 36—37)، ثم اتبع ذلك بحال اندادهم في أنها لا تضر ولا تنفع فقال : «قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن بمسكات رحمته» (الزمر : 38) ثم أتبع هذا بما يناسبه من شواهد عزته فقال : «قل لله الشفاعة جميعا (الرمز : 44) قل اللهم فاطر السماوات والأرض» (الزمر : 46) «أولم يعلموا أن الله ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر» (الزمر : 52) : «الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، له مقاليد السماوات والأرض» (560) (الزمر : 59) ثم عنفهم وقرعهم فقال تعالى : افغير الله تأمرني أعبد أيها الجاهلون، (الزمر : 64) ثم قال تعالى : و«ما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه» (الزمر : 67)، ثم اتبع (تعالى) (561) بذكر آثار العزة والقهر فذكر النفخ في الصور للصعق، ثم نفخة القيام والجزاء ومصير الفريقين فتبارك المنفرد بالعزة والقهر.

فلما انطوت هذه الآي من آثار عزته وقهره على ما أشير إلى بعضه أعقب ذلك بقوله : «حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم» (آية : 1—2) فذكر من أسمائه سبحانه هذين الاسمين العظيمين تنبيها على انفراده بموجبهما (562) وأنه العزيز الحق القاهر للخلق لعلمه تعالى بأوجه الحكمة التي خفيت عن الخلق (فأخر الجزاء الحتم للدار) (563) الآخرة، وجعل الدنيا دار ابتلاء واختبار مع قهره لكل في الدارين معا

(558) أ : مداد.

(559) أ : بقوله.

(560) ب : ساقطة.

(561) ب : ذلك.

(562) أ : بموجبها.

(563) أ : ما أخر... وفي ب : قاضي الجزاء الحتم بالدار.

وكونهم غير خارجين عن ملكه وقهره ثم قال تعالى: «غافر الذنب وقابل التوب» (آية: 3) (564) تأنيباً لمن استجاب بحمده وأتاب بلطفه، وجرياً على حكم سبقية الرحمة وتقليبها ثم قال: «شديد العقاب ذى الطول» (آية 3) ليأخذ المومن بلازم عبوديته من الخوف والرجاء، واكتنف قوله شديد العقاب بقوله غافر الذنب وقابل التوب وقوله ذى الطول، وأشار سبحانه بقوله: «فلا يغرك تقلبهم في البلاد» (آية: 4) إلى قوله قبل وأورثنا الأرض» (الزمر: 74) وكأنه في تقدير إذا كانت العاقبة لك ولأتباعك فلا عليك من تقلبهم في البلاد ثم بين تعالى أن حالهم في هذا كحال الأمم قبلهم وجدالهم في الآيات كجدالهم وإن ذلك لما حق عليهم من كلمة العذاب وسبق لهم في أم الكتاب.

سورة حم السجدة (565)

لما تضمنت سورة غافر بيان حال المعاندين وجاحدي الآيات وأن ذلك ثمة تكذيبهم وجدلهم وكان بناء السورة على هذا الغرض بدليل افتتاحها وختمها ألا ترى/ قوله تعالى: «ما يجادل في آيات الله» (566) إلا الذين كفروا» (غافر: 4) وتأنيس نبيه عليه الصلاة والسلام بقوله: «فلا يغرك تقلبهم في البلاد» (غافر: 4) فقد تقدم ذلك من غيرهم فأعقبهم سوء العاقبة والأخذ الويل «كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه» (غافر: 5) فعصمتهم واقية: «إنا لننصر

(564) ب : تأنيباً.

(565) هذه السورة مكية في قول الجميع، وتسمى سورة «السجدة» و«حم السجدة» و«المصاييح» و«الأقوات» وأشهر أسمائها «فصلت». أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن الخليل بن مرة أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ «تبارك» و«حم السجدة». انظر روح المعاني : 84/24.

قال السيوطي في تناسق الدر ص 130 «روينا عن جابر بن زيد وابن عباس في ترتيب نزول السور : أن الحواميم نزلت عقب الزمر، وانها نزلت متتاليات كترتيبها في المصحف : المؤمن، ثم السجدة، ثم الشورى، ثم الزخرف، ثم الدخان، ثم الجاثية، ثم الأحقاف، ولم يتخللها نزول غيرها، وتلك مناسبة جليلة واضحة في وضعها هكذا».

ثم قال : «قال الكرمانى في العجائب (لباب التفسير وعجائب التأويل) : ترتيب الحواميم السبع لما بينها من التشاكل الذي خصت به، وهو أن كل سورة منها استفتحت بالكتاب أو وصفه مع تفاوت المقدار في الطول والقصر، وتشاكل الكلام في النظام.

(566) أ : «ما يجادل في آياتنا» غير واضحة بسبب الحرم.

رسلنا والذين آمنوا»⁽⁵⁶⁷⁾ (غافر: 51) وقال تعالى: «وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف»⁽⁵⁶⁸⁾ كان عقاب» (غافر: 5) أي فكيف رأيت ما حل بهم وقد بلغت خبرهم فهلا اعتبر هؤلاء بهم «أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة، وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق» (غافر: 21) وإنما أخذهم بتكذيبهم الآيات «ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله» (غافر: 22)، ثم ذكر تعالى من حزب المكذبين فرعون وهامان وقارون وبسط القصة تنبيهاً على سوء عاقبة من عاند وجادل بالباطل وكذب الآيات ثم قال تعالى بعد آيات: «إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أثاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه» (غافر: 56) إذ الحول والقوة ليست لهم فاستعذ بالله من شرهم، فخلق غيرهم لو استبصروا أعظم من خلقهم «لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس» (غافر: 57) وهم غير آمنين من الأخذ من كلا الخلقين⁽⁵⁶⁹⁾ «إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء» (سبأ: 9) ثم قال تعالى: بعد هذا «ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون» (غافر: 69) أي أن أمرهم لعجيب في صرفهم عن استيضاح الآيات بعد بيانها، ثم ذكر تعالى سوء حالهم في العذاب الآخروي وواهي اعتذارهم بقولهم: «ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً» (غافر: 74) ثم صبر تعالى نبيه عليه السلام⁽⁵⁷⁰⁾ بقوله: «فاصبر إن وعد الله حق» (غافر: 77) ثم أعاد تنبيههم فقال تعالى: «أفلم يسيروا في الأرض إلى ختم السورة» (غافر: 82—85) ولم يقع من⁽⁵⁷²⁾ هذا التنبيه الذي دارت عليه آي هذه السورة في سورة الزمر شيء ولا من تكرار التحذير من تكذيب الآيات.

(567) «والذين آمنوا» زيادة من ب.

(568) فكيف ساقطة من ب.

(569) ب : الخلفين.

(570) ب : صلى الله عليه وسلم.

(571) أ : أولم، ولعله اشتبه على الناسخ بالآية 21 من نفس السورة التي نصها : «أولم يسيروا في الأرض» الآية.

(572) ب : في.

فلما بنيت على هذا الغرض أعقبت بذكر الآية العظيمة التي تحدت بها العرب وقامت بها حجة الله سبحانه على الخلق، وكأن قد قيل لهم احذروا ما قدم لكم فقد جاءكم محمد ﷺ بأوضح آية وأعظم برهان «تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً» (الآيات: 3-4) وتضمنت هذه السورة العظيمة من بيان عظيم الكتاب وجلالة قدره وكبير الرحمة به ما لا يوجد في غيرها من أقرانها كما أنها في الفصاحة تبهر العقول بأول وهلة فلا يكن للعربي الفصيح في شاهد برهانها أدنى (573) توقف ولا يحول في وهمه إلى معارضة بعض آياتها أدنى تشوف، «وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» (آية: 41-42) «ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي» (آية: 44) فوخبهم تعالى وادحض حجتهم وأرغم باطلهم، وبكت دعاويهم ثم قال: «قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد» (آية: 44) «إنما يستجيب الذين يسمعون» (الأنعام: 36) وقرعهم (574) تعالى في ركيك جوابهم عن واضح حجته بقولهم: «قلوبنا في أكنة مما تدعون إليه وفي آذاننا وقر» (آية: 5) وقولهم «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه» (آية: 26) وهذه شهادة منهم على أنفسهم بالانقطاع عن معارضته وتسليمهم (575) بقوة عارضته، ثم فضحهم بقوله: «قل أرايتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به.... الآية» (آية: 52).

(573) أ : اذا.

(574) أ : وأقرعهم.

(575) أ : وتسجيلهم.

وتحملت السورة مع هذا بيان هلاك من عاند وكذب ممن كان قبلهم وأشد قوة منهم وهم الذين قدم⁽⁵⁷⁶⁾ ذكرهم مجملا في سورة غافر في آيتي «أولم يسيروا في الأرض»⁽⁵⁷⁷⁾ (آية : 21) «أفلم يسيروا» (آية : 82) فقال تعالى مفصلا لبعض ذلك الاجمال : «فإن أعرضوا فقل آذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» (آية : 13) ثم قال : «فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة» (آية : 15) ثم قال : «فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا.... الآية» (آية : 16) ثم قال : «وأما ثمود فهديناهم⁽⁵⁷⁸⁾» (آية : 17) فبين تعالى حالهم وأخذهم فاعتضد التحام السورتين واتصال المقصدين والله أعلم.

(576) أ : قد.

(577) الأرض ساقطة من : أ.

(578) فهديناهم ساقطة من : أ.

سورة الشورى (579)

لما (تضمنت سورة غافر ما تقدم من بيان) (580) حال المعاندين والجاحدين وأعقبت بسورة السجدة بيانا أن حال كفار العرب في ذلك كحال من تقدمهم، وإيضاحا لآيات (581) الكتاب العزيز وعظيم (582) برهانه، ومع ذلك فلم تجد على من قضى عليه تعالى بالكفر، اتبعت السورتان بما اشتملت عليه سورة الشورى من أن ذلك كله إنما جرى على ما سبق في علمه تعالى بحكم المشيئة الأزلية «فريق في الجنة وفريق في السعير» (آية : 7) «وما أنت عليهم بوكيل» (آية : 6) «ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة» (آية : 8) «ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم» (آية : 14) «لنا أعمالنا ولكم أعمالكم» (آية : 15) «ولولا كلمة

(579) هذه السورة مكية كلها إلا أربع آيات منها في قول ابن عباس وقتادة بدءا من قوله تعالى «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى» الآيات... فقد قالوا إنها نزلت بالمدينة. ولكن سياقها ومضمونها ظاهر في أنها مكية إذ أن قرابته عليه الصلاة والسلام وأهله وعشيرته هم بمكة وليسوا بالمدينة فخطابها لأهل مكة أقرب وهذا ترجح أن تكون كلها مكية.

أما علاقتها بسابقتها فما أبداه المصنف من ذلك واضح جدا يؤكد ما جاء في غير موضع من كتب السير والحديث من أن الملائكة القرشي اجتمعوا يوما وتشاوروا بشأن رسول الله ﷺ واتفقوا على أن يساوموه عتبة بن ربيعة فعرض عليه كل المغريات وأبان له عن استكبارهم وأعراضهم وما هم عليه من عدم الإذعان لهذا القرآن. فلما انتهى عتبة من عروضه ومساوماته قال النبي ﷺ : يا أبا الوليد اسمع. فقرأ عليه صدرا من سورة فصلت إلى قوله تعالى فان اعرضوا فقل آندرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، فقام إليه الوليد بن عتبة وقال له يا محمد أناشدك الله والرحم أن تكف عن القراءة ثم رجع إلى قومه بغير الوجه الذي جاء به وقال لهم خلوا بينكم وبين هذا الرجل، فما زادهم الا طغيانا واستكبارا. انظر الدر المنثور : 358/5.

قال أبو حيان في البحر المحيط : 507/7 في مناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها : «انه قال : «قل أرأيتم ان كان من عند الله... الآية» وكان في ذلك الحكم عليهم بالضلال لما كفروا به، قال هنا : «كذلك» أي مثل الايحاء السابق في القرآن الذي كفر به هؤلاء «يوحى إليك» أي أن وحيه تعالى متصل غير منقطع يتعهدك وقتا بعد وقت.

(580) أ : غير واضحة بسبب الخرم.

(581) أ : غير واضحة بسبب الخرم وفي ب : «لأنه»، واثبت ما يناسب السياق.

(582) ب : ولعظيم.

الفصل لقضي بينهم» (آية : 21) «وهو على جمعهم إذا يشاء قدير» (آية : 29) «وما أنتم بمعجزين في الأرض» (آية : 31) «ومن يضل الله فما له من سبيل» (آية : 46) «إن عليك إلا البلاغ» (آية : 48) «نهدي به من نشاء من عبادنا» (آية : 52).

فتأمل هذه الآي وما التحم (بها)⁽⁵⁸³⁾ مما لم يجر في السورة المتقدمة منه إلا النادر (ومحكم ما استجره وبناء هذه السورة على ذلك ومدار آيها)^(*)، يلح لك وجه اتصالها بما قبلها والتحامها بما جاورها.

ولما اختتمت سورة السجدة بقوله تعالى : «ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم» (فصلت 54) أعقبها سبحانه بتنزيهه وتعاليه عن (ربهم وشكهم)⁽⁵⁸⁴⁾ فقال تعالى : «يكاد السماوات يتفطرن من فوقهن» (آية : 5) كما أعقب بمثله في قوله : «وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا» (مريم : 88—89) فقال : «يكاد السماوات يتفطرن منه» (الآيات : 90).

ولما تكرر في حم السجدة ذكر تكبر المشركين وبعد انقيادهم في قوله : «فأعرض أكثرهم» (آية : 4) «وقالوا قلوبنا في أكنة» (آية : 5) إلى ما ذكر تعالى من حالهم المنبئة عن بعد استجابتهم فقال تعالى في سورة الشورى : «كبر على المشركين ما تدعوهم إليه» (آية : 13).

سورة الزخرف⁽⁵⁸⁵⁾

لما أخبر سبحانه بامتحان خلف بني إسرائيل في شكهم في كتابهم بقولهم : «وان الذين أوتوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب» (الشورى :

(583) أ : ساقطة. (*) تركيب مضطرب لا يستقيم معناه.

(584) أ : غير واضحة بسبب الخزم.

(585) هذه السورة مكية بإجماع كسابقها، ووجه تعلقها بالشورى واضح في أمرين اثنين :

الأول : أن الشورى ختمت بذكر النور الذي أوحاه الله عز وجل إلى رسول الله ﷺ، عن غير سابق معرفة به ولا علم بمضمونه، فجاء صدر سورة الزخرف لتشييد بهذا الكتاب وتعظم مكانته وتبين أنه شرف لهذا الرسول ولقومه، لا

(14) ووصى نبيه ﷺ بالتبري من سيء حالهم، والتنزه عن سوء محالهم فقال تعالى (586) «ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب... الآية» (587) (الشورى : 15) وتكرر الثناء على الكتاب العزيز كقوله : «وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا» (آية : 7) وقوله : «الله (588) الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان» (الشورى : 17) وقوله : «وكذلك أوحينا إليه روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا... الآية» إلى آخر السورة (الشورى : 52—53)، أعقب ذلك بالقسم به، وعضد الثناء عليه فقال : «حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم» (آية : 1—4)، ولما أوضح عظيم حال الكتاب وجليل نعمته به أردف ذلك بذكر سعة عفوه وجميل إحسانه إلى عباده، ورحمتهم بكتابه مع إسرافهم وقبيح مرتكبهم فقال : «أفنزرب عنكم الذكر صفحا إن كنتم قوما مسرفين» (آية : 5).

ولما قدم في الشورى قوله : «لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما» (آية : 49—50) فأعلم أن ذلك يكون بقدرته وإرادته والجاري على

= يسمو فوقه شرف، ولا يدانيه فخر، وهم مسؤولون عن القيام بحقه «وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون» (44).

الثاني : لما تقدم في سورة الشورى قوله تعالى : «فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا على ربهم يتوكلون» (36) كشفت هذه السورة طرفا من زخارف هذه الحياة الدنيا واغترارا الكافرين بهذه الزخارف، وان الله عز وجل سيخليهم بها، ولكنها إلى زوال، ويفقدونها بغتة وهم لا يشعرون، وعندئذ يخلد المومنون في نعيم غير نافذ، وينقلبون فيما تشبهه الأنفس وتلد الأعين، ويبقى هؤلاء المغترون في عذاب لا يفترون عنهم وهم فيه ملبسون، فإذا جادلوكم وحاجوكم فاصفح عنهم وقل سلام فسوف تعلمون، وهذان الأمران في الارتباط ظاهران والحمد لله.

(586) أ : ساقطة.

(587) أ، ب : «ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون وقل آمنت الخ» وهو تداخل آيتين الآية 17 من سورة الجاثية وهي قوله تعالى : «ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون أنهم لم يغنوا عنك من الله شيئا» وبين الآية 13 من سورة الشورى المشار إليها أعلاه والتي يقتضيها السياق.

(588) أ : «إن الذي.... الخ وهو خطأ.

هذا أن يسلم الواقع من ذلك ويرضى بما قسم واختار؛ عنف تعالى في هذه السورة (589)، من اعتدى وزاغ فقال : «وإذا بشر أحدهم» (590) بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم» (آية : 17) فكمل الواقع هنا بما تعلق به، وكذلك قوله تعالى : «ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض» (الشورى : 27) وقوله في الزخرف : «ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة» (آية : 33).

سورة الدخان (591)

لما تضمنت سورة حم السجدة وسورة الشورى من ذكر الكتاب العزيز ما قد أشير إليه مما لم تنطوي سورة غافر على شيء منه وحصل من مجموع ذلك

(589) أ : «زيادة» (الأخرى) بين كلمتي «السورة» و«من اعتدى» ولا معنى لها.

(590) أ : أقحمت كلمة بالأنثى في الآية بين قوله تعالى : «أحدهم» و«بما ضرب».

(591) هذه السورة مكية كذلك بالاتفاق وقد خصها النبي ﷺ بأن تقرأ ليلاً وخاصة في ليلة الجمعة. أخرج الترمذي والدارمي والبيهقي وغيرهم عن أبي هريرة وغيره أن رسول الله ﷺ قال : «من قرأ الدخان ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له» أنظر الدر المنثور : 24/6.

وجه ارتباطها بما قبلها أنه لما ختمت سورة الزخرف بقوله تعالى : فاصفح عنهم وقل سلام فسوف تعلمون» (89) جاءت هذه السورة تبين لرسول الله ﷺ بعض ما سيعلمونه من دخان يغشى الناس في طيه عذاب أليم وبطشة كبرى، انتقاماً منهم مع التقريب والتمثيل بعبر السابقين وخاصة فرعون وقومه، لأن كفار قريش سلكوا طريقهم في العناد واللجاج، وباء بالكبر في هذه الغواية وقيادتهم إلى السفاهة أبو جهل إذ قال لرسول الله ﷺ وقد لقيه في أحد طرق مكة يا أبا جهل إن الله أمرني أن أقول لك : أولى لك فأولى، ثم أولى لك فأولى فرد أبو جهل بقوله وما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء، لقد علمت أني أمتنع أهل بطحاء وأنا العزيز الكريم، وفي رواية قال أبو جهل أبوعدي محمد وأنا أعز من مثي بين جليليها. فجاءه الجواب من الله بعد ذكر فرعون الذي ادعى أكثر مما ادعاه أبو جهل حين ادعى الألوهية «ذق أنك أنت العزيز الكريم» بعد أن يلقى في سواء الجحيم ويصب فوق رأسه من الحميم. أنظر تفسير الطبري مجلد 80/2/9، الدر المنثور : 33 / 6.

وغير خاف أن هذه الانذارات قد وقعت بمكة والمؤمنون معه في حالة ضعف. ولهذا ختمت السورة بالتأكيد على الانتظار والاصطبار في قوله : «فارتقب أنهم مرتقبون» (59). وكما جاء الدخان ومرت البطشة فلا شك أن وعيد الله لأبي جهل وأمثاله واقع لا ريب فيه. ففي قوله تعالى : «يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس» أخرج البخاري في صحيحه : 571 / 8 عن عبد الله بن مسعود قال إنما هذا لأن قريشاً لما استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابتهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فينظر بينه وبينها كهيفة الدخان من الجهد فأنزل الله عز وجل «فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس

الاعلام بتنزيله من عند الله وتفصيله وكونه قرآنا عربيا إلى ما ذكر تعالى من خصائصه إلى قوله : «وأنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون» (الزخرف : 44) وتعلق الكلام بعد هذا بعضه ببعض إلى آخر السورة، استفتح تعالى سورة الدخان بما يكمل ذلك الغرض وهو التعريف بوقت إنزاله إلى سماء الدنيا فقال : «إنا أنزلناه في ليلة مباركة» (آية : 3) ثم ذكر من فضلها فقال : «فيها يفرق كل أمر حكيم» (آية : 4) فحصل وصف الكتاب بخصائصه والتعريف بوقت إنزاله إلى سماء الدنيا، وتقدم الأهم في ذلك في السورتين قبل، وتأخر التعريف بوقت نزوله إذ ليس في التأكيد كالمقدم، ثم وقع إثر هذا تفصيل⁽⁵⁹²⁾ وعيد قد أجمل في قوله تعالى : «فأصفيح عنهم وقل سلام فسوف تعلمون» (الزخرف : 89) وما تقدمه من قوله (تعالى)⁽⁵⁹³⁾ : «أم ابرموا أمرا فإننا مبرمون» (الزخرف : 79) وقوله سبحانه : «أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم» (الزخرف : 80) وتنزيهه تعالى نفسه عن عظيم افتراءهم في جعلهم (الشريك)⁽⁵⁹⁴⁾ والولد إلى آخر السورة، ففصل بعض⁽⁵⁹⁵⁾ ما أجملته هذه الآي في قوله تعالى في صدر سورة الدخان

= هذا عذاب أليم» (9، 10) قال فأنى رسول الله ﷺ أبو سفيان فليل له يا رسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلك، قال لمضر ؟ إنك لجرىء فاستسقى فسقوا فنزلت «إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون» (14) فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله عز وجل «يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون» (15) قال : يعني يوم بدر.

قال أبو حيان : «ومناسبة هذه السورة أنه ذكر في أواخر ما قبلها» فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون» فذكر يوما غير معين ولا موصوفا، فبين في أوائل هذه السورة ذلك اليوم بوصف وصفه فقال : «فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين وإن العذاب يأتيهم من قبلك وبحل بهم من الجذب القحط ويكون العذاب في الدنيا، وإن كان العذاب في الآخرة فيكون يومهم الذي يوعدون يوم القيامة». البحر المحيط : 32 / 8. وقال الألوسي في مناسبتها : «إنه تعالى ختم ما قبل بالوعيد والتهديد، وافتتح هذه بشيء من الانذار الشديد، وذكر سبحانه هناك قول الرسول ﷺ : يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، وهنا نظيره فيما حكى عن أخيه موسى عليهم الصلاة والسلام بقوله تعالى : «فدع ربه أن هؤلاء قوم مجرمون»، وأيضا ذكر فيما تقدم «فأصفيح عنهم وقل سلام» وحكى سبحانه عن موسى عليه السلام «إني عدت بربي وبكم أن ترجعوا وإن لم تومنوا لي فاعزلون» وهو قريب من قريب. روح المعاني : 101 / 25.

(592) أ : التفصيل.

(593) ب : ساقطة.

(594) أ : ساقطة.

(595) أ : لبعض.

«فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين» (آية : 10) وقوله : «يوم نبطش البطشة الكبرى.... الآية» (آية : 16) والاشارة إلى يوم بدر، ثم ذكر شأن غيرهم في هذا وهلاكهم بسوء ما ارتكبوا ليشعروا أن لا فارق إن هم⁽⁵⁹⁶⁾ عقلوا واعتبروا، ثم عرض بفرعونهم في مقالته، «ما بين لابتيا أعز مني ولا أكرم»⁽⁵⁹⁷⁾ فذكر تعالى شجرة الزقوم إلى قوله : «ذق إنك أنت العزيز الحكيم»⁽⁵⁹⁸⁾ (الآيات : 43—49) والتحم هذا كله التحاماً يهر العقول ثم اتبع بذكر حال المتقين جرياً على الطرد من شفع (آية)⁽⁵⁹⁹⁾ الترهيب بالترغيب ليين حال الفريقين، وينهج على الواضح من الطريقين، ثم قال لنبيه عليه السلام⁽⁶⁰⁰⁾ «فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون» (آية : 58) وقد أخبره مع بيان الأمر ووضوحه أنه إنما يتذكر من يخشى ثم قال فارتقب وعدك ووعيدهم انهم مرتقبون.

سورة الشريعة⁽⁶⁰¹⁾

لما تضمنت السور الثلاث المقدمة إيضاح أمر الكتاب وعظيم بيانه وأنه شاف كاف وهدى ونور، وكان أمر من كفر من العرب أعظم شيء لانقطاعهم

(596) أ : لبعض.

(597) أ : أنظر هذا النص في التعليق على السورة ص : 123 . 301

(598) في أ : الحكيم.

(599) ساقطة من : ب.

(600) ب : ﷺ.

(601) أشهر أسماء هذه السورة : «الجاثية»، وتسمى أيضا «الشريعة» و «الدهر» كما حكاها الكرمانى في العجائب، وهي تابعة في مضمونها للحواميم قبلها، وهي مكية مثلها، وانظر روح المعاني : 25 / 126 . ووجه اتصالها بسورة الدخان إنه لما ختمت «الدخان» بقوله تعالى : «فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون فارتقب انهم مرتقبون افتتحت هذه السورة بذكر الكتاب العزيز وتفصيل بعض الآيات الدالة على الله وبيان تصرف أولئك الكفار من استهزاء بآيات الله، وإصرار واستكبار، واعراض وادبار، وهذا يقتضي من النبي ﷺ والتوعدة وعدم الرضوخ لهم، ولهذا جاء الأمر بعد ذلك تثبيتاً وتأيداً وبيانا للحق الذي هو عليه مقابل أهوائهم المتفرقة التي تشعب بهم في قوله تعالى : «ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون» (17).

ولما كان الهوى باعث الكبر والبطر وهو شيء داخلي نفساني عرضت السورة في نصفها الثاني لهاتين الحقيقتين فهم لا يخفون على الله فيما أخفوه من نوازع السوء، وان الكبرياء الحق لله وحده، «وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم» (26) وهم اذلاء في ساحة محكمته لا يظلمون، بل سينالون جزاء ما كانوا

وعجزهم وقيام الحجة به عليهم حتى رضوا بالقتل والخزي العاجل وما فاهوا بادعاء معارضة ولا تشوفوا إلى الاسناد إلى عظيم تلك المعارضة، اتبع ذلك تعالى تنبيهه⁽⁶⁰²⁾ نبيه والمومنين إلى ما قد نصبه من الدلائل سواء مما صد المعرض عن الاعتبار بها أو ببعضها مجرد هواه، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله فقال تعالى بعد القسم بالكتاب المبين... «إن في السماوات والأرض لآيات للمومنين» (آية : 3) أي لو لم تبيئهم يا محمد بعظيم آية الكتاب فقد كان لهم فيما نصبنا من الأدلة أعظم برهان وأعظم تبيان «أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى» (الروم : 8).

فلما نبه بخلق السماوات والأرض اتبع بذكر ما بث في الأرض فقال : «وفي خلقكم وما يث من دابة آيات لقوم يوقنون واختلاف الليل والنهار» (الآيتان : 4-5) أي في دخول أحدهما على الآخر بالطف اتصال وأربط انفصال، «لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار» (يس : 40) ثم نبه على الاعتبار بانزال الماء من السماء وسماء رزقا⁽⁶⁰³⁾.... فقال : «وما أنزل الله من رزق فأحيى به الأرض بعد موتها» (آية : 5) ثم قال : «وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون» (آية : 5) والاستدلال بهذه الآي يستدعي بسطا يطول ثم قال : «تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق» (آية : 6) أي علاماته ودلائله «وإن من شيء إلا يسبح بحمده» (الاسراء : 44) ثم قال : «فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون» (آية : 6) بعد ما شاهدوه من شاهد الكتاب وما تضمنه خلق السماوات والأرض وما فيها وما بينهن من عجائب الدلائل الواضحة لأولى الأبواب، فإذا لم يعتبروا بشيء من ذلك فبماذا⁽⁶⁰⁴⁾ يعتبر، ثم أردف تعالى بتقريعهم وتوبيخهم في تصحيحهم

= يعملون» وترى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون» (27)، وهكذا كانت السورة تفصيلا لهذا الأمر وبيانا لعاقبة هؤلاء، وهذا يتناسب وسورة الدخان التي تحدثت عن فرعونهم وحده في هذا المقام، أي مقام الحساب، بينا هذه السورة فصلت وأبانت عن نهاية القوم بجملتهم، وهذا تعلق واضح كما يبدو لي والله أعلم.

(602) أ : بتسبب.

(603) كلمتان غير واضحتين في النسختين.

(604) أ : فيمن.

مع وضوح الأمر فقال : «ويل لكل أفاك أثيم.... الآيات الثلاث» (7-9) ثم قال : «هذا هدى» (آية : 11) وأشار إلى الكتاب وجعله نفس الهدى لتحمله كل أسباب الهدى في جميع جهاته ثم توعد من كفر به ثم أردف ذلك بذكر نعمه وآلائه ليكون ذلك زائدا في توبيخهم، والتحمت الآي عاضدة هذا الغرض تقريرا وتوبيخا ووعيدا وتهديدا إلى آخر السورة (605).

سورة الأحقاف (606)

لما قدم ذكر الكتاب وعظيم الرحمة به (607) وجليل بيانه وأردف ذلك بما تضمنته سورة الشريعة من توبيخ من كذب به وقطع تعلقهم، وأنه سبحانه قد نصب من دلائل السماوات والأرض ما ذكر في صدر السورة ما كل قسم منها كاف في الدلالة وقائم بالحجة، ومع ذلك / فلم يجر (عليهم) (608) (إلا) (609) التماذي على ضلالهم والانهماك في سوء حالهم وسيء محالهم، أردفت بسورة الأحقاف تسجيلا بسوء مرتكبهم واعلاما بأليم منقلبهم فقال تعالى : «ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى» (آية : 3)، ولو اعتبروا (610) بعظيم ذلك الخلق واحكامه وإتقانه لعلموا أنه لم يوجد عبثا ولكنهم عموا عن الآيات، وتنكبوا عن انتهاج الدلالات «والذين كفروا عما أنذروا معرضون» (آية : 3).

(605) أ : جميع.

(606) الحقف. رمل مستطيل مرتفع فيه اعوجاج واغناء. ومنه احقوقف الشيء المعوج. قال امرؤ القيس :

فلما اجزنا ساحة الحي وانتحي بنا بطن حقف ذى ركام عفنقل.

وتأتي هذه السورة في خاتمة الحواميم، وهي مكية إلا قوله تعالى : قل أرأيتم إن كان من عند الله و «فاصبر كما صبر... الآيتين» فمدنيتان في قول ابن عباس وقتادة، وقد سبقت الإشارة إلى أن ترتيب نزول الحواميم جاء كترتيبها في المصحف مما يؤكد الترتيب والتناسب بين هذه السور، وأيضا لما قال تعالى في آخر السورة السابقة، : «ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا» وقلتم أنه عليه الصلاة والسلام اختلقها، افتتح تعالى هذه بقوله : «حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم وهاتان الصفتان هما في آخر تلك. أنظر البحر المحيط : 8 / 54 وروح المعاني : 4 / 26.

(607) ب : ساقطة.

(608) أ : عليه.

(609) ب : ساقطة.

(610) ب : تعظيم.

ثم أخذ سبحانه في تعنيفهم وتقريعهم في عبادة ما لا يضر ولا ينفع فقال :
«قل أرأيتم⁽⁶¹¹⁾ ما تدعون من دون الله إلى قوله : «وكانوا بعبادتهم كافرين
«الآيات : 4-6) ثم ذكر عنادهم عند سماع الآيات فقال : «وإذا تتلى عليهم
آياتنا بينات.... الآيات» (آية : 7 وما بعدها) ثم التحم الكلام وتناسج إلى آخر
السورة.

سورة القتال⁽⁶¹²⁾

لما انبت سورة الأحقاف على ما ذكر من مآل من⁽⁶¹³⁾ كذب وكفر،
وافتحت السورة بإعراضهم، ختمت بما قد تكرر من تقريعهم وتوبيخهم فقال

(611) أفرأيتم.

(612) هذه السورة الكريمة مدنية في الأغلب الأشهر كما جاء ذلك عن الماوردي أنه قول الجميع. تفسير القرطبي : مجلد 8
ج 2 / 223.

وتسمى سورة محمد لأنه ذكر فيها ﷺ في قوله تعالى : «والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على
محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم» (2) وسميت سورة القتال أيضا لأن الله عز وجل أمر
المومنين بقتال الذين كفروا في قوله تعالى : «فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم. الآية (4)
وفي قوله تعالى : «فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي
عليه من الموت فأولى لهم» (20).

والملاحظ أن وجه ارتباط هذه السورة بما قبلها مع ما بينهما من تباعد تلك مكة وهذه مدنية أن سورة
الأحقاف عرضت لواقع المشركين والكفار وما يتعلقون به من شبه تدعوهم إلى الاعراض عن الهدى، فأما طت اللثام
عن حقيقتها وذكرتهم بالأقوام السابقة ومصائرهم، ثم ختمت بقوله تعالى : «فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل
ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون» وبعد
سنين نزلت هذه السورة وفيها الأمر بالقتال لتنسخ ما جاء في السورة السابقة من الأمر بالصبر والأعراض ولتبين أن
جزاء الكافرين القتل وضرب الرقاب وقد قال السيوطي وهو على حق : «إن السورتين لا يخفى وجه ارتباطهما
واتصالهما وتلاحمهما بحيث أنه لو أسقطت البسملة من سورة محمد لكانتا متصلتين اتصالا واحدا لا تنافر فيه
كآلية الواحدة آخذًا بعضها بعنق بعض» أنظر تناسق الدرر ص : 131.

وسورة محمد كلها توجيهات إلى رفع السيف في وجوه الكفار وما تقتضيه الحرب، وذلك لأن الصبر الذي
أمر به في السورة المكية قد انتهى في العهد المدني، وأمر المومنون بتسخير كل شيء يملكونه لمعركة الإيمان، فكما
ابتدأت هذه السورة بالأمر بقتال الكافرين ختمت بالأمر ببذل المال والمتاع ليتحقق النصر، وهو امتحان يعرف به
المومنون الصادقون من في قلوبهم مرض ولا يصلحون لخوض معارك الجهاد.

(613) ب : في.

تعالى : «أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى» (آية : 33) أي لو اعتبروا بالبداة لتيسر عليهم أمر العودة، ثم ذكر عرضهم على النار إلى قوله : «فهل يهلك إلا القوم الفاسقون» (الآيتان : 34-35) فلما ختم بذكر هلاكهم، افتتح السورة الأخرى بعاجل ذلك اللاحق لهم في دنياهم فقال تعالى : «فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق.... الآية» (آية : 4) بعد ابتداء السورة بقوله تعالى : «الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم» (آية : 1) (فنبه على أن أصل محتهم إنما هو بما أراده تعالى بهم في سابق علمه ليعلم المومنون أن الهدى والضلال بيده، فنبه على الطرفين بقوله : «وأضل أعمالهم» (آية : 8) (614) وقوله في الآخر : (615) «كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم» (آية : 2) ثم بين أنه تعالى لو شاء لانتصر منهم ولكن أمر المومنين بقتالهم ابتلاء واختبارا ثم حض المومنين على ما أمرهم به من ذلك فقال : «إن تنصروا الله ينصركم» (آية : 8) ثم التحمت الآي.

سورة الفتح (616)

ارتباط هذه السورة بالتى قبلها واضح من جهات، وقد يغمض بعضها منها : أن سورة القتال لما أمروا فيها بقتال عدوهم/ في قوله تعالى : «فإذا لقيتم

(614) ساقطة من : ب.

(615) ب : الأجر.

(616) هذه السورة مدنية بإجماع وقد نزلت كلها من أولها إلى آخرها في شأن الحديبية والنبي ﷺ قافل بعد صلح الحديبية، وعلى هذا فقد نزلت بين مكة والمدينة، ومثل ذلك يعد مدنيا على المشهور على اعتبار أن المدني ما نزل بعد الهجرة سواء نزل بالمدينة أم بمكة يسفر من الأسفار، والمكي ما نزل قبل الهجرة. أنظر روح المعاني : 26 / 75، 76.

ولا يخفى وجه ارتباطها بسورة القتال، فقد جاءت هذه السورة تبشر بالفتح العظيم والنصر المبين الذي أعز الله عز وجل به جنده ونصر به حربه، ونصر الله لا يكون إلا ببذل وتضحية من مال ودماء، وقد جاء الحض عليهما في السورة السابقة. فلما ختمت تلك السورة بقوله تعالى : «وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم» أي تتولوا عن بذل المهج والأموال، ولم يتول محمد ﷺ وصحبه الكرام وقدموا هذا وذاك. وبإيعوه على الموت في الحديبية بشهرهم الله عز وجل بالفتح وأثنى على هذه البيعة «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله» (10)

الذين كفروا.... الآية» (آية : 4) وأشعروا⁽⁶¹⁷⁾ بالمعونة عند وقوع الصدق في قوله : «إن تنصروا الله ينصركم» (آية : 8) استدعى ذلك تشوق النفوس إلى حال العاقبة فعرفوا بذلك في هذه السورة فقال (تعالى)⁽⁶¹⁸⁾ «إن فتحنا لك فتحا مبينا.... الآيات» (آية : 1 وما بعدها) فعرف تعالى نبيه ﷺ بعظيم صنعه له، واتبع ذلك بشارة المؤمنين العامة فقال تعالى : «هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين.... الآيات» (آية : 4 وما بعدها) والتحمت إلى التعريف بحال من نكث من مبايعته ﷺ، وحكم المخلفين من الأعراب، والحض على الجهاد، وبيان حال ذوي الأعدار، وعظيم نعمته سبحانه على أهل بيئته⁽⁶¹⁹⁾ «لقد رضي الله عن المؤمنين» (آية : 18) وأثابهم الفتح⁽⁶²⁰⁾ وأخذ المغنم، وبشارتهم بفتح مكة. «لتدخلن المسجد الحرام» (آية : 27) إلى ما ذكر سبحانه من عظيم نعمه⁽⁶²¹⁾ عليهم وذكرهم⁽⁶²²⁾ في التوراة والانجيل ما تضمنت هذه السورة الكريمة.

ووجه آخر وهو أنه لما قال تعالى في آخر سورة القتال «فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم» (آية : 35) كان هذا إجمالا في عظيم ما منحهم وجيل ما أعطاهم، فتضمنت سورة الفتح تفسير هذا الاجمال وبسطه وهذا يستدعي من بسط الكلام ما لم نعتمده في هذا التعليق، وهو بعد مفهوم مما سبق من الاشارات في الوجه الأول.

وأكد لهم دخول المسجد الحرام وهو أعظم فتح في الاسلام «لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمين»... (27)، وخلدت هذه السورة صفات جيل النصر، وأعلنت مكانتهم بما لا يلحقهم به من بعدهم «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم الآية (29)، فالارتباط بين السورتين واضح، فالأولى كانت بمثابة المقدمة والثانية بمثابة النتيجة لأن الفتح بمعنى النصر مرتب على القتال والجهاد في الله. أنظر تناسق الدرر. ص : 131 وروح المعاني : 26 / 76.

(617) ب : أشعر.

(618) ب : ساقطة.

(619) أ : بيت.

(620) ب : فتحا.

(621) ب : نعمته.

(622) ب : وذكره.

ووجه آخر مما قد يغمض وهو أن قوله تعالى : «وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم» (القتال : 38) إشارة إلى من يدخل في ملة الاسلام من الفرس وغيرهم عند تولي العرب، وقد أشار أيضا إلى هذا قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا من يرتدد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين⁽⁶²³⁾.... الآيات» (المائدة : 54) وأشار إلى (ذلك قوله عليه الصلاة والسلام) :⁽⁶²⁴⁾ «ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج مثل هذا وعقد السبابة بالابهام»⁽⁶²⁵⁾، أشار عليه السلام إلى تولي العرب واستيلاء غيرهم الواقع في الآيتين وإنما أشار عليه السلام بقوله : «اليوم إلى التقديم (وتأخر وقوع)⁽⁶²⁶⁾ هذا الأمر إلى أيام أبي جعفر المنصور، فغلبت الفرس والأكراد وأهل جهات الصين وصين الصين وهو ما يلي ياجوج وماجوج، وكان فتحا وعزا وظهوراً لكلمة الاسلام وغلبة⁽⁶²⁷⁾ هؤلاء في الخطط والتدبير الامارى⁽⁶²⁸⁾، وسادوا غيرهم، ولهذا جعل ﷺ مجيئهم فتحا فقال : (فتح اليوم)، ولو أراد غير هذا لم يعبر بفتح، ألا ترى قول عمر لحذيفة (رضي الله عنهما)⁽⁶²⁹⁾ في حديث الفتن⁽⁶³⁰⁾ حين قال له : «إن بينك وبينها بابا مغلقا فقال عمر أيفتح⁽⁶³¹⁾ ذلك الباب أم يكسر فقال

(623) «أذلة على المؤمنين» ساقطة من : أ.

(624) أ : ذلك عليه السلام.

(625) وقام الحديث عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أنها قالت : استيقظ النبي ﷺ من النوم محمرا وجهه وهو يقول : لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج مثل هذه وحلق بأصبعه الابهام والتي تليها. قالت : فقلت يا رسول الله أنهلك وفيما الصالحون، قال نعم إذا كثرت الخبث» أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما : 11 / 13 و 4 / 2207.

كما أخرجه أيضا أحمد في مسنده والترمذي في جامعه، وابن ماجه في سننه، ومالك في موطئه وغيرهم.

(626) ب : «والتأخير كذا وفرغ» وفي هذا التركيب اضطراب مغل بالمعنى.

(627) أ : وغلب.

(628) ب : شطب على كلمة الامارى.

(629) أ : ساقطة.

(630) ب : الفين.

(631) في أ : يفتح.

بل يكسر»⁽⁶³²⁾، ففرق بين الفتح والكسر، وإنما أشار إلى قتل عمر (رضي الله عنهما)⁽⁶³³⁾، فلذا قال عليه (الصلاة)⁽⁶³⁴⁾ والسلام : «فتح» وقال : «من ردم ياجوج وماجوج»، وأراد من نحوهم وجهتهم وأقائهم، لأن الفرس ومن أتى معهم، هم أهل (تلك)⁽⁶³⁵⁾ الجهات التي تلي الروم، فعلى تمهيد هذا يكون قوله تعالى : «وان تتولوا يستبدل قوما غيركم» (القتال : 38)، إشارة إلى غلبة من ذكرنا وانتشارهم في الولايات والخطط الدينية والمناصب العلمية⁽⁶³⁶⁾.

(632) والحديث هو ما أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة والنسائي في السنن الكبرى عن حذيفة قال : كنا جلوسا عند عمر رضي الله عنه فقال : أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ في الفتنة قلت أنا كما قاله، قال أنك عليه — أو عليها — لجرىء قلت : فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره تكفرها الصلاة والصوم والصدقة، والأمر والنهي، قال ليس هذا أريد، ولكن الفتنة التي تموج كما يموج البحر، قال ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها بابا مغلقا، قال أيكسر أم يفتح ؟ قال يكسر، قال : إذا لا يغلق أبدا، قلنا أكان عمر يعلم الباب قال نعم، كما أن من دون الغد الليلة، إني حدثته بحديث ليس بالأعاليط فهبنا أن نسأل حذيفة، فأمرنا مسروقا فسأله فقال : الباب عمر.

أنظر البخاري 2 / 9 وفي مواضع أخرى كثيرة : كتاب المناقب، وكتاب الفتن، وكتاب الصوم، وغيرها. وأنظر مسلم : 4 / 2218.

(633) زيادة من : ب.

(634) ساقطة من : أ.

(635) ساقطة من : ب.

(636) ما ذهب إليه المؤلف من أن الفرس ومن أتى معهم من أهل تلك الجهات التي تلي الروم هم المعنيون في خطابه تعالى للعرب بقوله : «وان تتولوا يستبدل قوما غيركم» لا يسلم له، وقد اختلف العلماء في تفسير هذه الآية وحكى ذلك الألوسي فقال : «والمراد بهؤلاء القوم أهل فارس... وقيل أهل اليمن وقيل كندة، والنخع، وقيل العجم، وقيل الملائكة.... والخطاب لقريش أو لأهل المدينة قولان، والظاهر أنه للمخاطبين قبل، والشرطية غير واقعة، فعن الكلبي : شرط في الاستبدال توليهم لكنهم لم يتولوا فلم يستبدل سبحانه قوماً غيرهم» روح المعاني : 26 / 74، 75.

ومعلوم أن حديث «ويل للعرب من شر قد اقترب» هو للتحذير من الفتن التي ستقدم من المشرق بين يدي ياجوج وماجوج فتكون الفتنة الكبرى والطامة العظمى التي ستأتي على الاسلام، وليس معناه أن الفتح والنصر سيأتي من جهة الشرق كما ذهب إلى ذلك المؤلف رحمه الله، وواقع التاريخ يؤكد لنا أن الاسلام ابتلى ليس بالفتح من قبل المشرق ولكن بعدد من المؤامرات التي حاكها الشعوبيون، والزنادقة، وإخوان الصفا، والباطنية.

ويؤيد ذلك الحديث الذي رواه مسلم عن سالم بن عبد الله بن عمر قال لأهل العراق : يا أهل العراق ما أسألكم عن الصغيرة وأركبكم للكبيرة، سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الفتنة نجيء من هاهنا (ثلاثا) وأوماً بيده نحو المشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان».

وقد ساق مسلم هذا الحديث من طرق عديدة في باب «الفتنة من المشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان». وانظر بسطاً لهذا الموضوع في كتاب : «مع الرعيل الأول» لمحب الدين الخطيب ص : 158.

ولما كان هذا قبل أن يوضح (637) أمره يوهم نقصا وخطا، بين تعالى (638) أنه تجديد فتح واعزاز منه تعالى لكلمة (639) الاسلام فقال : «إنا فتحنا لك فتحا مبينا.... الآيات» (آية : 1 وما بعدها).

ذكر القاضي أبو بكر بن العربي في تخلص التلخيص (640) علماء المالكية (641) مشيرا إلى تفاوت درجاتهم ثم قال : «وامضاهم في النظر عزيمة وأقواهم فيه شكيمة أهل خراسان، العجم انسبا وبلدانا العرب عقائدا وإيمانا، الذين تنجز فيهم وعد الصادق المصدق، وملكهم الله (تعالى) (642) مقاليد التحقيق حين أعرضت العرب (643) عن العلوم وتولت عنها وأقبلت على الدنيا واستوثقت منها. قال أصحاب رسول ﷺ : يا رسول الله من هؤلاء الذين قال الله فيهم : «وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم» (القتال : 38) فأشار عليه السلام إلى سلمان وقال : «لو كان الايمان في الثريا لناله رجال من هؤلاء» (644).

سورة الحجرات (645)

لما وصف سبحانه عباده المصطفين من صحابة نبيه والمخصوصين بفضيلة مشاهدته وكريم عشرته فقال : «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار

(637) أ : توضح.

(638) ساقطة من : ب.

(39) أ : بكلمة.

(460) يقع تصحيف في اسم هذا الكتاب فيقال تلخيص التلخيص، وتخلص التلخيص انظر الأحكام 184/1 والناسخ والمنسوخ 119/1 لابن العربي تحقيق الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري.

(641) أ : ساقطة.

(643) ساقطة من : ب.

(644) والحديث أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنا جلوسا عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة «وآخرين منهم لما يلحقوا بهم» قال : قلت من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعه حتى سأل ثلاثا، وفيها سلمان الفارسي، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان ثم قال : لو كان الايمان بالثريا لناله رجال — أو رجل — من هؤلاء.

أنظر البخاري 8 / 641 ومسلم 4 / 1973. كما أخرجه النسائي والترمذي، وابن حاتم، والطبري من طرق عديدة. أنظر تفسير ابن كثير 7 / 7.

(645) سورة الحجرات مدنية بإجماع، وآياتها من أولها إلى آخرها كلها آداب اجتماعية تخص الفرد والجماعة، وقد نزلت بعد سورة الفتح بالتأكيد.

رحماء بينهم» (الفتح : 29) فأثنى سبحانه/ عليهم وذكر وصفه تعالى لهم بذلك في التوراة والانجيل، وهذه خصيصة انفردوا بمزية تكريمها وجرت على واضح قوله تعالى : «كنتم خير أمة أخرجت للناس» (آل عمران : 110) وشهدت لهم بعظيم المنزلة لديه، ناسب هذا طلبهم بتوفية الشعب الايمانية (والجري)(646) قولاً وفعلاً وعملاً ظاهراً وباطناً على أوضح عمل وأخلص نية، وتنزيههم عما وقع من قبلهم في مخاطبات أنبيائهم كقول بني إسرائيل : «يا موسى أدع لنا ربك» (الاعراف : 134) إلى ما شهد من هذا الضرب بسوء حالهم فقال تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله.... الآية (آية : 1) «يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول إلى قوله والله غفور رحيم» (الآيات : 2-5) فطولبوا(647) بأداب تناسب عليّ إيمانهم وإن اغتفر(648) بعضه لغيرهم ممن ليس في درجتهم، وقد قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين، وكأن قد قيل لا تغفلوا ما منح لكم في التوراة والانجيل فإنها درجة لم ينلها غيركم من الأمم فقابلوها بتنزيه أعمالكم عن أن يتوهم في ظواهرها أنها صدرت عن عدم اكتراث في الخطاب وسوء قصد في الجواب، وطابقوا بين بواطنكم وظواهركم، وليكن علنكم(649) منبأً

= أما وجه ارتباطها بما قبلها فهو أن النصر والفتح دائما تعقبه نشورة وبطر ويكون مدعاة للتنازع في المراتب والمناصب والأموال فجاءت هذه السورة لتنفى ذم الخصال من حياة المسلمين كأمة، ومن صفاتهم كأفراد، وتحفظ للرسول ﷺ مكانته كقدوة مبلغ، وإمام متبع، له من الحرمة والتشريف ما ليس لغيره، لذلك ذكرت ما يمكن وقوعه من هذه الخصال، السيئة ونهتهم إليها وحذرتهم من ارتكابها، ليبقوا دائما أهلاً للفتح والنصر كما وصفهم الله في آخر سورة الفتح بقوله «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم الآية» (29) وهذا ظاهر بين والحمد لله.

ومن المناسبة أيضا ما لا يخفى من تأخي في السورتين، فهما مدينتان مشتملتان على أحكام. فذلك فيها قتال الكفار، وهذه فيها قتال البغاة، وتلك ختمت بالذين آمنوا، وهذه افتتحت بالذين آمنوا، وتلك تضمنت تشريفاً له ﷺ وخصوصاً في مطلعها، وهذه أيضا في مطلعها أنواع من تشريفه ﷺ. أنظر تناسق الدرر ص :

.132

(466) أ : أخرى ب : ساقطة والصواب والجري. ١ وقولا. «ويدونها يستقيم الكلام

(647) في ب : فطلب.

(648) في ب : اعتبر.

(649) ب : عملكم.

بسليم سرائركم «إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى» (آية : 3) ثم عرفوا بسوء حال من عدل به عن هذه الصفة فقال تعالى : «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون» (آية : 4) ثم أمروا بالتثبت عند نزعة شيطان أو تقول ذى بهتان «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ... الآية» (آية : 6) ثم أمرهم تعالى بصلاح ذات بينهم والتعاون في ذلك بقتال الباغين⁽⁶⁵⁰⁾ وتحسين العشرة والتزام ما يثمر الحب والتودد الإيماني والتواضع، وأن الخير كله في التقوى «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» (آية : 13) وكل ذلك محذر لعل صفاتهم التي وصفوا بها في خاتمة سورة الفتح.

سورة ق⁽⁶⁵¹⁾

لما كانت سورة الحجرات قد انطوت على جملة من الألفاظ التي خص بها تعالى عباده المؤمنين/ كذكره تعالى. أخوتهم⁽⁶⁵²⁾ وأمرهم بالتثبت عند غائلة معتد فاسق «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق... الآية» (الحجرات : 6) وأمرهم بغض الأصوات عند نبيهم وأن لا يقدموا⁽⁶⁵³⁾ بين يديه وأن لا يعاملوه في الجهر

(650) أ : الباغين إلى الفئة وتحسين، وكلمة «إلى الفئة» زائدة يستقيم الكلام بدونها.
(651) وتسمى هذه السورة أيضا بسورة الباسقات، وهي مكية النزول، كان ﷺ يقرؤها في المواقف الحاشدة على رؤوس الأشهاد كخطب الجمعة والعيدين وما شابه ذلك كما جاء في صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة ابن النعمان. 595 / 2، وانظر في فضلها روح المعاني : 155 / 26.

ووجه ارتباطها بما قبلها ظاهر، وذلك أن سورة الحجرات لما نهت عن كثير من الخصال الذميمة وهي في جملتها تنطلق مما يكنه القلب وتخفيه المشاعر، جاءت هذه السورة لتنبيههم إلى أنهم مهما تصرفوا ومهما عملوا سواء أسروا ذلك أم جهروا به، فإن الله به عليم، «ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» (16)، مؤكدة أن الأمة مهما عظم شأنها وامتد سلطانها، إذا لم تسلك طريق الله فإن عاقبتها الزوال والوبار وضرب لهم الأمثال بالأئم السالفة «بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج الآيات (5 وما بعدها)، وفي هذا كسر لحدة الأثر والبطر الذي يعقب الفتح والنصر والاستقرار والتحضير، وهو من آفات القلوب، فكان هذه السورة كلها من أولها إلى آخرها تدور حول تطهير القلب وتذكير الإنسان بالعاقبة، وهذه صلة واضحة بسورة الحجرات، مذكرا بأن وضع هذه السورة المكية بعد سورة الحجرات المدنية المتأخرة نزولا من أعجب الترتيب في سور القرآن الكريم، وهذا ما يؤكد لنا أن ترتيب سور القرآن توقيفي .

(652) ب : آخرتهم.

(653) ب : يتقدموا.

بالقول كمعاملة بعضهم بعضاً، وأمرهم باجتنباب كثير من الظن ونهيمهم عن التجسس والغيبة وأمرهم بالتواضع في قوله تعالى : «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى» (الحجرات : 13) وأخبرهم تعالى أن استجابتهم، وامتنال هذه الأوامر ليست بحولهم ولكن بفضلله وانعامه فقال : «ولكن الله حبيب إليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان.... الآيات» (آية : 7—8) ثم أعقب تعالى بقوله : «يؤمنون عليك أن أسلموا.... الآية» (الحجرات : 17) ليبين أن ذلك كله بيده ومن عنده، أراهم سبحانه حال من قضى عليه الكفر ولم يجب إليه الايمان ولا زينه في قلبه، بل جعله في طرف⁽⁶⁵⁴⁾ من حال مَنْ أمر ونهى في سورة الحجرات، مع المساواة في الخلق وتمائل الذوات⁽⁶⁵⁵⁾ فقال تعالى : «والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم.... الآيات» (ق : 1 وما بعدها) ثم ذكر سبحانه وضوح الأدلة «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم... الآيات» (6—11) ثم ذكر حال غيرهم ممن كان على رأيهم «كذبت قبلهم قوم نوح» (آية : 12) ليتذكر مجموع هذا من قدم ذكر⁽⁶⁵⁶⁾ حاله وأمره ونهيه في سورة الحجرات وليتأدب المؤمن بأداب الله ويعلم أن ما أصابه من الخير فإنما هو من فضل ربه وإحسانه، ثم التحمت الآى إلى قوله خاتمة السورة «نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد» (آية : 45).

(654) ب : ظرف.

(655) أ : الاذوات.

(656) ب : ذكره.

سورة الذاريات (657)

لما ذكر سبحانه المواعيد⁽⁶⁵⁸⁾ الأخروية في سورة «ق» وعظيم تلك الأحوال من لدن قوله : «وجاءت سكرة الموت بالحق إلى آخر السورة» (آية : 19—45) ثم اتبع سبحانه ذلك بالقسم على صحة وقوعه وصدقه فقال تعالى : «والذاريات ذروا إلى قوله إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع» (الآيات : 1—6) والدين الجزاء أي أنهم سيجازون على ما كان منهم ويوفون قسط أعمالهم «ولا»⁽⁶⁵⁹⁾ تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون» (إبراهيم : 42) «إنما/ نملي لهم ليزدادوا إثما» (آل عمران : 178)، ولما أقسم تعالى على صدق وعده ووقوع الجزاء أعقب ذلك بتكذيبهم بالجزاء وازدراءهم فقال : «يسألون»⁽⁶⁶⁰⁾ أيان يوم الدين» (آية : 12) ثم ذكر تعالى حال الفريقين وانتهاء الطريقين إلى قوله : «وفي الأرض آيات للموقنين» (آية : 20) فوبخ تعالى من لم يعمل فكره ولا بسط نظره فيما أودع سبحانه في العالم من العجائب، وأعقب بذكر إشارات إلى أحوال⁽⁶⁶¹⁾ الأمم وما أعقبهم تكذيبهم وكل هذا تنبيه لبسط النظر إلى قوله تعالى : «ومن كل شيء خلقنا

(657) هذه السورة الكريمة مكية في قول جميع الأئمة، ووجه ارتباطها بسالفتها أن سورة «ق» عندما عرضت لعلم الله عز وجل لما تكنه الضمائر وتخفيه السرائر، وإن الله عز وجل سيبعثهم ويحاسبهم بعد أن يكونوا قد صاروا رفاتا وترابا، استهجنوا هذا الأمر واستغربوه، وقضية البعث بعد الموت إحدى القضايا التي نفر منها الكفار نفورا شديدا فجاءت هذه السورة عقب تلك لتقيم الدلائل على قدرة الله عز وجل في خلقهم وبعثهم بما يلمسونه ويشاهدونه فابتدأت بقوله تعالى : «والذاريات ذروا» وهي الرياح وهذا قسم «فالحاملات وقرا» وهي السحب، «فالجاريات يسرا» وهي السفن «فالمقسمات أمرا» وهي الملائكة، «إن الدين لواقع»، أي الحساب والجزاء الذي سيكون قطعاً بعد الموت، فمن يسر هذه المخلوقات، — وأنتم ترونها تنتهي ثم تنشأ من جديد — لقادر على إعادتكم أحياء بعد موتكم.

ثم عرضت السورة لمن هم اعتمدوا منهم قوة كأقوام لوط، وموسى، وعاد، وثمود، ونوح، ولم يستطيعوا أن يردوا عن أنفسهم كلمات الله لما حقت عليهم فدمروا تدميراً، فهي هو أنشأهم ثم أفناهم، ثم عادت السورة لتلفتهم من جديد إلى قدرة الله «والسمااء بنيناها بايد (الآيات : 47 وما بعدها)، كل ذلك ليؤمنوا بالحساب بعد الموت الذي مر ذكره في سورة «ق» فكانت هذه السورة برهاناً على مضمون تلك وهذا واضح جلي والله أعلم

(658) ب : المواعيد.

(659) أ : فلا.

(660) أ : يسألونك.

(661) أ : لأحوال.

زوجين لعلكم تذكرون» (آية : 49) ثم آتس نبه عليه السلام(662) بقوله :
«كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون»
(آية : 52) أي أن هذا دأبهم وعادتهم حتى كأنهم تعاقدوا عليه وألقاه بعضهم
إلى بعض فقال تعالى : «أتواصوا به بل هم قوم طاغون» (آية : 53) أي عجا
لهم في جريهم في التكذيب والعناد(663) في مضمار واحد، ثم قال تعالى : «بل هم
قوم طاغون» أي أن علة تكذيبهم هي التي اتحدت فاتحد معلولها، والعلة طغيانهم
واظلام قلوبهم بماسبق «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها» (السجدة : 13) ثم زاد
نبه عليه السلام أشياء لما ورد على طريقة تخيره عليه الصلاة والسلام(664) في أمرهم
من قوله تعالى : «فتول عنهم فما أنت بملوم» (آية : 54)، ثم أشار تعالى بقوله :
«وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين» (آية : 55) إلى أن احراز أجره عليه الصلاة
والسلام(665) إنما هو في التذكار والدعاء إلى الله تعالى، ثم ينفع الله بذلك من
سبقت له السعادة «إنما يستجيب الذين يسمعون» (الأنعام : 36) ثم أخبر نبه
عليه (الصلاة) (666) والسلام بأن (مكذبيه سينالهم قسط ونصيب(667) مما(668) نال
غيرهم ممن ارتكب مرتكبهم وسلك مسلكهم فقال تعالى : «فإن(669) للذين
ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم إلى آخر السورة (59—60).

(662) ساقطة من : ب.

(663) ب : والفساد.

(664) ب : ﷺ.

(665) ب : ﷺ.

(667) ساقطة من : ب.

(667) ب : تكذيبهم ينالهم قسطا ونصيبا.

(668) أ : ممن.

(669) أ : وإن.

سورة الطور (670)

لما توعد تعالى كفار قريش ومن كان على طريقتهم من سائر من كذب رسول الله ﷺ أنه (671) سيصيبهم ما أصاب غيرهم من مكذبي الأمم المنبه على ذكرهم في السورة قبل، ثم أشار سبحانه إلى عظيم ما ينالهم من الخزي وأليم العذاب بقوله : «فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون» / (الذاريات : 60) أقسم سبحانه على صحة ذلك ووقوعه والعياذ بالله سبحانه من سخطه وأليم عذابه فقال تعالى : «والطور إلى قوله : إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع» (الآيات : 1—7).

ثم أوماً سبحانه إلى مستحقه ومستوجبه فقال : «فويل يَوْمئذٍ للمكذبين» (آية : 11) ثم ذكر ما يعنفون به ويوبخون على ما سلف منهم من نسبته عليه السلام إلى السحر وتكذبيه فقال : «هذه النار التي» (672) كنتم بها تكذبون، أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون» (الآيتان : 14—15) ثم أعقب بذكره حال المؤمنين المستجيبين، ثم ذكر إثر إعلامه بحال الفريقين نعمته على نبيه عليه

(670) هذه السورة الكريمة مكية في قول جميع العلماء، ووجه ارتباطها بالذاريات قبلها، إن الذاريات أقامت الحجج على قدرة الله عز وجل في بعث الناس بعد الموت، وضربت الأمثال بالأمم السابقة وعجزهم عن دفع مراد الله بهم، ثم جاءت هذه السورة بأقسام جديدة تؤكد نفس المضمون، وتلفتهم إلى عظمة الصانع وقدرة المبدع من خلق الجبال وتعليم الإنسان اللغة والكتابة، ورفع السماء فوقهم، وضخامة البحر المحيط بهم، وأن عذاب الله واقع لا محالة بالكافرين، ثم أفاضت السورة في بيان النعيم الذي ينتظر المؤمنين، وعرضت لأفاديلهم وشبههم فردتها وبينت وهنها — كما أشار إلى ذلك المصنف — بأسلوب مفرع، وتهكم مشين كان له في قلوبهم أبلغ الأثر، حتى أن جبير بن مطعم بن عدي يقول سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية «أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون» كاد يطير قلبي. أنظر صحيح البخاري : 8 / 603. كما أخرجه غيره من الأئمة.

وهكذا نجد أن هذه السورة في مضمونها تتفق مع سابقتها بل هي تفصيل لها في هذا الجانب وتأكيده، يضاف إلى ذلك اشتغالها معاً على الوعيد وتشابههم في المقطع والمطلع.

(671) أ : انهم.

(672) في النسختين أ و ب : «ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون» (السجدة : 20). ولعلها اشتبهت على الناسخ بالآية المناسبة للسياق (12—13 من الطور).

السلام⁽⁶⁷³⁾، وعصمته ووقايته مما تقوله المفترون فقال تعالى : «فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون» (آية : 29).

ثم جرت الآي على توبيخهم في مقالاتهم ووهن انتقالاتهم، فمرة يقولون كاهن، ومرة يقولون مجنون، ومرة يقولون شاعر نترقب موته، فويخهم على ذلك كله وبين كذبهم وأزعامهم وأسقط ما بأيديهم بقوله : «فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين» (آية : 34) وهذا هو المسقط⁽⁶⁷⁴⁾ لما تقوله⁽⁶⁷⁵⁾ أولاً وآخرها وهو الذي لم يجدوا عنه جواباً، ورضوا بالسيف والجلأ ولم يتعرضوا لتعاطي معارضته⁽⁶⁷⁶⁾، وهذا هو الوارد في قوله تعالى في سورة البقرة : «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا... الآيات» (23—24) فما نطقوا في جوابه بينت شفة «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله» (الاسراء : 88) فتبارك من جعله آية باهرة وحجة قاهرة.

سورة والنجم⁽⁶⁷⁷⁾

لما قطع سبحانه تعلقهم بقولهم شاعرو ساجر ومجنون إلى ما هزؤوا به مما

(673) ب : صلى الله عليه وسلم.

(674) أ : السقط.

(675) أ : يقوله.

(676) أ : معارضته.

(677) هذه السورة مكية كشأن سابقتها، وقد ورد أنها أول سورة أعلنها النبي صلى الله عليه وسلم على الناس، وأنها أول سورة نزلت فيها سجدة فلما قرأها سجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس إلا رجلاً أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، يقول عبد الله بن مسعود راوي الحديث، فرأيت بعد ذلك قتل كافرًا وهو أمية بن خلف. أنظر فتح الباري : 8 / 614، وروح المعاني : 27 / 37.

ووجه ارتباطها بما قبلها إلى جانب ما أبداه المصنف من وجوه ظاهرة أنهما مكيان، ففي سورة الطور تكررت أم الاستفهامية التي أثارت شبههم حول هذا الرسول الكريم وأبانت عن عجزهم وضعفهم على التصرف في هذا الكون فكانت هذه السورة مبينة لأعظم خصيصة لهذا النبي الكريم ألا وهي الوحي وتلقيه من الملائكة الأعلى وهم غير قادرين على تحصيله أو دفعه، ثم توجهت آيات السورة إلى بيان متعلقهم بالله لا تضر ولا تنفع ثم تسلسلت الآيات بعناية الله بخلقه منذ أن يكون نطفة إلى أن يكون شاباً فكهلاً ثم يدركه الموت بعد ذلك مع ما يتقلب فيه خلال هذه المدة من أطوار، إن الذي تولاه بكل هذا قادر على إعادته نشأة أخرى بعد الموت، وهذه الآيات نذير

علموا أنه لا يقوم على ساق ولكن شأن المنقطع المبهوت أن يستريح⁽⁶⁷⁸⁾ إلى كل ما أمكنه وإن لم يغن عنه أعقب تعالى (ذلك)⁽⁶⁷⁹⁾ بقسمه على تنزيه نبيه وصفيه من خلقه عما تقوله وتوهمه ضعفاؤهم فقال تعالى : «والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى» (الآيتان : 1—2) ثم اتبع سبحانه هذا القسم ببسط الحال في تقريره عليه السلام وادنائاه وتلقيه لما يتلقاه من ربه وعظيم منزلته لديه، وفي أثناء⁽⁶⁸⁰⁾ ذلك يحركهم جل وتعالى ويذكرهم ويوحيهم على سوء/ مرتكباتهم بتلطف واستدعاء كريم منعم فقال : «أفرايتم اللات والعزى» (آية : 19) والتحمت الآى على هذه الأغراض إلى الاعلام بانفراده سبحانه بالايجاد والقهر والاعزاز والانتقام لا يشاركه في شيء من ذلك فقال تعالى : «وإن إلى ربك المنتهى وأنه هو أضحك وأبكى» (آية : 42) ولما بين كل ذلك⁽⁶⁸¹⁾ قال : «فبأي آلاء ربك تتماارى» (آية : 55) أي في أي نعمة تشكون أم بأية آية تكذبون، ثم قال : «هذا نذير من النذر الأولى» (آية : 56) وإذا كان عليه (الصلاة)⁽⁶⁸²⁾ والسلام (نذير)⁽⁶⁸³⁾ فشان مكذبيه شأن مكذبي غيره.

سورة القمر⁽⁶⁸⁴⁾

لما أعلمهم سبحانه بأن إليه المنتهى وأن عليه النشأة الأخرى وأن ذلك يقع جزاء كل نفس بما أسلفت أعلمهم سبحانه بقرب ذلك وحسابه ليزدجر من وفقه

من نذر الله عز وجل التي قدمها بين يدي حسابه لخلقها، فالأمر أعظم من الضحك واللهم، ومن العجب والغفلة، من تأمله حق التأمل سيؤدي به إلى امثال قوله تعالى : «فاسجدوا لله واعبدوا».

ومن التناسب بين السورتين أيضا اختتام الطور بقوله تعالى : «وادبار النجوم» وافتتاح هذه بقوله : «والنجم إذا هوى».

(678) ب : يسرع.

(679) أ : ساقطة.

(680) ب : اثنا.

(681) ب : ذلك كله.

(682) أ : ساقطة.

(683) ب : ساقطة.

(684) وتسمى أيضا «اقتربت»، وعن ابن عباس أنها تدعى في التوراة المبيضة، لأنها تبيض صاحبها يوم تسود الوجوه، وهي مكية في قول الجمهور، أنظر روح المعاني : 63 / 27.

للأزدجار فقال تعالى : «اقتربت الساعة وانشق القمر» (آية : 1) ثم أن سورة (ص) تضمنت من عناد المشركين وسوء حالهم، وتوبيخهم في عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع ما لا يكاد يوجد في غيرها(685) مما تقدمها.

وبعد الشبه في السور قبلها والتحريك بآيات لا يتوقف عنها إلا من أضله الله وخذله، انبت(686) السور بعد على تمهيد ما تضمنته سورة ص فلم تخل سورة منها من توبيخهم وتقريعهم كقوله في الزمر «والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» (آية : 3) وقوله : «لو أراد الله أن يتخذ ولدا لأصطفى مما يخلق ما يشاء» (آية : 4) وقوله : «قل الله اعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه» (آية : 15) وقوله مثلا لحالهم : «ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون.... الآية» (آية : 29) إلى ما بعد من التقريع والتوبيخ وقوله في سورة غافر : «ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغرك تقلبهم في البلاد» (آية : 4) وقوله : «ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وان يشرك به تومنوا» (آية : 12) وقوله : «أولم يسيروا في الأرض.... الآية» (آية : 21) وقوله : «إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه» (آية : 56) وقوله : «ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون الذين كذبوا بالكتاب وما أرسلنا به رسلا فسوف يعلمون إلى قوله : فاما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون» (69—77) وقوله

ومن التناسب بين هذه السورة وسابقتها ما أورده السيوطي في تناسق الدرر ص : 133، 134. حيث قال : «لا يخفى ما في توالي هاتين السورتين من حسن التناسق في التسمية لما بين النجم والقمر من الملازمة، ونظيره توالي الشمس، والليل، والضحى. ثم قال : «إن هذه السورة بعد النجم كالأعراف بعد الأنعام، والصفات بعد يس في أنها تفصيل لأحوال الأمم المشار إلى إهلاكهم في قوله هناك : «وانه أهلك عادا الأولى وثودا فما أبقي وقوم نوح من قبل انهم كانوا هم أظلم وأطغى والموتفة أهوى» (49—52).

إلا أن المؤلف — رحمه الله — قد أبدى من التناسب بين هذه السورة وما قبلها من السور وما بعدها كذلك ما جعل هذا القرآن سورا وآيات، قصصا وتشريعات، عبادات وتوجيهات «آية باهرة وحجة قاطعة إلى يوم الدين فسبحان من أحكمه وهو أحكم الحاكمين.

(685) في النسختين : «ما» واثبت مما لمناسبتها للسياق.

(686) في ب : وافقت .

تعالى : «أولم يسيروا في الأرض» إلى ما تخلل هذه الآي كقوله في السجدة : «فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون»⁽⁶⁸⁷⁾ وقالوا قلوبنا في أكنة» (فصلت : 4) «وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن» (آية : 26) «إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا إلى قوله أولئك ينادون من كان بعيد» (الآيات : 40—44) وقوله : «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم» إلى خاتمة السورة (الآيتان : 53—54)، وقوله في الشورى : «والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم، وما أنت عليهم بوكيل» (آية : 6) «كبر على المشركين ما تدعوهم إليه» (آية : 13) «والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم... الآية» (آية : 16) «أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله... الآية» (آية : 21) «فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا» (آية : 48) وقوله في الزخرف : «أفنبضب عنكم الذكر صفحا.... الآية» (آية : 5) «وجعلوا له من عباده جزءا» (آية : 15) إلى ما تردد في هذه السورة مما قرعوا به أشد التقريع، وتكرر في آيات كثيرة فتأملها، وقوله في الدخان : «بل هم في شك يلعبون» إلى قوله : «يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون» (الآيات : 9—16) وقوله : «إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين» إلى قوله : «إن هذا ما كنتم به تمتمون» (الآيات : 40—50) وقوله في الشريعة : «فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون.... الآيات إلى قوله : والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم» (الآيات : 6—11) وقوله : «أفرايت من اتخذ الهه هواه» إلى آخر السورة (الآيات : 23—37)، وقوله في الأحقاف : «والذين كفروا عما أنذروا معرضون» (آية : 3) ومعظم آي⁽⁶⁸⁸⁾ هذه السورة لم يخرج عن هذا إلى خاتمها، وكذا سورة القتال ولو لم يتضمن إلا الأمر بقتلهم وأسره وتعتجيل خزيهم «فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب» (آية : 4)، وأما سورة الفتح فما تضمنته من البشارة والفتح أشد على الكفار من كل ما قرعوا به، ولم تخرج⁽⁶⁸⁹⁾ عن الغرض

(687) أ : «فهم لا يسمعون» ساقطة.

(688) ب : آيات.

(689) ب : يخرج.

المتقدم وكذا سورة الحجرات لتضمنها من الأمر بتعزيز النبي ﷺ وإجلاله ما يقر عين المومن ويقتل العدو الحاسد، وما فيها أيضا من ائتلاف أمر المومنين وجميع كلمتهم وتأخيمهم، وموقع⁽⁶⁹⁰⁾ هذا من العدو بحيث لا يخفى على أحد، وأما سورة «والذاريات»، «والطور»، «والنجم»، فما تضمنته مما ذكرناه قبل أوضح شيء، وبذلك افتتحت كل سورة منها، فتأمل مطالعها، ففي ذلك كفاية في الغرض، فلما انتهى ما قصد من تقريع مكذبي رسول الله ﷺ، وبلغت الآي في هذه السور من ذلك أقصى غاية، وتمحض باطلهم وانقطع دابرهم، ولم يجدوا جوابا، عرض عليهم سبحانه في سورة القمر أحوال الأمم مع أنبيائهم وكان القصد (من ذلك)⁽⁶⁹¹⁾. والله أعلم مجرد التعريف بأنهم ذكروا فكذبوا فأخذوا ليتبين لهؤلاء أن لا فرق بينهم وبين غيرهم، وأن لا يغرمهم عظيم حلمه سبحانه عنهم، فهذه السورة (اعذار عند)⁽⁶⁹²⁾ تبكيهم وانقطاع حجتهم بما تقدم، وبعد أن انتهى الأمر في وعظهم وتنبيههم بكل آية إلى غاية يعجز عنها البشر، لهذا⁽⁶⁹³⁾ افتتح (سبحانه)⁽⁶⁹⁴⁾ هذه السورة بقوله : «ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغن النذر» (الآيتان 4—5) وختمها بقوله : «اكفاركم خير من أولئكم» (آية : 43) وهذا يبين ما قدمناه، وكأن قد قيل أي فرق بينكم وبين من تقدم حتى تركبوا مرتكبهم⁽⁶⁹⁵⁾ وتظنون⁽⁶⁹⁶⁾ أنكم ستفوزون بعظيم جرأتكم، فذكر سبحانه لهم قصة كل أمة وهلاكها عند تكذيبها بأعظم إيجاز وأجزل (إيراد وأفحم)⁽⁶⁹⁷⁾ عبارة وألطف إشارة فبدأ بقصة قوم نوح «كذبت قبلهم قوم نوح» إلى قوله : «ولقد تركناها آية فهل من مدكر فكيف كان عذابي ونذر» (الآيات : 9—16)، ثم استمر في ذكر الأمم مع أنبيائهم حسب ما ذكروا في السور الواردة

(690) أ : غير واضحة بسبب الخرم.

(691) أ : ساقطة.

(692) ب : اعتذار عنه.

(693) ب : ولما، أ : ولهذا.

(694) ب : ساقطة.

(695) أ : مركبهم.

(696) ب : وتظنوا.

(697) ب : إيجاه.... وأفحم.

فيها اخبارهم من ذكر أمة بعد أمة، إلا أن الواقع هنا من قصصهم أوقع في الزجر وأبلغ في الوعظ وأعرف في الافصاح بسوء منقلبهم وعاقبة تكذيبهم، ثم ختمت كل قصة بقوله : «فكيف كان عذابي ونذر» وتخلل هذه القصص قوله تعالى : «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر»⁽⁶⁹⁸⁾ وهي إشارة إلى ارتفاع عذر من تعلق باستصعاب الوقوف على زواجه وتنبيهاته ومواعظه، ويدعي بعد ذلك/ استغلاقه⁽⁶⁹⁹⁾، إنه ميسر قريب المرام⁽⁷⁰⁰⁾، وهذا فيما يحصل منه⁽⁷⁰¹⁾ التنبيه والتذكير لما عنه تكون الاستجابة باذن الله، ووراء ذلك من المشكل والمتشابه ما لا يتوقف عليه ما ذكره، وحسب عموم المومنين الايمان بجمعيه، والعمل بمحكمه، ثم يفتح الله تعالى فهم ذلك على من شرفه به وأعلى درجته فيبين له بحسب ما يشرح الله صدره «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» (المجادلة : 11).

ومن تيسير المقصود المتقدم تكرار قصص الأنبياء مع أهمهم في عدة سور أي حفظ منها أطلع على ما هو كاف في الاعتبار بهم، ثم إذا ضم ذلك بعضه إلى بعض اجتمع فيه ما لم يكن ليحصل من بعض تلك السور فسبحان من حجة باهرة وبرهانا قاطعا على صدق الآتي به، وصراطا مستقيما ونورا مبينا.

ولما ذكر سبحانه عواقب الأمم في تكذيبهم قال لمشركي العرب : أكفاركم خير من أولئكم» (آية : 43) ومن هذا النمط قول شعيب عليه (الصلاة)⁽⁷⁰²⁾ والسلام : «ويا قوم لا يجر منكم شقاقي ان يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح.... الآية» (هود : 89) ثم قال تعالى : «أم يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولون الدبر» (الآيتان : 44—45) أي انكم إن تعلقتم بتألفكم وجماعتكم فسأفرق ذلك بهزيمتكم يوم بدر، وقتل صناديدكم فما

(698) تكررت هذه الآية في هذه السورة اربع مرات (آية 17، 22، 32، 40).

(699) أ : أو استغلاقه وفي ب : واستغلاقه، ويظهر لي أن كلا من (أو) والواو مقحمتين لا معنى لهما لاتساق الكلام

بدونهما.

(700) أ : التزام.

(701) ب : عنه.

(702) أ : ساقطة.

حجتكم بعد هذا (وقد)⁽⁷⁰³⁾ أنبأ مساق القصص في هذه السور واعتماد التعريف بحال من ذكر في أن كذبوا وعاندوا فأعقب تكذيبهم أخذهم وهلاكهم. ثم تعقب هذا كله بصرف الكلام إلى مشركي العرب في قوله : «أكفاركم خير من أولئكم» (آية : 43) وليس في شيء من السور المذكور⁽⁷⁰⁴⁾ فيها قصص الأمم على هذا الاستيفاء كالأعراف وهود ونظائرهما، ليس في شيء من ذلك تعقيب بذكر مشركي العرب على الصفة الواردة هنا، فأنبأ ذلك بكمال المقصود من الوعظ والتحريك بذكره⁽⁷⁰⁵⁾، وانقضى⁽⁷⁰⁶⁾ هذا الغرض، وذلك أنهم ذكروا أولاً بعرض أحوال الأمم والتعريف بما آل إليه أمرهم وكان ذلك في صورة عرض من يريد تأديب طائفة ممن إليه نظرهم قبل أن يظهر منهم تمرد وعناد/ فهو يستلطف في دعائهم ولا يكلمهم تكليم الواجد عليهم بل يُفهم من كلامه الاشفاق والاستعطاف وإرادة الخير بهم، ثم يذكرهم بذلك ويكرره عليهم المرة بعد المرة وان تخلل ذلك ما بين⁽⁷⁰⁷⁾ فظاعة التهديد وشدة الوعيد، فلا يصحبه تعيين المخاطب وصرف الكلام بالكلية إليه بل يكون ذلك على طريق التعريض والتوبيخ، ثم لو كان لاغتفر بما قبله وما بعده من التلطف حتى إذا تكررت الموعظة فلم تغن⁽⁷⁰⁸⁾، فهنا يحل⁽⁷⁰⁹⁾ الغضب وشدة الوعيد، وعلى هذا وردت السور المذكور فيها حال الأمم⁽⁷¹⁰⁾ كسورة الأعراف وهود والمؤمنون والظلة والصفات، وما من سورة منها إلا والتي بعدها أشد في التعريف، وأميل إلى الزجر والتعنيف، فتأمل تعقيب القصص في سورة الأعراف بقوله تعالى : «وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون» (174)

(703) ساقطة من : ب.

(704) ب : السور المذكور. أ : السورة المذكورة.

(705) أ : بعد بذكره كلمة غير مبرورة.

(706) ب : وانقضاء.

(707) ب : يبين.

(708) ب : تغن.

(709) أ : على.

(710) أ : الأمر.

وقوله بعد موعظة بالغة بذكر من حرمه بعد إشرافه على الفوز وهو الذي «أخلد إلى الأرض واتبع هواه (آية : 176) فقال بعد ذلك «فاقص القصص لعلمهم يتفكرون» (آية : 176) وتذكيره أياه بمحنة الغفلة إلى ما ختمت به السورة وذلك غير خاف في التلطف بالموعظة، وقال تعالى بعد قصص سورة هود «وكذلك أخذ ربك.... الآية» (آية : 102) وقال بعد «فلاتك في مربة مما يعبد هؤلاء» إلى قوله : «وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص» (آية : 109) وتكررت آى إلى آخر السورة تجاري ما ذكر، وكـم بين هذه وآى الأعراف في (711) تلطف الاستدعاء. وقال تعالى في آخر قصص سورة المومنين «فذرهم في غمرتهم حتى حين» إلى قوله «لا يشعرون» (الآيات : 54—56)، ثم قال تعالى بعد «ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون» (الآيتان : 63—64) استمرت (712) آى على شدة الوعيد يتلو بعضها بعضها إلى قوله : «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا» (آية : 115) وقوله تعالى بعد «إنه لا يفلح الكافرون» (آية : 117) وكـم بين هذه (و) الآى الواقعة عقب قصص سورة هود «وقال في آخر قصص الظلة «وإنه لتنزيل رب (713) إلى قوله خاتمة السورة «وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون» (الآيات : 192—227) فوبخهم وعنفهم ونزه نبيه عليه الصلاة والسلام عن سوء توهمهم وعظيم افكهم وافترائهم وكل هذا تعنيف وزجر لم يتقدم لهم مثله في السور المذكورة، ثم هو صريح في مشركي العرب معين لهم في غير تلويح ولا تعريض، ثم إنه وقع عقب كل قصة في هذه السورة قوله تعالى : «إن في ذلك لآية» وفيه تهديد ووعيد بين، فقال تعالى في آخر قصص والصفات «فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون الا أنهم من افكهم ليقولون ولد الله وانهم لكاذبون» (الآيات : 149—152) وهذا أعظم تقريع وأشد توبيخ، ثم نزه نفسه سبحانه عن بهتان مقالهم وسوء ارتكابهم وقبح فعالهم بقوله سبحانه «سبحان ربك رب العزة عما

(711) ب : من.

(712) ب : واستمرت.

(713) نهاية المخطوط «أ».

يصفون» (الآية : 180)، فلما أخذوا كل مأخذ فما أغنى ذلك عنهم، قال تعالى لنبيه ﷺ «فتول عنهم» وتماها، حتى حين (الصافات : 174) ولم يقع أمره ﷺ بتركهم والاعراض عنهم والتولي إلا بعد حصول القصص في السور المذكورة وأخذهم بكل طريق، وأول أمره بذلك ﷺ في سورة السجدة «فاعرض عنهم وانتظر انهم منتظرون» (آية : 30) ثم في سورة الذاريات «فتول عنهم فما أنت بملوم» (آية : 54) ثم في قوله هنا فتول عنهم» (آية : 6)، فتأمل ذلك، ثم ذكر تعالى قصص الأمم إثر قوله تعالى هنا «فتول عنهم» بأشد وعيد وأعظم تهديد يعقب كل قصة بقوله تعالى : «ولقد تركناها آية فهل من مدكر» (آية : 15) وقوله «فكيف كان عذابي ونذر»، (آية : 16) ثم صرف الكلام إليهم بما تقدم في قوله «أكفارهم خير من أولئكم» (آية : 43)، فبلغ ذلك اعظم مبلغ في البيان والاعذار، ثم قال تعالى : «وكل شيء فعلوه في الزبر... آية 52» فعرف سبحانه بسابق حكمته فيهم إنا كل شيء خلقناه بقدر (آية 49) وانقضى ذكر القصص، فلم يتعرض لها مستوفاة على هذا المساق فيما بعد إلى آخر الكتاب فسيحان من رحم به عباده المتقين وجعله آية باهرة إلى يوم الدين، وقطع به عناد الجاحدين وغائلة المعتدين وجعله بيانا كافيا ونورا هاديا وواعظا شافيا، جعلنا الله ممن اهتدى واعتلق بسببه إنه أهل الاستجابة والعفو والمغفرة.

سورة الرحمن(*)

من المعلوم أن الكتاب العزيز وإن كانت آياته كلها معجزة باهرة وسوره في جليل النظم وبديع التأليف قاطعة بالخصوم قاهرة، فبعضها أوضح من بعض في

(*) هذه السورة مكية على القول الصحيح بل من أوائل القرآن المكي نزولا، قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق فيما أخرجه أحمد وابن مردويه عنها بسند صحيح سمعت رسول الله ﷺ يقرأ وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يسمعون «فبأي آلاء ربكما تكذبان» الدر المنثور : 6 / 139.

وقد قرأ النبي ﷺ هذه السورة على أصحابه من أولها إلى آخرها فسكنوا فقال مالي أراكم سكوتا، لقد قرأتها على الجن ليلة فكانوا أحسن مردودا منكم، كنت كلما أتيت على قوله فبأي آلاء ربكما تكذبان قالوا ولا بشيء من نعمتك ربنا نكذب فلك الحمد : أخرجه الترمذي والحاكم وصححه وغيرهما بسند صحيح الدر المنثور : 6 /

تبين إعجازها. وتظاهر بلاغتها وإيجازها، ألا ترى تسارع الأفهام إلى الحصول على بلاغة آيات وسور من أول وهلة دون كبير تأمل كقوله تعالى : «وقيل يا أرض ابلعي ماءك» (هود : 44) وقوله : «فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين.... الآيات» (الحجر : 94 وما بعدها) لا يتوقف في أمر اعجازها إلا من طبع الله على قلبه، أو صُد عنه باب الفهم جملة، فأني له بولوجه وقرعه ؟ وسورة القمر من هذا النمط، ألا ترى اختصار القصص فيه مع حصول أطرافها وتوفية أغراضها وما جرى مع كل قصة من الزجر والوعظ والتنبيه والاعذار، ولولا أنني لم أقصد التعليق — إلا ما بنيته عليه من ترتيب السور — لأوضحت⁽⁷¹⁴⁾ ما أشرت إليه ولعل الله سبحانه ييسر ذلك فيما باليد من التفسير يفتح الله به ويسر فيه .

فلما انطوت هذه السورة على ما ذكرنا وبأن فيها عظيم الرحمة في ذكر القصص ونفع العظات، وظهرت حجة الله على الخلق وكان ذلك من أعظم أطافه تعالى لمن يسره لتدبر الكتاب ووقفه لفهمه واعتباره أردف ذلك سبحانه بالتنبيه على هذه النعمة فقال تعالى : «الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان» (الرحمن : 1) وخص من أسمائه الحسنی هذا الاسم إشعاراً برحمته بالكتاب وعظيم إحسانه «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها» (إبراهيم : 34) ثم قد تمهد أن سورة القمر إعذار، ومن أين للعباد بجميل هذا اللطف وعظيم هذا الحلم حتى يزدادوا إلى

= ووجه ارتباطها بالسورة التي قبلها أنها تعداد لنعم الله عز وجل على خلقه في هذه الحياة الدنيا وبيان لما هيأه لهم في السماوات والأرض مما ييسر عيشهم ويمكن أمرهم وذلك بعد أن أراهم في السورة السابقة مصارع السابقين وإن قدرته تأخذهم بأسرع من لمح البصر وهذا من باب الترغيب بعد التهيب ثم تواتت السورة ببيان نعم الله عز وجل على أهل الجنة في الجنان وتعداد ما أعد لهم فيها من خيرات لبيان هذه الآلاء المتواصلة.

وللسيوطي وجه آخر في مناسبتها، وهو أنه تعالى لما قال في آخر السورة السابقة «بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر» (46) ثم وصف عز وجل حال المجرمين في سقر وحال المتقين في جنات ونهر، فصل هذا الاجمال في هذه السورة أتم تفصيل على الترتيب الوارد في الاجمال، فبدأ بوصف مرارة الساعة، والاشارة إلى ادائها، ثم وصف النار وأهلها والجنة وأهلها ولذا قال فيهم : «ولن خاف مقام ربه جنتان» (45) وذلك هو عين التقوى، ولم يقل لمن آمن وأطاع أو نحوه لتتوافق الألفاظ- في التفصيل والمفصل. أنظر تناسق الدرر ص : 134.

(714) ب : ولأوضحت.

بسط الدلالات، وإيضاح البيّنات إن يعذر إليهم زيادة في الإبلّاغ فأنبأ تعالى أن هذا رحمة فقال : «الرحمن علم القرآن» (الرحمان : 1) ثم إذا تأملت سورة القمر وجدت خطابها واعذارها خاصا ببني آدم، بمشركي العرب منهم فقط*) فاتبعت بسورة الرحمن تنبيها للثقلين واعذارا إليهم وتقريرا للجنس على ما أودع الله تعالى في العالم من العجائب والبراهين الساطعة فتكرر فيها التقرير والتنبيه بقوله تعالى : «فبأي آلاء ربكما تكذبان» خطابا للجنسين واعذارا للثقلين فبان اتصالها بسورة القمر أشدّ البيان.

سورة الواقعة (715)

لما تقدم الاعذار في السورتين المتقدمتين والتقريب على عظيم البراهين وأعلم في آخر سورة القمر أن كل واقع في العالم فبقضائه سبحانه وقدره : «إنا كل شيء خلقناه بقدر». (القمر: 45) «وكل شيء فعلوه في الزبر» (القمر: 52) وأعلمهم سبحانه في الواقعة بانقسامهم الأخروي فافتتح بذكر الساعة «إذا وقعت الواقعة إلى قوله وكنتم أزواجا ثلاثة» (الواقعة: 1—7) فتجدت هذه السورة للتعريف بأحوالهم

(*) عبارات مضطربة في التركيب.

(715) هذه السورة مكية، وقد ورد في فضلها أحاديث كثيرة منها ما رواه أبو عبيد في فضائله والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الواقعة لم تصبه فاقة أبدا. ولما حضرت ابن مسعود الوفاة قيل له ما تركت لبناتك قال تركت لهن سورة الواقعة، التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي : 87/2، وروح المعاني : 111/27.

ووجه مناسبتها لما قبلها أن سورة الرحمن لما أفاضت في ذكر الجنان وما أعد الله فيها من الخيرات تشوقت النفوس إلى معرفة أهلها الذين يسكنونها كما تشوقت إلى معرفة من يجازون بضدها فجاءت هذه السورة لبيان حال الخلق في الآخرة وكشف درجاتهم التي يستحقونها بعد أن تقع الواقعة وتقوم الساعة فجعلت الخلق ثلاثة أصناف «وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة والسابقون السابقون» (7 — 10)، ثم تابعت أي السورة لبيان حال كل زوج من الثلاثة أزواج، وانتهت السورة إلى استشارة عقول الجاحدين من بيان نعم الله عز وجل عليهم من خلق الماء والزرع والنار وغيرها مما يستحق شكر المنعم وقد جاؤا بضده، وإن من أعظم نعم الله عز وجل هذا الحديث الذي أنزله عليهم الا وهو القرآن الكريم وختمت السورة بالتأكيد على هذه الأصناف الثلاثة وإن ما أعد لهم حق اليقين فتره ربك أيها المؤمن عما يقوله الجاحدون وينكروه المنكرون «فسبح باسم ربك العظيم»، وبهذا يتبين أن هذه السورة الكريمة امتداد لسورة الرحمن في سياق آياتها وفي مضمونها.

وانظر أوجها أخرى لتناسب السورتين في روح المعاني : 111/27. وتناسق الدرر ص : 135.

الأخروية وصدرت بذلك عما جرد في السورتين قبل التعريف بحالهم في هذه الدار، وما انجر في السور الثلاث جاريا على غير هذا الأسلوب فبحكم استدعاء الترغيب والترهيب لطفًا بالعباد ورحمة، ومطالعها مبنية على ما ذكرته تصريحًا لا تلويحًا، وعلى الاستيفاء لا بالاشارة والايحاء، ولهذا قال تعالى في آخر قصص افتراق أحوالهم الأخروية في هذه السورة «هذا نزلهم يوم الدين» (الواقعة : 56) فأخبر أن هذا حالهم يوم الجزاء، وقد قدم حالهم الدنيوي في السورتين قبل وتأكد التعريف المتقدم فيما بعد وذلك قوله : «فاما إن كان من المقربين إلى خاتمتها» (الآيات : 88-96).

سورة الحديد(٥)

لما تقدم قوله تعالى : «نحن خلقناكم فلولا تصدقون» (الواقعة : 57) وفيه من التقرير والتوبيخ لمن قرع به مالاخفاء به، ثم اتبع بقوله تعالى : «أفأرأيتم ما تمنون... الآيات إلى قوله : ومتاعا للمقربين» (الواقعة : 73) فنذروا ووبخوا على سوء جهلهم وقبح ضلالهم ثم قال بعد ذلك «أفبهذا الحديث أنتم مدهنون» (الواقعة : 81) واستمر^٥ توبيخهم إلى قوله : «إن كنتم صادقين» (الواقعة : 87).

فلما أشارت هذه الآيات إلى قبائح مرتكباتهم أعقب تعالى ذلك بتبزيه عز وجل من سوء ما انتحلوه وضلالهم فيما جهلوه فقال تعالى : «فسبح باسم ربك العظيم» (الواقعة : 96) أي نزهه عن عظيم ضلالهم وسوء اجترامهم، ثم أعقب

(٥) هذه السورة مدنية في قول جميع العلماء وهي أول المسبحات وقد خصهن رسول الله صلى عليه وسلم بالقراءة قبل أن يرقد، ويقول : ان فيهن آية أفضل من ألف آية، وهذه المسبحات هي : الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن، وكلهن مدنيات. انظر : روح المعاني : 27%142.

ووجه مناسبة هذه السورة لما قبلها — اضافة لما أبداه المصنف من الأمر بالتسبيح في آخر سورة الواقعة، وافتتاح هذه بالتسبيح أيضا، وان كل شيء في هذا الكون يسبح لله — هو أن هذه السورة جاءت آياتها تؤكد على حقيقة واحدة هي أن الذي يسبح له ما في السماوات والأرض هو وحده المتصرف في هذا الكون، فذكرت طائفة من أسماء الله تعالى الحسنی وصفاته العليا التي تبين هذا الجانب من خلق السماوات والأرض وإيلاج الليل في النهار، وواسع علمه وقدرته، واحياء الأرض بعد موتها، وأنه ذو الفضل العظيم، وهو الغني الحميد، وختمت السورة بقوله تعالى : «لئلا يعلم أهل الكتاب الا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم» مما يؤكد ما بينته وهو ظاهر والحمد لله.

ذلك بقوله : «سبح لله ما في السماوات والأرض» (الحديد : 1) ثم أتبع ذلك بقوله له : «له الملك وله الحمد» (التغابن 1). فبين تعالى انفراده بصفة الجلال ونعوت الكمال، وأنه المنفرد بالملك والحمد، وأنه الأول والآخر والظاهر والباطن إلى قوله : «وهو عليم بذات الصدور» (الحديد : 6) فتضمنت هذه الآي إرغام من أشير إلى حاله في الآي المتقدمة في سورة الواقعة وقطع ضلالهم والتعريف بما جهلوه من صفاته العلى وأسمائه الحسنى جل وتعالى، والتحمت آي السورتين واتصلت معانيها ثم صرف الخطاب إلى عباده المؤمنين فقال تعالى : «آمنوا بالله ورسوله» (الحديد : 7) واستمرت الآي على خطابهم إلى آخر السورة.

سورة المجادلة (716)

لما نزه (سبحانه)⁽⁷¹⁷⁾ نفسه عن مقول الملحدين وأعلم أن العالم بأسره ينزّهه عن ذلك باللسنة أحوالهم لشهادة العوالم على أنفسهم بافتقارها لحكيم أوجدتها لا يمكن أن يشبه شيئاً منها بل يتنزه عن أوصافها ويتقدس عن سماتها فقال : «سبح لله ما في السماوات والأرض» (الحديد : 1) ومضت آي تعرف بعظيم سلطانه وعلي ملكه، ثم انصرف الخطاب إلى عباده في قوله : «آمنوا بالله ورسوله إلى ما

(716) هذه السورة مدنية في قول الجمهور وآياتها تدل على هذا، ووجه ارتباطها بسالفها هو أن سورة الحديد افتتحت بالتسبيح وبيان طائفة من الصفات الالهية «هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم» (3) وغيرها من الصفات الالهية، إلا أنها تؤكد على صفة العلم فكانت سورة المجادلة معترضة بين المسبحات بيانا شافيا وبرهانا ساطعا على علم الله تبارك وتعالى وشموليته يحدث قائم وواقعة ظهرت للعيان أمامهم الا وهي قصة المجادلة ولهذا كانت السيدة عائشة رضي الله عنها تقول : تبارك الذي وسع سمعه الأصوات : لقد جاءت المجادلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلمه وأنا في ناحية البيت لا أسمع ما تقول فأنزل الله قد سمع الله قول التي تجادل في زوجها «ففصلت في مسألة الظهار، ثم عرضت السورة إلى علم الله تعالى الواسع المحيط تأكيدا لما في سورة الحديد» يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير» (4)، ثم كشفت عن دخائل المنافقين، وهذا أمر لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى، ثم عرضت لموالات الكفار، وهو أمر قلبي كذلك، لا يعلمه إلا الله وختمت السورة بالمفاصلة بين المؤمنين والكافرين، ونظرا لأن محل هذه الأمور القلب جاء قوله تعالى أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه.

فمضمون هذه السورة بيان بالوقائع لمضمون سورة الحديد وتمهيد واضح بين لسورة الحشر.

(717) غير واردة في النص واضفتها. لمناسبتها للسياق، ولعلها سقطت منه.

بعد ذلك من الآي، وكان ذلك ضرب من الالتفات الواقع منه هنا أشبه شيء بقوله سبحانه في سورة البقرة «وإذ قال ربك للملائكة (الفقرة 30)، فإنه بعد تفصيل حال المتقين وحال من جعل في طرف منهم، وحال من تشبه بظواهره بالمتقين وهو معدود في شرار الكافرين، فلما تم هذا النمط عدل بعده إلى دعاء الخلق إلى عبادة الله وتوحيده «يا أيها الناس اعبدوا ربكم» (البقرة : 21) ثم عدل بالكلام جملة وصرف الخطاب إلى تعريف نبيه عليه الصلاة والسلام ببدء الخلق «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة» (البقرة : 30) فجاء ضربا من الالتفات فكذا الواقع هنا بين سبحانه حال مشركي العرب وقبح عنادهم وقرعهم ووبخهم في عدة سور غالب آيها جار على ذلك ومجرد له، أولها سورة (ص)، كما نبه عليه في سورة القمر وإلى الغاية التي ذكرت فيها إلى أن وردت سورة القمر منبئة بقطع دابرهم، وانجر فيها الاعذار المنبه عليه، وكذا في سورة الرحمن بعدها. ثم أعقب ذلك بالتعريف بحال النزول الأخروي في سورة الواقعة مع زيادة تقرير وتوبيخ على مرتكبات استدعت تسبيحه تعالى وتقديسه عن شنيع افتراءهم، فاتبعت بسورة الحديد ثم صرف فيها الخطاب إلى المؤمنين، واستمر ذلك إلى آخر السورة، وجرت سورة المجادلة على هذا القصد مصروفا خطابها إلى نازلة يتشوف المؤمنون إلى تعرف حكمها وهو الظهار المبين أمره فيها، فلم يعدل بالكلام بعد كما كان قد صرف إليه في قوله : «آمنوا بالله ورسوله» (الحديد : 7) بأكثر من التعرض لبيان حكم يقع منهم.

ثم ان السور الواردة بعد إلى آخر الكتاب استمر معظمها على هذا الغرض لانقضاء ما قصد في التعريف بأخبار القرون السالفة والأُمم الماضية، وتقرير من عائد وتوبيخه، وذكر مآل الخلق واستقرارهم الأخروي، وذكر تفاصيل التكاليف والجزاء عليها من الثواب والعقاب، وما به استقامة من استجاب وآمن، وما يجب أن يلتزمه على درجات التكاليف وتأكيدها، فلما كمل ذلك صرف الكلام إلى ما يخص المؤمنين في أحكامهم وتعريفهم بما فيه خلاصهم ومعظم آي السورة بعد هذا شأنها، وان انجر غيرها فلا استدعاء وموجب وهو الأقل كما بينا.

سورة الحشر (718)

لا خفاء باتصال آيها بما تأخر من آى سورة المجادلة، ألا ترى أن قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم» (المتحنة : 13) إنما يراد به يهود، فذكر سبحانه سوء سريرتهم وعظيم جرأتهم، ثم قال في آخر السورة : «لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله» (الحشر : 22) فحصل من هذا كله تنفير المؤمنين منهم وإعلامهم بأن بغضهم من الايمان وودهم من النفاق لقبح ما انطوا عليه وشنيع ما ارتكبوه.

فلما أشارت هذه الآي إلى ما ذكر اتبعت بالاعلام في أول سورة الحشر بما عجل لهم من هوانهم وإخراجهم من ديارهم وأموالهم، وتمكين المسلمين منهم جرى على ما تقدم الايماء إليه من سوء مرتكبهم، والتحمت الآى باتحاد المعنى وتناسبه وتناسخ الكلام، وافتتحت السورة بالتنزيه لبنائها على ما أشار إليه غضبه تعالى عليهم، إذ لا يكون الأعلى أعظم جريمة وأسوأ مرتكب، وهو اعتداؤهم وعصيانهم المفصل في مواضع من الكتاب، وقد قال تعالى فيهم بعد ذكر غضبه عليهم «أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل» (المائدة : 60) وقال تعالى : «لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا

(718) سورة الحشر مدنية، نزلت في بني النضير وهم احدى القبائل الثلاثة اليهودية التي كانت تسكن المدينة وبدأوا يتآمرون على المسلمين ويكيدون لهم حتى وصل بهم الأمر إلى محاولة اغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجهم الله تبارك وتعالى على يد رسوله والمؤمنين أذلاء صاغرين بعد أن مناهم اخوتهم المنافقون بالنصر والتأييد، ولكن ذلك لم يغن عنهم من قدر الله شيئا، وأخرجوا كما وصف الله تبارك وتعالى حالهم في هذه السورة الكريمة، وكبت المنافقين الذين كانوا يمتنون إليهم بصلة الدس والوقعة بالمسلمين.

ووجه ارتباط هذه السورة بما قبلها ظاهر، ذلك أن سورة المجادلة حكمت بأنه لا مادة بين مؤمن وكافر، وكان بنو النضير حلفاء الخزرج، فلما وقعت غزوة بني النضير تبرأ مؤمنو الخزرج من بني النضير ولم يقف بجانبهم إلا المنافقون، وقد كان بنو النضير، وبنو قينقاع، وبنو قريظة ذوي قوة وسطوة في يثرب، يخشاهم العرب لقوتهم المالية والعديد فكتشت باقي آيات السورة للمؤمنين ان الله تبارك وتعالى الذي أخرجهم شر اخراج — كما ترون بأمر أعينكم — له الصفات العلى، والقدرة المطلقة وافاضت في التعريف بهذه الأسماء وهذه الصفات «هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس.... الآيات».

يعتدون» (المائدة : 78) فبين تعالى أن لعنته اياهم إنما ترتبت على عصيانهم واعتدائهم، وقد فصل اعتداؤهم أيضا في مواضع، فلما كان الغضب مشيرا إلى ما ذكر من عظيم الشرك أتبعه سبحانه تنزيه نفسه جل وتعالى فقال : «سبح لله ما في السماوات والأرض» (الحديد : 1) وإنما يرد التنزيه في الكتاب إثر جريمة تقع من العباد، وعظيمة يرتكبونها، وتأمل ذلك حيث وقع، ثم عاد الى الإخبار بما فعل تعالى بأهل المتاب مما يتصل بما تقدم ثم تناسخت الآي.

سورة الممتحنة (719)

افتتحت هذه السورة بوصية المؤمنين على ترك موالاة أعدائهم ونهيم عن ذلك، وأمرهم بالتبري منهم وهو المعنى الوارد في قوله خاتمة المجادلة «لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم إلى آخر السورة» (آية : 21)، وقد حصل منها أن اسنى أحوال (أهل) (720) الايمان، وأعلى مناصبهم «أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه» (آية : 21) فوصى عباده في افتتاح الممتحنة بالتنزه عن موالاة الأعداء، ووعظهم بقصة إبراهيم عليه السلام والذين معه في تبرئهم من قومهم ومعاداتهم والاتصال في هذا بين، وكأن سورة الحشر وردت مورد الاعتراض المقصود بها تمهيد الكلام وتنبيه السامع على ما به تمام الفائدة لما ذكر أن شأن المؤمنين أنهم لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا أقرب الناس إليها، واعترض بتنزيهه عن مرتكباتهم، ثم اتبع ذلك ما عجله لهم من النعمة (721) والنكال، ثم عاد الأمر إلى النهي عن موالاة الأعداء جملة، ثم لما كان أول سورة الممتحنة إنما نزل في حاطب بن أبي بلتعة (722)

(719) هذه السورة مدنية، وتسمى أيضا سورة المودة، وسورة الامتحان، وقد نزلت في شأن حاطب ابن أبي بلتعة وكتابه إلى قریش يطلعهم منه على سر النبي صلى الله عليه وسلم واردة فتح مكة كما أخرج ذلك البخاري وغيره. انظر فتح الباري : 633/8، وروح المعاني : 57/28، 58 .

(720) اضفتها لاقتضاء السياق ذلك.

(721) ب : النعمة.

(722) صحابي شهد بدرًا والحديبية، توفي سنة 30 هـ، في خلافة عثمان رضي الله عنه. الاصابة، 300/1 .

رضي الله عنه وكتابه لكفار قريش بمكة، والقصة مشهورة، وكفار مكة ليسوا من يهود، وطلب المعادة للجميع واحد، فلهذا فصل بما هو من تمام الإخبار بمآل يهود، وحيث عاد الكلام إلى الوصية عن نظائريهم من الكفار المعاندين، والتحمت السور الثلاث، وكثر في سورة الممتحنة ترداد الوصايا والعهود، وطلب الوفاء بذلك كله، ولهذه المناسبة ذكر فيها الحكم في بيعة النساء، وما يشترط عليهن في ذلك، فبنى السورة على طلب الوفاء افتتاحا واختتاماً حسبما بين في التفسير لينزه المومن عن حال من قدم ذكره في سورة الحشر وفي خاتمة سورة المجادلة.

سورة الصف (723)

افتتحت بالتسبيح لما ختمت به سورة الممتحنة من قوله : «لا تتولوا قوما غضب الله عليهم» «الممتحنة : 113) وهم اليهود، وقد تقدم الايماء ما استوجبوا به هذا، فاتبع بالتنزيه لما تقدم بيانه، فإنه مما يعقب به ذكر جرائم المرتكبات ولا يرد في غير (725) ذلك، ثم أتبع ذلك بأمر العباد بالوفاء، وهو الذي حُدّ لهم في الممتحنة ليتنزهوا عن حال مستوجبي الغضب بنقيض الوفاء والمخالفة بالقلوب والألسنة «يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم» (آل عمران : 167) «ليا

(723) هذه السورة مدنية في قول الجمهور إلا ما جاء في رواية عن ابن عباس انها مكية والصواب أنها مدنية وذلك ظاهر من آياتها، وتسمى أيضا سورة الخواريين، وسورة عيسى عليه السلام.

وقد جاء أن نفرا من الصحابة قعدوا وتذاكروا فيما بينهم فقالوا لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون» (2-3).

ووجه تعلق هذه السورة بما قبلها أنها بينت فضل الجهاد وأنه التجارة الرابحة في الدنيا والآخرة وحضت المومنين عليه وعلى نصرة الرسول كما نصر الخواريون عيسى عليه السلام وذلك بعد أن تقدم في السورة السالفة قطع الموالاة بينهم وبين الكفار والمنافقين وأهل الكتاب وقطع الموالاة هذا يقتضي منهم الجهد والتحمل للمشاق في الأنفس والأموال والديار، فجاءت هذه السورة لتحضهم على هذا التحمل وتُعدهم بالنصر والفتح القريب وتبشرهم بعلو دين الاسلام «يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» (8-9).

(725) ب : غيره.

بألسنتهم وطعنا في الدين» (النساء : 45) «من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم» (المائدة : 43) «ويقولون آمنا بالله وبالرسل وأطعنا ثم يتولى فريق منهم» (النور : 45)، وبمجموع هذا استجمعوا اللعنة والغضب فقليل للمؤمنين «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون» (الصف : 2) احذروا أن تشبه أحوالكم حال من استحق المقت واللعنة والغضب، ثم اتبع بحسن الجزاء لمن وفى قولاً وعقداً لساناً وضميراً، وثبت على ما أمر به فقال : «إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً.... الآية» (الصف : 4) ثم تناسج ما بعد.

ولما كان الوارد من هذا الغرض في سورة الممتحنة قد جاء على طريق الوصية وسبيل النصح والاشفاق، أتبع في سورة الصف بصريح العتب في ذلك والانكار ليكون ذكره بعد ما تمهد في السورة قبل أوقع في الزجر، وتأمل كم بين قوله سبحانه : «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء.... الآية» (الممتحنة : 9) وما تضمنت من التلطف وبين قوله : «لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون» (الصف : 2).

سورة الجمعة (726)

لما ختمت سورة الصف بالثناء على الحواريين في حسن استجابتهم وجميل إيمانهم، وقد أمر المؤمنين بالتشبه في قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله.... الآية» (الصف :

(726) وجه ارتباط هذه السورة بالتي قبلها وهي مدنية مثلها هو أن تكلفة الجهاد وفريضته مع هذا النبي لتبليغ رسالته وإظهار دينه تشریف لهذه الأمة وتكریم لها، هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين (2)، فإن أعرضوا عن هذا الشرف فسيقضي الله تبارك وتعالى له من غيرهم من يحمله كما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه عندما قرأ قوله تعالى «وأخريهم منهم» وضع يده على سلمان وقال : «لو كان الايمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء» أخرجه البخاري ومسلم والنسائي. البخاري مع الفتح 641/8، والدرر المنثور : 215/6 . فمن أعرض عن هذا الشرف ولم يتطلع إليه كان كالحمار يحمل أثقالاً من أثقال هذه الحياة ولا يدري ما قيمتها، والموت لابد نازل في ساحته سواء أكان في الجهاد أو في غيره «قل ان الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم» (8).

14) كان ذلك مما يوهم فضل اتباع عيسى عليه السلام على اتباع محمد ﷺ فأتبع ذلك بذكر هذه الأمة والثناء عليها، فافتتحت السورة بالتنزيه كما أشار إليه قوله : «وكفرت طائفة» (الصف : 14) فإنهم ارتكبوا العظيمة وقالوا بالنبوة، فنزه سبحانه نفسه عن ذلك ثم قال : «هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم إلى قوله ذو الفضل العظيم» (الجمعة : 2)، ثم أعلم تعالى بحال طائفة لاح لها نور الهدى ووضح لها سبيل الحق فعميت عن ذلك وارتبكت في ظلمات جهلها، ولم تزد بما حملت إلا حيرة وضلالة فقال تعالى : «مثل الذين حملوا التوراة.... الآيات» (الجمعة : 5).

وهي في معرض التنبيه لمن تقدم الثناء عليه ورحمة الله إياه لئلا يكونوا فيما يتلو عليهم نبيهم من الآيات، ويعلمهم من الكتاب والحكمة مثل أولئك الممتحنين فإنهم مقتوا ولعنوا بعد حملهم التوراة، وزعموا أنهم التزموا حملة والوفاء به فوعظ هؤلاء بمثالبهم لطفًا من الله بهذه الأمة «وما يتذكر إلا أولوا الألباب» (البقرة : 269).

سورة المنافقون (727)

لما أعقب حال المؤمنين فيما خصهم الله به مما انطوت عليه الآيات الثلاث في صدر سورة الجمعة إلى قوله : «والله ذو الفضل العظيم» (الجمعة : 2-4) بذكر حال من لم ينتفع بما حُمِّلَ حسبما تقدم، وكان في ذلك من المواعظ

= وختمت السورة بما يوحد الكلمة ويذكر بالله الا وهو حضور صلاة الجمعة وتفضيل أمر الآخرة على شواغل الدنيا وهوها. «قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين» (11). وكل هذه الأغراض تأكيد وبسط لما ورد في سورة الصف من الحث على الجهاد في سبيل الله.

وللسيوطي في تناسبها نظرة سديدة إذ قال : «لما ختم تلك السورة (الصف) بالأمر بالجهاد وبمناهة تجارة ختم هذه بالأمر بالجمعة وأخبر أنها خير من التجارة الدنيوية، وأيضاً فتلک سورة الصف، والصفوف تشرع في موضعين القتال والصلاة فتناسب تعقيب سورة صف القتال بسورة صلاة تستلزم الصف ضرورة وهي الجمعة لأن الجماعة شرط فيها دون سائر الصلوات». انظر أسرار ترتيب القرآن. ص : 138.

(727) هذه السورة مدنية، وقد جاء ترتيبها بعد سورة الجمعة التي ذكر فيها المؤمنون وأمرتهم بالعمل على طلب مرضاة الله، وإيثار الدار الآخرة على متاع الدنيا، وحذرتهم من التفريط في فضل صلاة الجمعة بالانشغال بالتجارة واللهو،

والتنبيه مما ينتفع به من سبقت له السعادة اتباع بما هو أوقع في الغرض، وأبلغ في المقصود وهو ذكر طائفة بين أظهر من قدم الثناء عليهم من أقرانهم وأترابهم وأقاربهم تلبست في الظاهر بالآيمان وأظهرت الانقياد والاذعان، وتعرضت فأعرضت وتنصلت فما وصلت، بل عافتها الأقدار فعميت البصائر.

ومن المطرد المعلوم أن اتعاط الانسان بأقرب الناس إليه وبأهل زمانه أغلب من اتعاطه بمن بعد عنه زمانا ونسبا، فأتبعت سورة الجمعة بسورة المنافقين وعظا للمومنين بحال أهل النفاق، وسَط من قصصهم ما يلائم ما ذكرناه، وكأن قد قيل لهم ليس من أظهر الانقياد والاستجابة في بني إسرائيل، ثم كان فيما حمل كمثله الحمار يحمل أسفارا بأعجب من حال إخوانكم زمانا وقربة، وأنتم أعرف الناس بهم، وأنهم كانوا في الجاهلية موصوفين بجودة الرأي وحسن النظر «وإذا رأيتم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم» (المنافقون : 4) «ولكن المنافقين لا يفقهون» (المنافقون : 7).

قلت : «وقد مر في الخطبة ما روينا في مصنف ابن أبي شيبة من قول أناس من المومنين كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين

= فجاءت هذه السورة لتبين خصائص المنافقين وصفاتهم، وديندهم تفريق الجماعة، وتشتيت الصفوف وتشيط العزائم وثني المسلمين عن الجهاد وهو ماض إلى يوم القيامة، وكل ذلك يكون في حالة الأمن والاستقرار وفي حالة الاستعداد والنفار، فحتى يحذرهم المسلمون في كل العصور جاءت خصائصهم دون ذكر الأسماء، وختمت السورة ببناء المومنين الا تلهيهم الأموال والأولاد، وحضتهم على الانفاق في سبيل الله، وبين الله لهم أنه لن تموت نفس الا بأجلها سواء كان ذلك في الحرب أو السلم، وفي ذلك من التناسب ما هو بين واضح.

ولقد أبدى السيوطي رحمه الله وجهها آخر لارتباط هذه السورة بالتي قبلها، وارتباط المسبحات ببعضها رغم الفصل بينهما فقال : «ان سورة الجمعة ذكر فيها المومنون وهذه ذكر فيها أضدادهم وهم المنافقون. ولهذا جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة يحرض بها المومنين وبسورة المنافقين يقرع بها المنافقين».

ثم قال : «وقام المناسبة ان السورة التي بعدها (آي التغابن) فيها ذكر المشركين، والسورة التي قبل الجمعة فيها ذكر أهل الكتاب من اليهود والنصارى، والتي قبلها وهي المتحنة فيها ذكر المعاهدين من المشركين، والتي قبلها وهي الحشر فيها ذكر المعاهدين من أهل الكتاب.... وبذلك اتضحت المناسبة في ترتيب هذه السور الست هكذا لاشتغالها على أصناف الأمم، وفي الفصل بين المسبحات بغيرها، لأن إيلاء سورة المعاهدين من أهل الكتاب بسورة المعاهدين من المشركين أنسب من غيره، وإيلاء سورة المومنين بسورة المنافقين أنسب من غيره. فظهر بذلك أن الفصل بين المسبحات التي هي نظائر لحكمة دقيقة من لدن حكيم خبير». انظر تناسق الدرر : 138، 139.

فأما سورة الجمعة فيبشر بها المؤمنين ويحرضهم وأما سورة المنافقين فيؤيس بها المنافقين ويوبخهم⁽⁷²⁸⁾ وهذا نحو ما ذكرناه أولاً.

سورة التغابن^(*)

لما بسط في السورتين قبل من حال مَنْ حمل التوراة في بني إسرائيل، ثم لم يحملها، وحال المنافقين المتظاهرين بالاسلام وقلوبهم كبرا وعنادا متكاثفة الاظلام وبين خروج الفرقتين عن سواء السبيل المستقيم، وتنكبهم عن هدي الدين القويم، واوهم ذكر اتصافهم بمحتد أوصافهم خصوصهم في الكفر بوسم الانفراد وسما ينبيء عن عظيم ذلك الإبعاد سوى ما تناول غيرهم من أضراب الكفار، فانباً تعالى عن أن الخلق بجملتهم وإن تشعبت الفرق، واфترقت الطرق راجعون بحكم السوابق إلى طريقتين، فقال تعالى : «هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مومن» (التغابن 2) وقد أوضحنا الدلائل أن المؤمنين على درجات وأهل الكفر ذوو طبقات، وأهل النفاق أدونهم حالاً وأسوأهم كفراً وضلالاً «إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار» (النساء : 145) وافتتحت السورة بالتنزيه لعظيم مرتكب المنافقين في جهلهم، ولو لم تنطو سورة المنافقين من عظيم مرتكبهم الا على ما حكاه تعالى من قولهم «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الاذل» (المنافقون : 8) وقد أشار قوله تعالى : «ويعلم ما في السماوات والأرض»

(728) أخرجه الطبراني في الأوسط، وسعيد بن منصور في سننه بسند حسن عن أبي هريرة مرفوعاً. انظر الدر المنثور 6%222. وأما قراءته صلى الله عليه وسلم بالجمعة والمنافقين في صلاة الجمعة هكذا باطلاق فقد جاءت من حديث عدد من الصحابة منهم أبو هريرة، وابن عباس، وأبو عنب الخولاني وغيرهم وهي عند مسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والبيهقي في معجمه وآخرين. الدر المنثور : 215.

(*) هذه السورة مدنية في قول الأكثريين، وقال الضحاك هي مكية، وقيل انها نزلت بمكة الا آخرها «يا أيها الذين آمنوا انما أموالكم وأزواجكم» إلى آخر السورة نزل بالمدينة.

ومن وجوه ارتباطها بسابقتها — على ما أبداه الألوسي — هو أنه سبحانه ذكر هناك حال المنافقين وخاطب بعد المؤمنين كذا ذكر جلا وعلا هنا تقسيم الناس إلى مؤمن وكافر. وأيضا في آخر تلك «لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم» وفي هذه انما أموالكم وأولادكم فتنة» وهذه الجملة كالتعليل لتلك، وأيضا في ذكر التغابن نوع حث على الانفاق قبل الموت المأمور به فيما قبل. انظر روح المعاني : 104/28، 105.

(التغابن : 4) ويعلم ما تسرون وما تعلنون» (التغابن : 4) «والله عليم بذات الصدور» (التغابن : 4) إلى ما قبله وما بعده من الآيات إلى سوء جهل المنافقين وعظيم حرمانهم في قولهم بالسنتهم ما لم تنطو عليه قلوبهم «والله يشهد أن المنافقين لكاذبون» (المنافقون : 1) واتخاذهم إيمانهم جنة إلى ما وصفهم سبحانه به، فافتتح تعالى سورة التغابن بتنزيهه عما توهموه من مرتكباتهم التي لا تخفى عليه سبحانه «ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم» (التوبة : 78) ثم قال تعالى : «ويعلم ما تسرون وما تعلنون» (التغابن : 4) ففرع ووبخ في عدة آيات، ثم أشار إلى ما منعهم من تأمل الآيات وصدهم عن اعتبار المعجزات وأنه الكبر المهلك غيرهم، فقال تعالى مخبرا عن سلفهم في هذا المرتكب ممن أعقبه ذلك أليم العذاب وسوء المنقلب «ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدونا» (التغابن : 6) ثم تناسج الكلام معرفا بمآلهم الأخروي ومآل غيرهم إلى قوله «وبئس المصير» (التغابن : 10) ومناسبة ما بعد يتبين في التفسير بحول الله.

سورة الطلاق^(*)

لما تقدم قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله» (المنافقون : 9) وقوله في التغابن : «إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم» (التغابن : 14) وقوله تعالى : «إنما أموالكم وأولادكم فتنة» (التغابن : 15) والمومن قد يعرض له ما يضطره إلى فراق من نبه على فتنه وعظيم محتته، وردت هذه السورة منبهة على كيفية الحكم في هذا الافتراق، وموضحة أحكام الطلاق، وأن هذه العداوة وإن استحكمت ونار هذه الفتنة وإن اضطربت، لا توجب التبرؤ بالجملة وقطع المعروف «لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا» (الطلاق : 1) ووصى سبحانه بالاحسان المجمل في قوله : «أو تسريح بإحسان» (الطلاق : 1) ووصى سبحانه بالاحسان المجمل في قوله : «أو تسريح بإحسان»

(*) هذه السورة مدنية في قول جميع العلماء، وقد تناولت أحكام العدة والانفاق وقد أبدى المصنف رحمه الله وجه ارتباطها بسابقتها بما لا يحتاج إلى زيادة بيان.

(البقرة : 229) وبين تفصيل ذلك وما يتعلق به فهذا الرفق المطلوب بإيقاع الطلاق في أول ما تستعده المطلقة في عدتها وتحسبه من مدتها تحذيرا من وقوع الطلاق في الحيض الموجب طول العدة وتلك المدة، وأكد سبحانه هذا بقوله : «واتقوا الله ربكم» (الطلاق : 1) ثم نبه سبحانه على حقهن أيام العدة من الإبقاء في مستقرهن حين إيقاع الطلاق إلى إنقضاء العدة فقال : «لا تخرجوهن من بيوتهن» (الطلاق : 1) إلى ما استمرت عليه السورة من بيان الأحكام المتعلقة بالطلاق وتفصيل ذلك كله، ولما كان الأولاد إذا ظهر منهم ما يوجب فراقهم وإبعادهم غير مفترقين إلى ما سوى الرفض والترك بخلاف المرأة لم يحتج إلى ما احتج إليه في حقهن فقد وضع وجه ورود سورة الطلاق في هذا الموضع والله أعلم.

سورة التحريم⁽⁷²⁹⁾

لاخفاء بشدة اتصال هذه السورة بسورة الطلاق لاتحاد مرماهما وتقارب معناهما : وقد ظن أنه ﷺ طلق نساءه حين اعتزل في المشربة حتى سألته عمر رضي الله عنه، والقصة معروفة⁽⁷³⁰⁾، وتخيره ﷺ إياهن أثر ذلك وبعد اعتزالهن شهرا كاملا، وعتب الله تعالى عليهن في قوله : «وان تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه» (التحريم 4) وقوله : عسى ربه أن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن..... الآية» (التحريم 5) فهذه السورة وسورة الطلاق أقرب شيء وأنسبه لسورة الأنفال وبراءة لتقارب المعاني والتحام المقاصد.

(729) هذه السورة مدنية في قول جميع العلماء، ويقال لها سورة «المتحرم» وسورة «لم تحرم»، وسورة «النبي» صلى الله عليه وسلم ووجه ارتباطها بما قبلها ظاهر كما قال المصنف رحمه الله، خاصة وأن هذه السورة أبانت عن حكم الإيلاء ولم يرد في السورة السابقة، وفي ذلك من المناسبة مالا يخفى، وزادت أيضا حكمين اثنين : الأول : مسؤولية الراعي عمن يرعاه «يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا» والثاني : انه لا ينجي الانسان الا ايمانه وعمله. فلا تنفعه قرابته من النبي ان كان عمله غير صالح ولا يضره نسبه من الكافر ان كان عمله صالحا، وهذان الحكمان مرتبطان ارتباطا شديدا في فاتحة السورة، ومضمون السورة كلها مرتبط ارتباطا شديدا بمضمون السورة السابقة وهما مرتبطتان بمضمون سورة التغابن «ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم» فمضمون هاتين السورتين تفصيل لهذه الآية الكريمة.

(730) وهي فيما رواه البخاري عن ابن عباس قال : لم أزل حريصا على ان أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله تعالى «ان تنوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما» حتى حج عمر وحججت معه فلما كان ببعض الطريق عدل إلى الإراك لحاجة له.

سورة الملك^(٥)

ورود ما افتتحت بهذ السورة من التنزيه وصفات التعالي إنما يكون عقب
تفصيل وايراد عجائب من صنعه سبحانه كورود قوله تعالى : «فتبارك الله أحسن

= قال فوقفت له حتى فرغ، ثم سرت معه فقلت له، يا أمير المؤمنين، من اللتان تظاهرتا على النبي صلى الله عليه وسلم من أزواجه، فقال تلك حفصة وعائشة، قال فقلت : والله ان كنت لأريد ان أسألك عن هذا منذ سنة، فما أستطيع هيبه لك، قال فلا تفعل، ما ظننت أن عندي من علم فأسألني، فان كان لي علم خبرتك به، قال : ثم قال عمر : والله ان كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم، قال فبينما أنا في أمر أتأمره اذ قالت امرأتي، لو صنعت كذا وكذا، قال فقلت لها : مالك ولما هاهنا، فيما تكلفك في أمر أريده ؟ فقالت لي عجبا لك يا ابن الخطاب، ما تريد أن تراجع أنت، وان ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان فقام عمر فأخذ رداءه مكانه حتى دخل على حفصة فقال لها : يا بنية انك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟ فقالت حفصة : والله انا لتراجعه. فقلت تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله صلى الله عليه وسلم، يا بنية لا يغرنك هذه التي أعجبها حسننها حب رسول الله صلى الله عليه وسلم اياها — يريد عائشة — قال : ثم خرجت حتى دخلت على أم سلمة لقرايتي منها فكلمتها، فقالت أم سلمة، عجبا لك يا ابن الخطاب دخلت في كل شيء حتى تبغني ان تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه، فأخذتني والله أخذاً كسرتني عن بعض ما كنت أجد فخرجت من عندها، وكان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر، وإذا غاب كنت انا آتية بالخبر، ونحن نخوف ملكاً من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه، فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب فقال : افتح افتح، فقلت : جاء الغساني ؟ لنا أنه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه، فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب فقال : افتح افتح، فقلت : جاء الغساني ؟ فقال بل أشد من ذلك اعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أزواجه فقلت رغم أنف حفصة وعائشة، فأخذت ثوبي فخرجت الدرجة فقلت له : قل هذا عمر ابن الخطاب، فأذن لي، قال عمر : فقصصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا الحديث، فلما بلغت حديث أم سلمة تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من آدم حشوها ليف، وإن عند رجله قرصاً مصوراً وعند رأسه أهب معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت، فقال ما يبكيك ؟ فقلت يا رسول الله ان كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسول الله، فقال : اما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ أخرجه أحمد والشيخان. وانظره بهذه السياقة في صحيح البخاري ج 8 657%. وانظرها أيضا في تفسير ابن كثير وغيرها من كتب التفسير والسنة.

(٥) هذه السورة مكية في قول جميع أهل العلم، وهي مخصوصة بمزيد من فضل : فقد ورد في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فيما رواه عنه ابن عباس «وددت أنها في قلب كل مؤمن» يعني تبارك الذي بيده الملك وأخرجه عبد بن حميد في مسنده والحاكم وغيرهما باسناد صحيح : وأخرج أصحاب السنن والحاكم وصححه وغيرهم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ان سورة من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له : «تبارك الذي بيده الملك»».

وكان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمونها : المانعة، والواقية، والمنجية، لأنها تمنع صاحبها من ولوج النار، وتقويه العذاب، وتنجي منه وفيها آثار أخرى : انظر الدر المنثور : 246/6، 247. ومستدرك الحاكم : 298/2، وروح المعاني : 2/29. ووجه مناسبتها لما قبلها مع ما ابداه المصنف هو ما تقدم في سورة التحريم من شأن النبي صلى الله عليه وسلم مع أزواجه، وأن الله تعالى مولاه والملائكة والمؤمنون، وجاءت الآيات تتلوها بالأمر بالوقاية للنفس والذرية من عذاب الله، والتوبة النصوح، وإنه لا يغني أحد عن أحد شيئا يوم القيامة، كان مضمون سورة الملك هو الابتلاء في هذه الحياة الدنيا للمكلفين، وفرضه القيام بالعمل الصالح، والاستقامة على ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وعددت لهم النعم التي تحيط بهم وبها قوامهم من اسماع وأبصار وأفعدة، وأرض وسما، وغذاء وماء، كل ذلك ليعلموا أن المالك الحق المنزه عن كل نقص طلب منهم الاستقامة على الطريق، والنأى بالنفس والذرية عن جهنم، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ووجه التناسب أيضا ما أورده الألويسي وهو قريب مما ذهب إليه المؤلف وهو أنه تعالى لما ضرب مثلا للكفار بتبنيك المرأتين المحتوم لهما بالشقاوة وإن كانتا تحت نبين عظيمين، ومثلا للمؤمنين بأسية ومرم وهما محتوم لهما بالسعادة وأن أكثر قومهما كفار، افتتح هذه بما يدل على احاطته عز وجل وقهره وتصرفه في ملكه على ما سبق به قضاؤه، وقبل ان آخر هذه متصل بقوله تعالى آخر الطلاق «الله الذي خلق سبع سموات» لما فيه من مزيد البسط لما يتعلق بذلك، وفصل بسورة التحريم لأنها كالمقطعة من سورة الطلاق والتتمة لها. انظر روح المعاني : 2/29، 3.

الخالقين» (المؤمنون 14) عقب تفصيل القلب الانساني من لدن خلقه من سلالة من طين إلى إنشائه خلقا آخر، وكذا كل ما ورد من هذا ما لم يرد أثناء آى قد جردت للتنزيه والاعلام بصفات تعالى والجلال.

ولما كان أوقع في سورة التحريم ما فيه أعظم عبرة لمن تذكر وأعلى آية لمن استبصر من ذكر امرأتين كانتا تحت عبيدين صالحين قد بعثهما الله تعالى رحمة لعباده واجتهادا في دعاء الخلق فحرم الاستنارة بنورهما، والعياذ بهما من لم يكن أحد من جنسهما أقرب إليهما منه، ولا أكثر مشاهدة لمابدا له من الآيات وعظيم المعجزات، ومع ذلك فلم يغنيا عنهما من الله شيئا، ثم أعقبت هذه العظة بما جعل في طرف منها ونقيض من حالها، وهو ذكر امرأة فرعون الذي لم يضرها مرتكب صاحبها وعظيم جرأته، مع شدة الوصلة واستمرار الألفة لما سبق لها في العلم القديم من السعادة وعظيم الرحمة فقالت : «رب ابن لي عندك بيتا في الجنة» (التحريم : 11) وحصل في هاتين القصتين تقديم سبب رحمة حرم التمسك بها أولى الناس في ظاهر الأمر، وتقديم سبب امتحان عصم منه أقرب الناس إلى التورط فيه، ثم أعقب ذلك بقصة عريت عن مثل هذين السبيين، وانفصلت في مقدماتها عن تينك القصتين وهو ذكر مريم ابنة عمران ليعلم العاقل حيث يضع الأسباب، وأن القلوب بيد العزيز الوهاب، أعقب تعالى ذلك بقوله الحق «تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير» وإذا كان الملك بيده سبحانه فهو الذي يوتي الملك والفضل من يشاء، وينزعه عمن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، كما صرحت به الآية الأخرى في آل عمران، فقد اتضح اتصال سورة الملك بما قبلها، ثم بنيت سورة الملك على التنبيه والاعتبار ببسط الدلائل ونصب البراهين حسبما يبسطه التفسير (731).

(731) انظر ملاك التأويل : 1091/2 ، 1092

سورة ن(٥)

لما تضمنت سورة الملك من عظيم البراهين ما تعجز العقول من استيفاء الاعتبار ببعضه كالاختبار بخلق السماوات في قوله تعالى : «الذي خلق سبع سماوات طباقا»(3) أي يطابق بعضها بعضا، من طابق النعل إذا خصفها طبقا عن طبق، ويشعر هذا بتساويها في مساحة أقطارها ومقادير اجرامها والله أعلم(732)، ووقع الوصف بالمصدر ليشعر باستحكام مطابقة بعضها بعضا من غير زيادة ولا نقص «ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت»(3) أي من اختلاف واضطراب في الخلقة أو تناقض، إنما هي مستوية مستقيمة، وجيء بالظاهر في قوله : «ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت» ولم يقل ما ترى فيه من تفاوت ليشعر أن جميع المخلوقات جار على هذا، كل شكل يناسب شكله لا تفاوت في شيء من ذلك ولا اضطراب، فأعلى الظاهر من التعميم ما لم يكن يعطيه الاضمار، كما أشعر خصوص اسم الرحمن بما في هذه الأدلة المبسطة من الرحمة للخلائق لمن رزق الاعتبار، ثم نبه تعالى على ما يدفع الريب ويزيح الاشكال فقال : «فارجع البصر»(3) أي عاود البصر والتأمل مما تشاهده من المخلوقات

(٥) هذه السورة الكريمة مكية في جملتها، بل هي من أوائل ما نزل من القرآن الكريم، ووجه ارتباطها بسورة الملك هو أنه لما تقدم في سورة الملك من بيان قدرة الله في اذهاب الماء، فصلت هذه السورة ما حدث لأصحاب الجنة الذين أعماهم حب المال فذهب الله به، فأصبحوا يضربون كفأ بكف أسفا وندما وعجزا، وتتابعت السورة الكريمة في بيان عجز المخلوقين عن التصرف حتى فيما بأيديهم فكأن هذه السورة بجملتها بيان لقوله تبارك وتعالى «تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير».

وقال أبو حيان : «انه ذكر فيما قبل أشياء من أحوال السعداء والأشقياء، وذكر قدرته الباهرة وعلمه تعالى الواسع، وأنه عز وجل لو شاء لخنسف بهم الأرض أو لأرسل عليهم حاصبا، وكان ما أخبر به سبحانه هو ما تلقفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالوحي، وكان الكفار ينسبون في ذلك مرة إلى الشعر ومرة إلى السحر ومرة إلى الجنون، فبدأ جل شأنه في هذه السورة الكريمة ببراءته صلى الله عليه وسلم مما كانوا ينسبون إليه من الجنون وتعظيم أجره على صبره على أذاهم وبالثناء على خلقه العظيم» البحر المحيط : 8%307.

(732) حسب معطيات العلم الحديث فان الفضاء الكوني ينقسم إلى سبع سماوات وهي : السماء الأرضية، والسماء القمرية، والسماء الشمسية، وسماء النجوم القريبة، وسماء المجرة، وسماء الكون، وهذه السماوات «طباقا» إذ تغلف بعضها بعضا كطباق على طبق، وهي أيضا «طباقا» أي متساوية في كيانها. انظر : لله العلم د. بشير البركي ص : 113 — 115).

حتى يصح عندك ما أخبرت به بالمعينة، ولا يبقى معك في ذلك شبهة «هل ترى من فطور» (3) أي صدوع وشقوق ثم أمر تعالى بتكرير البصر فيهن متصفحاً ومتمتعاً، هل تجد عيباً أو خللاً «ينقلب إليك البصر خاسئاً» (4) أي أنك إذا فعلت هذا رفع بصرك بعيداً عن إصابة الملمس كأنه يطرد عن ذلك طرداً بالصغار والإعياء وبالكلال لطول الاجالة والترديد، وأمر برجوع البصر ليكون في ذلك استجمامه⁽⁷³³⁾ واستعداده حتى لا يقع بالرجعة الأولى التي يمكن فيها الغفلة والذهول، إلا أن يحسر بصره من طول المعاودة إذ معنى التنبيه في قوله : «كرتين» التكرير، كقوله (لبيك وسعديك) فيحسر البصر من طول التكرار ولا يعثر على شيء من فطور، فلو لم تنطو السورة على غير ما وقع من أوله إلى هنا لكان ذلك أعظم معتبر وأوضح دليل لمن استبصر، إذ هذا الاعتبار بما ذكر من عمومه جارٍ في كل المخلوقات، ولا يستقل بفهم مجاريه إلا آحاد من العقلاء بعد التحريك والتنبيه، فشهادته بنبوة الآتي به قائمة واضحة، ثم قد تكون في السورة دلالات كقوله : «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح» (آية : 5) وقوله : «ألا يعلم من خلق» (14) إلى آخر السورة، وأدناها كافٍ في الاعتبار، فأنى يصدر نقص عن متصف ببعض ما هزؤوا به في قولهم : مجنون وساحر وشاعر، «بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون» (734) (المطففين : 14).

فلعظيم ما انطوت عليه سورة الملك من البراهين، أتبعنا بتنبؤيه الآي به، صلى الله عليه وسلم مما يقوله المبطلون، مُقسماً على ذلك زيادة في التعظيم وتأكيدها في التعزيز والتكريم فقال تعالى : «ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون» (1-2) وإني يصح تصوُّرُ بعد تلك البراهين وقد انقطعت دونك أنظار العقلاء، فكيف ببسطها وإيضاحها في نسق موجز، ونظم معجز، وتلازم يهد العقول، وعبرة تفوق كل مقول، تعرف، ولا تدرك، ويستوضح سبيلها فلا تسلك «قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله» (الاسراء : 88). فقوله سبحانه «ما أنت بنعمة ربك بمجنون» جواب لقوله تعالى في آخر

(733) ب : استجمامة واسعداده.

(734) في الاصل : يستهزئون وهو خطأ.

السورة «ويقولون أنه مجنون» (51)، وتقدم الجواب بنفي قولهم والتنزيه عنه على حكاية قولهم ليكون أبلغ في إجلاله ﷺ، وأخف وقعا عليه وأبسط لحاله في تلقي ذلك منهم، ولهذا قدم مدحه ﷺ بما خص به من الخلق العظيم، فكان هذا أوقع في الاجلال من تقديم قولهم ثم رده، إذ كسر سورة تلك المقالة الشنعاء بتقديم التنزه عنها أتم في الغرض وأكمل، ولا موضع أليق بذكر تنزيهه عليه الصلاة والسلام ووصفه من الخلق والمنح الكريمة بما وصف مما أعقب به ذلك، إذ بعض ما تضمنته سورة الملك مما تقدم الايماء إليه شاهد قاطع لكل عاقل منصف بصحة نبوته ﷺ وجيل صدقه، «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا» (النساء : 82) فقد تبين موقع هذه السورة هنا، وتلاؤم ما بعد من آيها يذكر في التفسير (735).

سورة الحاقة(*)

لما بنيت سورة «ن والقلم» على تقريع مشركي قريش وسائر العرب وتوبيخهم وتنزيه نبي الله ﷺ عن شنيع قولهم وقبيح بهتهم، وبين حسدهم وعداوتهم «وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم» (5/51) اتبعت بسورة الحاقة (وعيدا) (736) لهم وبيانا أن حالهم في سوء ذلك المرتكب قد سبق إليه غيرهم

(735) انظر ملاك التأويل : 093/2، 1094.

(*) وهي سورة مكية في قول جميع العلماء، ومناسبتها لما قبلها أنه لما تقدم في سورة القلم والملك عجزهم عن تحصيل ما به قوام حياتهم من الماء والرزق، وعدم قدرتهم على دفع نقم الله بهم جاءت هذه السورة الكريمة التي تسمى الحاقة، وهو اسم من أسماء يوم القيامة، لتؤكد لهم أن عجزهم في اليوم الآخر أكبر، وضعفهم أظهر، وخاصة أولئك الذين يكون مصيرهم إلى النار. هذا من جانب، ومن جانب آخر ردت سورة القلم تهمة الجنون عن النبي صلى الله عليه وسلم وتبعها في هذه السورة رد تهمة قولهم. كاهن، وشاعر، وهذه هي التهم الثلاثة الكبرى التي كانوا يرمون بها النبي صلى الله عليه وسلم، وقد جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : خرجت اتعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن أسلم فوجدته قد سبقني إلى المسجد فقامت خلفه فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن قال : فقلت هذا والله شاعر كما قالت قريش، قال : فقرأ إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون. قال : فقلت : كاهن، قال : «ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين، ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين» إلى آخر السورة، قال فوقع الاسلام في قلبي كل موقع. انظره في مسند أحمد 17/1.

(736) في الأصل وعدا والصواب ما أثبتته لمناسبته للسياق.

«كذبت ثمود وعاد بالقارعة... فهل ترى لهم من باقية» (4—8) «ألم يروا كم أهلكنا (من)» (737) قبلهم من قرن» (الأنعام : 6) «فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم» (يونس : 102) «وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا» (مريم : 98).

فسورة الحاقة جارية مجرى هذه الآى المعقب بها ذكر عناد مشركي العرب ليتعظ بها من رزق التوفيق «لنجعلها تذكرة وتعيها أذن واعية» (12) ولما ذكر حال من هلك من الأمم السالفة بسوء تكذيبهم وقبيح عنادهم اتبع ذلك بذكر الوعيد الأخروي «يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية» (18) ثم عاد الكلام إلى ما بنيت عليه سورة «ن والقلم» من تنزيهه ﷺ وتكريمه مقسما على ذلك «إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر ولا بقول كاهن» وانتهى نفي ما يقولونه منصوصا على نزاهته عن كل جملة منها في السورتين «ما أنت بنعمة ربك بمجنون» (القلم : 2) أي ما الذي جئت به بقول شاعر ولا بقول كاهن بل هو تنزيل من رب العالمين. وانه لتذكرة للمتقين» (48) «وإنه لحق اليقين» (51) فنزه ربك وقد سه عن عظيم ما ارتكبه.

سورة المعارج^(*)

لما انطوت سورة الحاقة على أشد وعيد وأعظمه اتبعت بجواب من استبطأ ذلك واستبعده، إذ هو مما يلجأ إليه المعاند الممتحن فقال تعالى : «سال سائل بعذاب واقع إلى قوله : «إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا» (1—7)، ثم ذكر حالهم إذاك «يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه.... الآية» (11) ثم اتبع بأن ذلك لا يغني عنه ولا يفيد «إنها لظى» (15) ثم ختمت السورة بتأكيد الوعيد وأشد التهديد «فذرهم يخوضوا ويلعبوا إلى قوله ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون» (42—44) ذلك يوم الحاقة ويوم القارعة.

(737) ب : ساقطة.

(*) هذه السورة مكية بالاتفاق، وتسمى سورة «المواقع» وسورة «سال»، وقد جاء عن ابن عباس أنها نزلت عقب

سورة نوح (عليه السلام) (*)

لما أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالصبر في قوله تعالى : «فاصبر صبرا جميلا» (المعارج : 5) وجليل الاغضاء في قوله : «فذرهم يخوضوا ويلعبوا» (المعارج : 42) أتبع ذلك بذكر قصة نوح عليه السلام وتكرر دعاء قومه إلى الايمان وخص من خبره حاله في طول مدة التذكار والدعاء لأنه المقصود في الموضع تسليية لنبيه صلى الله عليه وسلم وليتأسى به في الصبر والرفق في الدعاء كما قيل له صلى الله عليه وسلم في غير هذا الموضع «فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم» (الاحقاف : 35) «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات» (فاطر : 8) فقد دام دعاء نوح قومه أدوم من مدتك ومع ذلك فلم يزدحم إلا فرارا «قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدحم دعائي إلا فرارا، واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا» (5-7) ثم مضت آى السورة على هذا المنهج من تجديد الإخبار بطول مكابדתه عليه

سورة الحاقة وهذا من وجوه المناسبة كما يقول السيوطي في كتابه : «تناسق الدرر» ص : 142، وانظر روح المعاني : 55/29.

ووجه مناسبة السورة لما قبلها — اضافة إلى ما أبداه المصنف من وجه قوي — هو أن سورة الحاقة قد أبانت عن يوم القيامة وشدته مجملا، وختمت برد دعاوي الكافرين واتهاماتهم للنبي صلى الله عليه وسلم، فجاءت سورة المعارج لتفصل في بيان اليوم الآخر وأحواله وتؤكد على وقوعه وتكشف عن جانب مهم من أحواله، لأنه صعب عليهم تصور هذا اليوم وما يجري فيه، واستبعدوا وقوعه، وسألوا ان كان ذلك حقا ان يروا طرفا منه وان تنزل عليهم حجارة من السماء، فقد أخرج النسائي وعبد بن حميد والحاكم وصححه وغيرهم عن ابن عباس في قوله «سأل سائل» قال : هو النضر بن الحارث قال : «اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء» (الانفال : 32) وفي قوله «بعذاب واقع» قال : كائن للكافرين ليس له دافع من الله ذي المعارج» قال : ذي الدرجات. انظر المستدرک : 502/2، والدر المنثور 263/6.

(*) وهي سورة مكية، ووجه مناسبتها لما قبلها، اضافة إلى ما أبداه المصنف من كونها تسليية للنبي صلى الله عليه وسلم وحث له بالصبر على قومه كما صبر نوح عليه السلام... فقد تقدم في ختام المعارج «فلا أقسم برب المشارق والمغارب انا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين» (40-41)، جاءت هذه السورة لتنبههم على حقيقة هذا الأمر في أمة قوية كبيرة سلفت قبلهم على هذه الأرض، فدعا عليها نبيها صلى الله عليه وسلم أن تبيد كاملة «رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا»...» (28) فاستجاب الله دعاءه، وأغرق من عاند من قومه، ولهذا لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يدعو على قومه بالفناء والدمار عندما يطلب منه ذلك، بل كان يدعو لهم بالهداية (اللهم أهد قومي فانهم لا يعلمون) وهي مناسبة واضحة.

السلام وتكرار دعائه، فلم يردهم ذلك إلا بعدا وتصميما على كفرهم حتى أخذهم الله وأجاب فيهم دعاء نبيه نوح عليه السلام «رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا» (26) وذلك ليأسه من فلاحهم، وانجر في هذا حض نبينا ﷺ على الصبر على قومه والتحمل منهم كما صرح به في قوله : «خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين» (الأعراف : 199) وكما قيل له «فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت» (القلم : 48) «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك» (هود : 120).

سورة الجن(*)

لما تقدم ذكر حال كفار قريش في تعاميمهم عن النظر وجريهم في اللدد والعناد حسبما انطوت عليه سورة «ن والقلم»، ثم اتبعت بوعيدهم في الحاقة

(*) وهي مكية في قول جميع أهل العلم وتسمى أيضا سورة قل أوحى. ومن مناسبتها لما قبلها أنها كشفت عن حقائق تتعلق بالسور السابقة منها ما أبداه المصنف من أن طائفة من المخلوقين المكلفين ومن غير جنس قومك يا محمد قد اهتدت وآمنت بفضل الله ورحمته.... ومنها أن عالم الجن فيه مسلمون مصدقون، وفيه كافرون عتوا عن أمر الله تعالى، فلو كان هذا القرآن الذي يأتي محمدا صلى الله عليه وسلم من تعليم الجن لعلمو غيره من الانس، ولم يسلم منهم أحد لأن مصدق هذا الوحي معروف لديهم ومن عند بعضهم، فلما أعلنت طائفة منهم أن هذا رشد وحق، انقسموا كما انقسم الانس بشأنه «وانا منا المسلمون ومنا القاسطون، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً» (14—15).

وبينت هذه السورة ان كفاري الجن على اتصال بكافري الانس، وأنهم لو كانوا يستطيعون رد هذه الرسالة والظعن فيها لما قصرُوا، ولهذا فلن يزيدوا كفاري الانس الا رهقا، أي اثما وذلا، وهذه كلها حقائق تتعلق بما تقدم من السور المكية قبلها.

ولأني حيان وجه حسن في مناسبة هذه السورة قريب مما أبداه المصنف وهو أنه تعالى لما حكى تمادى قوم نوح في الكفر والعكوف على عبادة الأصنام وكان أول رسول إلى أهل الأرض، كما أن محمدا صلى الله عليه وسلم آخر رسول إلى أهل الأرض، والعرب الذين هو منهم كانوا عباد أصنام كقوم نوح، حتى انهم عبدوا أصناما مثل أصنام أولئك في الأسماء، وكان ما جاء به عليه الصلاة والسلام هاديا إلى الرشدا وقد سمعته العرب وتوقف عن الايمان به أكثرهم أنزل الله تعالى سورة الجن اثر سورة نوح تبكيها لقريش والعرب في كونهم تباطؤوا عن الايمان وكانت الجن خيرا منهم إذ أقبل للايمان من أقبل منهم وهم من غير جنس الرسول عليه والصلاة والسلام حتى كادوا يكونون عليه لبداء، ومع ذلك التباطؤ فهم مكذبون له ولما جاء به حسدا وبغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده» انظر البحر المحيط : 348/8.

بتحقيقه وقرب وقوعه في المعارج، ثم تسليته عليه الصلاة والسلام وتأنيسه بقصة نوح مع قومه أعقب ذلك بما يتعظ به الموفق ويعلم أن القلوب بيد الله، فقد كانت استجابة معاندي قريش والعرب أقرب في ظاهر الأمر لنبيء من جنسهم ومن أنفسهم، فقد تقدمت لهم معرفة صدقه وأمانته، ثم جاءهم بكتاب بلسانهم الذي به يتحاورون ولغتهم التي بها يتكلمون فقد بهرت العقول آياته ووضحت لكل قلب سليم براهينه ومعجزاته، وقد علموا أنهم لا يقدرّون على معارضته إلى ما شاهدوه من عظيم البراهين، ومع ذلك عموا وضموا، وسبق إلى الإيمان من ليس من جنسهم ولا سبقت له مزية تكريمهم وهم الجن ممن سبقت لهم من الله الحسنى فآمنوا وصدقوا، وأمر صلى الله عليه وآله بالانخبار بذلك فأنزل عليه «قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن آية : 1» الآيات إلى قوله إخبارا عن تعريف الجن سائر إخوانهم بما شاهدوه من عناد كفار العرب «وإنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا» (19) ثم استمرت الآى ملتحمة المعاني معتصدة المباني إلى آخر السورة.

سورة المزمل (738)

لما كان ذكر إسلام الجن قد أحرز غاية إنتهى مرماها، وتم مقصدها ومبناها، وهي الاعلام باستجابة هؤلاء وحرمان من كان أولى بالاستجابة وأقرب في

(738) وهي مكية من أوائل ما نزل، وذلك بعدما فاجأ الوحي محمدا صلى الله عليه وسلم بغار حراء، ورجع عليه الصلاة والسلام ترجف بواده وقال لخديجة عليهما السلام زملوني زملوني، والمزمل المتلفف، المتغطي بالثوب، والقصة معروفة مشهورة. انظر روح المعاني : 101/29.

ومن وجوه مناسبتها لما قبلها، أن هذه السورة الكريمة قد أمرت النبي صلى الله عليه وسلم أن يأخذ أمر الدعوة والاستعداد لها بغاية الجهد، والقيام لذلك، فاذا كان الجن قد أثر فيهم القرآن ونفذ إلى طائفة منهم، فما عليك يا محمد الا أن تقوم الليل به أنت وأصحابك وترتله لترتلا لعلهم يستمعون إليه فينفذ إلى قلوبهم، وتكون قد هيأت أصحابك وعلمتهم الاستعداد لتحمل مسؤولية هذه الدعوة «انا سنلقي عليك قولا ثقيلا» (4) إذلا بد من بذل غاية الجهد، وخاصة في البدايات.

وقد كان بين بداية نزول هذه السورة الكريمة ونزول الآية الأخيرة منها نحو من سنة كما أخرج ذلك أئمة الحديث، فكانت الأخيرة مبينة للحد الأدنى، وما فوقه ففيه يتنافس المتنافسون.

ومن وجوه المناسبة أيضا أنه سبحانه لما ختم سورة الجن بذكر الرسل عليهم الصلاة والسلام افتتح عز وجل هذه بما يتعلق بخاتمهم عليه وعليهم الصلاة والسلام.

ظاهر الأمر إلى الانابة بعد تقديم وعيدهم وشديد تهديدهم، صرف الكلام إلى أمره صلى الله عليه وسلم بما يلزمه من وظائف عادته وما يلزمه في أذكاره من ليله ونهاره مفتتحاً ذلك بأجمل مكاملة وألطف مخاطبة «يا أيها المزمّل» (1) تسليّة له صلى الله عليه وسلم كما ورد «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات» (فاطر : 8) وليحصل منه الاكتراث بعناد من قدم عناده وكثر (739) لججه، واتبع ذلك بما يشهد لهذا الغرض ويعضده وهو قوله تعالى : «واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلاً، وذرنى والمكذّبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً» (10—11) وهذا عين الوارد في قوله : «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات» وفي قوله : «نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار» (ق. 45) ثم قال : «إن لدينا أنكالا» (12) فذكر ما أعد لهم، وإذا تأملت هذه الآي وجدتها قاطعة بما قدمناه وبأن لك التحام ما ذكره، ثم رجع الكلام إلى التلطف به صلى الله عليه وسلم وبأصحابه رضي الله عنهم وأجلّ جزاءهم مع وقوع التقصير ممن يصح منه تعظيم المعبود الحق جلّ جلاله «علم أن لن تحصوه فتاب عليكم، إلى قوله : «فاقرأوا ما تيسر منه» (740) (18) ثم ختم السورة بالاستغفار من كل ما تقدم من عناد الجاحدين المتقدم ذكرهم فيما قبل من السور إلى ما يغني العباد-المستجيبون به مما أشار إليه قوله تعالى : «علم أن لن تحصوه» (18).

سورة المدثر^(*)

ملاءمتها لسورة المزمل واضحة واستفتاح السورتين من نمط واحد، وما ابتدئت به كل واحدة منهما من جليل خطابه صلى الله عليه وسلم وعظيم تكريمه «يا أيها المزمّل»

(739) ب : وكثرة.

(740) ب : من القرآن.

(*) وهي سورة مكية وقد كان نزولها عقب نزول المزمل وذلك بعد أن انقطع الوحي، فقد أخرج أحمد والشيخان وغيرهم من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه سئل عن أول ما نزل من القرآن الكريم فقال «يا أيها المدثر»،

«يا أيها المدثر» والأمر فيهما بما يخصه «قم الليل إلا قليلا نصفه... الآي» (2-9) وفي الأخرى «قم فأندرك وربك فكبر» (2-3) اتبعت في الأولى بقوله : «واصبر على ما يقولون» (10) وفي الثانية بقوله : «ولربك فاصبر» (7) وكل ذلك قصد واحد واتبع أمره بالصبر في المزمّل بتهديد الكفار ووعيدهم «وذريني والمكذبين... الآيات» (11) وكذلك في الأخرى «ذريني ومن خلقت وحيدا.... الآيات» (11) فالسورتان واردتان في معرض واحد وقصد متحد.

سورة القيامة

لما تقدم قوله مخبرا عن أهل الكفر «وكنا نكذب بيوم الدين» (45) ثم تقدم في صدر السورة قوله تعالى : «فإذا نقر في الناقور إلى قوله غير يسير» (8-10) والمراد به يوم القيام، والوعيد به لمن ذكر بعد في قوله : «ذريني ومن

فقلت يقولون «اقرأ باسم ربك الذي خلق»، فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك فقال : «لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : جاورت بحراء فلما قضيت جوارى فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئا ونظرت عن شمالي فلم أر شيئا، ونظرت خلفي فلم أر شيئا، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فجلست منه رعبا فرجعت فقال دثروني، دثروني فنزلت «يا أيها المدثر قم فأندرك». فتح الباري 676/8.

ووجه المناسبة أن سورة المزمّل أمرت النبي صلى الله عليه وسلم بالاستعداد والتهيؤ للدعوة، وسورة المدثر أمر بإعلان الدعوة وتبليغها للناس، والتتره عن معبوداتهم وأرجاسهم «وثيابك فطهر والرجز فاهجر». (4-5)، وفي كلا السورتين أمر بالتحمل والصبر.

(٥) وهي مكية في قول جميع العلماء، وجاء عن عمر بن الخطاب من سأل عن يوم القيامة فليقرأ هذه السورة.

ووجه المناسبة والله أعلم أنه لما تقدم في السورة السابقة «كلا بل لا يخافون الآخرة» (52) جاءت هذه السورة لتبين جانباً من أحوال أهلها مؤمنين وعصاة، وتنبيههم إلى أن من خلقهم أول مرة قادر على أن يعيدهم إلى ذلك اليوم، وابتدأت هذه السورة بذكر انكارهم وإعادته «أيحسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه» (3) وختمت ببيان قدرة الله على ذلك «أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى» (39).

وفي قوله تعالى : «لا تحرك به لسانك لتعجل به» إلى قوله «ثم ان علينا بيانه» (16-18) أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما وغيرهما عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل جبريل عليه بالوحي، وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه، وكان يعرف منه، فأنزل الله الآية التي في «لا أقسم بيوم القيامة» لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه قال : علينا أن نجتمع في صدرك وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، فإذا أنزلناه فاستمع، ثم ان علينا بيانه علينا أن نبينه بلسانك، قال : فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده. انظر الفتح : 682/8.

خلقت وحيدا.... الآيات» (11) ومن كان على حاله في تكذيب وقوع ذلك اليوم، ثم تكرر ذكره عند جواب من سئل بقوله : «ما سلككم في سقر» (41) فبسط القول في هذه السورة في بيان ذكر ذلك اليوم وأهواله، وأشير إلى حال من كذب به في قوله تعالى : «يسأل أيان يوم القيامة» (6) وفي قوله : «أيحسب الانسان أن لن نجتمع عظامه» (3) ثم اتبع ذلك بذكر أحوال الخلائق في ذلك اليوم «ينبؤ الانسان يومئذ بما قدم وأخر» (14).

سورة الانسان

قوله تعالى : «هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا» (1) تعريف للانسان بحاله وابتداء أمره ليعلم أن لا طريق له للكبر واعتقاد السيادة لنفسه وأن لا يغلطه ما اكتنفه من الألفاظ الربانية والاعتناء الالهي

= وقيل لما نزل أول السورة إلى قوله تعالى : «ولو ألقى معاذيره (1-15) صادف أنه صلى الله عليه وسلم في تلك الحالة بادر إلى حفظ ما نزل عليه فقبل له «لا تحرك به لسانك» الآيات ثم عاد إلى تكملة ما ابتدء به. جواهر البيان للشيخ عبد الله بن الصديق. ص : 188.

وقال ابن جزى : فان قيل ما مناسبة قوله «لا تحرك به لسانك» لما قبلها فالجواب أنه لعله نزل معه في حين واحد فجعل على ترتيب النزول. التسهيل 165/4 وانظر أيضا الكشف : 192/4.

(*) هذه السورة مكية في جملتها، وفيها بعض آيات مدنية، وفي صحيح مسلم وغيره عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة (ألم تنزيل) السجدة، و(هل أتى على الانسان). أنظر الدرر المنثور : 297 /6.

ومناسبتها لما قبلها إضافة إلى ما أبداه المصنف من بيان أصل النشأة وانه لم يكن شيئا مذكورا وبرحمة الله وجد وكان، فإنها أفاضت في حال أهل النعيم الذين حظوا بالرضى والقبول من الله تعالى، وتقدم في السورة التي قبلها أن وجوههم ناضرة إلى ربها ناظرة، فكان وصف حالهم في هذه السورة كشف لجوانب أخرى تشويقا وترغيبا وتثيتا للسالكين، لذلك ختمت بالأمر بالصبر على حكم الله والاعراض عن تعلق بالعاجل دون الآجل، وتكرير هذا المعنى في السورتين «كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة» القيامة (20-21) وهنا «أن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا» (27).

وهناك وجه آخر وهو أنه لما تحدثت هاتان السورتان عن الخلق، وأن أصل الخلق من التراب كما بينته آيات أخرى عديدة، وإن حفنة التراب لها تأثير وجذب للانسان، اقتضى الحال أن يسطر أمامهم حال الآجل، والنعيم الموعود ليتشوفوا إليه، وتشرب إليه الاعناق وختم بالصبر عن كل ما يلفتهم عنه كما في هذه السورة، وهذا في غاية المناسبة والله أعلم.

والتكرمة، فيعتقد أنه يستوجب ذلك ويستحقه «وما بكم من نعمة فمن الله» (النحل : 53).

ولما تقدم في القيامة أخباره تعالى عن حال منكري البعث عنادا واستكبارا وتعاميا عن النظر والاعتبار «أيحسب الانسان أن أَلن نجمع عظامه» (آية : 3) وقوله بعد : «فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله يتمطى» (30-32) أي يتختر عتوا واستكبار، وفرحا وتجبرا، وتعريفه بحاله التي لو ذكر منها لما كان منه ما وصف، وذلك قوله : «ألم يك نطفة من مني تمنى ثم كان علقه فخلق فسوى» (36-37)، ثم أتبع ذلك بما هو أعرق في التوبيخ وأوغل في التعريف وهو أنه قد كان لا شيء، فلا نطفة ولا علقه، ثم أنعم عليه بنعمة الابداد ونقله تعالى من طور إلى طور فجعله نطفة من ماء مهين في قرار مكين، ثم كان علقه ثم مضعة إلى إخراجهِ وتسويته خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين، فمن اعتبر اتصافه بالعدم ثم تقلبه في هذه الأطوار المستنكف حالها، والواضح فناؤها واضمحلالها، وأمدّه الله بتوفيقه، عرف حرمان من وصف في قوله : «ثم ذهب إلى أهله يتمطى» (32) فسبحان الله ما أعظم حلمه وأكرم رفقهِ، ثم بين تعالى أن ما جعله للانسان من السمع والبصر ابتلاء له، ومن إدراكه أدركه الغلط وارتكب الشطط.

سورة المرسلات (741)

أقسم تعالى بالملائكة المتتابعين في الارسال والرياح المسخرة، وولايته بالمطر والملائكة الفارقة بما بين الحق والباطل، والملقيات الذكر بالوحي إلى الأنبياء اعدارا من الله وإنذارا : أقسم تعالى بما ذكره من مخلوقاته على صدق الموعود به في قوله : «إنا اعتدنا للكافرين سلاسلًا وأغلالًا وسعيرا.... الآيات» (الانسان : 4)

(741) وهي مكية نزلت على رسول الله ﷺ جملة واحدة في غار بمنى وقيل بحراء، فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غار إذ نزلت عليه «المرسلات» فتلقيناها من فيه، وإن فاه لربط بها، إذ خرجت حية : فقال رسول الله ﷺ : عليكم أقتلوها، فابتدرناها فسبقتنا، قال : فقال وقيت شركم كما وقيتم شرها. أنظر الفتح 8 / 686.

وقوله : «إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا» (الانسان : 10) وقوله : «وجزأؤهم بما صبروا جنة وحريرا إلى قوله : (742) «وكان سعيكم مشكورا» (الانسان : 12—22) وقوله «ويذرون وراءهم يوما ثقيلا» (الانسان : 27) وقوله : «يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما» (الانسان : 31)، ولو لم يتقدم إلا هذا الوعد والوعيد المحتتم به السورة لطابق افتتاح الأخرى قَسَمًا عليه أشد المطابقة، فكيف وسورة «هل أتى على الانسان» برأسها مواعد أخروية واخبارات جزائية، فأقسم سبحانه وتعالى على صحة الوقوع وهو المتعالي الحق وكلامه الصدق.

سورة عم (743)

سورة النبأ أما مطلعها فمرتب على التساؤل واستفهام وقع منهم، وكأنه وارد هنا في معرض العدول والالتفات، وأما قوله : «كلا سيعلمون» (الآية : 4) فمناسب للوعيد المكرر في قوله : «ويل يومئذ للمكذبين»، وكأن قد

= ووجه المناسبة لما تقدم في سورة الانسان الاطناب في حال أهل الجنة، وتعلق المعرضين بالعاجل، جاءت سورة المرسلات لتؤكد وقوع اليوم الآخر، فتتابعت فيها الأقسام بعدد من ظواهر هذا الكون، أبانت حال الكافرين ومصيرهم، بعد أن خلقهم الله وأنعم عليهم في هذه الحياة الدنيا «إنطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون» (29).... وتكرر قوله تعالى : «ويل يومئذ للمكذبين» تهديدا ووعيدا وتخويفا على عكس المؤمنين وما تقدم من حالهم في سورة الانسان، ولهذا كانت آيات هذه السورة شديدة الوقع ينخلع لها القلب الحي الواعي.

أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنه أن أم الفضل — وهي أمه — سمعته يقرأ «المرسلات» فقالت : يا بني لقد ذكرتني بقرائتك هذه السورة أنها لآخر ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب. ابن كثير : 7 / 188، الدر المنثور : 8 / 303، والقرطبي مجلد : 10 / 153.

(742) ب : الآيات الى

(743) وهي مكية في قول جميع أهل العلم، وقد تضمنت ما بينه الله تعالى من خلق المخلوقات تمهيدا وتيسرا لحياة الانسان على هذه الأرض، ثم عرضت لليوم الآخر، والجزاء والحساب الذي كان من أشد الأمور بعدا في تصور الكافرين.

ووجه مناسبتها لما قبلها أنها أبانت للكافرين عن قدرة الله الذي بيده الخلق والأمر : وأنه تعالى لما أقسم لهم — في السورة السابقة — بما حولهم من عظيم المخلوقات وبأن ما يوعدون لوقع، أبانت لهم هذه السورة عن مصائر المكذبين بهذا اليوم وما يلحقهم فيه من العذاب والتكال حتى أن أحدهم يتمنى أن يكون ترابا واني له ذلك !؟

والملاحظ، أن هذه السور المكية المتتابعة (المدثر، القيامة، الانسان، المرسلات، النبأ) كانت تعالج موضوع اليوم الآخر، وتعرضه بأساليب مختلفة لأهمية هذا اليوم وموقعه في عقيدة المسلم وأثره في حياة الانسان، فالتشابه في المضمون، والتقارب في السياق بين السور يجعلها متصلة ببعض مكمله كل واحدة للأخرى.

قل سيعلمون عاقبة تكذيبهم، ثم أورد تعالى من جميل صنعه وما إذا اعتبره المعبر علم أنه لم يخلق شيء منه عبثاً بل ليعتبره، ويستوضح وجه الحكمة فيه فيعلم أنه لابد من وقت ينكشف فيه الغطاء ويجازي الخلائق على نسبة من أحوالهم في الاعتبار والتدبر والخضوع لمن نصب مجموع تلك الدلائل، ويستشعر من تكرار الفصول وتجدد الحالات وأحياء الأرض بعد موتها جري ذلك في البعث واطراد الحكم، وإليه الإشارة بقوله : «كذلك نخرج الموتي» (الأعراف : 57) فقال تعالى منها على ما ذكرناه : «ألم نجعل الأرض مهاداً إلى قوله وجنات الفافا» (6—16) فهذه المصنوعات المقصودة الاعتبار كما تقدم، ثم قال تعالى : «إن يوم الفصل كان ميقاتاً» (17) أي موعداً لجزائكم لو اعتبرتم بما ذكر لكم لعلمتم منه وقوعه وكونه، ليقع جزاؤكم على ما سلف منكم، فويل يومئذ للمكذبين، ويشهد لهذا القصد مما بعد من الآيات قوله تعالى لما ذكر ما أعد للطاغين «إنهم كانوا لا يرجون حساباً وكذبوا بآياتنا كذاباً، وكل شيء أحصيناه كتاباً» (27) ثم قال بعد : «إن للمتقين مفازاً» (31) وقوله بعد «ذلك اليوم الحق» (39).

وأما الحياة الدنيا فلعب وهو «وإن الدار الآخرة هي الحيوان» (العنكبوت : 64) وقوله بعد : «يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً» (40).

سورة النازعات*

لما أوضحت سورة النبأ حال الكافر في قوله : «ياليتني كنت تراباً» (النبأ : 40) عند نظره ما قدمت يداه، ومعاينته من العذاب عظيم ما يراه، وبعد ذكر تفصيل أحوال وأهوال، أتبع ذلك بما قد كان حاله عليه في دنياه من استبعاد عودته في أخره، وذكر قرب ذلك عليه سبحانه كما قال في الموضع الآخر «وهو

(*) وهي مكية بإجماع العلماء، وموضوعها يشبه سابقتها مع تأكيدها على أمرين هما : أولهما بيان مصير الطاغية الأكبر فرعون «إن في ذلك لعبرة لمن يخشى» (26)، وثانيهما، كثرة سؤالهم عن اليوم الآخر وحين وقوعه، وإن الأسلوب الذي جاءت به هذه السورة الكريمة فيما يتعلق باليوم الآخر أشد وقعاً، وأقوى تأثيراً «فإذا جاءت الطامة الكبرى» (34) وفي ذلك انتقال في البلاغة والخطاب من حال إلى حال.

أهون عليه» (الروم : 27) وذلك بالنظر إلينا ولما عهدناه، وإلا فليس عنده سبحانه شيء أهون من شيء «إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون» (يس : 82) فقال تعالى : «والنازعات غرقا إلى قوله : «يقولون أئنا لمردودون في الحافرة إذا كنا عظاما نخرة» (1—11) إذ يستعبدون ذلك ويستدفعونه، «فإنما هي زجرة واحدة» (أي صيحة) فإذا هم بالساهرة» (13—14) أي الأرض قياما ينظرون ما قدمت أيديهم، ويتمنون ان لو كانوا ترابا ولا ينفعهم ذلك، ثم ذكر تعالى من قصة فرعون وطغيانه ما يناسب الحال في قصد الاتعاظ والاعتبار، ولهذا أتبع القصة بقوله سبحانه «إن في ذلك لعبرة لمن يخشى» (26).

سورى عبس

لما قال سبحانه : «إن في ذلك لعبرة لمن يخشى» الآية : 26) وقال بعد إنما أنت منذر من يخشاها (الآية : 45) افتتحت هذه السورة الأخرى بمثال يكشف عن المقصود من حال أهل التذكر والخشية وجميل الاعتناء الرباني بهم وانهم وان كانوا في دنياهم ذوي خمول لا يؤبه بهم عنده سبحانه في عداد من اختاره لعبادته وأهله لطاعته وإجابة رسوله صلى الله عليهم وسلم، وأعلى منزلته لديه (رب أشعث أغبر لا يؤبه به لو أقسم على الله لأبره» (744) ومنهم ابن أم مكتوم الأعمى رضي الله عنه مؤذن رسول الله ﷺ، وهو الذي بسببه نزلت السورة (745) ووردت بطريق العتب وصاة لنبي الله ﷺ وتنبئها على أن يحمل نفسه الكريمة على مصابرة أمثال ابن أم مكتوم وان لا يحتقره وحاشاه عليه الصلاة والسلام من ذلك، ولكن التحذير من هذا وان لم يكن وقع يشعر بعظيم الاعتناء بمن حذر، ومنه قوله

(744) جاء من طريق عدد من الصحابة، أبي هريرة، وابن مسعود، وابن عمر، وغيرهم، وهو من حديث أبي هريرة وعند أحمد ومسلم في صحيحه. أنظر الجامع الصغير مع فيض القدير : 4 / 1544.

(745) أخرجه الترمذي وقال حسن غريب، والحاكم وصححه، وابن المنذر وابن حبان وغيرهم عن عائشة قالت : أنزلت «سورة عبس وتولى» في ابن أم مكتوم، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول : يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول : أتري بما أقول بأسا، فيقولوا : لا، ففي هذا أنزلت. تحفة الأحوذى مع جامع الترمذي : 4 / 209، وابن كثير : 7 / 212، ومستدرک الحاكم : 2 / 514.

سبحانه : «لئن أشركت ليحبطن عملك» (الزمر : 65) «ولا تدع مع الله إلها آخر» (القصص : 88) ولا تمش في الأرض مرحا» (الاسراء : 37) وهو كثير، وبسط هذا الضرب لا يلائم مقصودنا في هذا التعليق.

لما دخل عليه ﷺ ابن أم مكتوم رضي الله عنه سائلا ومسترشدا وهو ﷺ يكلم رجلا من أشراف قريش وقد طمع في إسلامه ورجا إنقاذه من النار وإنقاذ ذويه وأتباعه فتأدى على تطلبه هذا الرجل لما كان يرجوه، ووكل ابن أم مكتوم إلى إيمانه، فأغفل فورية مجاوبته، وشق عليه الحاجة خوفا من تفلت الآخرين ومضيه على عقبه وهلاكه، عتب سبحانه عليه فقال : «عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدرىك لعله يزكى» (1-3) وهي منه سبحانه واجبة، وقد تقدم في السورة قبل قول موسى عليه الصلاة والسلام : «هل لك إلى أن تزكى» (النازعات : 18) فلم يقدر له بذلك ولا انتفع ببعده وصيته في دنياه ولا أغنى عنه ما نال منها، وبارت مواد تدبيره وعميت عليه الأنباء إلى أن قال : «ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي ياهايمان على الطين فاجعل لي صرحا لعلني أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين» (القصص : 38) «وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل» (غافر : 37) فأنى يزكى ولو سبقت له سعادة لأبصر من حال عين اللهو واللعب حين مقاتله الشنعاء «أم أنا خير من هذا الذي هو مهين» (الزخرف : 52) ولما سبقت لابن أم مكتوم الحسنى لم يضره الصيت الدنيوي ولا أدخل به عماه بل عظم ربه شأنه لما نزل في حقه «وما يدرىك (746) لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى» (3-4) فإيا له صيتا ما أجله بخلاف من قدم ذكره من طرد فلم يتزك ولم ينتفع بالذكرى حين قصد بها «إنما أنت منذر من يخشاها» (النازعات : 45) كابن أم مكتوم رضي الله عنه، ومن نمط ما نزل في ابن أم مكتوم رضي الله عنه قوله تعالى : «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه» (الكهف : 28) فتبارك ربنا ما أعظم لطفه بعبده اللهم لا تؤنسنا من رحمتك ولا تقطع بنا عنك بمنك وإحسانك.

(746) ب : ما يدرىك.

سورة التكويد

لما قال سبحانه : «فاذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من أخيه.... الايات إلى آخر السورة» (عبس : 33-42) كان مظنة لاستفهام السائل عن الوقوع ومتى يكون فقال تعالى : «إذا الشمس كورت» (التكويد : 1) ووقوع تكويد الشمس وانكدار النجوم وتسيير الجبال وتعطيل العشار كل ذلك متقدم على فرار المرء من أخيه وأمه وأبيه إلى ما ذكر إلى آخر السورة لاتصال ما ذكر في مطلع سورة التكويد بقيام الساعة فيصح أن يكون أمانة للأول وعلماء عليه.

سورة الانفطار⁽⁷⁴⁷⁾

هذه السورة كأنها من تمام سورة التكويد لاتحاد القصد فاتصالها بها واضح وقد مضى نظير هذا.

سورة التطفيف⁽⁷⁴⁸⁾

لما قال سبحانه في سورة الانفطار «وان عليكم لحفاظين كراما كاتبين... الآيتين» (10-11) وكان مقتضى ذلك الاشعار بوقوع الجزاء على جزئيات الأعمال وأنه لا يفوت عمل كما قال تعالى : «وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها» (الأنبياء : 47) اتبع الآية المتقدمة بجزاء عمل يتوهم فيه قرب المرتكب وهو من أكبر الجرائم، وذلك التطفيف في المكيال والانحراف عن إقامة القسط في ذلك فقال تعالى : «ويل للمطففين» (1) ثم أردف تهديدهم وتشديد وعيدهم فقال :

(٥) وهي مكية في قول الجميع، وقد جاء عن رسول الله ﷺ فيما أخرجه أحمد والترمذي والحاكم وغيرهم من حديث ابن عمر : (من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى العين «فليقرأ» إذا الشمس كورت» و«إذا السماء انفطرت»، و«إذا السماء انشقت» وكفى بذلك مناسبة، أنظر : جامع الترمذي مع تحفة الأحوذى : 210 / 4، ومستدرك الحاكم 515 / 2، وهو حديث جيد الاسناد.

(747) وهي مكية كسابقاتها في قول جميع العلماء.

(748) قال بعضهم هي مكية، وقال آخرون هي مدنية، وقد جاء عن ابن عباس فيما أخرجه ابن الضريس آخر ما أنزل بمكة. وأخرج عن البيهقي في الدلائل، وابن مردويه في تفسيره أنها أول سورة نزلت في المدينة.

«ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم» (4-5) ثم التحمت الآي مناسبة لما افتتحت به السورة إلى خاتمها.

سورة الانشقاق^(٥)

لما تقدم في الانفطار التعريف بالحفظه واحصائهم على العباد في كتبهم وعاد الكلام إلى ذكر ما يكتب على البر والفاجر واستقرار ذلك في قوله تعالى : «إن كتاب الأبرار لفي عليين» (18) وقوله : «إن كتاب الفجار لفي سجين» (7) اتبع ذلك بذكر التعريف بأخذ هذه الكتب في القيامة عند العرض، وان أخذها بالآيمان عنوان السعادة، وأخذها وراء الظهر عنوان الشقاء، إذ قد تقدم في السورتين قبل ذكر الكتب واستقرارها بحسب اختلاف مضمناها فمنا في عليين ومنها في سجين إلى يوم العرض فيوتى كل كتابه، فأخذ بيمينه وهو عنوان سعادته وأخذ وراء ظهره وهو عنوان هلاكه، فتحصل الإخبار بهذه الكتب ابتداء واستقرارا

= تفسيره أنها أول سورة نزلت في المدينة.

قلت، وفي هذه السورة الكريمة ملاح القرآن المكى، وقد يكون مطلعها تأخر نزولا إلى أن وصل النبي ﷺ المدينة، ويؤيد هذا ما أخرجه النسائي وابن ماجة وابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنه قال : لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أبحث الناس كيلا، فأنزل الله «ويل للمطففين» فأحسنوا الكيل بعد ذلك. أنظر فتح البارى : 8 / 695، وتفسير ابن كثير : 7 / 236، والدر المنثور : 6 / 323.

وقد أبدى السيوطي رحمه الله وجوها في مناسبتها مع ما قبلها، وفصلها سورة الانشقاق التي بعدها عن قرينتها التكوير والانفطار فقال : فغالبا ما وقع في التكوير، وجميع ما وقع في الانفطار وقع في صدر يوم القيامة، ثم بعد ذلك يكون الموقف الطويل ومقاساة العرق والأهوال، فذكروا في هذه السورة بقوله «يوم يقوم الناس لرب العالمين» (6) ولهذا ورد في الحديث : (يقوم أحدهم في رشحته إلى أنصاف أذنيه) أخرجه البخاري وغيره ثم بعد ذلك تحصل الشفاعة العظمى، فتشر الكتب فأخذ باليمين وآخر بالشمال، وأخذ من وراء ظهره، ثم بعد ذلك يقع الحساب، هكذا وردت بهذا الترتيب الأحاديث، فناسب تأخير سورة الانشقاق التي فيها إتيان الكتب والحساب عن السورة التي قبلها والتي فيها ذكر الموقف عن التي فيها مبادئ يوم القيامة. أنظر تناسق الدرر ص : 148.

وقال الألوسي : «لما ذكر فيما قبل السعداء والاشقياء ويوم الجزاء وعظم شأنه ذكر عز وجل هنا ما أعد جل وعلا لبعض العصاة وذكر سبحانه بأخس ما يقع من المعصية وهو التطفيف الذي لا يكاد يجدي شيئا في تدمير المال وتنميته مع اشتغال هذه السورة من شرح حال المكذبين المذكورين هناك على زيادة تفصيل «روح المعاني» 30 / 67.

(٥) وهي مكية في قول الجميع وهي متصلة بالتكوير والانفطار اتصال النظير بالنظير، والشبيه بالشبيه كما تقدمت الإشارة إلى ذلك.

وتفريقاً يوم العرض، وافتتحت السورة بذكر انشقاق السماء، ومد الأرض وإلقائها ما فيها وتخليها، تعريفاً بهذا اليوم العظيم بما يتذكر به من سبقت سعادته والمناسبة بينة.

سورة البروج (749)

وردت هذه السورة في قصة أصحاب الأخدود وقد تقدم هذا الضرب في سورة المجادلة وسورة النبا وبيننا وقوعه في أنفس السور ومتونها وهو أقرب فيما بين السورتين وأوضح.

سورة الطارق (750)

لما قال تعالى في سورة البروج، والله على كل شيء شهيد» (الآية : 9).
«والله من ورائهم محيط» (الآية : 20) وكان في ذلك تعريف العباد بأنه سبحانه

(749) وهي مكية بالاتفاق، وقد اشتملت كسابقتها على الافتتاح بذكر السماء ووعد المؤمنين ووعيد الكافرين، وجزاء كل منهما. ولما ذكر سبحانه وتعالى في الآية 23 من الانشقاق بأنه أعلم بما يجمعون لرسول الله ﷺ من المكر والخداع، وإيذاء من أسلم بأنواع من الأذى وأصناف من العذاب، عقب هنا بذكر قصة أصحاب الأخدود للتأكيد على أن الاضطهاد والتعذيب لا يزيد المؤمنين إلا إيماناً وثباتاً سواء وقع ذلك في الأمم السابقة أو حصل بالنسبة لمن عذب المؤمنين بالرسالة المحمدية من كفار قريش وطغاة الجاهلية، وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ ولن معه من أصحابه الكرام عن إيذاء الكفار لهم ووقوفهم في وجه الدعوة وصرفهم عن سبيل الله، وأن ذلك سنة، ولن نجد لسنة الله تبديلاً، وهذا أمر مثبت في اللوح المحفوظ وهو ممتنع التغيير «بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ» (21—22).

وفي البحر المحيط : 453/8 قريب مما أبديته من وجه المناسبة.

(750) وهي مكية بالاتفاق، بل أنها من أوائل القرآن نزولاً كما يدل عليه حديث خالد العدواني أنه أبصر النبي ﷺ بسوق ثقيف وهو قائم على عصا أو قوس فسمعه يقرأ والسماء والطارق حتى ختمها. الدر المنثور : 6 / 335، وابن كثير : 7 / 264.

واتصالها بالبروج واضح، وأبدى المصنف فيه وجهاً قوياً، يضاف إليه تأخي السورتين في البدايات بالقسم بالسماء، وتأكيدهما على صدق القرآن وما جاء به، ففي الأولى «بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ» (21—22)، وفي الثانية «إنه لقول فصل وما هو بالهزل» (13—14).

وقد أخرج الإمام أحمد في مسنده : 2 / 326—327 من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء يعني ذات البروج، والسماء والطارق، وفي رواية أخرى أنه ﷺ أمر أن يقرأ بالسموات في العشاء.

لا يغيب عنه شيء، ولا يفوته هارب أردف ذلك بتفصيل يزيد إيضاح ذلك التعريف الجملي من شهادته سبحانه على كل شيء وإحاطته به فقال : «إن كل نفس لما عليها حافظ» (الآية : 4) فأعلم سبحانه بخصوص كل نفس ممن يحفظ أنفاسها» ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد» (ق : 18) ليعلم العبد أنه ليس بمهممل ولا مضيع، وهو سبحانه الغني عن كتب الحفظة وإحصائهم ولكن هي سنة حتى لا يبقى لأحد حجة ولا تعلق، وأقسم تعالى على ذلك تحقيقاً وتأكيذاً يناسب القصد المذكور.

سورة الأعلى (751)

لما قال سبحانه مخبراً عن عمه الكفار في ظلام حيرتهم أنهم يكيدون كيدا، وكان وقوع ذلك من العبيد المحاط بأعمالهم ودقائق أنفاسهم وأحوالهم من أقبح مرتكب وأبعده عن المعرفة بشيء من عظيم أمر الخالق جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه، اتبع سبحانه ذلك بأمر نبيه عليه الصلاة والسلام بتنزيه ربه الأعلى عن بشيع اعتدائهم وإفك افترائهم فقال : «سبح اسم ربك الأعلى» (1) أي نزهه عن قبيح مقالهم، وقدم التنبيه على التنزيه في أمثال هذا ونظائره، ووقع ذلك أثناء السور وفيما (752) بين سورة وأخرى، وأتبع سبحانه من التعريف بعظيم قدرته وعلي حكمته بما يبين ضلالهم فقال : «الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى» (2-3) فتبارك الله أحسن الخالقين وتنزه عما يتقوله المفترون.

(751) هذه السورة مكية، فقد أخرج أحمد والبيزار وابن مردويه عن علي قال : كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة ويسمونها : أفضل المسبحات، وفي فضلها وردت آثار وأحاديث كثيرة. أنظر الدر المنثور : 6 / 337، وروح المعاني : 30 / 102.

ومناسبتها لما قبلها أن سورة الطارق لفتت النظر إلى خلق الإنسان «فلينظر الإنسان مم خلق» (3) فجاءت هذه السورة لبيان نعم الله على هذا الإنسان وما يحتاج إليه ويقوم به، فاقتضى ذلك تنزيهه وتقديسه تعالى خاصة بعد استكمال الخلق بتعليمه من الله تعالى : «سنقرئك فلا تنسى» (6).

(752) ب : فيا.

سورة الغاشية (753)

لما تقدم تنزيهه سبحانه عما توهمه الظالمون، واستمرت آي السورة على ما يوضح (تنزيهه) (754) الخالق جل جلاله عن عظيم مقالمهم، أتبع ذلك بذكر الغاشية بعد افتتاح السورة بصورة الاستفهام تعظيماً لأمرها فقال لنبيه ﷺ : «هل أتاك حديث الغاشية» (1) وهي القيامة فكأنه سبحانه يقول : في ذلك اليوم يشاهدون جزاءهم ويشتد تحسرهم حين لا يغني عنهم، ثم عرّف بعظيم امتحانهم في قوله : «ليس لهم طعام إلا من ضريع» (6) مع ما بعد ذلك وما قبله، ثم عرف بذكر حال من كان في نقيض حالهم إذ ذاك أزيد في القرع وأدهى (755) ثم أردف بذكر ما نصب من الدلائل وكيف لم تغن فقال : «أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت..... الآيات» (17) أي أفلا يعتبرون بكل ذلك ويستدلون على الصنائع ثم أمره بالتذكّار.

سورة الفجر (756)

أبدى سبحانه لمن تقدم ذكره وجهاً آخر من الاعتبار، وهو أن يتذكروا حال من تقدمهم من الأمم وما أعقب تكذيبهم واجترائهم فقال : «ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد إلى قوله : إن ربك لبالمرصاد» (6—14) أي لا يخفى عليه شيء من مرتكبات الخلائق، ولا يغيب عنه ما أكنوه «سواء منكم من أسر

(753) هذه السورة مكية بالاتفاق، ووجه مناسبتها لما قبلها أنه لما تقدم قوله في الأعلى «بل تؤثر الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى» (16—17) جاءت هذه السورة لتبين مقام كل واحد من الفريقين : أهل الجنة وأهل النار لتثني المغرورين عما هم فيه، وترغب المؤمنين إلى ما هم صائرون إليه مع إقامة الدليل على القدرة الإلهية، من خلال إلفات النظر إلى بعض مخلوقات الله، وفي ذلك تذكير وعبرة لمن اعتبر.

(754) أضفتها لاقتضاء السياق ذلك.

(755) أي في اللحوم والتوبيخ.

(756) وهي مكية بالاتفاق وما أوضحه المؤلف من ارتباطها ومناسبتها مع ما قبلها واضح جلي : وقد أبدى السيوطي وجهاً حسناً قال فيه : إن أولها كالإقسام على صحة ما ختم به السورة التي قبلها من قوله جل وعلا : «إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم» (25—26) وعلى ما تضمنه من الوعد والوعيد، كما أن أول الذاريات قسم على تحقيق ما في «ق» وأول المرسلات قسم على تحقيق ما في «عم». أنظر تناسق الدرر ص : 150.

القول ومن جهر به» (الرعد : 10) فهلا اعتبر هؤلاء بما يعانونه ويشاهدونه من خلق الأبل ورفع السماء ونصب الجبال وسطح الأرض وكل ذلك لمصالحهم ومنافعهم، فالأبل لأثقالهم وانتقالهم، والسماء لسقيهم وإظلالهم، والجبال لاختزان مياههم وأقلاهم، والأرض لحلوهم، وارتحالهم، فلا بهذه استبصروا، ولا بمن خلا من القرون اعتبروا «ألم تر كيف فعل ربك بعاد» (الآية : 6) على عظيم طغيانها وصميم بهتانها «إن ربك لبالمرصاد» (آية : 14) سيتذكرون حين لا ينفع التذكر «إذا دكت الأرض دكا دكا وجاء ربك والملك صفا صفا وجيء يومئذ بجنهم يومئذ يتذكر الإنسان واني له الذكر» (21-23).

سورة البلد^(*)

لما أوضح سبحانه حال من تقدم ذكره في السورتين في عظيم حيرتهم وسوء غفلتهم وما أعقبهم ذلك من التذكر تحسرا حين لا ينفع الندم ولات حين مطمع، أتبع ذلك بتعريف نبيه علي الصلاة والسلام بأن وقوع ذلك منهم إنا جرى على حكم السابقة التي شاءها والحكمة التي قدرها كما جاء في الموضع الآخر «ولو شئنا لآتينا كل نفس هدها» (السجدة : 13) فأشار تعالى إلى هذا بقوله : «لقد خلقنا الانسا في كبد» (آية : 4) أي إنا خلقناه كذلك ابتلاء ليكون ذلك قاطعاً لمن سبق له الشقاء عن التفكير والاعتبار، «وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا» (الكهف : 57) فأعماهم بما خلقهم فيه من الكبد، وأعقل قلوبهم

(*) وهي مكية، ومناسبتها أنه لما تقدم في الفجر ذكر تدمير عاد ذات العماد، وفرعون بسبب فجورهم وفسادهم في البلاد «فأكثروا فيها الفساد» (12) زادت هذه السورة القضية إيضاحاً بأن الكافر يغطي ويتجبر ويظن أنه لن يقدر عليه أحد، ولا يصرف المال في وجوهه من إطعام لل قريب والمسكين، وإنفاقه في المعروف، فكان مصيره مصرير عاد وثمود وقوم فرعون «أولئك أصحاب المشأمة عليهم نار موصدة» (20).

وأيضاً فإنه تعالى ذكر في الغاشية صفة النار والجنة مفصلة على ترتيب ما في سورة الأعلى ثم زاد الأمر تفصيلاً في سورة الفجر بذكر أسباب عذاب أهل النار فضرب لذلك مثلاً بقوم عاد، وقوم فرعون في قوله : «ألم تر كيف فعل ربك بعاد» إلى «إن ربك لبالمرصاد» (14/6) ثم ذكر عناصر ظغيانهم في قوله «كلا بل لا تكرمون اليتم» (17 وما بعدها)، فكانت هذه السورة بعد ذلك بمثابة إقامة الحجة عليهم. أنظر تناسق الدرر للسيوطي تعليق : (1) ص. 150.

فحسبوا أنهم لا يقدر عليهم أحد، وقد بين سبحانه فعله هذا بهم في قوله لنبيه عليه الصلاة والسلام «ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه» (الكهف : 28) «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم» (يونس : 99) فأنت تشاهدهم يا محمد ذوي أبصار وآلات يعتبر بها النظر، «ألم نجعل له عينين ولسانا وشفيتين» (8-9) فلا أخذ في خلاص نفسه واعتبر بحاله وأمسه «فلا اقتحم العقبة» (11) ولكن «إذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له» (الرعد : 11).

سورة الشمس (757)

لما تقدم في سورة البلد تعريفه تعالى بما خلق فيه الانسان من الكبد مع ما جعل له سبحانه من آلات النظر ووسط له من الدلائل والعبء أظهره في صورة من ملك قياده وميز رشده وعناده وهذا بيان النجدين «إنا هديناه السبيل» (الانسان : 3) وذلك بما جعل له من القدرة الكسبية التي حقيقتها اهتمام أو كد ألم وأتى بالاستبداد والاستقلال (758) ثم «والله خلقكم وما تعملون» أقسم سبحانه في هذه السورة على فلاح من اختار رشده واستعمل جهده، وأنفق وجده «قد أفلح من زكاها» (آية : 9) وخيبة من عاب هداه فاتبع هواه، «وقد خاب من دساها» (آية : 10) فبين حال الفريقين وسلوك الطريقين.

سورة الليل (759)

لما بين قبل حالهم في الافتراق، وأقسم سبحانه على ذلك الشأن في الخلائق بحسب تقديره ألا «لنبلوهم أيهم أحسن عملا» (الكهف : 7) فقال تعالى : «إن

(757) وهي مكية بالاتفاق، وما أبداه المصنف من مناسبتها لما قبلها، من حيث هي تفصيل لسورة البلد، وبيان لأصحاب الميمنة وهم الذين يزكون أنفسهم، وأصحاب المشأمة وهم الذين يدسون أنفسهم في الرذائل والمعاصي، واضح جلي.

(758) هكذا في الأصل وكتب فوقها : «بياض في بعض النسخ»، وهذه العبارات مضطربة المعنى والمبنى لم أتبين وجهها.

(759) وهي مكية، وإن كان عليها طابع السور المكية فقد قال بعضهم بأنها مدنية كما ذكر ذلك القرطبي في تفسيره ج :

سعيكم لشتي» (آية : 4) فاتصل بقوله تعالى : «قد أفلح من زكاهها وقد خاب من دساها» (الشمس : 9—10) ثم ان قوله تعالى : «فأما من أعطى واتقى — الى — العسرى» (5—10) يلائمه تفسيراً وتذكيراً — بما الأمر عليه من كون الخير والشر بإرادته وإلهامه وبحسب السوابق — قوله : «فألهمها فجورها وتقواها» (الشمس : 8) فهو سبحانه أهلهم للاعطاء وللاتقاء والتصدق، والمقدر للبخل والاستغناء والتكذيب، «والله خلقكم وما تعملون» (الصفات : 96) «لا يسأل عما يفعل» (الأنبياء : 23) ثم زاد ذلك إيضاحاً بقوله تعالى : «إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى» (12—13) فتباً للقدرية والمعتزلة⁽⁷⁶⁰⁾ «وكأي من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون» (يوسف : 105).

سورة الضحى⁽⁷⁶¹⁾

لما قال تعالى : «فألهمها فجورها وتقواها» (الشمس : 8) ثم اتبعه بقوله : «فسنيسره» (الليل : 7) وبقوله : «إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى»

وقوله تعالى : «وسيجنبها الأتقى إلى آخر السورة (17—21) نزلت في أبي بكر الصديق، فقد أخرج الحاكم في المستدرک 2/ 525 وقال صحيح على شرط مسلم من حديث عبد الله بن الزبير قال : قال أبو قحافة لأبي بكر : أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أنك فعلت ما فعلت اعتقت رجالاً جلدًا يمنعونك ويقومون دونك، قال أبو بكر : يا أبت إني أريد ما أريد فنزلت الآيات. قال ابن كثير وكاد أن يجمع المفسرون على هذا. واتصالها بالشمس واضح فهي تفصيل للتركية بالاعطاء والتقوى، والتصديق بالحسنى وهي لا إله إلا الله وما يستتبعها، وتفصيل للتدسية وهي : البخل بنعم الله والكبر والجحود والتكذيب بلا إله إلا الله وما يستتبعها. (760) القدرية فرقة خاضت في مسألة القضاء والقدر في عصر الأمويين قالوا إن كل فعل للانسان هو إرادته المستقلة عن إرادة الله سبحانه وتعالى، فنفوا بذلك «القدر» بمعنى العلم والتقدير عن الله تعالى وقالوا في ذلك «الأمر أنف» وقد تصدى لهذه الدعوة : معبد بن خالد الجهني بالعراق، وغيلان الدمشقي بالشام.

وتعتبر هذه المسألة أيضاً إحدى مسائل المعتزلة بل أصلاً من أصولهم الخمسة وهي : التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، انظر الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي ص : 181، والملل والنحل للشهرستاني ج : 1 / 47، وتاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ أبو زهرة ج : 1 / 31 و 151.

(761) هذه السورة مكية، وقد جاء في عديد من الروايات أن الوحي أبطأ عن النبي ﷺ فقبل إن محمداً قد قلاه ربه، وأصح شيء في ذلك أنه ﷺ اشتكى فلم يقم ليلة أو ليلتين فقالت امرأة : يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله عز وجل «والضحى» إلى قوله «ما ودعك ربك وما قلى» (2) أخرجه أحمد والشيخان وغيرهم. أنظر فتح الباري : 8 / 711، وابن كثير : 7 / 313.

(الليل : 12—13) فلزم الخوف، واشتد الفزع وتعين على الموحد الاذعان بالتسليم⁽⁷⁶²⁾ والتضرع في التخلص والتجاؤه إلى السميع العليم، أنس تعالى أحب عباده إليه وأعظم منزلة لديه، وذكر له ما منحه من تقديريه واجتباؤه وجمع خير الدارين له فقال : «والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى» (1—4) ثم عدد تعالى عليه نعمه بعد وعده الكريم له بقوله : «ولسوف يعطيك ربك فترضى» (آية : 5) وأعقب ذلك بقوله : «فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر» (9—10) فقد أوتيتك⁽⁷⁶³⁾ قبل تعرضك وأعطيتك قبل سؤالك، فلا تقابله بقهر من تعرض ونهر من سأل وقد حاشاه سبحانه عما نهاه عنه، ولكنه تذكير بالنعم، وليستوضح الطريق من وفق من أمته ﷺ، أما هو ﷺ فحسبك من تعرف رحمته ورفعته قوله : «وكان بالمومنين رحيمًا» (الأحزاب : 43) «عزيز عليه ما عنتم — الى — رحيم» (التوبة : 128).

ثم تأمل استفتاح هذه السورة ومناسبة ذلك المقصود، وكذلك السورة قبلها برفع القسم في الأولى بقوله : «والليل إذا يغشى» (الليل : 1) تنبيهًا على إبهام الأمر في السلوك على المكلفين وغيبة حكم العواقب، وليناسب هذا حال المتذكر بالآيات وما يلحقه من الخوف مما أمره غائب عنه من تيسيره ومصيره واستعصاء ما به يحصل اليقين واستصغار درجة المتقين، ثم لما لم يكن هذا غائب بالجملة عن آحاد المكلفين أعني ما يثمر العلم اليقين ويعلي من أهل للترقي في درجات المتقين، بل قد يطلع سبحانه خواص عباده بملازمة التقوى والاعتبار على واضحة السبيل ويريهم مشاهدة وعيانا ما قد انتهجوا قبل سبيله بمشقة النظر في الدليل، قال ﷺ

== قال السيوطي : لما كانت سورة الضحى نازلة في شأنه ﷺ، افتتحت بالضحى الذي هو نور، ولما كانت سورة الليل في أبي بكر يعني : ما عدا قصة البخيل، وكانت سورة الضحى سورة محمد، عقب بها ولم يجعل بينهما واسطة ليعلم إلا واسطة بين محمد وأبي بكر. أنظر تناسق الدرر ص : 152.

(762) في الأصل : للتسليم.

(763) ب : أوتيتك.

لحارثة : (عرفت فالزم) (764) وقال مثله للصديق، (765) وقال تعالى : «لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة» (يونس : 64) إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة» (فصلت : 30-31) فلم يبق في حق هؤلاء ذلك الابهام ولا كدر خواطرهم بتكاثف ذلك الاظلام بما منحهم سبحانه من نعمة الاحسان بما وعدهم في قوله : «يجعل لكم فرقانا» (الأنفال : 29) «ويجعل لكم نورا تمشون به» (الحديد : 28) أو من كان ميتا فأحييناه وجلعنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها» (الأنعام : 122) فعمل هؤلاء على بصيرة، واستدلوا اجتهدا بتوفيق ربهم على أعمال جليلة خطيرة فقطعوا عن الدنيا الآمال وتأهبوا لآخرتهم بأوضح الأعمال «تتجافى جنوبهم عن المضاجع» (السجدة : 16) «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين» (السجدة : 17)، فلابتداء الأمر وشدة الابهام والاظلام ما أشار إليه قوله سبحانه وتعالى : «والليل إذا يغشى» (والليل : 1) ولما تؤول إليه الحال في حق من كتب في حقه الايمان وأيده بروح منه أشار قوله سبحانه : «والنهار إذا تجلى» (الليل : 2) ولاختصار السبيل وإن تشعبت في طريقين : «فمنكم كافر ومنكم مومن» (التغابن : 2) «فريق في الجنة وفريق في السعير» (الشورى : 7) أشار قوله تعالى : «وما خلق الذكر والأنثى» (الليل : 3) «ومن كل شيء خلقنا زوجين» (الذاريات : 49)، ففروا إلى الله الواحد مطلقا، فقد وضع لك إن شاء الله بعض ما ليس من تخصيص هذا القسم والله أعلم.

أما سورة الضحى فلا إشكال في مناسبة استفتاح القسم بالضحى بما يسره له سبحانه لا سيما إذا اعتبرت ما ذكر من سبب نزول السورة، وأنه ﷺ قد فتر عنه الوحي حتى قال بعض الكفار : قلا محمدا ربّه، فنزلت السورة مسفرة عن هذه النعمة والبشارة.

(764) أخرجه الطبراني في الكبير والبخاري في مسنده من حديث أنس بن مالك، قال في مجمع الزوائد : 1 / 57 فيها ابن لهيعة، وفيها من يحتاج إلى الكشف عنه، ورواية البخاري فيها يوسف بن عطية لا يحتاج به» أنظر المعجم الكبير للطبراني : 3 / 302 وجمع الفوائد : 1 / 24.
(765) لم أعثر عليه.

سورة الشرح (766)

معنى هذه السورة من معنى السورة التي قبلها، وحاصل السورتين تعداد نعمه عليه سبحانه، فإن قلت فلم فصلت سورة «ألم نشرح» ولم ينسق ذكر هذه النعم في سورة واحدة قلت : من المعهود في البشر فيمن عدد على ولده أو عبده نعماً أن يذكر له أولاً ما شاهد الحصول عليه منها بكسبه مما يمكن أن يتعلق في بعضها بان ذلك وقع جزاء ابتداء، فإذا استوفى له ما قصده من هذا، أتبعه بذكر نعم ابتدائية قد كان ابتداءها قبل وجوده كقول الأب مثلاً لابنه : ألم أختار لأجلك الأم والنفقة، حيث استولدتك وأعددت من مصالحك كذا وكذا، ونظير ما أشرنا إليه قوله سبحانه لذكرياء عليه الصلاة والسلام «ولم تك شيئاً» (مريم : 9) وقد قدم له : «إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى» (767) (مريم : 7) وتوهم استبداد الكسبية في وجود الولد غير خافية في حق من قَصُر نظره ولم يَوْفَّق، فابتدأ بذكرها، ثم أعقب ما لا يمكن أن يتوهم فيه ذلك وهو قوله : «وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً» (مريم : 9) وله نظائر من الكتاب وعليه جاء ما ورد في هاتين السورتين والله أعلم .

(766) وتسمى أيضاً «ألم نشرح» وهي مكية خلافاً للبقاعي الذي زعم أنها مدنية، وهي كما يقول الألوسي : «شديدة الاتصال بسورة الضحى حتى أنه روى عن طاوس وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقولان هما سورة واحدة كانا يقرأهما في الركعة الواحدة وما كانا يفصلان بينهما بيسم الله الرحمن الرحيم وعلى ذلك الشيعة كما حكاه الطبرسي منهم. قال الإمام : والذي دعا إلى ذلك هو أن قوله تعالى : «ألم نشرح» كالعطف على قوله تعالى : «ألم يجدك يتيماً» وليس كذلك لأن الأول كان عند اغتمام الرسول ﷺ من إيذاء الكفرة، وكانت الحالة حالة محنة، وضيق صدر، والثاني يقتضي أن يكون حال النزول منشراح الصدر طيب القلب فأنى يجتمعان، وفيه نظر : والحق مدار مثل ذلك الرواية لا الدراية، والمتواتر كونهما سورتين والفصل بينهما بالبسملة، نعم هما متصلتان معنى جداً، وبدل عليه ما في حديث الاسراء الذي أخرجه ابن أبي حاتم أن الله تعالى قال له عليه الصلاة والسلام : يا محمد ألم أجدك يتيماً فأوتيت وضالاً فهديت، وعائلاً فأغنيت، وشرحت لك صدرك وحططت عنك وزرك ورفع لك ذكرك... الحديث». أنظر روح المعاني : 30 / 165.

ثم إن هذه السورة شرح لسابقتها، فشرح الصدر هناك مفصل هنا ببيان عناصره وأسبابه التي هي الآواء بعد اليتيم، والهداية بعد الضلال، والغنى بعد العيلة، فتلک كلها عوامل انشراح الصدر بعد الايمان لا سيما وقد جاءت بعد وعد بإعطاء حتى يرضى الرسول ﷺ. أنظر تعليق 3 من تناسق الدرر ص : 152.

(767) ب : «إنا نبشرك بيحيى».

سورة التين (768)

هذه سورة موضحة ومتممة للمقصود في السورتين قبلها، فبان لك أن الصور الانسانية بظاهر الأمر مما هي عليه من الترتيب والاتقان، قد كانت تقتضي الاتفاق بظاهر ارتباط الكمال بها من حيث إنها في أحسن تقويم والافتراق يبعد في الظاهر، فكيف افترق الحكم واختلف السلوك، فمن صاعد بالاستيضاح والامثال، ونازل أسفل سافلين فضلا عن ترقى درجات الكمال، فإذا لم يرق من خُصَّ بمزيه التقرب إلا أنه نودي من قريب فأسرع في إجابة مناديه وأصاخ، وما اعتل بجاده فسلك من واضحات السبيل ما رسم له وبنى على ما كتب له من ذلك عمله، «ولو شئنا لآيتنا كل نفس هداها» (السجدة : 13) فعلى العاقل المنصف في نفسه أن يعلم أن كلا ميسر لما خلق له (769)، فيضرع إلى خالقه في طلب الخلاص، من وجد خيرا فليحمد الله.

فأوضحت هذه السورة أن ما أعطى الله نبيه ﷺ وخصه به من ضروب الكرامات وابتدأه به من عظيم الآلاء مما تضمنت السورتان إلى ما منحه من خير الدارين، وما تضمن قسَمَه سبحانه أنه ما ودعه ولا قلاه من الملاطفة والتأنيس ودلائل الحب والتقريب، كل ذلك فضل منه تعالى وإحسان لا لعمل تقدم

(768) مكية النزول، ونقل القرطبي عن ابن عباس وقادة أنها مدنية وهو بعيد لأن البلد المقسم به هو مكة.

ومن مناسبة هذه السورة لما قبلها أنه تعالى لما ذكر في السورة السابقة حال أكمل النوع الانساني بالاتفاق بل أكمل خلق الله عز وجل على الإطلاق ﷺ ذكر تعالى في هذه السورة شرف بلده الأمين، وحال النوع وما ينتهي إليه أمره، وما أعد سبحانه لمن آمن منه به عليه السلام.

(769) إشارة إلى الحديث الذي رواه (الشيخان وأبو داود والترمذي) عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : «قيل يا رسول الله أعلم أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : نعم، قيل : فقيم يعمل العاملون ؟ قال : كل ميسر لما خلق له. أنظر التاج الجامع للأصول : 1 / 38.

يستوجب ذلك أو بعضه، ولو تقدم عمل لم يقع إلا بمشيئته وتوفيقه وإرادته ولا يستوجب أحد عليه شيئاً وإنما هو فضله يوتيهِ من يشاء، فقال سبحانه منها على ما وقع الايماء إلى بعضه «لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم» (الآية : 4) ومع ذلك لا ينفعه وقوع صورته الظاهرة في عالم الشهادة على أكمل خلق وأتم وضع، بل إذا لم يصحبه توفيق وسبقية سعادة من خالقه ولم يجعل له نورا يمشي به لم ير غير نفسه، ولا عرف إلا أبناء جنسه فقصر نظره على أول ما شاهد، ووقف عندما عاين من غير اعتبار بجده إلى تحقيق مآله وتبيين حاله أنه لم يكن شيئاً مذكوراً، فلما قصر وما أبصر اعتقد لنفسه الكمال وعمي عن المبتدأ والمآل، فصار أسفل سافلين حيث لم ينتفع بآلات نظره ولا تعرف حقيقة خبره، أو لم ير الانسان انا خلقناه من نقطة فإذا هو خصيم مبین وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه» (يس : 77—78) ثم قال تعالى : «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات» (6) فهم الذين هداهم ربهم بإيمانهم فجزوا بسببه من خلقه في أحسن تقويم، واستوضحوا الصراط المستقيم، واستبصروا، فأبصروا ونظروا فاعتبروا، وقالوا ربنا الله ثم استقاموا، «فلهم أجر غير ممنون» (6).

سورة العلق^(*)

لما قال سبحانه لنبيه ﷺ «فما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين» (التين : 7—8) وكان معنى ذلك على هذا بعد وضوح الأمر لك وبيانه، وقد نزهه تعالى عن التكذيب بالحساب وأعلى قدره عن ذلك، ولكن سبيل

(*) هذه السورة مكية، وقد اختلف في أنها أول السور نزولاً. قال ابن حجر في الفتح : قال صاحب الكشف ذهب ابن عباس ومجاهد إلى أنها أول سورة نزلت، وأكثر المفسرين إلى أن أول سورة نزلت فاتحة الكتاب. ثم قال : والذي ذهب أكثر الأئمة إليه هو الأول وأما الذي نسبته (أي الزمخشري) إلى الأكثر فلم يقل به إلا عدد أقل من القليل بالنسبة إلى من قال بالأول. الفتح 8 / 548.

ومن أوجه اتصافها بما قبلها والله أعلم أنها بيان لمن رد إلى أسفل سافلين من البشر وهو من ينهى الناس عن الخير والعبادة والصلاة، وكذب بالقرآن وتولى متكبراً، وأيضاً لما تقدم في سورة التين بيان خلق الانسان في أحسن تقويم بين هنا أنه تعالى : «خلق الانسان من علق» (2) وذلك ظاهر الاتصال، فالأول بيان العلة الصورية، والثاني بيان العلة المادية. أنظر تناسق الدرر : 154.

هذا إذا ورد كسبيل قوله تعالى : «لئن أشركت ليحبطن عملك» (الزمر : 65) وبابه، وحكم هذا القبيل واضح في حق من تعدى إليه الخطاب وقصد بالحقيقة به من أمته ﷺ من حيث عدم عصمتهم وإمكان تطرق الشكوك والشبهة إليهم فتقدير الكلام أي شيء يمكن فيه أن يحملكم على التوقف والتكذيب بأمر الحساب، وقد وضع لكم ما يرفع الريب ويزيل الاشكال فلم تعلموا أن ربكم أحكم الحاكمين، أفيليق به وهو العليم الخبير أن يجعل اختلاف أحوالكم في الشكوك بعد خلقكم في أحسن تقويم، أفيحسن أن يفعل ذلك عبثا وقد قال تعالى : «وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا» (ص : 27) فلما قرر سبحانه للعبيد على أنه أحكم الحاكمين مع ما تقدم من موجب نفي الاسترابة في وقوع الجزاء إذا اعتبر ونظر، وقعت في الترتيب سورة العلق مشيرة إلى ما به يقع الشقاء ومنه يعلم الابتداء والانتها وهو كتابه المبين الذي جعله تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمحسنين، فأمر بقراءته ليتدبروا آياته فقال : «اقرأ باسم ربك» (1) أي مستعينا به فسوف يتضح سبيلك وينتهج دليلك، «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً» (الفرقان : 1) وأيضاً فإنه تعالى أعلم عباده بخلقه الانسان «في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين» (التين : 5) وحصل منه على ما قدم بيانه افتراق الطرفين وتباين المتقابلين، كل ذلك بسابق حكمته وإرادته «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها» (السجدة : 13).

وقد بين سبحانه أقصر غاية ينالها أكرم خلقه وأجل عباده لديه من الصنف الانساني وذلك فيما أوضحت السورتان قبل من حال نبينا المصطفى ﷺ وجيل وعده الكريم له في قوله : «ولسوف يعطيك ربك فترضى» (الضحى : 5) وفضل حال ابتداء «ألم نشرح» على ما تقدم سؤال «رب اشرح لي صدري» (طه : 25) إلى ما أشارت إليه آي السورتين من خصائصه الجليلة وذلك أعلى مقام يناله أحد ممن ذكر، فوقع تعقيب ذلك بسورة تضمنت الإشارة إلى حال من جعل في الطرف الآخر من الجنس الانساني، وذلك حال من أشير من لدن قوله تعالى : «أرايت الذي ينهى عبداً إذا صلى — إلى قوله — : كلا لا تطعه»

(9-19) ليظهر تفاوت المنزلتين وتباين ما بين الحالتين وهي العادة المطردة في الكتب، ولم يقع صريح التعريف هنا كما وقع في الطرف الآخر ليطابق المقصود، ولعل بعض من لم يتفطن، يعترض هنا بأن هذه السورة من أول ما أنزل فكيف يستقيم مرادك من ادعاء ترتيبها على ما تأخر عنها نزولاً، فيقال له وأين غاب اعتراضك في عدة سور مما تقدم بل في معظم ذلك، وإلا فليست سورة البقرة من المدني ومقتضى تأليفنا هذا بناء ما بعدها من السور على الترتيب الحاصل في مصحف الجماعة إنما هو عليها وفيما بعد من المكي ما لا يحصى، فإنما غاب عنك نسيان ما قدمناه في الخطبة من أن ترتيب السور على ما هي عليه راجع إلى فعله عليه الصلاة والسلام كان ذلك بتوقيف منه أو باجتهاد الصحابة رضي الله عنهم على ما قدمناه، فارجع بصرك وأعد في الخطبة نظرك والله يوفقنا إلى اعتبار بيناته وتدبر آياته ويحملنا في ذلك ما يقربنا إليه بمنه وفضله.

سورة القدر (770)

وردت تعريفاً بانزال ما تقدم الأمر بقراءته لما قدمت الإشارة الى عظيم أمر الكتاب وأن السلوك اليه سبحانه إنما هو من ذلك الباب، أعلم سبحانه بليلة انزاله وعرفنا بقدرها لنعتمدها في مظان دعائنا وتعلق رجائنا ونبحث على الاجتهاد في العمل لعلنا نوافقها وهي كالساعة في يوم الجمعة في ابهام أمرها مع جليل قدرها، ومن قبيل الصلاة الوسطى، والله سبحانه في اخفاء ذلك رحمة وكأن في التعريف بعظيم قدر هذه الليلة التعريف بجلالة المنزل فيها، فصارت سورة القدر من تمام ما تقدم ووضح اتصالها.

(770) قال الألوسي : «وجه مناسبتها لما قبلها أنها كالتعليل للأمر بقراءة القرآن المتقدم فيه كأنه قيل اقرأ القرآن لأن قدره عظيم شأنه فخم، وقال الخطابي : المراد بهاء الكناية في قوله تعالى : «إنا أنزلناه في ليلة القدر» الإشارة إلى قوله تعالى «اقرأ»، وارتضاه القاضي أبو بكر بن العربي وقال وهذا بديع جدا». روح المعاني : 30 / 189، وتناسق الدرر : 154.

سورة البينة (771)

هي من تمام ما تقدمها لأنه لما أمره عليه الصلاة والسلام بأن هذا الكتاب هو الذي كانت يهود تستفتح به على مشركي العرب وتعظم أمره وأمر الآتي به حتى اذا حصل ذلك مشاهدا لهم كانوا أول كافر به فقال تعالى : «لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة الى قوله وذلك دين القيمة (1-5) وفي التعريف بهذا تأكيد ما تقدم بيانه مما يثمر الخوف وينهج بأذن الله التسليم والتبرء من ادعاء حول أو قوة، فإن هؤلاء كانوا قد قدم إليهم في أمر الكتاب والآتي به ما يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل، وقد كانوا يؤملون الانتصار به عليه الصلاة والسلام من أعدائهم ويستفتحون بكتابه، فرحم الله من لم يكن عنده علم منه كأبي بكر وعمر وانظارهما رضي الله عنهم، وحرّم هؤلاء الذين قد كانوا على بصيرة من أمره وجعلهم بكفرهم شر البرية ورضي عن الآخرين ورضوا عنه، وأسكنهم في جواره ومنحهم الفوز الاكبر والحياة الأبدية، وان كانوا قبل بعثه عليه الصلاة والسلام على جهالة وعمى فلم يضرهم اذ قد سبق لهم في الأزل «أولئك هم خير البرية» (آية : 7).

سورة الزلزلة (772)

وردت عقب سورة البرية ليبين بها حصول جزاء الفريقين ومآل الصنفين المذكورين في قوله : «ان الذين كفروا من أهل الكتاب الى قوله : شر البرية»

(771) قال الجمهور أنها مدنية، وأخرج ابن مردويه عن عائشة أنها نزلت بمكة ويمثلها قال يحيى بن سلام. أنظر : الاتقان 36/1 والدر المنثور 377/6.

ومن وجوه مناسبتها أنه لما تقدم بيان عظيم فضل القرآن ودرجته، كشفت هذه السورة أن المشركين الذين كانوا ينتظرون الوحي من السماء قد اختلفوا بشأنه وأنهم شر البرية وأن من سلك نهجه أولئك هم خير البرية، الفائزين في الآخرة.

وقال السيوطي : «هذه السورة واقعة موقع العلة لما قبلها، كأنه لما قال سبحانه : «إنا أنزلناه» قيل : لم أنزل ؟ فقيل : لأنه لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة وهو رسول من الله يتلو صحفا مطهرة، وذلك هو المنزل» تناسق الدرر : 155.

(772) هذه السورة مدنية في قول ابن عباس وقتادة، ومكية في قول ابن مسعود وجابر وعطاء، وقد ورد في فضلها ما أخرجه الترمذي عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ من قرأ «إذا زلزلت» عدت له بنصف القرآن، وفي رواية

(البينة : 6) وقوله : «ان الذين آمنوا الى خاتمة السورة (7-8)، ولما كان حاصل ذلك افتراقهم على صنفين ولم يقع تعريف بتباين أحوالهم، أعقب ذلك بمآل الصنفين واستيفاء جزاء الفريقين المجمل ذكرهم فقال تعالى : «يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم...» (6-7)

سورة العاديات (773)

أقسم سبحانه على حال الانسان بما هو فقال : «ان الانسان لربه لكنود» (6) أى لكفور يبخل بما لديه من المال كأنه لا يجازى ولا يحاسب على قليل ذلك وكثيره من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وكأنه ما سمع بقوله : «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره» (الزلزلة : 7) «وانه لحب الخير» أي المال «لشديد» (آية : 8) لبخيل «وانه على ذلك لشهيد» (آية : 7) وان الله على ذلك لمطلع فلا نظر في أمره وعاقبة مآله اذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور، أي ميز ما فيها من الخير والشر ليقع الجزاء عليه «ان رهم بهم يومئذ لخبير» (11) لا يخفى عليه شيء من أمرهم «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره». (الزلزلة : 7-8)

سورة القارعة (774)

لما قال تعالى : «أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور» (العاديات : 9-10) وكان ذلك مظنة لأن يسأل متى ذلك، فقليل يوم القيامة الهائل الأمر، الفظيع الحال، الشديد البأس والقيامة هي القارعة، وكررت تعظيما

أخرى عنه أنها تعدل ربع القرآن. أنظر تفسير ابن كثير : 7 / 347 — 348، والدر المنثور : 6 / 379، والقرطبي : 20 / 146.

(773) هذه السورة مكية، ونقل القرطبي في تفسيره أنها مدنية، ولكن المتأمل لها يجد طابعها طابع السور المكية.

وقد أبدى المصنف في مناسبتها وجهها قويا ظاهرا، ويمكن أن يضاف إليه، أنه بعد تشوف السامع والقارئ إلى معرفة جزاء العامل بالذرة خيرا أو شرا، جاءه الجواب في هذه السورة الكريمة أن ذلك يكون إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور إن رهم بهم يومئذ لخبير.

(774) وهي مكية بالاتفاق، وقد تضمنت زيادة تخويف من اليوم الآخر، وبيان لعواقب تحصيل ما في الصدور، وجزاء العاملين الذين تقدم ذكرهم في سورتي الزلزلة والعاديات.

لأمرها كما ورد في قوله تعالى : «الحاقة ما الحاقة» (الحاقة : 1—2) وقوله تعالى : «فغشيم من اليم ما غشيم» (طه : 78) ثم زاد عظيم هولها ايضاحا بقوله تعالى : «يوم يكون الناس كالفراش المبثوث» (4) والفراش ما تهافت في النار من البعوض، والمبثوث المنتشر «وتكون الجبال كالعهن المنفوش» (5) والعهن الصوف المصبوغ وخص لاعداده للغزل، اذ لا يصبغ بخلاف الأبيض فانه لا يلزم فيه ذلك، ثم ذكر حال الخلق في وزن الأعمال وصيرورة كل فريق ما كتب له وقدر.

سورة التكاثر (775)

لما تقدم ذكر القارعة وعظيم أهوالها أعقب بذكر ما شغل وصد عن الاستعداد لها وألهى عن ذكرها وهو التكاثر بالعدد والقربات والاهلين فقال : أهاكم التكاثر» (آية : 1) وهو في معرض التهديد والتفريع، وقد أعقب بما يعضد ذلك وهو قوله : «كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون» ثم قال : «كلا لو تعلمون علم اليقين» (3—5) وحذف جواب لو، والتقدير لو تعلمون علم اليقين لما أهاكم التكاثر، قال ﷺ : (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا...) الحديث (776) وقوله تعالى : «لترون الجحيم» (آية : 6) جواب لقسم مقدر أى والله لترون الجحيم وتأكد بها التهديد وكذا بما بعد الى آخر السورة.

(775) وهي مكية وتسمى «المقبرة» عند جميع المفسرين كما قال أبو حيان، وقال الألويسي هي مدينة تركت في قبيلتين من قبائل الأنصار في بني حارثة، ثم قال : ولقوة الأدلة على مدنيتهما قال بعض الأجلة أنه الحق. روح المعاني : 30/232.

وأخرج الحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية كل يوم ؟ قالوا : ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية ؟ قال : أما يستطيع أحدكم أن يقرأ أهاكم التكاثر ؟. أنظر الدر المنثور : 6/386.

(776) أخرجه من حديث أنس بن مالك أحمد والشيخان والترمذي والنسائي، وكان ذلك في خطبة الكسوف. أنظر فيض القدير على الجامع الصغير : 5/316.

سورة العصر (777)

لما قال تعالى : «ألهاكم التكاثر» (آية : 1-2) وتضمن ذلك الإشارة الى قصور نظر الانسان وحصر ادراكه في العاجل دون الآجل الذي فيه فوزه وفلاحه وذلك لبعده عن العلم بموجب الطبع أنه كان ظلوما جهولا، أخبر سبحانه أن ذلك شأن الانسان بما هو انسان فقال : «والعصر ان الانسان لفي خسر» (آية : 1) فالقصور شأنه والظلم طبعه والجهل جبلته فيحق أن يلهيه التكاثر ولا يدخل الله عليه روح الايمان «الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات الى آخرها» (3) فهؤلاء الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

سورة الهمزة (778)

لما قال سبحانه «ان الانسان لفي خسر» (العصر : 2) أتبعه بمثال من ذكر نقصه وقصوره واغتراره وظنه الكمال لنفسه حتى يعيب غيره، واعتماده على ما جمعه من المال ظنا أنه يخلده وينجيّه، وهذا كله عين النقص الذي هو شأن الانسان وهو المذكور في السورة قبل فقال تعالى : «ويل لكل همزة لمزة» (آية : 1) فافتتحت السورة بذكر ما أعد له من العذاب جزاء له على همزه ولمزه الذي أتم حسده، والهمزة : العياب الطعان، واللمزة مثله، ثم ذكر تعالى ماله ومستقره بقوله : «لينبذن في الحطمة» (4) أي ليطرحن في النار جزاء على اغتراره وطعنه.

(777) وهي مكية، وقد قيل فيها أنها مدنية كما ذكر ذلك القرطبي في تفسيره. وقال السيوطي في مناسبة هذه السورة لما قبلها وما بعدها : ان سورة التكاثر بعد القارعة واقعة موقع العلة الخاتمة ما قبلها، كأنه قيل : لما قال هناك : «فأمه هاوية» (القارعة : 8) قيل : لم ذلك ؟ فقال : لأنكم «ألهاكم التكاثر» (1) فاشتغلتم بدنياكم وملأتم موازينكم بالحطام، فخفت موازينكم بالآثام، ولهذا أعقبها بسورة العصر المشتعلة على أن الانسان في خسر، بيان لخسارة تجارة الدنيا، وريح تجارة الآخرة، ولهذا أعقبها بسورة الهمزة المتوعد فيها من جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده، فانظر إلى تلاؤم هذه السور الأربع وحسن اتساقها. أنظر تناسق الدرر. ص : 157.

(778) وهي مكية بالاتفاق.

سورة الفيل (779)

لما تضمنت سورة الهمزة ذكر اغترار من فتن بماله حتى ظن أنه يخلده، وما أعقبه ذلك أتبع هذا بأصحاب الفيل الذين غرهم تكاثرهم وخدعهم امتدادهم في البلاد واستيلاؤهم حتى هموا بهدم البيت المكرم فتعجلوا النعمة وجعل الله كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل أي جماعات متفرقة ترميهم بحجارة من سجيل حتى استأصلتهم وقطعت دابرهم فجعلهم كعصف ماكول، وأثر لهم ذلك، اغترارهم بتوفر حظهم من الخسر المتقدم.

سورة قريش (780)

لاخفاء باتصالهما أي أنه تعالى فعل ذلك بأصحاب الفيل ومنعهم عن بيته وحرمة لانتظام شمل قريش وهم سكان الحرم وقطان بيت الله وليؤلفهم بهاتين الرحلتين فيقيموا بمكة وتأمين ساحتهم.

(779) هذه السورة مكية بالاجماع : وقد أبدى الألوسي مناسبة وجية لما قبلها حيث قال «لما تضمن الهمز واللمز من الكفرة نوع كيد له عليه الصلاة والسلام، عقب ذلك بقصة أصحاب الفيل للإشارة إلى أن عقبي كيدهم في الدنيا تدميرهم، فإن عناية الله عز وجل برسوله ﷺ أقوى، وأتم من عنايته سبحانه بالبيت، فالسورة مشيرة إلى بيان مآلهم في الدنيا إثر بيان مآلهم في الآخرة». روح المعاني : 30 / 232.

(780) وهي مكية في قول الجمهور وهو الظاهر، وصلتها بالتي قبلها واضحة كما قال المؤلف، منة الله على أهل الحرم الذي صان مستقرهم، وأهلك من أراد بهم شرا، وكان من مقاصد صاحب الفيل «أبرهة» حرمان أهل مكة مما ألفوه من تجارتهم.

وذهبت طائفة إلى أن هذه السورة و«الفيل» سورة واحدة واحتجوا عليه بأن أبي بن كعب لم يفصل بينهما بالبسملة في مصحفه بما روى عن عمرو بن ميمون الأزدي قال صليت المغرب خلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقرأ في الركعة الأولى و«التين» وفي الثانية «ألم تر» و«لايلاف قريش» من غير أن يفصل بالبسملة، وأجيب بأن جمعا أثبتوا الفصل في مصحف أبي والمثبت مقدم على النافي، وبأن خير ميمون ان سلمت صحته محتمل لعدم سماعه ولعله قرأها سرا، ويؤيد استقلالها أيضا كون آيها ليست على نمط آي ما قبلها، وانه بعد ثبوت تواتر الفصل لا يحتاج إلى دليل. أنظر روح المعاني : 30 / 233.

سورة الماعون (781)

لما تضمنت السورة المقدمة من الوعيد لمن انطوى على ما ذكر فيها مما هو جار على حكم الجهل والظلم الكائنين في جبلة الانسان ما تضمنت كقوله تعالى: «ان الانسان لربه لكنود» (العاديات : 6) «ان الانسان لفي خسر» (العصر : 2) «يحسب ان ماله أخلده» (الهمزة : 3) وانجر أثناء ذلك مما تثيره هذه الصفات الأولية الى ما ذكر أيضا فيها كالشغل بالتكاثر والطعن على الناس ولزهم والاعتزاز المهلك أصحاب الفيل أتبع ذلك بذكر صفات قد توجد في المنتمين الى الاسلام أو يوجد بعضها، وأعمال ممن يتصف بها وان لم يكن من أهلها كدع اليتيم وهو دفعه عن حقه وعدم الرفق به وعدم الحض على اطعام المسكين والتغافل عن الصلاة والسهو عنها والرياء بالأعمال ومنع الزكاة والحاجات التي يضطر فيها الناس بعضهم الى بعض، ويمكن أن يتضمن إبهام الماعون هذا كله. ولا شك أن هذه الصفات توجد في المنتمين الى الاسلام (782) فأخبر سبحانه أنها من صفات من يكذب بيوم الدين ولا ينتظر الجزاء والحساب، اشارة الى أن هؤلاء هم أهلها ومن هذا القبيل قوله ﷺ : (أربع من كن فيه كان منافقا خالصا) (783) وقوله عليه الصلاة والسلام (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن) (784)، وهذا الباب كثير في الكتاب والسنة، وقد بسطته في كتاب : «ايضاح السبيل من حديث سؤال جبريل»، فمن هذا القبيل والله أعلم قوله : «أرايت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم» (1-2) أى ان هذه الصفات من دفع اليتيم،

(781) وتسمى سورة أرايت، والدين، والتكذيب، وهي مكية في قول الجمهور. وقال قتادة وآخرون أنها مدنية.

(782) ب : بالاسلام.

(783) أخرجه أحمد والشيخان من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وتماه «ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه

خصلة من النفاق حتى يدعها. إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

وأخرجه الشيخان كذلك من طريق عبد الله بن عمر بن الخطاب وفيه «إذا ائتمن خان». أنظر الفتح : 1/

171.

(784) أخرجه أحمد والشيخان والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعا وتماه : «ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن،

ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينهب نهبه ذات شرف يرفع الناس إليه أبصارهم حين ينتهبها وهو

مؤمن.

وجاء أيضا من طريق ابن عباس مرفوعا عند أحمد والبخاري والنسائي. أنظر الفتح : 3/ 363.

وبعد الشفقة عليه، وعدم الحز على اطعامه والسهو عن الصلاة والمراعاة بالأعمال، ومنع الحاجات كلها من شأن المكذب بالحساب والجزاء، لأن نفع البعد عنها إنما يكون إذ ذاك، فمن صدق به جرى في هذه الخصال على السنن المشكور والسعي المبرور، ومن كذب به لم يبال بها وتأبط جميعها، فتزهدوا أيها المومنون عنها فليست من صفاتكم في أصل إيمانكم الذي بايعتم عليه، فمن تشبه يقوم فهو منهم⁽⁷⁸⁵⁾ فاحذروا هذه الرذائل فإن دع اليتيم من الكبر الذي أهلك أصحاب الفيل وعدم الحز على اطعامه فإنما هو فعل البخيل الذي يحسب أن ماله أخلده، والسهو عن الصلاة من ثمرات أهالك التكاثر والشغل بالأموال والأولاد فهي عياده عن هذه الرذائل التي يثمرها ما تقدم والتحمت السور.

سورة الكوثر⁽⁷⁸⁶⁾

لما نهى عباده عما يلتذ به من أراد الدنيا وزينتها من الاكثار والكبر والتغرر بالمال والجاه وطلب الدنيا، أتبع ذلك بما منح نبيه مما هو خير مما يجمعون وهو الكوثر وهو الخير الكثير، ومنه الحوض الذي ترده أمته في القيامة، لا يظماً من شرب منه، ومنه مقامه المحمود الذي يحمده فيه الأولون والآخرون عند شفاعته العامة للخلق واراحتهم من هول الموقف، ومن هذا الخير قدم له في دنياه كت تحليل الغنائم والنصر بالرعب والخلق العظيم، إلى ما لا يحصى من خير الدنيا والآخرة مما بعض ذلك خير من الدنيا وما فيها. واحدة من هذه العطايا «قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون» (يونس : 58) ومن الكوثر والخير الذي أعطاه الله كتابه المبين الجامع لعلم الأولين والآخرين، والشفاء لما في الصدور، ولما كمل له

(785) «من تشبه يقوم فهو منهم» أخرجه أبو داود من حديث ابن عمر بسند ضعيف. أنظر الدرر المنثورة : 164.

(786) قال ابن عباس وطائفة مكية، وقال الحسن وطائفة مدنية.

قال الامام فخر الدين الرازي هي — أي سورة الكوثر — كالمقابلة للتي قبلها، لأن السابقة وصف الله سبحانه فيها المنافقين بأربعة أمور : البخل، وترك الصلاة، والرياء فيها، ومنع الزكاة، وذكر في هذه السورة في مقابلة البخل «إنا أعطيناك الكوثر» (1) أي الخير الكثير. وفي مقابلة ترك الصلاة «فُصِّلْ» (2) أي دم عليها، وفي مقابلة الرياء «لربك» (2) أي لرضاه لا للناس، وفي مقابلة منع الماعون «وانحر» (2) وأراد به التصديق بلحوم الأضاحي، قال : فاعتبر هذه المناسبة العجيبة. أنظرتنا سق الدرر : ص : 158.

سبحانه من النعم مالا يأتي عليه حصر مما لا يناسب أدناه نعيم الدنيا بجملتها قال له منها على عظيم ما أعطاه «ولا تمدن عينيك... إلى قوله ورزق ربك خير وأبقى» (طه : 131) فقد اضمحل في جانب نعمة الكوثر الذي أوتي كل ما ذكره تعالى في كتابه من نعيم أهل الدنيا، وتمكن من تمكن منهم وهذا أحد موجبات تأخير هذه السورة، فلم يقع بعدها ذكر شيء من نعيم الدنيا ولا ذكر أحد المتنعمين بها لانقضاء هذا الغرض وتمامه، وسورة الدين (787) آخر ما تضمن الإشارة إلى شيء من ذلك كما تقدم من إشارتها وتبين بهذا وجه تعقيبها والله أعلم.

سورة الكافرون (788)

لما انقضى ذكر الفريقين المتردد ذكرهما في الكتاب العزيز من أوله إلى آخره على اختلاف أحوال كل فريق وشتى درجاتهم وأعني بالفريقين من أشير إليه في قوله سبحانه «اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم» (الفاتحة : 6-7)، فهذا طريق أحد الفريقين، وفي قوله : «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» (الفاتحة : 7) إشارة إلى طريق من كان في الطرف الآخر من حال أولئك الفريق، إذ ليس الا طريق السلامة أو طريق الهلاك، «فريق في الجنة وفريق في السعير» (الشورى : 7) «فمنكم كافر ومنكم مومن» (التغابن : 2) والساكنون طريق السلامة على درجات، فأعلى درجاتهم مقامات الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم يليهم أتباعهم من صالحى العباد وعلمائهم العاملين وعبادهم وأهل

(787) هي سورة الماعون.

(788) وتسمى أيضا «المقشقة» من قشقش المريض إذا صح وبرأ، وتسمى — كما في جمال القراء — سورة العبادة، وتسمى أيضا «الخلاص» قال ابن مسعود والحسن وعكرمة وابن عباس في أحد قوليه مكية، وقال ابن الزبير وقتادة وآخرون مدنية، ويظهر لي والله أعلم أنها مكية. وأما فضلها فقد أخرج الامام أحمد والنسائي في اليوم والليلة الحديث رقم 801 وأبو داود 5055 وغيرهم عن فروة بن نوفل عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال له : «إذا أخذت مضجعتك فاقرأ : (قل يا أيها الكافرون» ثم نم على خاتمتها فإنها براءة من الشرك». وانظر أحاديث أخرى في فضلها في عمل اليوم والليلة ص : 468.

الخصوص منهم والقر، ثم أحوال من تمسك بهم ورتبهم مختلفة، وإن جمعهم جامع وهو قوله : «فريق في الجنة»، وأما أهل التنكب عن هذه الطريق وهم الهالكون فعلى طبقات أيضاً، ويضم جميعهم طريق واحد، فكيف ما تشعبت الطرق فإلى ما ذكر من الطريقين مرجعهما وباختلاف سبل الجميع عرفت أي الكتاب وفصلت ذكره والقرب من أحوال من تمسك منهم ورتبهم مختلفة، وإن جمعهم جامع وهو قوله : «فريق في الجنة»، وأما أهل التنكب عن هذه الطريق وهم الهالكون فعلى طبقات أيضاً، ويضم جميعهم طريق واحد، فكيف ما تشعبت الطرق فإلى ما ذكر من الطريقين مرجعهما وباختلاف سبل الجميع عرفت أي الكتاب وفصلت ذكره كله تفصيلاً لا يبقى معه ارتياب لمن وفق، فلما انتهى ذلك كله بما يتعلق به، وتداولت بيانه الآي من لدن قوله بعد أم القرآن «هدى للمتقين» (البقرة : 2) إلى قوله : «إن شئت هو الأبر» (الكوثر : 3) أتبع ذلك بالتفاصيل والتسجيل فقال تعالى : «قل يل أيها الكافرون» (آية : 1) فبين سبحانه أن من قضى عليه بالكفر والموافاة عليه لا سبيل إلى خروجه عن ذلك، ولا يقع منه الإيمان أبداً «ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله» (الانعام : 111).

= أما سبب تأخيرها إلى هذا الموضع فقد أبدى فيه المصنف رحمه الله نظراً عجيباً. وما ظهر لي من مناسبتها أنه لما تقدم ما أعطاه الله تعالى لنبيه من الخير الكثير، ومن المخالفة للمنافقين والكافرين، في السورة السابقة جاءت هذه السورة لتعلن للكافرين أنه لا مساومة، ولا مهادنة، فلكم طريقكم ولي طريقي، وقد تقدمت بعض معاملة في «الكوثر» وأبرزها الصلاة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام «بين الرجل والكفر ترك الصلاة».

وأيضاً لما قال تعالى في السورة السابقة «إن شئت هو الأبر» كان ذلك إذعاناً لهم وحكما عليهم بأنهم سيموتون على الكفر، فكان شئت الذي قال هذه الكلمة مكتوب عليه أنه سيظل أبر ولن يهتدي إلى الإسلام، شأن الأسود بن عبد المطلب، أمية بن خلف، العاصي بن وائل، الوليد بن المغيرة، فهذا فريق يقابله فريق آخر الفريق الموصل بالله، والفرقان لا يمكن أن يتخذ منهما في الحياة : لا في تصور العقيدة، ولا في الشريعة، ولا في طريقة التعبد ولا في منهج التفكير ولا في المبادئ، لذلك قال تعالى بعد سورة الكوثر «قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون.... إلى آخر السورة» فجاءت تعبيراً عن المعنى الذي نعر عنه حديثاً في العرف الديبلوماسي بقطع العلاقات الخاصة وقد أعقبت بسورة النصر، إيداناً بأن العاقبة لحمد وأنصاره والدائرة ستكون حتماً على مبغضي الرسول والكائدين له.

ولو أنهم بعد عذاب الآخرة، ومعاناة البعث وعظيم تلك الأهوال، وسؤالهم الرجوع إلى الدنيا وقولهم «ربنا أخرجنا» (789) نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل» (فاطر : 3) فلو أجيئوا إلى هذا وارجعوا لعادوا إلى حالهم الأول، «ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه» (الأنعام : 28) تصديقا لكلمة الله واحكاما لسابق قدره «أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار» (الزمر : 19) فقال لهم «لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد إلى آخرها» (الكافرون : 2 — 6) فبان أمر الفريقين وارتفع الاشكال واستمر كل على طريقه «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات» (فاطر : 3) «ان عليك إلا البلاغ» (الشورى : 48) فتأمل موقع هذه السورة وانها الخاتمة لما فصل في الكتاب يلح لك وجه تأخيرها والله أعلم.

سورة النصر^(*)

لما كمل دينه واتضحت شريعته واستقر أمره ﷺ، وأدى أمانة رسالته حق أدائها عرف عليه السلام نفاذ عمره وانقضاء أجله، وجعلت على ذلك علامة دخول الناس في دين الله جماعات بعد التوقف والتثبط حكمة بالغة «ولو شاء الله لجمعهم على الهدى» (الأنعام : 35)، وأمر بالاكثار من الاستغفار المشروع في أعقاب المجالس وفي أطراف النهار وخواتم المأخذ مما عسى أن يتخلل من لغو أو فتور، فشرع سبحانه الاستغفار ليحرز لعباده من حفظ أحوالهم ورعي أوقاتهم ما

(789) في الأصل : فارجعنا.

(*) وهي مدنية بالاجماع، وقد جاء عن ابن عمر أنها نزلت وسط أيام التشريق من حجة الوداع في العام العاشر للهجرة، وتسمى سورة التوديع.

ومن مناسبتها ما أبداه الامام فخر الدين الرازي بقوله : كأنه تعالى يقول : لما أمرتك في السورة المتقدمة بمجاهدة الكفار بالتبري منهم وإبطال دينهم جزيتك عن ذلك بالنصر والفتح وتكثير الاتباع. وقال : ووجه آخر وهو أنه لما أعطاه الكوثر وهو الخير الكثير ناسب تحميله مشقاته وتكاليفه فعقبها بمجاهدة الكفار والتبري منهم، وإبطال دينهم عن ذلك بالنصر والفتح وتكثير الاتباع. وقال : ووجه آخر وهو أنه لما أعطاه الكوثر وهو الخير الكثير ناسب تحميله مشقاته وتكاليفه فعقبها بمجاهدة الكفار والتبري منهم فلما امتثل ذلك أعقبه بالبشارة بالنصر والفتح، وإقبال الناس أفواجا إلى دينه، وأشار إلى دنو أجله، فإنه ليس بعد الكمال إلا الزوال، أنظر تناسق الدرر : ص

يكفي بعلي أجورهم كما وعدهم «وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته» (الأنعام : 115) وقد بسطت ما أشارت إليه هذه السورة العظيمة، وكل كلام ربنا عظيم فيما قيده في غير هذا⁽⁷⁹⁰⁾، وأن أبا بكر رضي الله عنه عرف منها أن رسول الله ﷺ نعت إليه نفسه الكريمة على ربه، وعرف بدنو أجله، وقد أشار إليه هذا الغرض أيضا بأبعد من الواقع في هذه السورة قوله تعالى : «اليوم أكملت لكم دينكم»... الآية (المائدة : 3) وسورة براءة، وأفعاله عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع، لكن لم يبلغنا استشعار أحد من الصحابة رضي الله عنهم يقين الأمر إلا من هذه السورة، وهي عرّقت بإشارة براءة وآية المائدة تعريفا شافيا واستشعر الناس عام حجة الوداع وعند نزول براءة ذلك لكن لم يستيقنوه، وغلبوا رجاءهم في حياته ﷺ، ومنهم من توقف، فلما نزلت (إذا جاء نصر الله والفتح) استيقن أبو بكر رضي الله عنه ذلك استيقانا حمله على البكاء لما قرأها رسول الله ﷺ.

سورة المسد⁽⁷⁹¹⁾

هذه السورة وإن نزلت على سبب خاص وفي قصة معلومة فهي مع ما تقدمها واتصل بها في قوة أن لو قيل قد انقضى عمرك يا محمد وانتهى مما قلده من عظيم أمانة الرسالة أمرك، وتأدية ما تحمّله وحن أجلك، وامارة ذلك دخول الناس في دين الله أفواجا واستجابتهم بعد تلكؤهم، والويل لمن عاندك وعدل عن متابعتك، وإن كان أقرب الناس إليك، فقد فصلت سورة «قل يا أيها الكافرون» بين أوليائك وأعدائك، وبأن بها حكم من اتبعك ومن عاداك ولهذا سماها عليه

(790) لعله يقصد كتابه «ملاك التأويل» الذي بسط فيه أوجه تشابه الآي.

(791) وهي مكية بإجماع، وما أبداه المصنف وجه قوي، ويمكن أن يلاحظ من التناسب مع ما قبلها، أنه لما تقدم الاعلان بالنصر للنبي ﷺ من الله تعالى ناسب أن يأتي إعلان بإهلاك أعدائه ومناوئيه وحساده وشائقيه ولو كانوا من أقرب الناس إليه.

الصلاة والسلام المبررة من النفاق⁽⁷⁹²⁾، ليعلم كفار قريش وغيرهم أنه لا اعتصام لأحد من النار إلا بالآيمان وأن القربات غير نافعة ولا تجديه شيئاً إلا مع الآيمان «لكم دينكم ولي دين» (الكافرون : 6) «أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون» (يونس : 41) «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض» (التوبة : 71) وها هنا انتهى أمر الكتاب بجملته.

سورة الاخلاص^(*)

لما انقضى مقصود الكتاب العزيز بجملته عاد الأمر إلى ما كان هو أشعر العالم بحالهم من ترددهم بين عدمين ثم الله ينشئ النشأة الآخرة، فوجودهم منه سبحانه ويقاؤهم به وهم وجميع ما يصدر عنهم من أفعالهم وأقوالهم، كل ذلك خلقه واختراعه، وقد كان سبحانه ولا عالم ولا زمان ولا مكان، وهو الآن على ما عليه كان لا يفتقر إلى أحد ولا يحتاج إلى معين، ولا يتقيد بالزمان ولا يتحيز بالمكان، فالحمد لله رب العالمين أهل الحمد ومستحقه مطلقاً، له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم «قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» (1-4) الموجود الحق وكلامه الصدق، وما هذه الحياة الدنيا إلا لعب ولهو، وللدار الآخرة للذين يتقون، فطوبى لمن استوضح آي كتاب الله وأتى الأمر

(792) وأخرج ابن أبي حاتم عن رواية بن أوفى قال : كانت هذه السورة تسمى المقشقة. أنظر الدر المنثور : 6/404.

قال السيوطي : قال الامام (أي الفخر الرازي) وجه اتصالها بما قبلها أنه لما قال : «لكم دينكم ولي دين» (6) فكأنه قيل : إلهي، وما جزائي ؟ فقال الله له : النصر والفتح فقال : وما جزاء عمي الذي دعاني إلى عبادة الأصنام ؟ فقال : «تبت يدا أبي لهب» (1) الآيات.

قال : فتأمل هذه المجانسة الحافلة بين هذه السور مع سورة النصر من أواخر ما نزل بالمدينة والكافرون وتبت من أوائل ما نزل بمكة ليعلم أن ترتيب هذه السور من الله، وبأمره. أنظر تناسق الدرر : 160.

(*) تسمى هذه السورة بالاخلاص لما فيها من التوحيد، وسميت أيضاً «الأساس» لأن التوحيد أساس وأصل لسائر أصول الدين.

قيل أنها مكية، وقيل مدنية، وفي فضلها وردت أحاديث كثيرة وأنها تعدل ثلث القرآن، أنظر الدر المنثور : 6/410 وما بعدها، وفضائل القرآن للنسائي ص : 82.

من بابه وعرف نفسه ودنياه وأجاب داعي الله ولم ير فاعلا في الوجود حقيقة إلا هو سبحانه، ولما كمل مقصود الكتاب واتضح عظيم رحمة الله به لمن تدبر واعتبر وأتاب كان مظنة الاستعاذة واللجأ من شر الحاسد وكيد الأعداء، فختم بالمعوذتين من شر ما خلق وذراً، وشر الثقلين.

سورة الفلق^(*)

قد أشير، اى في الكلام على ارتباط الاخلاص إلى وجه ارتباطها آنفا وذلك أوضح ان شاء الله.

سورة الناس^(*)

وجه تأخيرها عن شقيقتها عموم الأولى وخصوص الثانية، الا ترى عموم قوله «من شر ما خلق» (الفلق : 2) وإيهام (ما) وتنكير غاسق وحاسد، والعهد فيما استعيز من شره في سورة الناس، وتعريفه ونعته، فبدأ بالعموم، ثم أتبع

(*) سورة الفلق، وسورة الناس تسميان بالمعوذتين لافتتاحهما بقل أعوذ، وقد نزلتا معا بالمدينة في قول قتادة وأحمد قولي ابن عباس، وهو الراجح وفي قول الحسن وعكرمة وآخرون أنهما مكيتان، وقد أمر النبي ﷺ أصحابه أن يكثروا من قراءتهما.

(*) أما مناسبة ختم القرآن بالمعوذتين فقد نقل السيوطي عن ابن جرير عن شيخه ابن الزبير في ذلك ثلاثة أمور : الأول : لما كان القرآن العظيم من أعظم نعم الله على عباده، والنعم مظنة الحسد، فختم بما يطفىء الحسد من الاستعاذة بالله.

الثاني : إنما ختم بهما لأن رسول الله ﷺ قال فيهما : أنزلت على آيات لم أر مثلهن قط، كما قال في فاتحة الكتاب : لم ينزل في التوراة ولا في الانجيل ولا في القرآن مثلها : فافتتح القرآن بسورة لم ينزل مثلها، واختتم بسورتين لم ير مثلهما، ليجمع حسن الافتتاح والاختتام....

الثالث : إنه لما أمر القارئ أن يفتتح قراءته بالتعوذ من الشيطان الرجيم ختم القرآن بالمعوذين لتحصل الاستعاذة بالله عند أول القراءة وعند آخر ما يقرأ من القرآن، فتكون الاستعاذة اشتملت على طرفي الابتداء والانهاء، ليكون القارئ محفوظا بحفظ الله الذي استعاذ به من أول الأمر إلى آخره. أنظر معترك الأقران : 1 / 77، 78.

بالخصوص ليكون أبلغ في تحصيل ما قصدت الاستعاذة منه وأوفى بالمقصود،
ونظير هذا في تقديم المعنى الأعم ثم إتياعه بالأخص ليتناول الدقائق والجلائل قوله
سبحانه : بسم الله الرحمن الرحيم فمعنى الرحمن ومعنى الرحيم واحد الا في عموم
الصفة الأولى وكونها في المبالغة وقد تعرض لبيان ذلك المفسرون ولذلك نظائر.

الفهارس

- فهرس الموضوعات
- فهرس الآيات القرآنية
- فهرس الأحاديث النبوية
- فهرس الأبيات الشعرية
- فهرس الكتب
- فهرس الأعلام
- فهرس البلدان
- فهرس بأهم المصادر والمراجع

1 - فهرس الموضوعات

الجزء الأول : الدراسة

الموضوع	الصفحة
تقديم	3
مقدمة	9
القسم الأول : جمع القرآن وترتيبه	15
المبحث الأول :	19
جمع القرآن وتدوينه	21
كتاب الوحي	22
حفظ الصحابة للقرآن	23
تدوين الصحابة للقرآن	24
جمع القرآن في عهد أبي بكر	26
جمع القرآن في عهد عثمان ودواعيه	31
تشكيل لجنة الجمع	33
منهج الجمع العثماني	37
تحريق عثمان للمصاحف	40
شبهة تعارض المصحف العثماني مع مصاحف بعض الصحابة	40
المبحث الثاني	43
ترتيب القرآن الكريم	43
ترتيب الآيات	45
ترتيب السور	48
ترتيب السور اجتهادي	49
ترتيب السور توقيفي إلا الأنفال وبراءة	50
الخلافا في ترتيب السور لفظي	51
ترتيب السور توقيفي	52

الرأي المختار	54
ترتيب القرآن حسب النزول	55
الإعجاز في ترتيب القرآن	58
إعادة ترتيب النص القرآني	60
موقف بعض المستشرقين من ترتيب القرآن	61
رفض تفسير القرآن حسب ترتيب نزوله	63
المبحث الثالث :	69
التناسب وجه من وجوه الإعجاز	71
تعريف التناسب	71
علم المناسبات وأهميته	71
أنواع التناسب	72
التناسب في نظم القرآن	75
تناسب الحروف في الكلمات	76
تناسب الكلمات في الجمل	80
تناسب نظم الآيات في السور	85
أمثلة من وحدة السور وترباطها	87
التناسب بين كتب التفسير والتأليف المستقل	90
أهمية المناسبة في التفسير	90
تناسب الآيات عند المفسرين :	92
« أمثلة من تفسير الفخر الرازي	93
« أمثلة من تفسير الشيخ محمد عبده	95
« أمثلة من تفسير سيد قطب	96
تناسب الآيات والسور	100
تناسب السور	101
القسم الثاني : عصر ابن الزبير وترجمته ومؤلفاته	103
المبحث الأول :	105
عصر ابن الزبير	107
الحالة السياسية في عصره	107
نهاية الموحدين	107
سقوط المدن والقواعد الكبرى	108
الزعامات وانبعاث روح الطوائف	110

113	الحياة العلمية في عصر ابن الزبير :
114	* البيوت العلمية
115	* المراكز العلمية
118	* الرحلات العلمية
122	* حركة التأليف في هذا العصر
127	المبحث الثاني :
129	ترجمة ابن الزبير
129	اسمه ونسبه
130	مولده ونشأته ووفاته
132	شيوخ ابن الزبير
142	إجازة ابن الزبير من أقطار مختلفة
146	مكائنه العلمية
155	تلاميذ ابن الزبير
164	مؤلفات ابن الزبير
167	المبحث الثالث :
169	تحقيق عنوان الكتاب
171	وصف النسختين المعتمدتين
173	قيمة المخطوطتين
174	منهج التحقيق
175	دليل الاشارات والرموز

الجزء الثاني : تحقيق النص

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
مقدمة المؤلف	178	سورة القصص	266
باب التعريف بترتيب السور	182	سورة العنكبوت	270
سورة أم القرآن	187	سورة الروم	273
سورة البقرة	190	سورة لقمان	275
سورة آل عمران	195	سورة السجدة	276
سورة النساء	198	سورة الأحزاب	279
سورة المائدة	200	سورة سبأ	283
سورة الأنعام	203	سورة فاطر	285
سورة الأعراف	210	سورة يس	287
سورة الأنفال	214	سورة الصافات	288
سورة براءة	220	سورة ص	289
سورة يونس	221	سورة الزمر	290
سورة هود	223	سورة المؤمن (غافر)	292
سورة يوسف	227	سورة حم السجدة (فصلت)	294
سورة الرعد	231	سورة الشورى	298
سورة إبراهيم	236	سورة الزخرف	299
سورة الحجر	240	سورة الدخان	301
سورة النحل	242	سورة الشريعة (الجاثية)	303
سورة الإسراء	243	سورة الأحقاف	305
سورة الكهف	248	سورة القتال (محمد)	306
سورة مريم	251	سورة الفتح	307
سورة طه	252	سورة الحجرات	311
سورة الانبياء	254	سورة ق	313
سورة الحج	256	سورة الذاريات	315
سورة المؤمنين	257	سورة الطور	317
سورة النور	259	سورة النجم	318
سورة الفرقان	260	سورة القمر	319
سورة الشعراء	262	سورة الرحمن	326
سورة النمل	265	سورة الواقعة	328

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
سورة الحديد	329	سورة الطارق	360
سورة المجادلة	330	سورة الأعلى	361
سورة الحشر	332	سورة الغاشية	362
سورة الممتحنة	333	سورة الفجر	362
سورة الصف	334	سورة البلد	363
سورة الجمعة	335	سورة الشمس	364
سورة المنافقين	336	سورة الليل	364
سورة تغابن	338	سورة الضحى	365
سورة الطلاق	339	سورة الشرح	368
سورة التحريم	340	سورة التين	369
سورة الملك	341	سورة العلق	370
سورة ن (القلم)	343	سورة القدر	372
سورة الحاقة	345	سورة البينة	373
سورة المعارج	346	سورة الزلزلة	373
سورة نوح	347	سورة العاديات	374
سورة الجن	348	سورة القارعة	374
سورة المزمل	349	سورة التكاثر	375
سورة المدثر	350	سورة العصر	376
سورة القيامة	351	سورة الهزمة	376
سورة الانسان	352	سورة الفيل	377
سورة المرسلات	353	سورة قريش	377
سورة عم (النبأ)	354	سورة الماعون	378
سورة النازعات	355	سورة الكوثر	379
سورة عبس	356	سورة الكافرون	380
سورة التكويد	358	سورة النصر	382
سورة الإنفطار	358	سورة المسد	383
سورة التطفیف	358	سورة الإخلاص	384
سورة الانشقاق	359	سورة الفلق	385
سورة البروج	360	سورة الناس	385

2 - فهرس الآيات القرآنية

الواردة في الدراسة مرتبة حسب الحرف الأول من الآية

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
أ -		ك -	
آنتم أشد خلقاً أم السماء	94	كتاب أحكمت آياته	96
ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب	91	كلا إذا دكت الأرض دكا	98، 97
ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم	96	كلا بل لا تكرمون اليتيم	97
ألم تر كيف فعل ربك بعاد	97	كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً	94
إقرأ باسم ربك الذي خلق	73	لا ياتونك بمثل إلا جئناك بالحق	56
إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون	42، 10	ليس كمثله شيء	82
إن سئلكم لشتى	98		
إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها	73	هـ -	
إن الله عنده علم الساعة	73	هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً	94
إن الله عليم بذات الصدور	73	و -	
إن الله يامركم أن تؤدوا الأمانات	91	وأنموا الحج والعمرة لله	96
إن هذا إلا سحر يوثر	75	والذين يتوفون منكم	46
ت -		والهكم إليه واحد	95
تبت يدا أبي لهب	99	وإن خفتم عيلة	85
ج -		وإنه لكتاب عزيز	79
جنات تجري من تحتها الأنهار	39	وقرآنا فرقناه لتقرأه	56
س -		وما خلق الذكر والانثى	98
سيصلى ناراً ذات لهب	99	والفجر وليال عشر	96
غ -		ولقد أنذرهم بطشنا	78
غير أولي الضرر	85	ولو كان من عند غير الله	60
ف -		والليل إذا يغشى	98
فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه	97	ومن آياته الليل والنهار	83
فأنذرتكم نارا تلظى	98	وهو على كل شيء قدير	73
فإن الله هو الغني الحميد	39	ي -	
فبها رحمة من ربك لننّ لهم	79	يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات	95
فلما جاء البشير	79	يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث	83
فلما سمعت بمكرهن	84	يا أيها الناس اعبدوا ربكم	94
		يا أيها النفس المطمئنة	97

3 - فهرس الأحاديث النبوية

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية	46	الشرك في أمتي أخفى من ديب الثعل	193
أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً	377، 193	ضعوا آية كذا في موضع كذا	53
الاسلام ثمانية أسهم	201	ضعوا هؤلاء الآيات في السورة	23
أعطيت مكان التوراة السبع الطوال	152	عرفت فالزم	367
إقرأوا الزهراوين البقرة وآل عمران	185	كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن	25
إن بينك وبينها بابا مغلقا	309	كنت اكتب الوحي عند رسول ﷺ	27
وإنما كان الذي أوتيت وحيا	179	من أحب أن يقرأ القرآن غضا	34
كان إذا آوى الى فراشه	186	ما من نبي الا وأوتي من الآيات ما مثله آمن	179
عليه البشر			
انهم من العتاق الأول	186، 53	من حفظ عشر آيات من سورة الكهف	46
بني الاسلام على خمس	202	من قرأ العشر الاواخر من سورة الكهف	46
خذوا القرآن من أربعة	23	ويل للعرب من شر قد اقترب	309
تكفيك آية الصيف	46	يا جبريل من هذا والذي بعثك بالحق	246
استقرؤوا القرآن من أربعة	35	يا علي ان القرآن خلف فراشي	26
صلى رسول الله ﷺ بالسبع الطوال	52	يوتي بالقرآن يوم القيامة وأهله	185

4 - فهرس الآيات الشعرية

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
والنجم تستصغر الابصار صورته	92	بلد يحف به الرياض كأنه	132
غرناطة ما لها نظير	132	فلو قيل مبكاها بكيت صباية	181

5 - فهرس الكتب

أ -

تحفة الابرار في مسألة النبوة والرسالة وما اشتملت
عليه من أسرار 125
تخليص التلخيص 311
التصور والتصديق في التوطئة لعلم التحقيق 123
تعليق على كتاب سيويه 165
التكميل والانتماء لكتاب التعريف والاعلام 122
تلخيص الدلالة في تخليص الرسالة 124
تناسق الدرر في تناسب السور 102
التنبية على أوهام الغافقي 124
تنظيم الدرر في علماء الدهر 122
توهين الطرفي في حديث الأربعين 123

أخبار محمد بن اسحاق 123
اختصار حديث مالك للدارقطني
اختصار الكامل في الضعفاء والمتروكين
لابن عدي 123
الاحتفال في استيفاء ما للخليل من الاحوال 125
الانتقان : 171
أرجوزة في الرد على الشوذية 166
أس مبنى العلم وأس معنى الحلم 124
أسرار التنزيل 100، 102
الاشارة 154
الاعلام بمن ختم به القطر الاندلسي من
الاعلام 154، 165.

ج -

جمع التلخيصات 139
الجمل للزجاجي 139
جواهر البيان في تناسق سور القرآن 102

الافصح عمن عرف بالاندلس بالصلاح 125
اقتراح المتعلمين في اصطلاح المتكلمين 123
الاكتفاء بما تضمنه من مغازي الرسول ومغازي
الثلاثة الخلفاء 123

ح -

الحافل في تذييل الكامل 123
حركة الدخولية في المسألة المالقية 125
حكم الدعاء في أدبار الصلوات 123
الحلية في ذكر البسملة والتصلية 124

الانتصار 48
إيضاح السبيل في حديث جبريل
(عليه السلام) 129، 165، 139.

ب -

البحر المحيط 100، 140، 149، 162.
برنامج رواياته 154، 156.

البرهان في ترتيب سور القرآن 11، 12، 122
149، 150، 165، 169، 170، 171، 172
البرهان والدليل في خواص سور التنزيل 124.

ت -

خطر فنظر ونظر فخطر على تنبيهات ورائق
ابن فتوح 125
خطرة المجلس في كلمة وقعت في شعر استنصر به
أهل الاندلس 125

تاريخ الميرية 125

تاريخ علماء الاندلس 154

تاريخ القرآن 61

د -

درة التنزيل وغرة التأويل 8

— ذ —

الذيل على الصلة (صلة الصلة) 165
الذيل على طبقات الحفاظ 140

— ر —

رجال المعلم بزوائد البخاري على مسلم 123
الرحلة النباتية 124
ردع الجاهل عن اعتناق المجاهل 122
ارشاد أبي المعالي 139
رصف المباني في حروف المعاني 124
رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة 125
رقم الحلل في نظم الدرر 123
الروض المنظور في أوصاف ابن منظور 114
رياضة الآن في شرح الخرزجي 125

— ز —

الزمن والمكان 165
الزهرة الفاتحة في الزهرة اللاتحة 123

— س —

سبيل الرشاد فضل الجهاد 155
السحب الواكفة والظلال الوارفة في الرد على
ما تضمنه المظنون من اعتقادات الفلاسفة 124
سلوة الخاطر فيما أشكل من نسبة الرتيب الى
الذاكر 125
السنن الكبرى 151

— ش —

شرح الاشارة 124
شرح حشائش دياسقور ديوس وأدوية
جالينوس 124
شرح السنة 48
شرح الكوامل 124
شرح مغرب أبي عبد الله ابن هشام 124
شمائل النبي صلى الله عليه وسلم

— ص —

صحيح البخاري 115، 138، 159، 161، 186
صحيح مسلم 118، 183، 244
الصلة لابن بشكوال 154
صلة الصلة 154
الصيب الهتان الواكف بعناية الاحسان 124

— ظ —

ظهور الإعجاز بين الصدور والأعجاز 123

— ع —

العبارة الوجيزة عن الاشارة 124

— ق —

الفصول والابواب فيمن أخذ عني من الشيوخ
والأتباع والاصحاب 125
فضائل القرآن 45
الفعل المبرور والسعي المشكور من نوازل ابن
منظور 125
فهم السنن 29

— ق —

قاعدة البيان وضابطة اللسان 124
القرآن، نزوله وتدوينه 61
القوانين الفقهية 160

— ك —

كتاب الأربعين 139
كتاب الاربعين حديثا في الرقائق موصولة 124
كتاب التيسير 141
كتاب سيبويه 139، 149، 152، 153
كيفية الاذان يوم الجمعة 123

— ل —

لذات السمع من القراءات السبع 124

اللطائف الروحانية والمعارف الربانية 124

— م —

المؤمن من أبناء من لقيه من أبناء الزمن 125
ما كثر وردده في مجالس القضاء 125
المجتبى النظر والمقتضى الخطر 124
المختصر في السلوك عن ذهاب البصر 122
المرجع بالدرك على من أنكر وقوع الشرك 125
المستدركة 124

المسلسلات من الأحاديث والآثار

والإنشاءات 123

مشاهد القيامة في القرآن 99

مشبهات اصطلاح العلوم 125

المشرع الروي 123

المصاحف لأثر جفري 62

المصاحف لابن أبي شبة 86، 49

المصاحف لنولدكة 61

مصنف ابن أبي شيبة 52، 183، 186، 337

مطلع الأنوار ونزهة الأبصار 123

معجم شيوخه 154، 166

مفتاح الإحسان في إصلاح اللسان 123

ملاك التأويل 122، 149، 155، 166،

169، 170

الموطأ 133، 134، 137، 138، 139،

141، 151، 157، 160، 161

— ن —

نزهة البصائر والابصار 166

نظم الدرر في تناسب الأبي والسور 100

نظم الدراري فيما انفرد به مسلم عن

البخاري 123

نظم السلوك في شيم الملوك 124

نفع الكمادات في شرح المقامات 123

نفحات النسوك وعيون التبرك المسبوك 124

النفحة الرسمية والمنحة الجسمية 124

نكتة الامثال ونفثة السحر الحلال 123

6 - فهرس الأعلام

مرتبة حسب حروف المعجم مع مراعاة
اسقاط «أبو» و«ابن» و«ال»

الصفحة	الصفحة
أحمد بن محمد بن سراج 143	أ -
أحمد بن محمد بن قعنب 157	آدم عليه السلام 199، 213، 214، 216،
أحمد بن محمد العاصي 133	226، 244، 247، 254، 291
أحمد بن مزين 144	أبان بن سعيد 23، 34
أحمد بن مضر 134	إبراهيم عليه السلام 191، 192، 205،
أحمد بن عبد الله بن عميرة 133، 143	206، 207، 225، 235، 236، 238
أحمد بن عبد الولي العواد 156	240، 241، 242، 243، 244،
أحمد بن يونس بن فرتون 134	245، 255، 272، 327، 333
أبو أحمد يونس بن أبي البركات 141	إبراهيم بن أبي الاحوص 117، 118
أبن الأحمر 13، 108، 109، 110، 111، 112	إبراهيم بن جعفر بن الزبير 137
إسحاق 230	إبراهيم رضى الدين الواسطي 145
أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرفيق 120، 12	إبراهيم بن محمد النفري 133
أبو إسحاق إبراهيم الانصاري 118، 121	إبراهيم بن محمد بن العاص الشوخي 156
إسحاق بن أبي بكر الطبري 145	إبراهيم بن محمد بن الكاد 133
أبو إسحاق البولفيقي 117	إبراهيم بن يحيى بن زكريا 156
أبو إسحاق التلمساني 120	إبليس: 213، 216، 217، 218، 253، 255
إسحاق بن عامر الطوسي 134	أبي بن كعب 22، 23، 31، 32، 34، 35
إسحاق بن عياش 49	36، 40، 41، 49
إسعد أحمد علي 66	أحمد بن أحمد الانصاري 156
إسماعيل بن يحيى الأزدي 134	أحمد بن أبي محمد القرطبي 133
أبو الأسود الدؤلي 40	أحمد بن جعفر بن سيد بونة 120
أصحاب الكهف 249، 250	أحمد بن حامد الارتاجي 143
أم سلمة 24، 41	أحمد بن الحسين الكلاعي 156
أنس بن مالك 34، 40، 244	أحمد بن الحسين المرادي 133
أبن أم مكتوم 24	أبن أحمد بن الشيخ الفهري 134
امراة العزيز 84، 85، 228، 230	أحمد بن صباع 157
امراة فرعون 342	أحمد بن عبد الله بن عميرة 133، 143
أم ورقة بنت عبد الله 24	

- ت -

- الترمذي 23، 156
 جبريل 26، 46، 48، 51، 53، 55،
 165، 246
 جريجوري التاسع 109
 ابن الجزري 157، 158
 ابن جزي الكلبي 148، 150، 152، 160
 أبو جعفر (من أهل المدينة) 153
 أبو جعفر بن أبي حبل 164
 أبو جعفر أحمد بن راشد 119، 124
 أبو جعفر أحمد الحميدي 117
 أبو جعفر أحمد بن مفرج العشاب 121
 أبو جعفر عثمان الورد 135
 أبو جعفر بن محمد بن خديجة 135،
 146، 157
 أبو جعفر محمد بن علي 247
 أبو جعفر محمد الطنجالي 151، 157، 161
 أبو جعفر النحاس 53
 أبو جعفر المنصور 309
 جلال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن
 أمين الأفشري 151
 جمال الدين بن أبي بكر بن محمد بن محمد
 أبو يعقوب 145
 جمال الدين بن محمد بن أحمد الشرييني 162
 أبو الجيوش نصر بن محمد 112
 الحاكم 23، 45، 55
 حاجي خليفة 170
 حاطب بن أبي بلتعة 333
 أبو حامد الغزالي 137
 ابن حبان 164
 حبان بن يحيى 49
 أبو الحجاج بن محمد المري 135

- أوس بن حذيفة الثقفي 52
 أبو أيوب الأنصاري 24

- ب -

- الباجي 150، 154
 ابن باشا البغدادي 170
 البخاري 23، 26، 27، 35، 46، 53،
 123، 186
 أبو البركات ابن الحاج البليقي 118، 119،
 125، 151، 162
 برهان الدين البقاعي 100، 101، 170، 172
 173، 174، 175
 البزار 246
 ابن بشكوال 154
 بقي بن مخلد 150
 بلاشير 61، 62
 بلعام 212، 216، 117
 البيهقي 50، 51
 أبو بكر الأنباري 53، 63
 أبو بكر بن حزب الله القفصي 141
 أبو بكر بن رشيقي 135
 أبو بكر الصديق 11، 22، 24، 26، 27،
 28، 29، 30، 31، 35، 37، 39
 أبو بكر بن عبيدة 120
 أبو بكر عبيد الله بن منظور 14، 116، 124
 أبو بكر بن العربي 91، 119، 184
 أبو بكر بن علي الأنصاري 145
 أبو بكر بن محمد بن الزيات 115
 أبو بكر بن محمد بن الشلبون 143 ط4
 أبو بكر محمد بن الفضل اللخمي 117
 أبو بكر محمد الشريشي 116
 أبو بكر النيسابوري 71، 93، 100

الصفحة

- ابن حجر 36، 37، 140
حذيفة 24، 32، 201، 309
أبو حذيفة 23
أبو الحسين بن أحمد الغزال 135
حسن البصري 40
أبو الحسن بن بقي 117
أبو الحسن بن صابر الدباج 117
الحسن بن زرقون 117
أبو الحسن الحصار 141
أبو الحسن الحفار 146
أبو الحسن علي العبدري 116
أبو الحسن علي القشيري 116
أبو الحسن القيحاوي 118
أبو الحسن النباهي 115
الحسين بن عبد العزيز بن أبي الأحوص 136
الحسين بن علي بن أبي الفرج الجوزي 144
ابن الحصار 47، 53
حفصة (أم المؤمنين رضي الله عنها) 24، 31
33، 37، 41
أبو حفص الزيات 164
أبو حمزة 141
ابن حيان 23، 45
أبو حيان محمد بن يوسف النفري 101، 140
148، 149، 151، 152، 153، 154

- خ -

- خالد بن سعيد 23
خالد بن الوليد 23
خباب بن الارت 24
أبو خزيمة الانصاري 28
الخضر عليه السلام 250
الخطابي 21، 184
الخطيب الاسكافي 149
الخطيب بن جعفر الزيات 115

الصفحة

- الخطيب أبو العباس بن خميس 116
ابن خيرة 116
خير الدين الزركلي 170

- د -

- الدارقطني 123
السداني 141
داود عليه السلام 286، 332
أبو داود 23، 52
أبو الدرداء 24، 46
دون نينوى دي لارا 111

- ذ -

- الذهبي 161
ذو القرنين 249، 250

- ر -

- الرافعي 76، 77
ربيعة 86
الربيع بن أنس 245
أبو الربيع سليمان الكلاعي 123

- ز -

- ابن الزبير 9، 10، 13، 47، 50، 51، 100
102، 103، 105، 107، 113، 115
116، 117، 118، 119، 121، 122
125، 127، 128، 130، 131، 132
133، 134، 135، 136، 137، 138
139، 140، 141، 142، 146، 147
148، 149، 150، 160، 161، 162
163، 164، 169، 170، 171، 172
173، 179
الزبير بن أبي جعفر بن الزبير 137
الزركشي 47، 49، 51، 52، 57، 90
الزبير بن العوام 23

زكرياء 251، 252

ابو زكريا بن عبد الملك 135

زيد بن ثابت 22، 23، 27، 28، 29، 30

31، 33، 34، 35، 36، 41

ابو زيد عم انس بن مالك 24

ابو زيد الشريشي 135

- س -

سالم بن معقل 23، 35، 41

سانشو 112

سعد بن عبيد 24

سعد بن محمد الحفار ابو عثمان 136

سعید بن زيد 24

سعید بن خالد 52

سعید بن العاص 33

سلمان 311

سليمان بن بلال 86

سيويه 139، 149، 152

سيد قطب 72، 73، 74، 76، 83، 93،

96، 101

السيوطي 47، 49، 50، 51، 54، 56،

71، 100، 102، 170

- ش -

ابن شاش 137

شرف الدين عبد المومن الدمياطي 120

ابن الشراط 164

شريك 246

شعيب عليه السلام 228، 238، 272

شمس الدين ابو عبد الله محمد بن جابر الوادي

آشي 151

شمس الدين محمد الداودي 170

ابن ابي شيبه 52، 183، 186

- ص -

صالح عليه السلام 228، 238، 323

صبحي الصالح 92

- ط -

الطبراني 23

طلحة 24

الطبيبي 53

- ع -

عائشة رضي الله عنها 24، 41، 42، 45

186

أبو عامر يحيى بن عامر 123

عبادة بن الصامت 24

ابن عباس 23، 34، 35، 51، 54، 55، 57

أبو العباس بن محمد بن البطيط 143

عثمان بن ابي العاص 46

عثمان بن عد الرحمن الربيعي 144

عثمان بن عفان 11، 22، 26، 31، 32، 33

34، 35، 37، 38، 40، 42، 45، 48

49، 51، 62

عثمان بن طلحة العبدي 91

عثمان بن محمد بن الحاج 137

عبد الحق بن يوسف بن تونارت 116

عبد الحي الكتاني 130

ابن عدي 123

عبد الرحمن اللخمي 13، 114

عبد الرحمن بن عبد المنعم الفرس 137

عبد الرحمن بن ابي محمد مكّي البخاري 144

عبد الرحمن ابن ادريس المنجرة 147

عبد الرحمن بن هشام 33

عبد الرحمن بن زيد 186

عبد السلام الهراس 14

الصفحة

الصفحة

عبد الله بن مسعود 23، 31، 32، 34، 35
 36، 41، 49، 53، 186
 أبو عبد الله الميوري 117
 عبد الله بن يحيى بن زكريا الانصاري 158
 عبد الله بن يحيى بن ربيع 137
 ابو عبد الله العبدري 136، 146
 أبو عبد الله بن عيسى 143
 عبد المجيد بن علي الانصاري 144
 ابن عبد الملك المراكشي 146، 147
 عبد المنعم بن سمالك العاملي 137
 عبد المهيم بن عبد المهيم الحضرمي 158
 عبد الواحد بن سليمان بن عبد الواحد 158
 عبد الواحد بن محمد بن علي الأموي 158
 عبد الواحد المراكشي 135
 عز الدين بن عبد العزيز السلمي 144
 عطاء 57
 ابن عطية 50، 55، 185
 عكرمة 60
 ابو العلاء المامون 107
 ابن علي بن أبي التقي 120
 علي بن أبي طالب 159، 246
 علي بن عبد الله الغافقي 137، 151
 ابن علي الدهان 134
 علي بن سلمان الانصاري 159
 ابو علي الشلوين 117
 علي بن عتيق بن أحمد الهاشمي 159
 علي بن عمر الكتاني القيحاطي 159
 علي بن محمد الجياب 159
 علي بن محمد الصبار العقيلي 159
 علي بن محمد الكتاني 138
 ابو علي منصور الهشدي 119، 140، 161
 أبو علي بن الناظر بن الاحوص 116، 117، 118
 عمرو بن العاص 23

أبو عبيد 55
 عبيد بن عمير 41
 أبو عبيد الله الصدي 136
 عبد العزيز بن عبد الله 170
 عبد العظيم بن مجد الله البلوي 137
 عبد الغني بن سليمان بن بنين 144
 عبد القوي بن عطايا بن عبد القوي 146
 عبد الله بن أحمد بن سعيد الغافقي 157
 أبو عبد الله احمد السمان 135
 عبد الله بن احمد بن عطية القيسي 137
 أبو عبد الله احمد الألشي 135
 عبد الله بن الجبر بن عثمان البيهقي 158
 ابو عبد الله الحارث المحاسني 29
 ابو عبد الله الخضار 120
 عبد الله دراز 40، 58، 59، 77، 87، 90
 عبد الله بن راحة 23
 عبد الله بن الزبير 33، 41، 46
 عبد الله بن سعيد بن أبي سرح 22
 عبد الله بن سعيد سالماني 158
 عبد الله بن سلام 264
 عبد الله بن عبد البر الرعيني 152، 157
 ابو عبد الله بن عبد الرحمان البنسي 135
 ابو عبد الله بن عبد الكريم الجرشي 135
 عبد الله بن عمر 24، 34
 عبد الله بن عمرو بن العاص 23، 24، 34
 ابن عبد الله بن عسكر 123
 عبد الله بن علي بن سلمون الكتاني 158
 ابو عبد الله محمد بن الحكيم اللخمي 116، 121
 ابو عبد الله محمد الاسنجي 115، 117، 123
 ابو عبد الله بن محمد بن يزوع 116
 ابو عبد الله محمد بن لب 117، 120
 ابو عبد الله محمد اللوشي 151
 ابو عبد الله محمد المليكي 121

الصفحة

كثير بن أفلاح 34

— ل —

ليب السعيد 29، 42
لسان الدين بن الخطيب 114، 131، 147،
153، 157، 159، 164
لقمان 270، 276، 277، 278، 282

ابو لهب 99

لوط 228، 272

— م —

مالك بن ابي عامر 33
مالك بن انس 34، 49، 51، 52، 123،
182، 183، 187
مالك بن عبد الرحمان بن فرج 140
محمد ﷺ 9، 11، 32، 45، 62، 91
196، 239، 243، 245، 247، 250،
252، 280، 296، 311، 336
364، 367

محمد بن ابراهيم بن باق 159
محمد بن ابراهيم بن روبل 159
محمد بن ابراهيم بن عبد الواحد المقدسي 146
محمد بن ابراهيم الجياني 141
محمد بن ابراهيم بن مستقور الغرناطي 140
محمد بن أحمد الأشعري 160
محمد بن أحمد الانصاري 163
محمد بن أحمد حقاك السلمي 160
محمد بن أحمد خليل السكوتي 141
محمد بن أحمد بن خميس الانصاري 160
محمد بن أحمد الزيات الكلاعي 160
محمد بن أحمد بن سيد الناس 143
محمد بن أحمد بن شقرال اللخمي 160
محمد بن اسحاق 123

ابو عمر بن عبد الله بن حوط 137

أبو عمر عثمان بن منظور 114، 116، 124

ابو عمر عز الدين بن جماعة 151، 157

عمر بن الخطاب 22، 24، 27، 28، 30،
31، 36، 46، 186، 309، 310، 340، 373

ابو عمر المرباط 164

عيسى عليه السلام 96، 199، 203، 251،

332، 335، 336

عيسى بن سليمان الشافعي 144

عيسى بن مظفر بن عبد الله 146

— ف —

أبو فارس بن عبد العزيز الهواري 120
فاطمة بنت الخطاب 24
ابو الفتوح نصر بن ابي الفرج 141
فخر الدين الرازي 71، 92، 93، 101
ابن فرحون 157، 169
ابن الفرضي 154
فرعون 263، 267، 268، 269، 270،
295، 357
فرناندو بن الفونسو التاسع 108، 110، 111

— ق —

قارون 270، 295
ابن القاسم بن الايسر 116
ابو القاسم بن عبد الرحيم 120
قاسم بن عبد الكريم جابر الانصاري 159
ابو القاسم عمر بن عبد الكافي 61
ابو القاسم محمد بن أحمد الحسيني 122، 125
ابو القاسم بن محمد بن رحمون 136
ابو القاسم محمد اللخمي القبطي 270

— ك —

كعب بن الأشرف 91

محمد بن محمد بن بالغ 134
 محمد بن البغدادي 144
 محمد بن بيش العبدري 161
 محمد البياني 161
 محمد جمال الدين يوسف بن مسدي 145
 محمد بن حسان القيسي الوادي آشي 162
 محمد بن عبد الرحمن بن جوير 141
 محمد بن عبد الدائم ابو المكارم 144
 محمد بن عبد الله بن خطاب الغافقي 116
 محمد ابو عبد الله ضياء الدين 145
 أبو محمد عبد الله الملقب بالعادل 107
 محمد بن عبد الله بن ارقم التميمي 163
 محمد بن عبيد الله بن منظور القيسي 163
 محمد بن علي بن قطرال الانصاري 163
 محمد بن علي بن مثبت 163
 محمد عزة دروزة 64
 محمد بن عياض بن موسى اليحصبي 139
 محمد بن عيسى بن هلال 139
 محمد الفقيه 111، 112
 محمد سعيد رمضان البوطي 84
 محمد بن سعيد الطراز 141
 محمد بن سيرين 34، 60
 محمد بن محمد بن ادريس القضاعي 163
 محمد بن محمد الانصاري 161
 أبو محمد بن محمد الجياني 136
 محمد بن محمد بن سهل 161
 محمد بن محمد الطنجالي 161
 محمد بن محمد بن لب الكناني 139
 محمد المنوني 14
 محمد بن محمد بن يوسف الطنجالي 161
 أبو محمد المخلوع 107، 112
 محمد بن مخلوف 157، 170
 ابو محمد الملقب بالرشيد 107
 محمد بن القاسم بن ابي رمان 163
 محمد بن القاسم بن عمران الحضرمي 163
 ابو محمد القرشي 49
 محمد بن يحيى الأشعري المالقي 161
 محمد بن يحيى بن بكر الأشعري 120
 محمد بن يوسف الوشي 162
 محمود الدمشقي 146
 ابو مدين شعيب بن الحسين 120
 مريم 203، 251، 252، 253، 254،
 299، 332، 335، 346، 368
 مسلم 23، 46، 123، 183، 185،
 244
 مصعب بن عمير 24
 مصطفى بن سعد بن ابي وقاص 33
 مصطفى المراغي 101
 معاذ بن جبل 23، 24، 35
 ابو المعالي أحمد بن اسحاق القوسي 120
 معبد بن خالد 186
 مكّي 47
 موسى عليه السلام 228، 244، 245، 246،
 250، 253، 254، 263، 268، 269
 270، 282، 312، 357
 ابو موسى الأشعري 31، 36، 49
 محمد بن موسى بن جرادة 162
 — ن —
 نجم الدين بن عبد اللطيف بن عبد المنعم بن
 هبة الله المراني أبو محمد 145
 نصر بن عاصم 40
 ابن نصر 151
 نوح عليه السلام 214، 216، 228، 238،
 247، 290، 294، 314، 322،
 323، 347، 348
 نولد كه 61

ابن محمد بن بالغ 134
 محمد بن البغدادي 144
 محمد بن بيش العبدري 161
 محمد البياني 161
 محمد جمال الدين يوسف بن مسدي 145
 محمد بن حسان القيسي الوادي آشي 162
 محمد بن عبد الرحمن بن جوير 141
 محمد بن عبد الدائم ابو المكارم 144
 محمد بن عبد الله بن خطاب الغافقي 116
 محمد ابو عبد الله ضياء الدين 145
 أبو محمد عبد الله الملقب بالعادل 107
 محمد بن عبد الله بن ارقم التميمي 163
 محمد بن عبيد الله بن منظور القيسي 163
 محمد بن علي بن قطرال الانصاري 163
 محمد بن علي بن مثبت 163
 محمد عزة دروزة 64
 محمد بن عياض بن موسى اليحصبي 139
 محمد بن عيسى بن هلال 139
 محمد الفقيه 111، 112
 محمد سعيد رمضان البوطي 84
 محمد بن سعيد الطراز 141
 محمد بن سيرين 34، 60
 محمد بن محمد بن ادريس القضاعي 163
 محمد بن محمد الانصاري 161
 أبو محمد بن محمد الجياني 136
 محمد بن محمد بن سهل 161
 محمد بن محمد الطنجالي 161
 محمد بن محمد بن لب الكناني 139
 محمد المنوني 14
 محمد بن محمد بن يوسف الطنجالي 161
 أبو محمد المخلوع 107، 112
 محمد بن مخلوف 157، 170
 ابو محمد الملقب بالرشيد 107

الصفحة

— ه —

هامان 295

هبة الله الحراني ابو محمد 145

ابو هريرة 24، 26، 244، 245

هود عليه السلام 212، 223، 225، 228،

229، 231، 238، 239، 323،

325، 327، 348.

ابن هود 13، 108، 110، 111

هوبير 61

— و —

وائل بن حجر 239، 240

وائل بن الاسقع 52، 53

الوزير بن الحكيم 112

ابن وضاح 150

ابو الوليد اسماعيل 113

الوليد بن المغيرة 76

ولي الدين الملوي 72

ابن وهب 86

— ي —

يحيى (عليه السلام) 251، 368

يحيى بن احمد بن عبد الرحمن بن ظافر بن

ابراهيم المرادي 142

يحيى بن عباس بن احمد القيسي ابو زكرياء 143

الصفحة

ابو يحيى بن عبد الرحيم 136

يحيى بن عبد الله بن محمد اللخمي 162

يحيى بن عبد الملك بن يحيى بن ابي الغصن

اللخمي ابو زكرياء 141

ابو يحيى محمد بن رضوان النصري 116، 118

يحيى بن مسود المحاربي 163

يحيى بن معين 51

يحيى بن يعمر 40

يزيد الفارسي 51

يس 237، 253، 287، 304

ابو اليسر عابدين 64

يعقوب (عليه السلام) 228، 230، 231

ابو يعقوب المحاسني 136

ابو اليمن بن عساكر 145

يوسف (عليه السلام) 80، 85، 207، 227،

228، 229، 230، 231، 234، 235،

365

يوسف بن ابراهيم الفهري 164

يوسف بن ابي ربحانة المالقي 142

يوسف بن ماهك 42، 45

يوسف بن موسى بن سليمان الهنشتاغري 164

أبو يوسف يعقوب المريني 112

يونس (عليه السلام) 221، 224، 225،

230، 238، 262، 346، 364، 367،

379، 383

7 - فهرس البلدان

الصفحة	الصفحة
أ -	أحد 9
ت -	أرسونة 109
تلمسان 119	أرجونة 110، 157
تونس 119، 120	أرمينية 32
ج -	أريولة 117
الجحفة 56	إستجة 111، 115
الجزائر الشرقية 108، 116	اسطبونة 163
الجزيرة الخضراء 111، 113	اشبيلية 109، 110، 115، 117
جيان 13، 115، 116، 130، 131	افريقيا 121
ح -	المرية 110، 177، 118، 120، 125، 127
الحبشة 56	160، 153
الحجاز 119، 121	الأندلس 13، 107، 108، 110، 111، 112،
الحديبية 156	113، 115، 118، 119، 120، 121،
خ -	122، 125، 130، 131، 137، 139،
خراسان 311	141، 142، 143، 146، 147، 148،
د -	150، 151، 153، 154، 155، 156،
دانية 109	162، 160، 158
دمشق 121	انيشه 109
ر -	إيطاليا 108
الرباط 14، 172	ب -
رندة 13، 116، 121، 139، 164	بئر معونة 24
س -	بجاية 119، 120
سبأ 285، 287، 295	بدر 95، 216، 249، 268، 303، 323
سبتة 119، 120، 122، 134، 137، 138	برجة 157
143	بسطة 157
سلا 119	بلنسية 108، 109، 116
	بيت المقدس 36

— ك —	سوريا 119
الكوفة 31، 35	السودان 121
— ل —	— ش —
لوثة 157	شاطبة 109
— م —	الشام 31، 32، 121
مالقة 13، 110، 111، 112، 115، 117	شريش 111
118، 119، 120، 124، 138، 139	شقّر 109
140، 142، 143، 152، 153، 156	— ط —
158، 163، 164	الطائف 56
المدائن 32	طريف 112
المدينة 24، 32، 35، 37، 56، 57	— ع —
86، 120، 183، 249	العراق 32، 119، 121
مراكش 119	— غ —
مصر 119، 121، 143	غرناطة 13، 107، 110، 111، 112، 113
المشرق 13، 118، 120، 121، 139	115، 116، 118، 121، 122، 130
141، 150، 162	131، 132، 136، 137، 138، 140
المغرب 13، 112، 118، 121، 139	151، 152، 153، 154، 155، 156
148، 151، 159	158، 159، 160، 162، 163، 164
مكة 24، 45، 55، 56، 57، 86، 91	164
121، 145، 168، 169، 273، 308	— ف —
334	فاس 119، 134
مولة 141	فرنسا 108
ميورقة 108	— ق —
— و —	القدس 163
وادي آشي 13، 116، 142، 163	قرطبة 13، 108، 110، 117
— ي —	قسنطينية 143
اليمامة 27	قشتالة 110، 111
اليمن 121	قنسرين 131
	قوص 143

فهرس بأهم المصادر والمراجع

الدراسة والتحقيق

- الانتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي ت 911 هـ. ط المكتبة الثقافية بيروت 1937 م.
- الطبعة الأولى لسنة 1967 م مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني بمصر تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم.
- الإحاطة في اخبار غرناطة للسان الدين ابن الخطيب ت 776 هـ تحقيق محمد عبد الله عنان، ط 2 الشركة المصرية للطباعة والنشر 1973 م.
- أسباب النزول لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري وهامشه الناسخ والمنسوخ لهبة الله بن سلامة ط عالم الكتب بيروت (دون تاريخ).
- الإصابة في تمييز اسماء الصحابة نسخة مصورة عن الطبعة الأولى 1328 هـ. للمحافظ ابن حجر ت : 852

- اصول الدين لعبد القاهر البغدادي
- الإعجاز البياني للقرآن الكريم ومسائل بن الأزرق لعائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ).
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي، ط 9 سنة 1973 م نشر دار الكتاب العربي بيروت.
- الأعلام لخير الدين الزركلي ط 2 دار العلم للملايين بيروت وطبعة المطبعة العربية بمصر 1927 م.
- البحر المحيط لأبي حيان الاندلسي ت 745 هـ، ط 1 سنة 1328 هـ مطبعة السعادة بمصر.
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع لمحمد بن علي الشوكاني ت 1250 هـ، ط 1 سنة 1348 هـ مطبعة السعادة.
- برنامج الوادي آشي محمد بن جابرت 749 تحقيق محمد محفوظ ط 1 سنة 1980 دار الغرب الاسلامي بيروت.
- البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ت 794 هـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط 1 سنة 1957 دار احياء الكتب العربية.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين السيوطي تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. ط القاهرة 1964 م.
- البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب لأبي عبد الله محمد المراكشي ابن عذاري القسم الثالث، ط تطوان 1960.

- * التاج الجامع للأصول في احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لمنصور علي ناصف ط 2 للبائي الحلبي.
- * تاج العروس للزبيدي ط 1 المطبعة الخيرية بجمالية مصر 1306 هـ.
- * تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ت 1945 ترجمة عبد الحليم النجار والملحق رقم 2 من طبعة ليدن 1338 (الطبعة الألمانية).
- * التاريخ الاندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة د. عبد الرحمن علي الحجي ط 1 : دار القلم 1976.
- * تاريخ توثيق نص القرآن الكريم لخالد عبد الرحمن العك توزيع دار القلم، دمشق بدون تاريخ.
- * تاريخ الرسل والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ت 310 هـ تحقيق ابو الفضل ابراهيم، ط ذخائر العرب 1960 م.
- * تاريخ القرآن لابراهيم الاياري ط. دار الشروق.
- * تاريخ قضاة الأندلس المعروف بالمرقة العليا لأبي الحسن النباهي ولد سنة 713 هـ. نشر المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ببيروت.
- * تاريخ المذاهب الاسلامية لأبي زهرة ط دار الثقافة العربية للطباعة.
- * تجريد أسماء الصحابة للذهبي ت. 748 هـ دار المعرفة بيروت نسخة مصورة.
- * تحفة الاحوذى بشرح جامع الترمذي للمباركفوري ابن العلي محمد عبد الرحمن ت 1353 هـ. نسخة مصورة عن الطبعة الهندية.
- * تذكرة الحفاظ للامام الذهبي نسخة مصورة بيروت.
- * ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض ت 544 هـ ط وزارة الأوقاف المغربية.
- * التسهيل لعلوم التنزيل لأبن الجزى الكلبي ت 693 هـ ط 2 سنة 1973 دار الكتاب العربي بيروت.
- * التصوير الفني في القرآن للشهيد سيد قطب ط — 7 سنة 1971 م دار احياء التراث العربي بيروت.
- * التفسير البياني للقرآن الكريم د : عائشة الرحمن دار المعارف مصر.
- * التفسير الحديث لمحمد عزة دروزة : ط 1 بدار احياء الكتب العربية لعيسى البائي الحلبي مصر 1962.
- * تفسير الطبري نسخة مصورة بدار الفكر بيروت 1968 م.
- * تفسير القرآن الكريم منهج ليسر التربوي د. اسعد أحمد علي طبع بدار السؤال للطباعة والنشر بدمشق 1979م.
- * تفسير القرطبي الجامع لاحكام القرآن نسخة مصورة بدار احياء التراث العربي بيروت.
- * تفسير ابن كثير ط 2 : 1970 بدار الفكر بيروت. والعزوالها
- * التفسير الكبير للفخر الرازي ت 606 هـ طبع سنة 1934، المطبعة البهية المصرية الأزهر.

- * تفسير المراغي نشر مكتبة ز مطبعة البابي الحلبي بمصر ط 3.
- * تفسير المنار للشيخ محمد عبده، ت 1923 ط، 4 سنة 1373 هـ مكتبة القاهرة.
- * التكملة لكتاب الصلة لأبي عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي المعروف بابن الأبارت 659 هـ ط القاهرة 1963.
- * تلخيص الحبير في تخرج أحاديث الرافعي الكبير للحافظ ابن حجر العسقلاني ت 852 هـ. نشر السيد عبد الله هاشم اليماني 1384 هـ.
- * تمييز الطيب من الحبيث فيما يدور على السنة الناس من الحديث لعبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر الشيباني ط 1، المطبعة العامرة الشرفية 1321 هـ بمصر.
- * تناسق الدرر في تناسب السور (أسرار ترتيب السور) للسيوطي تحقيق عبد القادر أحمد عطا. ط 2 : سنة 1978 دار الاعتصام.
- * تهذيب الأسماء واللغات لمحيى بن شرف النووي ت 676 هـ ط 1 المنيرية.
- * تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ت 852 هـ ط مصورة عن الطبعة الهندية.
- * ثبت البلوي أبي جعفر الوادي آشي ت 938 هـ تحقيق عبد الله العمراني ط 1 سنة 1983 م دار الغرب الاسلامي بيروت.
- * جامع الترمذي مع تحفة الاحوذى للمباركفوري نسخة مصورة بدار الكتاب العربي بيروت.
- * الجامع الصحيح للإمام مسلم ت 261 هـ. ضبط محمد فؤاد الباقي.
- * الجامع الصغير للسيوطي مع فيض القدير للمناوي نشر دار المعرفة بيروت 1972 هـ.
- * الجمع الصوتي للقرآن الكريم د. لبيب السعيد ط 2 سنة 1978 دار المعارف بيروت.
- * جمع الفوائد من جامع الأصول وجمع الزوائد، لمحمد بن سليمان الورداني ت 1094 هـ ط عبد الله هاشم اليماني.
- * جواهر البيان في تناسب سور القرآن للنسخ عبد الله بن الصديق الغماري الحسني، مطبعة محمد عاطف وسيد طه بمصر (دون تاريخ).
- * جواهر القرآن للإمام الغزالي ط ت 505 هـ ط 5 دار الآفاق الجديدة بيروت 1981.
- * حق التلاوة لحسن شيخ عثمان ط 2 سنة 1977 م مؤسسة الرسالة المكتبة السلفية.
- * حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم ت 430 هـ طبع المكتبة السلفية.
- * الحلية السيرة لابن الأبار تحقيق حسين مؤنس القاهرة 1967 هـ.
- * الخصائص الكبرى للسيوطي ط دار الكتب العلمية بيروت توزيع دار الباز مكة المكرمة.
- * درة الحجال في أسماء الرجال لأبي العباس أحمد بن محمد المكناسي (ابن القاضي). ت 1025 هـ تحقيق محمد الأحمد أبو النور، 1970 م.
- * الدرر المنثور في التفسير بالمأثور للحافظ جلال الدين السيوطي ت 911 نسخة مصورة عن طبعة طهران.

- * الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني ط دار الجيل.
- * الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة للسيوطي تحقيق الشيخ خليل محيى الدين الميس ط 1 دار العربية 1984 م.
- * الديباج المذهب لابن فرحون اليعمرى ت 799 هـ تحقيق د محمد الأحمدى أبو النور، ط مكتبة دار التراث، القاهرة.
- * الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لابن عبد الملك المراكشي ت 703 هـ تحقيق د. محمد بن شريفة، واحسان عباس. ط دار الثقافة بيروت.
- * الرسول صلى الله عليه وسلم للشيخ سعيد حوى ط 3 سنة 1973.
- * الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة لمكي بن أبي طالب القيسي ت 437 هـ، د أحمد حسن فرحات، ط دار المعارف للطباعة دمشق 1973 م.
- * روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لأبي الفضل محمد الألوسي ت 1270 هـ ط إدارة الطباعة المنيرية بمصر.
- * سنن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني ت 275 هـ ضبط وتعليق محيى الدين عبد الحميد نشر دار احياء السنة النبوية.
- * سنن ابن ماجة القزويني ت 275 هـ ط دار احياء الكتب العربية 1372 هـ ضبط محمد فؤاد عبد الباقي.
- * سنن الدارمي — عبد الله بن عبد الرحمن ت 252 هـ نشر عبد الله هاشم الجاني.
- * سيرة ابن هشام ت 218 هـ ضبط وتعليق محمد يحيى الدين عبد الحميد ط: دار الفكر.
- * شجرة النور الزكية لمحمد بن محمد بن مخلوق ط مصورة عن الطبعة الأولى المطبعة السلفية بمصر 1349 هـ.
- * شذرات الذهب في خبر من ذهب لابن العماد الحنبلي ت 1089 هـ ط 1 بدون تاريخ نسخة مصورة بالمكتب التجاري بيروت.
- * الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق أحمد محمد شاكر ط دار التراث العربي بيروت.
- * الشفا للقاضي عياض ت 544 هـ نشر المكتبة التجارية الكبرى وتوزيع دار الفكر.
- * صحيح ابن حبان دار الكتب العلمية بيروت تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة.
- * الصلة لابن بشكوال ط الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966.
- * صلة الصلة لابن الزبير ت 708 هـ القسم الأخير من الكتاب تصحيح وتعليق أ، ليفي برونفسال المطبعة الاقتصادية بالرباط 1938 م.
- * طبقات ابن سعد : نسخة مصورة، ط دار صادر بيروت.
- * طبقات الحفاظ للسيوطي، تحقيق علي محمد عمر ط 1 سنة 1973 مطبعة الاستقلال الكبرى، نشر مكتبة وهبة.

- * طبقات المالكية (مجهول المؤلف) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 3928 د.
- * طبقات المفسرين لشمس الدين محمد بن علي الداودي ت 945 تحقيق علي محمد عمر ط 1 مطبعة الاستقلال الكبرى، نشر مكتبة وهبة.
- * العبر وديوان المبتدأ والخير في أيام العجم والعرب والبربر ومن ذوي الشأن الأكبر، لعبد الرحمن بن خلدون، ط بيروت 1958 — 1959.
- * عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس لمحمد عبد الله عنان ط القاهرة 1964.
- * عمل اليوم والليلة للإمام النسائي ت 303 تحقيق د. فاروق حمادة، ط 1 مطبعة النجاح بالدار البيضاء.
- * عيون الأثر في فنون المغازي والسير لابن سيد الناس ت 747 هـ نشر دار المعرفة بيروت.
- * غاية النهاية في طبقات القراء لابن الأثير الجزري ت 833 هـ عني بنشره ج برجستراسر، ط دار الكتب العلمية — بيروت، 1980.
- * فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ أحمد بن حجر العسقلاني ت 852 ط المطبعة السلفية.
- * الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ت 456 هـ ط 1 بمصر.
- * فضائل القرآن لابن كثير ت 774 هـ ط 4 سنة 1979 دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- * فضائل القرآن للنسائي ت 303 هـ تحقيق د. فاروق حمادة ط سنة 1980 نشر دار الثقافة بالدار البيضاء.
- * الفهرست لابن النديم ت 385 هـ ط المطبعة الرحمانية بمصر (بدون تاريخ).
- * فهرسة الشيخ عبد الرحمن بن ادريس المنجرة المسماة «الاسناد الشفيع يوم التناد» مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 2285.
- * فهرس الفهارس والاثبات لعبد الحي الكتاني، ط المطبعة الجديدة بالطالعة 1946 هـ فاس.
- * في ظلال القرآن لسيد قطب، ط 7 سنة 1971، دار احياء التراث العربي، بيروت.
- * القرآن نزوله تدوينه ترجمته تأثيره لبلاشير ترجمة رضا سعادة ط 1 سنة 1974، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- * الكشف للزمخشري
- * كشف الاستار عن زوائد البزار لنور الدين الهيثمي ط 1 تحقيق الشيخ الأعظمي.
- * كشف الظنون لحاجي خليفة مصورة عن ط 1 منشورات مكتبة المثني بغداد.
- * لسان العرب لابن منظور، اعداد وتصنيف يوسف خياط ونديم مرعشلي ط.
- * العلم د. بشير التركي ط 1 سنة 1979 مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل.
- * مباحث في علوم القرآن، د صبحي الصالح ط 10 سنة 1977 دار العلم للملايين، بيروت.
- * مجلة الأمة عدد 32 شعبان 1403 هـ.

المحرر الوجيز لابن عطية ت 599 هـ ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب.
مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليلي مقارنة، د محمد عبد الله دراز ط، دار القلم، دار القرآن
الكريم، الكويت.

مدخل إلى علوم القرآن والتفسير د. فاروق حمادة ط 1 سنة 1979 مكتبة المعارف، الرباط.
المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا (تاريخ قضاة الأندلس) لأبي الحسن النباهي ولد سنة 713
هـ نشر المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم ت 405 هـ نسخة مصورة بدار المعرفة، بيروت.
مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ت 241 هـ ط 1 بمصر نسخة مصورة عنها، نشر المكتب
الإسلامي ودار صادر بيروت.

المصاحف لابن أبي داود السجستاني ت 316 هـ، المطبعة الرحمانية القاهرة 1355 هـ
مصادر السيرة النبوية د. فاروق حمادة، ط 1 دار الثقافة، الدار البيضاء.
المصباح المنير لشهاب الدين الفيومي ط، مصطفى باي الحلبي — مصر.
مصنف ابن أبي شيبة ت 235 هـ تحقيق عبد الخالق الأفغاني ط 2 سنة 1979، الهند.
مصنف عبد الرزاق بن همام الصنعاني ت 211 هـ ط 1 سنة 1970 تحقيق الشيخ حبيب الرحمن
الأعظمي.

معترك الاقران في اعجاز القرآن للإمام السيوطي تحقيق محمد علي البجاوي ط دار الفكر العربي.
مع الرعييل الأول لمحّب الدين ابن الخطيب ط 1، مصر.
المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي ت 647 هـ تحقيق محمد سعيد العريان، ط
القاهرة 1960.

المعجم في اصحاب الصدي لابن البار القضاعي ت 658 ط دار الكتاب العربي، القاهرة 1967.
معجم البلدان لياقوت الحموي ط، دار صادر بيروت 1957.
المعجم الكبير للطبراني ت 360 هـ ط 1 تحقيق الشيخ حمدي السلفي.
معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، ط دار احياء التراث العربي — بيروت.
معرفة القراء الكبار للذهبي ط 1 تحقيق محمد سيد جاد الحق.

المغرب في حلي المغرب لابن سعيد الاندلسي ت 685 تحقيق شوقي ضيف ط القاهرة 1964.
المغني في الضعفاء للإمام الذهبي ت 748 تحقيق د. نور الدين عتر ط 1.
المقاصد الحسنة للسخاوي شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت 902 هـ نشر مكتبة الخانجي
1375 هـ.

مكتبة جلال الدين السيوطي، احمد الشرقاوي اقبال ط دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط،
1977.

ملاك التأويل القاطع بذوي الاحاد والتعطيل لابن الزبير ت 708 هـ ط 1 سنة 1988 دار الغرب
الإسلامي، بيروت.

- * الملل والنحل للشهر ستاني ت 548 هـ ط 1 المطبعة الادبية 1317 هـ.
- * مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، ط دار الفكر (دون تاريخ).
- * من روائع القرآن تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، د. محمد سعيد رمضان البوطي ط 5 سنة 1977، مكتبة الفارابي.
- * الموسوعة المغربية للاعلام البشرية والحضارية للاستاذ عبد العزيز بن عبد الله ط، وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، المغرب 1975.
- * الموطأ للإمام مالك ت 179 هـ ط دار احياء الكتب العربية، مصر.
- * النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم د. محمد عبد الله دراز ط 2 سنة 1970 دار القلم، الكويت.
- * نبوة محمد في الكتاب المقدس د أحمد حجازي السقا ط 1 سنة 1978 دار الفكر العربي.
- * نظم الدرر في تناسب الآي والسورة للبقاعي ابراهيم بن عمر بن حسن الرباط ت 885 هـ، مخطوط الخزانة العامة رقم 181 ق ونسخة الخزانة الملكية رقم 2695 — الرباط.
- * النشر في القراءات العشر لابن الجزري ت 833 هـ ط المكتبة التجارية الكبرى تصحيح محمد علي الضباع.
- * نظم المتناثر في الحديث المتواتر للسيوطي تحقيق الشيخ خليل محيي الدين الميس ط 1 سنة 1984 ط دار العربية.
- * نظم المتناثر في الحديث المتواتر للسيد محمد بن جعفر الكتاني نشر دار الكتب العلمية بيروت 1980 مصورا عن ط فاس 1328 هـ.
- * نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب لابي العباس احمد المقرئ ت 1041 هـ تحقيق د. احسان عباس، بيروت 1968.
- * نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين لمحمد عبد الله عنان ط القاهرة 1966.
- * النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ت 606 هـ تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، نشر المكتبة الاسلامية.
- * نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار للإمام محمد بن علي الشوكاني ت 1250 هـ، ط مصطفى البابي الحلبي بمصر (دون تاريخ).
- * هدية العارفين لاسماعيل باشا البغدادي، نسخة مصورة عن طبعة اسطانبول 1951 م منشورات مكتبة المثنى، بغداد.
- * الوافي بالوفيات لصلاح الدين بن أبيك الصفدي ت 764 هـ.
- * وفيات الاعيان لابن خلكان احمد القاضي ت 681 هـ ط 1 بدون تاريخ.

رقم الإيداع القانوني 1990/251

مطلبة فحالة

زنقة ابن زيدون - المحمدية (المغرب)
الهاتف: 32.46.45 (03) الفاكس: 32.46.43 (03)

